محمود شلبي

حياة عمر

«لن تلقى مثل عمر ، ولن تلقى مثل عمر ،
ولن تلقى مثل عمر»

مكتبة القاهرة
لصاحبها : علي يوسف سليمان
شارع الصنادقية . بميدان الأزهر بمصر

مطبعة
محمد عاطف ورشيد طه وشركاهما
شارع كلوت بك حارة الوطن رقم ٤ ت ٩٠٤٦٩٤

الاهداء

اللهمّ منكَ وإليك

محمود شلبي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ياويل من يكتب عن عمر ! . . ياويله !

مايكاد يدخل إليه . . . حتى يجد نفسه يسبح فى بحار من نور ، لايدرى أولها من آخرها !

تدخل إليه فى إسلامه . . . فتجد نفسك أمام عملاق ، يدخل عاصفا من الظلام إلى النور ! .

أو تدخل إليه فى صحبته لرسول الله ، فتجد رجلا عجيبا ، يقف دائما إلى جوار رسول الله سيفا بتارا ، على استعداد . . . دائما . . . أن يضرب أعناق المنافقين والأعداء ! .

أو تدخل إليه وزيرا لأبى بكر ، فتجد رجلا غلابا ، حتى تحار أهو كان الخليفة أم أبا بكر ؟ ! .

أو تدخل إليه أميراً للمؤمنين ، فتقع فى حيرة شديدة ... من أى أطراف العظمة من الرجل تستطيع أن تبدأ ؟ .

أتبدأ من فتوحاته ؟ ... ومن ذا يستطيع أن يتابع عملاق الحق ، فى انطلاقاته فوق الكرة الأرضية ، يجندل عمالقة الباطل ، ويديل إمبراطورياته ؟ .

أتعرض قضاياه ، وأحكامه ، وفتاواه؟ ... إن ماقضى به يضيق عنه أكبر كتاب . وما حكم فيه يحار فى إدراك اسراره أعظم المفكرين . وما أفتى فيه يقف أمامه كبار العلماء عاجزين ! .

أتتكلم عن موافقاته للوحى ، أم تتكلم عن أولياته فى نظم الحكم والسياسة . أم تتحدث عن عبقرياته فى كل صغيرة وكبيرة ؟ .

أم تعرض على الناس كراماته ، أم تعرض عليهم زهده ، أم تؤدى إليهم الهاماته ؟ .

كل واحدة منها تحتاج كتابا مستقلا . . . بل أكثر من كتاب ! .

ذلك أن الرجل انفسحت شخصيته ، وانساحت فى آفاق العظمة حتى عز على الباحثين الإمساك بطرف ردائه !

فلماذا إذا نكتب عن عمر ؟

لأنه لابد لنا أن نكتب عن عمر ؟

وكيف يمكن لنا أن نستمر فى الحياة دون أن نقرأ عن عمر ؟

فكتبنا عن عمر ... لابما هو أهله ، ولكن بما نحن أهله ! .

بما نستطيع أن نفهم عنه ... فى حدود طاقاتنا البشرية المحدودة ..

ورب قائل يقول : وهل كان عمر إلا بشراً ؟

نعم ... كان بشراً . . . ولكن الله آتاه . مالم يؤت أحدا من الناس ... وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ! .

وهانحن نتشبث به كما يتشبث الأطفال بيدى أبيهم ... لعله يلتفت إليهم ويرضيهم ؟ .

فلعلك ياعمر تلتفت إلينا ، بعض التفاتة ، فندرك منك ماينفعنافى هذه الحياة الدنيا ... وفى الآخرة ؟

ولعلى حين أقدم للناس حياتك قد قدمت إليهم حياة خير إنسان بعد رسول الله وصاحبه ...

لعلهم يجدون فيها سكينة لاضطرابهم ، وراحة لقلقهم ، ونورا لظلامهم ، ورشدا لضلالهم .

والآن . . . ادع القارىء . . . يدخل إلى تلك الجنة ... جنة عمر ؟

القاهرة فى ١٣٨٨ هـ
١٩٦٨ م

محمود شلبى

ماذا قالوا عنه ؟

ماذا قال رسول الله ؟

عن ابن عمر قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أبى بكر وعمر فقال : هكذا نبعث .

عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: أرحم أمتى بأمتى أبو بكر ، وأشدهم فى دين الله عمر .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى جعل الحق على لسان عمر وقلبه .

ماذا قال أبو بكر ؟

« ماعلى ظهر الأرض ، رجلٌ أحب إلىَّ من عمر » .

ماذا قال عثمان ؟

« لن تلقى مثل عمر ، ولن تلقى مثل عمر ، ولن تلقى مثل عمر »

ماذا قال على ؟

« خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ، وخير الناس بعد أبى بكر عمر » .

ماذا قال أبو عبيدة ؟

« ماأحب أن لى ماتطلع عليه الشمس أو تغرب ، وأن أبقى بعد عمر » .

ماذا قال عبدالله بن عباس ؟

« كان والله حليف الإسلام . ومأوى الأيتام . ومحل الإيمان . ومنتهى الإحسان . ونادى الضعفاء . ومَعْقِل الخلفاء » .

ماذا قال عبدالله بن مسعود ؟

« لو أعلم عمر كان يحب كلباً لأحببته» .

ماذا قال العباس ؟

« مارأيت أحداً من الناس كان أفضل من عمر ، إن ليله صلاة ، وإن نهاره صيام ، وفى حاجات الناس » .

ماذا قال حذيفة ؟

« والله لاأعرف رجلا لاتأخذه فى الله لومة لائم إلا عمر » .

ماذا قال عمرو بن العاص ؟

« لله در عمر بن حَنْتَمة ، أى امرىء كان ؟! »

ماذا قال عبد الله بن عمر ؟

« مارأيت أحدا قط بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من حين قبض ، أجد ، ولا أجود من عمر » .

ماذا قال معاوية ؟

« أما أبوبكر فلم يُرد الدنيا ولم ترده ، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها ، وأما نحن فتمرغنا فيها ظهراً لبطن » .

ماذا قال عبدالله بن سلام ؟

« نعم أخو الإسلام كنت ياعمر ، جواداً بالحق ، بخيلا بالباطل » .

ماذا قالت عائشة ؟

« كان والله أحوذيا . نسيج وحده »

ماذا قال الحسن البصرى ؟

« إذا أردتم أن يطيب المجلس فأفيضوا فى ذكر عمر »

* * *

وقالوا . . . وما أكثر ماقالوا . . . ولسوف تبقى البشرية تقول فى عمر ، لأن الدنيا لم تشهد مثل عمر .

ماذا قبل إسلامه؟

أبوه

هو عمر بن الخطاب ، بن نُفَيل ، بن عبد العُزى ، بن رياح ، بن عبدالله ، بن قُرْط بن رَزاح ، بن عديّ ، بن كعب ، بن لؤيّ ، بن غالب ، بن فِهر ، بن مالك ، بن النضر ، بن كنانة ، بن خُزيمة ، بن مدركة ، بن الياس ، بن مضر ، بن نزار ، بن معَدّ ، بن عدنان .

أمه

وأمه حَنْتَمة ، بنت هاشم ، بن المغيرة ، بن عبد الله ، بن عمر ، بن مخزوم .

مولده

ولد قبل الفجّار الأعظم بأربع سنين . وكان الفجار قبلَ البعثة بست وعشرين سنة . وكانت سن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع عشرة . فولد عمر قبل البعثة بثلاثين سنة .

صفاته

كان رجلا مشرباً بحمرة ، حسن الخدين والأنف والعينين .
غليظ القدمين ، والكفين ، مجدول اللحم .
وكان جلْداً ، شديد الخلق ، ضخم الجثة .
وكان يمشي فيُشرف على الناس كأنه راكب على دابة .
ما يكون مع قوم قطّ إلا رُئى كأنه فوقهم !

شخصيته

كان قويا ، شديدا ، لا واهناً ، ولا ضعيفاً .
إذا مشى أسرع ، ووطىء الأرض وطئاً شديدا .
وكان جَهْورى الصوت .
وكان يصيح الصيحة فيكاد من يسمعها يَصعق ويغشى عليه !

رأت الشفاء إبنة عبد الله فتيانا يقصدون فى المشى ، ويتـكلمون رويدا . فقالت : ما هذا ؟

قالوا : نُسَّاك .

قالت : كان والله عمر إذا تـكلم أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع ، وهو الناسك حقا .

فارس !

وكان إذا هم بركوب فرسه ، أخذ بأذن الفرس ، وأخذ أذنه بيده الأخرى ، ثم نزا على متن الفرس ، فـكأنما خلق على ظهره .

ثم عدّاه عدواً شديداً .

قال أبو مسعود الأنصارى : كنا جلوسا فى نادينا ، فأقبل رجل على فرسه يركضه ، يجرى حتى كاد يوطئنا ، فارتعنا كذلك ، وقمنا ، فإذا عمر بن الخطاب ! قلنا : فمن بعدك ياأمير المؤمنين ؟

قال : وماأنـكرتم ؟ وجدت خفة . فأخذت فرساً ، فركضته ؟ !

وهذا هو الصنف من الرجال الذى يحبه الله ... إن الله يريد فرسانا . يحملون هذه الفـكرة ، المسماة بالإسلام ، على أكتافهم ، ويطيرون بها فى الآفاق .

ولا يصلح لحمل رسالة الإسلام إلا من كان هكذا !

أصلع !

وكان أروح . إذا مشى تباعدت صدور قدميه ، وتدانى عقباه .

وكان أعسر يسر (أى يعمل بيديه جميعا) .

ويخرج الصاد من أى شدقيه شاء .

وكان أصلع شديد الصلع .

أجلح ، قد انحسر الشعر عن جانبى رأسه ، خفيف العارضين .

رشيق !

وكان يخضب بالحناء ، والـكَتَم ، فيصفّر لحيته . ويرّجل رأسه بالحناء .
وكان طويل السَّبَلة (طرف الشارب) فى أطراف سَبَلَته صُهْبَة .

يفتل شاربه !

وكان إذا حزبه أمر ، أو عراه غضب ، فتل طرف شاربه : أوأخذ بها إلى فمه ونفخ !
قال عبدالله بن الزبير ، أتى عمرَ بن الخطاب رجلٌ من أهل البادية فقال : يا أمير المؤمنين ، بلادنا قاتلنا عليها فى الجاهلية ، وأسلمنا عليها فى الإسلام ، ثم تحمى علينا ؟ !
فجعل عمر ينفخ ويفتل شاربه ! .

سفير ؟

ولقد عاش عمر خمسا وستين سنة ، أمضى منها ثلاثين سنة فى الجاهلية .
وكان موكلا بالسفارة لقريش . فـكانوا إذا وقعت حرب بينهم وبين غيرهم بعثوه سفيرا ، للمفاوضة عنهم . وإن نافرهم منافر ، أو فاخرهم مفاخر ، رضوا به مفاخرا ومنافرا .

ابن الشعب

ولم يـكن أبوه « الخطاب » من وجوه قريش ، ولا من رؤسائها ، وكان رجلا فظا غليظا ، يكلفه رعى إبله ، فـكان يتعبه إذا عمل ، ويضربه إذا قصر !
وهكذا نشأ عمر نشأة شعبية، ذاق مرارة الحياة ، وشظف العيش ، واكتوى بنارها .
ومن هنا اكتملت للرجل أسباب العبقرية ...

أسرته

تزوج عمر فى الجاهلية ثلاث نسوة .
قريبة بنت أبى أمية المخزومية ـ وهى أخت أم سلمة (أم المؤمنين) .

والثانية : أم كلثوم بنت عمرو بن جردل الخزاعية . فلما كانت الحديبية ، ونزل قوله تعالى : (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) طلقهما .

والثالثة : زينب بنت مظعون الجمحى ، وقد أسلمت ، وكانت من المهاجرات ، وهى أم عبد الله وحفصة وعبد الرحمن الأكبر .

زوجاته فى الإسلام

أم كلثوم بنت على :

أمها فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وُلدت فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم .

جميلة :

هى جميلة بنت ثابت ... كان اسمها عاصية . فلما أسلمت سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم جميلة .

تزوجها عمر سنة سبع فولدت له عاصما .

وكان عمر يحبها وتحبه . فكان إذا خرج إلى الصلاة مشت معه من فراشها إلى الباب ، فإذا أراد الخروج قبلته ، ثم مضى ورجعت إلى فراشها .

أم حكيم بنت الحارث بن هشام :

كانت زوج عكرمة بن أبى جهل .

تزوجها عمر فى الإسلام فولدت له فاطمة .

عاتكة بنت زيد :

أخت سعيد بن زيد ، وهى إبنة عم عمر . كانت من المهاجرات ، وكانت من الفصاحة والجمال على جانب عظيم ، وأعطيت شطر الحسن .

سبيعة :

بنت الحارث ، أول امرأة أسلمت بعد صلح الحديبية فلما نزلت آية الإمتحان ، امتحنها النبى صلى الله عليه وسلم ، ورد على زوجها مهر مثلها ، وتزوجها عمر .

وكانت له إماء ، (أمهات أولاد) ذكروا منهن فكيهة . ولُهَيّة .
وخطب امرأتين فما قبلتا منه ، لخشونة عيشه وشدته على النساء !

أولاده

كانوا تسعة من الذكور ، وخمسا من البنات .

شبابه

ولقد عاش – قبل إسلامه – شبابه ... كما كان يعيش أقرانه فى الجاهلية ... متاع ولهو .
كان شابا ضخم الجثة ، فارع الطول ، يتفوق على أقرانه فى علو هامته وقوة بدنه .
وكان فارسا ، يحب ركوب الخيل . ويشاهد دائما على صهوة جواده ...
وكان مصارعا ، يصرع أصحابه إذا تعرضوا له ، ودعوه إلى المصارعة ...
وكان رياضيا يحب فنون الرياضة كلها حسبما كانت فى زمانه .
وكان فوق هذا وذاك تاجراً ، نشطا ، بارعا فى فنون التجارة . إلا أنه كان يلقى بنشاطه فى التنقل بين سادات الممالك ، يتعلم منهم ، ويتلقى عنهم ...
وكان قارئا ، يقرأ الكتاب ، فكان بذلك ممتازا فى عقليته ، واسع الإطلاع على معارف الغير . . .
وكان وهو فى نحو العشرين من عمره شابا بكل مافى معانى الشباب من قوة واندفاع .. فروسية ، لهو ، استماع إلى الأشعار ، رحلات ، قراءات ...
ومن هنا كان عمر قبل إسلامه ، خبيرا بالحياة فى شرورها ، فلما جاءت ساعة الصفر من حياته ، وانقلب من اليسار إلى اليمين ، دخل إلى الإسلام دخول الخبير بألاعيب الأشرار ، فاكتملت بذلك شخصيته ، وتوازنت عبقريته .

صاحب رسول الله...

ساعة الصفر ؟ !

اجتمعت قريش ... فقالوا : أى رجل يقتل محمدا ؟

فقال عمر بن الخطاب : أنا لها .

فقالوا : أنت لها ياعمر .

فخرج فى يوم شديد الحر ، متوشحا سيفه ، يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونفرا من أصحابه ، اجتمعوا فى دار الأرقم ، فى أسفل الصفا .

فلقيه نُعَيم بن النَّحام ، فقال : أين تريد ياعمر ؟

قال : أريد هذا الصابىء ، الذى فرق أمر قريش ، وسفه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها ، فاقتله ! .

قال له نعيم : لبئس الممشى مشيت ياعمر، ولقد والله غرتك نفسك من نفسك ... أترى بنى عبدمناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا ؟ !

فتحاورا حتى علت أصواتهما ، فقال عمر : إنى لأظنك قد صبوت ، ولو أعلم ذلك لبدأت بك !

فلما رأى النحام أنه غير منته قال : فإنى أخبرك أن أهلك ، وأهل خَتَنك قد أسلموا وتركوك وما أنت عليه من ضلالتك ! .

قال عمر : وأيهم ؟.

قال : ختنك ، وابن عمك ، وأختك .

فلما سمع عمر أن أخته وزوجها قد أسلما احتمله الغضب ، فذهب إليهم ، فلما قرع الباب قالوا : من هذا ؟

قال : ابن الخطاب ,

وكانوا يقرؤون كتابا فى أيديهم ، فلما سمعوا حسّ عمر قاموا مبادرين فاختبؤوا ، ونسوا الصحيفة على حالها .

فلما دخل ورأته أخته عرفت الشر فى وجهه ، فخبأت الصحيفة تحت فخذها ..

قال عمر : ماهذه الهَيْنَمة التى سمعتها عندكم ؟ .

وكانوا يقرءون (طه) فقالا : ماعدا حديثا تحدثناه بيننا .

قال : فلعلكما قد صبوتما ؟ .

فقال له ختنه : أرأيت ياعمر إن كان الحق فى غير دينك ؟

فوثب عمر على خَتَنه سعيد ، وبطش بلحيته ، فتواثبا ، وكان عمر قويا شديداً ، فضرب بسعيد الأرض ، ووطئه وطأ ، ثم جلس على صدره .

فجاءت أخته ، فدفعته عن زوجها فنفحها نفحة بيده ، فدمى وجهها !

فقالت وهى غضبى : ياعدوالله ، أتضربنى على أن أوحد الله ؟ !

قال : نعم .

قالت : ماكنت فاعلا فافعل . أشهد أن لا إله إلاالله ، وأن محمداً رسول الله . لقد أسلمنا على رغم أنفك ! .

فلما سمعها عمر ندم وقام عن صدر زوجها ، فقعد ، ثم قال: أعطونى هذه الصحيفة التى عندكم فأقرأها .

وكان عمر يقرأ الكتاب .

فقالت أخته : لا أفعل .

قال : ويحك ، قد وقع فى قلبى ماقلت . فأعطنيها أنظر إليها ، وأعطيك من المواثيق أن لا أخونك حتى تحرزيها حيث شئت .

قالت : إنك رجْس و (لا يَمَسُّه إلا المطهرون) فقم ، فاغتسل أو توضأ .

فخرج عمر ليغتسل ..

وخرج إليها خبّاب فقال : أتدفعين كتاب الله إلى عمر وهو كافر ؟ .

قالت : نعم .. إنى أرجو أن يهدى الله أخى .

فدخل خبّاب البيت .. وجاء عمر .. فدفعت إليه الصحيفة ، وكان فيها (طه) وسورٌ أخرى ، فرأى فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم » فلما مر بالرحمن الرحيم ذعر . فألقى الصحيفة من يده ، ثم رجع إلى نفسه فأخذها فإذا فيها :

« سبّحَ لله ما فى السماواتِ والأرض وهو العزيزُ الحكيمُ . له مُلك السماوات والأرض يُحيى ويُميتُ وهو على كل شىء قديرٌ . هو الأولُ والآخرُ والظاهرُ والباطنُ وهو بكل شىء عليمٌ . هو الذى خلق السماواتِ والأرضَ فى ستةِ أيام ثم استوى على العرش يعلمُ مايلجُ فى الأرض ومايخرجُ منها وماينزلُ من السماء وما يعرُجُ فيها وهو معكم أينما كنتمْ والله بما تعملون بصيرٌ . له ملك السماوات والأرض وإلى الله تُرجَعُ الأمور . يُولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وهو عليم بذات الصدور . آمنوا بالله ورسوله وأنْفِقوا مما جَعلكم مُستَخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنْفقوا لهم أجرٌ كبيرٌ . ومالكمَ لا تؤمنون بالله والرسول يَدْعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين » .

فجعل .. كلما مر باسم من أسماء الله ذعر .

قالوا : وكان فى الصحيفة أيضا سورة (طه) و (إذا الشمسُ كوِّرَت) .

فيروى أنه قرأ : « طه . ما أنزلنا عليك القرآن لِتَشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العُلى . الرحمنُ على العرش استوى . له مافى السماوات وما فى الأرض ومابينهما وما تحت الثّرى . وإنْ تجْهرْ بالقولِ فإنه يعلمُ السِّرَّ وأخفى . الله لا إله إلا هو له الأسماء الحُسنى » .

فعظمت فى صدره . فقال : من هذا فَرَّت قريش .! ثم قرأ . . .

فلما بلغ إلى قوله تعالى : « إننى أنا اللهُ لاَ إله إلا أنا فاعبُدْنى . وأقم الصلاة لذِكرى . إن الساعة آتيةٌ أكادُ أُخفْيها لتُجزى كلُّ نفسٍ بما تسعى . فلا يصُدَّنك عنها منُ لا يؤمن بها واتَّبعَ هواه فتَرْدى » .

قال : ينبغى لمن يقول هذا أن لا يُعبد معه غيره . . دلونى على محمد .

فلما سمع خباب قول عمر ، خرج من البيت . فقال : أبشر ياعمر . فإنى أرجو أن أن تكون سبقت فيك دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الإثنين : اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك : بأبى جهل بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب .

قال : دلونى على مكان رسول الله .

فلما عرفوا منه الصدق .. قالوا : هو فى أسفل الصفا .

فأخذ عمر سيفه فتوشحه ، ثم عمد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فضرب عليهم الباب .

فلما سمعوا صوته وجلوا . . . وكان حمزة وطلحة على الباب . والنبى صلى الله عليه وسلم داخل يوحى إليه .. ولم يجترىء أحد منهم أن يفتح له ، لما قد علموا من شدته على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأى حمزة وَجَل القوم ، قال : مالكم ؟

قالوا : عمر بن الخطاب !

قال : عمر بن الخطاب . ! ... إفتحوا له . فإن يرد الله به خيراً يُسلم ، وإن يرد غير ذلك يكن قتله علينا هيناً .

ففتحوا له ، وأخذ حمزة ورجل آخر بعضديه حتى أدخلاه على رسول الله صلى الله عليه وسلم . . .

فقال : أرسلوه . . .

فأرسلوه ، فنهض صلى الله عليه وسلم فأخذ بمجامع ثوبه ، وحمائل سيفه ، فنتره نترة ، فما تمالك عمر أن وقع على ركبتيه ، وقد ارتعد من هيبته صلى الله عليه وسلم .

فقال له : ما أنت بمنته ياعمر حتى يُنزل الله بك ما أنزل بالوليد بن المغيرة ! (يعنى الخزى والنكال) .

ثم قال : أسلم يابن الخطاب ، اللهم اهد قلبه .

فقال عمر : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله !

فكبر المسلمون تكبيرة واحدة سمعت فى طرق مكة !

وكانت هذه هى ساعة الصفر ، فى حياة عمر . . واللحظة الخالدة من شخصيته . لحظة تم فيها الانقلاب ، ونفذت فيها الثورة . .

انتقل بعدها من اليسار إلى اليمين . . من النار إلى الجنة . .

ومن يومها .. وعمر يتمدد فى التاريخ ، موجات من نور ، تضىء للعالمين .

الفاروق ؟

وقال عمر : يارسول الله ، ألسنا على الحق إن متنا ، وإن حيينا ؟

قال صلى الله عليه وسلم : بلى والذى نفسى بيده ، إنكم على الحق، إن متم وإن حييتم .

قال : ففيم الاختفاء ؟ .. والذى بعثك بالحق . لتخرجن ..

وأذن رسول الله بالاعلان .. وخرج صلى الله عليه وسلم فى صفين .. عمر فى أحدها .. وحمزة فى الآخر .. يثور الغبار من مشيهم .. حتى دخل المسجد !

فنظرت قريش إلى عمر ، وإلى حمزة . فأصابتهم كآبة لم تصبهم قط . وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ الفاروق !

لقد كانت مظاهرة صامتة ... أريد بها إعلان الحق ، رغم أنف أعدائه !.

يهاجر علانية !

واشتد إيذاء الكفار للمسلمين . فأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه فى الهجرة إلى المدينة فى استخفاء .

فكانوا يخرجون لذلك أفرادا وجماعات . مستخفين عن أعين الكافرين . .

إلا عمر ! فإنه كان أسلوبا وحده فى هجرته ! .

عن على : ماعلمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفيا إلا عمر بن الخطاب ، فإنه لما هم بالهجرة ، تقلد سيفه ، وتنكب قوسه ، وانتضى فى يده أسهماً ، واختصر عنزته

(عصا كالرمح الصغير) ومضى قِبل الكعبة ... والملأمن قريش بفنائها ، فطاف فى البيت سبعا متمكنا ، ثم أتى المقام فصلى ، ثم وقف على الحَلق واحدة واحدة ... فقال لهم : شاهت الوجوه ، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس ، من أراد أن يُثكل أمه ، أو يوتم ولده أو يُرمل زوجته ، فليلقنى وراء هذا الوادى !.

قال على : فما اتبعه إلا قوم من المستضعفين ، علمهم ما أرشدهم ، ثم مضى لوجهه !.

ما أجمل هذا وأعظمه !...

لقد كان عمر قويا ، حتى فى هجرته ، وقف يتحدى مكة كلها ، فخنست أمامه ، وتراجعت أمام جبروته !.

يقتل خاله !

ومن يومها ... يوم أن هبط عمر المدينة ، واستقر المسلمون فيها ، وأسست الدولة الجديدة فى ربوعها ... أخذ عمر مكانه الطبيعى الممتاز ، إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فهو الرجل الثانى بعد أبى بكر ، فى شئون المسلمين . وكان صارما فى الحق ، لا يلين مع الهوى ، ولا يلين مع أعداء الحق .

قال عمر لسعيد بن العاص (وقد مر به يوما) : إنى أراك كأن فى نفسك شيئا ، أراك تظن أنى قتلت أباك فى بدر ، إنى لو قتلته لم أعتذر إليك من قتله ، ولكنى قتلت خالى العاص بن هشام بن المغيرة ، وأما أبوك فقد مررت به وهو يبحث بحث الثور بروقه (قرنه) فحِدْت عنه ، وقصد له ابن عمه علىّ فقتله .

ماهذا ؟ ... هذه عظمة الحق تتبدى فى ابن الخطاب ، فيندفع إلى خاله فى معركة بدر ، ويقتله ... غير آسف ، ولا راهب ، لأنه عدو الله !.

فما معنى هذا ؟.. معناه أن الحق فوق العواطف . وأن نصرة الحق فوق الناس جميعا.

فلو اقتضى نصر الحق إبادة الآلاف فلتذهب تلك الآلاف فورا ، لأنه لا معنى للحياة إن لم ينتصر فيها الحق ويعلو .

كانت تلك هى فلسفة عمر وهو يحتز عنق خاله، لايبالى بوشيجة الدم ، ولا بعاطفة القربى.

وإن هذا لهو العلو على العواطف ، والعلو على الهوى .

فهل من درس تتلقاه البشرية عن عمر ، حين فعل فعلته هذه ؟... نعم ... إنها تتعلم أن القانون يجب أن يقوم بين الناس ناصرا للحقائق . لا ناصرا للأهواء .

وأن الساسة حين يسوسون يجب أن يتجردوا من العلائق والصلات ، وينظروا إلى المصلحة العليا ، مصلحة الأوطان .

وأنه لا يستطيع أحد أن يحقق هذا من نفسه ، إلا إذا آمن بالله ، وانتظم على أسلوب رسول الله ، واقتفى أثر أصحابه وفى مقدمتهم ابن الخطاب .

تدمير رءوس الباطل

قال عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر : يارسول الله ، دعنى أنتزع ثَنِيَّتَىْ سهيل بن عمرو . يدلع لسانه . فلا يقوم عليك خطيبا فى موطن أبدا . فقال رسول الله : لا أمثل به ، فيمثل الله بى ، وإن كنت نبيا — إنه عسى أن يقوم مقاما لا تذمه —

فلما توفى رسول الله ، هم أهل مكة بالرجوع ، عن الإسلام ، وأرادوا ذلك حتى خافهم عَتَّاب بن أسيد (والى مكة) فتوارى . فقام سهيل بن عمر ، فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة ، فمن رابنا ضربنا عنقه . فتراجع الناس . وكفوا عما هموا به . وظهر عتاب .

فكان هذا المقام الذى أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فهل لهذا الرأى من عمر من حكمة ؟...

إنه رأى رآه عمر . وعرضه على الرسول . ولكن الرسول كان أعلم من عمر بسياسة الرجال . فأبى أن ينزع من أسنان سهيل ... ودار الزمان . ووقف سهيل موقفه الحاسم بين أهل مكة . فاستبانت بذلك حكمة رسول الله ، وعلم عمر مالم يك يعلم ... وأين لعمر مالرسول الله من علم محيط ؟ .

إنه يجتهد رأيه ... ويرى التنكيل بأئمة الإجرام . لعلهم يخافون ويرجعون .
فهل من الحكمة أن يكون الحاكم عنيفا ، ذابطش بأعداء الحق دائما ؟ ..

الله يرى رأى عمر ؟!

قال عمر : لما كان يوم بدر ، التقوا ، فهزم الله المشركين ، فقتل منهم سبعون رجلا ، وأسر سبعون رجلا .

فلما كان يومئذ شاور رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعليا وعمر .

فقال أبوبكر : يانبى الله ، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان . فإنى أرى أن تأخذ منهم فدية . فيكون ماأخذنا منهم قوة ، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضدا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماترى يا ابن الخطاب ؟

قلت : لاوالله . ما أرى الذى رأى أبوبكر ، ولكن أرى أن تمكننى من فلان فأضرب عنقه ، وتمكن حمزة من أخ له (أى العباس) فيضرب عنقه ، وتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه ، حتى يُعلم أن ليس فى قلوبنا هوادة للكفار . هؤلاء صناديدهم ، وقادتهم ، وأئمتهم ! .

فهوىَ رسول الله ما قال أبوبكر ولم يهوَ ما قلت .

فسكت رسول الله فلم يجبهم . ثم دخل . فقال ناس : يأخذ بقول أبى بكر . وقال ناس : يأخذ بقول عمر .

ثم خرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله عز وجل ليُلين قلوب رجال فيه ، حتى تكون ألين من اللين . وإن الله ليشدّد قلوب رجال فيه ، حتى تكون أشدّ من الحجارة . وإن مثلك ياأبابكر مثل إبراهيم قال : (مَنْ تبعنى فإنه منى ، ومن عصانى فإنك غفور رحيم) . ومثلك ياأبا بكر مثل عيسى ، قال : (إن تُعذّبهم فإنهم عبادُك ، وإن تغفر لهمْ فإنك أنت العزيز الحكيم) . ومثلك ياعمر مثل نوح قال : (ربِّ لا تذَرْ

على الأرض من الكافرين دَيّارا) ومثلك كمثل موسى ، قال : (ربّنا اطمِسْ على أموالهم واشدُد على قلوبهم فلا يُؤمنوا حتى يَرَوُا العذاب الأليمَ) .

ثم قال رسول الله : أنتم اليوم عالة ، فلا يُفلتَنّ منهم أحد ، إلا بفداء ، أو ضرب عنق ... الخ .

قال عمر : فلما أن كان من الغد ، غدوت إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا هو قاعد ، وأبو بكر ، وإذا هما يبكيان فقلت : يارسول الله أخبرنى ماذا يبكيك أنت وصاحبك ، فإن وجدت بكاء بكيت . وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ؟!

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : الذى عرض علىّ أصحابك من الفداء . لقد عُرض علىّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة (لشجرة قريبة) ، وأنزل الله تعالى فى ذلك : (ما كان لنبىٍّ أن يكونَ له أسْرى حتى يُثخِنَ فى الأرض ، تريدون عَرَضَ الدنيا ، والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتابٌ من الله سَبَقَ لَمَسكمْ فيما أخذْتمْ عذابٌ عظيم) .

ثم أنزل الله بعدُ آية (فإمّا مَنًّا بعدُ وإما فداءً) فذهب كثيرون من الصحابة والتابعين ، وذهب من الأئمة الشافعى ومالك إلى أن الإمام بالخيار ، بين ذلك كله .

ماهذا الشرف الذى نلت يا عمر ؟.

إن ربك ـ جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه ـ يرى رأيك . وينزله وحيا على محمد صلى الله عليه وسلم !!.

إيه ياعمر ... يوم رأيت قتل الأسرى ، ولكن لم يؤخذ برأيك ...

فتركت الأمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم . يختار من الآراء ما يشاء . وبحسبك أنك أشرت بما رأيت ...

ثم ماذا ... ثم أخذ صلى الله عليه وسلم بما شاء ...

ثم ماذا ... ثم جئت من الغد . فأدهشك أن رأيت محمدا صلى الله عليه وسلم . وصاحبه أبابكر ، يبكيان !!...

إن السماء هددت بعذاب عظيم ينزل بالذين أخذوا الفداء لولا كتاب من الله سبق !.

لماذا لأن الله يرى ألا يبقين من الأسرى أحد حيا أبدا . مادامت الدعوة فى مهدها !.

فما معنى هذا ... معناه أن الحق على لسان عمر وقلبه ... ومعناه أن الحق فى معاركه الأولى مع الباطل ، يجب أن يكون شديدا غاية الشدة ..

لأنه إذا تهاون قليلا ، فلربما أطمع ذلك أهل الباطل فيه ، وجاءوا إليه يريدون استئصاله ...

وماذا يكون الحال لو استؤصل الحق ... يغيم وجه السماء ، وتظلم الأرض ظلاما لا فجر بعده !.

فهل لتلك الحادثة من فلسفة ... إن لها لفلسفة عالية ، عميقة غاية العمق ...

إنها تنبه أهل الحق إذا استمكنوا من أعدائهم فى المعركة الأولى بينهم ، أن يأخذوهم بالشدة . . . وإنما مثلهم فى ذلك مثل الشجرة الطيبة نبتت فى أرض مليئة بالنباتات الضارة ، فإنه ينبغى اجتثاث الضار منها ، لإخلاء الأرض للشجرة الطيبة ، لتنمو وتزدهر .

فهل معنى هذا أن الإسلام يرى أن يخوض مع أعدائه سياسة القوة ، التى تدعو إليها فلسفة القوة فى سياستها مع أعدائها ؟ .

كلا ... ليس هذا رأيه ، وإنما هو إزهاق لرءوس الإجرام ، فى إثر المعركة الأولى ، لإشاعة الرعب فى قلوب الجماهير الضالة ، حتى تراجع نفسها ، وتؤوب إلى الحق .

أما فلسفة القوة فإنها ترى تصفية المعسكرات المعادية كلها بلا استثناء ، لتقيم على أشلائها النظام الجديد .

وسواء ابتعدت الفكرتان ، أم افترقتا ... فإن منطق الواقع يحتم على قائد الفكرة الجديدة ، إذا أمكنه الله من أعدائه لأول مرة ، أن يقتل من أئمتهم ، لتستقر الأمور . ويرعب الأتباع .

أما إذا تهاون ، فقد يميل الباطل عليهم ميلة واحدة ، فيقضى عليهم بلا استثناء .

ولكن عمر ، ذلك العملاق . ذهب إلى أبعد من ذلك ... طلب من رسول الله أن يمكنه من فلان ليضرب عنقه بيده ، ويمكن حمزة من أخيه فيضرب عنقه بيده ، ويمكن عليا من أخيه فيضرب عنقه بيده !! .

يريد عمر أن يقتل كل من هؤلاء أخاه . ليقطع كل أمل عند الكافرين فى المهادنة.. وليعلم الجميع أن الحق لايتلاقى أبدا مع الباطل .

إن عمر كان عميقا إلى أبعد الحدود فى رأيه هذا ... فلو أخذ برأيه ، وقتل أسرى بدر عن آخرهم . . . لشاع الرعب فى أهل مكة ، ولما اجترءوا على التجمع مرة أخرى فى معركة أحد .

فأى الدلالات تؤخذ من تلك القضية ؟ .

الدلالة الأولى أن حرية الرأى بلغت أعلى آفاقها فى مجتمع محمد صلى الله عليه وسلم .
هذا أبو بكر يرى رأيا ، وهذا عمر يرى رأيا ، وهذا رسول الله يختار أحدهما ..
ثم هاهو القرآن ينزل برأى يخالف الرأى المأخوذ به ، ويوافق رأى عمر !

والكل رغم هذا كله يلتمس الحقيقة الخالصة ، ويجتهد فى ذلك رأيه ! .

والدلالة الثانية أن عمر يشارك رسول الله وصاحبه مشاعرهما ، يحزن لحزنهما ، ويفرح لفرحهما ، لايؤثر فى ذلك أن رأى رأيا غير آرائهما !

والدلالة الثالثة أن الإسلام قام على الحرية ، وانتهى إلى الحرية ، ولا يعيش إلا فى جو من الحرية .

والدلالة الرابعة أنه قام كذلك على الشورى ، ولو وجد النص الصريح ، فإن الناس ليسوا سواء فى فهم النصوص .

والدلالة الخامسة أن عمر كان يرى أن قتل الأخ أخيه ليس بشىء ، ما دام فى ذلك نصرا للحق وإعزازا !!.

بوليس حربى !

يبدو عمر رائعا ، فى تلك الأقصوصة التى سوف نقصها عليك ، حيث تستبين منها شخصيته فى وضوح .

جلس عُمير بن وهب ، مع صفوان بن أمية فى الحِجْر ، بعد مصاب أهل بدر من قريش بيسير .

وكان عمير بن وهب شيطانا من شياطين قريش ، وممن كان يؤذى رسول الله وأصحابه . ويلقون منه عناء وهو بمكة .

وكان ابنه وهب بن عمير فى أسارى بدر . فذكر أصحاب القليب ومصابهم ، فقال صفوان : والله مالنا فى العيش بعدهم خير .

فقال له عمير : صدقت ، أما والله لولا دين علىّ ليس له عندى قضاء . وعيالٌ أخشى عليهم الضيعة بعدى ، لركبت إلى محمد حتى أقتله ، فإن لى قِبلهم علة ، إبنى أسير فى أيديهم.

فاغتنمها صفوان وقال : على دينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بقوا ، لا يسعنى شىء ويعجز عنهم .

قال له عمير : فاكتم شأنى وشأنك .

قال : أفعل .

ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له وسُم ، ثم انطلق حتى قدم إلى المدينة .

فبينا عمر بن الخطاب فى نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ، ويذكرون ما أكرمهم الله به ، وما أراهم من عدوهم ، إذ نظر عُمر إلى عمير حين أناخ على باب المسجد متوشحا السيف فقال : هذا الكلب ، عدو الله . عمير بن وهب ، ماجاء إلا لشر ، وهو الذى حرش بيننا ، وحزّرنا للقوم يوم بدر .

ثم دخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يانبى الله ، هذا عدو الله . عُمير بن وهب . قد جاء متوشحا سيفه .

قال : فأدخله علىّ .

فأقبل عمر ، حتى أخذ بحمالة سيفه فى عنقه فلبّبه بها ، وقال لرجال ممن كان معه من الأنصار : ادخلوا على رسول الله فاجلسوا عنده ، واحذروا عليه من هذا الخبيث ، فإنه غير مأمون .

ثم دخل به على رسول الله . فلما رآه وعمر آخذٌ بحمالة سيفه فى عنقه قال : أرسله ياعمر ، ادنُ ياعمير !.

فدنا ثم قال : أنعموا صباحا (وكانت تحيةَ أهل الجاهلية بينهم) .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد أكرمنا الله بتحيةٍ خير من تحيتك ياعمير ، بالسلام تحية أهل الجنة .

فقال : أما والله يامحمد إن كنت بها لحديث عهد .

قال : فماجاء بك ياعمير ؟..

قال : جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا فيه .

قال : فما بال السيف فى عنقك ؟.

قال : قبحها الله من سيوف !. وهل أغنت عنا شيئا ؟.

قال : اصدقنى ما الذى جئت له ؟..

قال : ماجئت إلا لذلك !.

قال : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحِجْر ، فذكرتما أصحاب القليب من قريش ، ثم قلت : لولا دينٌ علىّ وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمدا . فتحمّل لك صفوان بدَينك وعيالك على أن تقتلنى له .. والله حائل بينك وبين ذلك .

قال عمير : أشهد أنك رسول الله . قد كنا يارسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحى . وهذ أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان . فوالله إنى لأعلم ماأتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للاسلام ، وساقنى هذا المساق ، ثم تشهد بشهادة الحق !.

تلك الأقصوصة من عمر فيها أعاجيب وغرائب... فيها أن عمر كان جنديا من جنود الشرطة العسكرية (البوليس الحربى) من الطراز الأول . جاء بعمير وقد خنقه بيده ، عنقه إلى سيفه ، يجره جرا غليظا إلى رسول الله . ثم هو بعد ذلك أمر قوما من أصحاب رسول الله يجلسون من حوله احتياطا للأمر ، ثم هو يقف منتظراً مايفعل عمير ، فإن أقدم على جريمته ، وهم باغتيال رسول الله ، كان عمر أسبق الناس إلى الانقضاض عليه ومنعه من ارتكاب حماقته .

كل ذلك فى فطنة وخفة وحذر ، وسرعة انتباه ، وسرعة حركة ، وسرعة تصرف ... وهذا هو الإسلام ، وهؤلاء هم أهله ...

أهل الإسلام يجب أن يكونوا أول شىء مقاتلين ، يحسنون فنون القتال كلها ، قديمها وحديثها .

ويجب أن يكونوا فطنين ، خفافا ، حذرين ، سراعا ، يفهمون الأمور فهم النمور ، ويثورون للحق ثورة الآساد .

أما تلك الملايين المتثائبة ، المترهلة ، المنبعجة البطون إلى أمام ، الحالمة بالجنة قبل الأوان . هؤلاء ليسوا من الإسلام فى قليل أو كثير .: هؤلاء لايفيد الإسلام منهم ، قدر مايفيد من رجل واحد مقاتل .

ياويل الإسلام من الذين يحسبون عليه ، وهم ليسوا منه فى شىء .. ياويله . . . إنهم يثقلون خطاه !

انظروا إلى عمر ... قوة ، شدة، عسكرية ، مباحث ، تنفيذ ، طاعة، إخلاص، وحب قبل ذلك ! .

ثم انظروا إلى رسول الله ، صاحب هذه الفكرة لايبالى برجل جاء يغتاله ، ويقول لعمر : أرسله ! ! .

شجاعة ، ثبات ، بطولة ... الموت منه على سنتيمترات . ولكنه لا يبالى .

فأين فى الناس مثل ذلك الآن ؟.

رجل الساعة !

لما أراد أبو سفيان الانصراف بعد أحد ، أشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته : أفيكم محمد ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : لا تجيبوه .

ثم قال : أفيكم محمد ؟ فلم يجيبوه .

ثم قال الثالثة : أفيكم محمد ؟ فلم يجيبوه .

ثم قال : أفيكم ابن أبي قحافة ؟ . فلم يجيبوه . قالها ثلاثا .

ثم قال : أفيكم عمر بن الخطاب ؟ قالها ثلاثا . فلم يجيبوه .

فقال : أما هؤلاء فقد كفيتموهم !

فلم يتمالك عمر نفسه أن قال : كذبت ياعدو الله إنا أحياء ولك منا يوم سوء !

فقال أبوسفيان : يومٌ بيوم بدر . والحرب سجال ، اعلُ هُبَل !

فقال عمر : اسمع يارسول الله ما يقول عدو الله !

فقال لعمر : قل ، الله أعلى وأجل .

فقال أبوسفيان : لنا العُزَّى ولا عُزّى لكم .

فقال رسول الله لعمر : قل الله مولانا والكافرون لا مولى لهم .

فقال أبوسفيان : هلم ياعمر . فقال النبي لعمر ؟ ائته فانظر ماشأنه .

فجاءه .. فقال له أبوسفيان : أنشدك الله ياعمر ، أقتلنا محمدا ؟

قال عمر : اللهم لا. وإنه ليسمع كلامك الآن .

فقال : أنت أصدق عندى من ابن قيئة وأبر (لقول ابن قيئة لهم : إنى قتلت محمدا !).

قالوا : أمره صلى الله عليه وسلم بالمجاوبة من بين أصحابه لما اختص به من الصولة والمهابة، وماعهد منه من ملازمته للتفريد . ومحاماته على معارضة التوحيد ، وأنه لاينهنهه عن مصاولتهم العدة والعديد .

وهكذا يبدو عمر صادقا أشد الصدق ، حتى في مثل ذلك الموقف الشائك ،
إنه يخبر أباسفيان أن رسول الله على قيد الحياة ، وليكن ما يكون .

وتلك هي الفتوة في الصدق . والجرأة في الحق .. ولقد اختاره النبي صلى الله عليه وسلم ليجيب أباسفيان من بين أصحابه لأنه أهل لذلك الموقف . أو على حد تعبيرنا المعاصر « رجل الساعة » .

وكم من المواقف كان عمر دائما رجل الساعة فيها ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

دعني أقتل زعيم المنافقين !

النفاق مرض اجتماعي خطير، ندر أن يخلومنه مجتمع من المجتمعات .. وإليك أقصوصة من النفاق السياسي الذي كان على عهد رسول الله ، وكيف كان موقف عمر من ذلك .

بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن بني المصطلق يجمعون له ، فخرج إليهم حتى لقيهم على ماء لهم فهزمهم . فبينما الناس على ذلك الماء ، إذ وردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار ، يقال له جهجاه بن مسعود ، يقود فرسه ، فازدحم جهجاه وسنان الجهني (حليف الخزرج) على الماء ، فاقتتلا ، فصرخ الجهني : يامعشر الأنصار ! وصرخ جهجاه : يامعشر المهاجرين ! .

فغضب عبدالله بن أُبي بن سلول وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم (غُلام حدَث) ، فقال : أوَقد فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، والله ما أعدُّنا وجلابيب قريش هذه ، إلا كما قال الأول : سمن كلبك ، يأكلك أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ! .

ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم . أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما و لله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم .

فسمع ذلك زيد بن أرقم ، فمشى به إلى رسول الله ، وذلك عند فراغه من عدوه . فأخبره الخبر وعنده عمر فقال : مُرْ به عبّاد بن بشر فليقتله ! .

فقال رسول الله : فكيف ياعمر إذا تحدث الناس ان محمداً يقتل أصحابه .. لاولكن أذّن بالرحيل .

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويعنفونه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر حين بلغه ذلك من شأنهم : كيف ترى ياعمر . . أماوالله لوقتلتُه يوم قلت لى اقتله لأرعدتْ له أنوف لوأمرتها اليوم بقتله لقتلته.

قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله أعظم بركة من أمرى .

تلك هى الحادثة . . التى رأى عمر فيها قتل زعيم المنافقين ، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرحل الجيش ، ليشتغل الناس بأمر آخر غير الذى فيه يتحدثون .

وليس من شك أن رأى رسول الله هو الحق ، وهو الأعلى . وليس لأحد أن يقدم عليه رأيا . . ولكنه كان نبيا ، يوحى إليه . وكان مجتمع خير ورشد ، فهل يمكن أن نأخذ برأى عمر فى علاج المنافقين فى مجتمعنا الحديث ؟

اعتقد أن الخير دائما هو فى اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن العفو أقطع للرقاب من القصاص ، وأن القتل ليس علاجا للأمور .

ولكن الحاكم عليه أن ينظر إلى الواقعة نظرة شاملة . فإن رأى أن يتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم فقد رشد .وإن رأى أن يشتد شدة عمر فلا بأس عليه . ولكن هذا دون الأولى .

ولكن ماهى فلسفة الواقعة ودلالتها ؟

إنها تؤكد حرية الرأى فى الإسلام ، فلقد قال ابن سلول قولا عظيما . يعتبر خيانة عظمى، ودعوة مسلحة إلى الفتنة والعصيان .إنه هدد ليخرجن الأعز منها الأذل . ليخرجن أهل المدينة المهاجرين من مدينتهم . وطبيعى أن هذا لايتأتى إلا بالقوة والصدام ، وسمى المهاجرين أذلة وهى تسمية ثقيلة كريهة . . . ومع هذا عفا عنه صلى الله عليه وسلم . وعالج الأمر علاجا نفسيا ، بأن شغل الجيش بالمسير ! .

وهذا مايسمى فى العصر الحديث تحويل أنظار الشعب ، عن شىء إلى شىء آخر ، وهو أسلوب لازم فى قيادة الجماهير .

ثم إن الحادثة تؤكد كذلك أن الطامعين فى الرياسة هم أخطر الناس على أمن الدولة .

فإن عبد الله بن سلول هذا كان يوشك أن يؤمرَّ على قومه بالمدينة ، فلما جاءها رسول الله ، وانعقدت له الزعامة العامة ، حقد عليه ، وأسرها فى نفسه ، وورم أنفه ، فكان مثار الفتن والقلاقل دائما وأبداً .

ولقد عانى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه عناء كبيراً ... وحسبنا أن نذكر له موقفه الخبيث يوم خرج الرسول فى ألف من أصحابه لمعركة أحد فانخزل صاحبنا بثلث الجيش ، وعاد بهم إلى المدينة من الطريق !!

ماهذا ؟ . إنها خيانة الخيانات . . ومادفعه إلى ذلك ؟ . . لعله كان يظن أن فى ذلك قضاء على محمد ، فيخلو له وجه الأرض من بعده ! .

لقد أحببت أن أتكلم فى الرجل ، لأبين للناس أن مجتمع رسول الله ، لم يكن كما يتوهم الكثير ، مجتمعا من الملائكة ، الذين لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون .. وإنما كان مجتمعا فيه مافى المجتمعات كلها من آلام وأزمات ومواقف . كان فيه المنافقون، وفيه اليهود ، وفيه الطامعون فى المناصب ، وفيه أعداء النظام الجديد . . . وقد تكتل هؤلاء كلهم فى المدينة ضد رسول الله ! وأحدثوا له المتاعب إثر المتاعب .

وهكذا شأن كل نظام جديد ، يعانى من رواسب الماضى كثيراً .

أما الإخلاص ، أما الحب ، أما الطاعة ، أما الإيمان ، أما الإيثار ، أما الفداء ... كل ذلك تجده فى أصحاب الدعوة من مهاجرين وأنصار . .

ولكن المدينة كان فيها غير هؤلاء ، مما أشرنا إليهم آنفا .

وكان عمر يرى دائما ألا يهادن أعداء النظام الجديد ، ألا يلين لهم أبدا فأقرب شىء عنده أن تطير أعناقهم فى الهواء ! .

أطع الأمر ؟

خرج عمر فى شعبان سنة سبع ، ومعه ثلاثون رجلا ، فأتى الخبر إلى هوازن .. فهربوا .

وجاء عمر ، إلى أماكنهم ، فلم يلق منهم أحدا ، بل وجدهم ترقموا ، وأخذوا أموالهم ومواشيهم ، فانصرف راجعا إلى المدينة .

فلما كان قريبا من المدينة ، قال الهلالى لعمر : هل لك فى جمع آخر تركته من خَثْعَمَ ، سائرين ، قد أجدبت بلادهم ؟

فقال عمر : لم يأمرنى رسول الله بهم ، إنما أمرنى أن أعمد لقتال هوازن .. !

أرأيت ؟ . طاعة مطلقة لرسول الله ، حتى فى الغيب ، بعيداً عن عينه صلى الله عليه وسلم . . أمره بكذا فليفعله وليعد . لايتجاوزه إلى غيره . . وتلك هى العسكرية الصحيحة العالية ، التى ينبغى أن نغرسها فى نفوس أبنائنا ، ونربيهم عليها .

فعمر ليس جنديا من أولئك الجند المعاصرين . الذين يفعلون مايؤمرون ولكنهم لايحيطون علما بأسرار ما يلقى إليهم من أوامر .. كلا وإنما عمر كان عبقريا . وكان ملهما وكان يرى الرأى فتوافقه فيه السماء . وكان جريئا فى اعلان آرائه . . . ولكن كل هذا شىء ، وطاعة رسول الله شىء آخر .

تلك هى العظمة ، وذلك هو الإيمان . . « يا أيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله .. »

يتلقى السياسة عن رسول الله !

كان صلح الحديبية . . . ولم يبق إلا كتابة المعاهدة . . فجاء عمر رسول الله فقال : يارسول الله ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ .

قال : بلى .

قال : أليس قتلانا فى الجنة ، وقتلاهم فى النار ؟

قال : بلى .

قال : فعلام نُعطى الدنيّة فى ديننا ؟ أنرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟!

قال : ابنَ الخطاب ! إنى رسول الله . ولن يضيعنى الله أبدا .

فانطلق عمر إلى أبى بكر ، فقال له مثل ماقال للنبى ، فقال أبو بكر : إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبدا .

فنزلت سورة الفتح . فقرأها رسول الله على عمر إلى آخرها . .

فقال : يارسول الله ! أو فتح هو ؟

قال : نعم .

(قال ابن هشام) : قال عمر : فمازلت أتصدق ، وأصوم ، وأصلى ، وأعتق ، مخافة كلامى هذا الذى تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيرا .

لقد تعلم عمر أن القوة ليست كل شىء وانما هناك الحكمة ، والنظر إلى الأمور نظرة شاملة كلية .

ولذلك قرأ عليه رسول الله سورة الفتح كلها ، ليطمئن ، ويهدأ ، ويعلم أن سيكون فتح قريب . .

وكان هذا درسا لازما لعمر، لتكتمل بعبقريته السياسية ، حتى إذا ما آلت الأمور إليه من بعد ، كان استاذا فى ذلك الفن العريض .

دم أحدهم دم كلب !

بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب المعاهدة فى الحديبية ، هو وسهيل بن عمرو ، (وفيها أن من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليّه ردّه عليهم).. إذ جاء أبو جندل بن سهيل، يرسُف فى الحديد ، قد انفلت إلى رسول الله .

فلما رآه سهيل (أبوه) قام إليه ، فضرب وجهه ، وأخذ بتلبيبه .

ثم قال : يامحمد .. قد لجّت القضية بيني وبينك (وقعت المعاهدة) قبل أن يأتيك هذا .
قال : صدقت .
فجعل ينتر ابنه بتلبيبه ، ويجره ، ليرده إلى قريش ! .
وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يامعشر المسلمين .. أأرد إلى المشركين يفتنوني في ديني ؟ !

فدخل على الناس من ذلك أمرٌ عظيم .

فقال صلى الله عليه وسلم : ياأباجندل . . اصبر واحتسب . فإن الله جاعلٌ لك ، ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا ، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ، وإنا لا نغدُر بهم .

موقف عجيب ... وأعجب منه أن يرى ذلك عمر .. فماذا فعل ؟

وثب مع أبي جندل ، يمشي إلى جنبه ، ويقول : اصبر ياأبا جندل ، فإنهم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب ! .

ويدني عمر قائم السيف منه ؟

وقال عمر : رجوت أن يأخذ السيف ، فيضرب به أباه ، فضنّ الرجل بأبيه . ونفذت القضية .

وهكذا .. عمر هو عمر... إنه لايطيق أن يرى كافرا يسعى على الأرض. تماما كما شبهه رسول الله . . . مثلك ياعمر مثل نوح . قال : رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا (ماشيا) . . يريد عمر من أبي جندل أن يأخذ السيف ويضرب عنق أبيه !

ألا إن عمر لا يطيق سعى الكافر على الأرض ... يريد أن تطير أعناقهم ، وتستريح الأرض من نجاساتهم . . .

وعمر في هذا ثائر من أولئك الثوار الذين يريدون تغيير اتجاه التاريخ . . . ولقد ظل ثائرا ، حتى استمكن ، وحكم ، فساس الدنيا كلها كيف يشاء .. ساسها على الحق ، وأخذها عليه أخذاً !

وتلك التصرفات من عمر ، إنما هى إشارات ، وانفجارات مؤقتة محدودة ، تشير إلى مافى قلبه من نار تشتعل ، تريد أن تلتهم كل خاطىء ، وكل خطيئة على وجه الأرض .

وياويل الطغاة ، وياويل الأشرار ، يوم يحكم عمر ، سوف يضطرهم إلى الحق اضطراراً .

ينادى بحرب الذرة ؟!

إن كلمات عمر ، تخرج من فمه ، لايلقى لها بالا ... وهى توشك أن تكون كشفا للغيوب .

ولقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى ذلك حين قال : « لو كان فى هذه الأمة محدثون لكان عمر » ... (يعنى محدثون بالغيب) .

وإليك موقفا للرجل تتبين منه مدى ما كان يستمتع به من كشف لماوراء المستقبل البعيد .

لما نقضت قريش عهدها مع رسول الله ، بعد صلح الحديبية ، بعثت أباسفيان بن حرب ليزيد مدة الصلح ، مخافة أن يتجهز رسول الله لغزوها .

فخرج حتى قدم على رسول الله ، فدخل على ابنته ، أم حبيبة بنت أبى سفيان ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله طوته عنه . فقال يابنيّة ... ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟.

قالت : بل هو فراش رسول الله ، وأنت رجل مشرك نجس ، ولم أحبّ أن تجلس على فراش رسول الله ! .

قال : والله لقد أصابك يابنية بعدى شرّ .

ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلمه فلم يرد عليه شيئا .

ثم ذهب إلى أبى بكر ، فكلمه أن يكلم له رسول الله . فقال : ما أنا بفاعل .

ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه ، فقال : أنا أشفع لكم إلى رسول الله ؟!!.. والله لو لم أجد إلا الذرّ لجاهدتكم به ...

ونقف من القصة عند هذا الحد .. لنتأمل كلمات عمر ، حين سعى إليه أبو سفيان ، ليكلم رسول الله فى تجديد المعاهدة ...

فيصرخ به عمر : أناأشفع لـكم إلى رسول الله ؟!.. إن عمر يتعجل فتح مكة ، وقطف رقاب أهلها ، فـكيف يسعى فى إطالة أمد المعاهدة !.

ثم يعبر ابن الخطاب الزمن ، وتطوى له القرون ويقول : والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتـكم به ! ...

هل كان عمر يعلم شيئا عن الذرة ، والقنابل الذرية ، والحرب الذرية .

طبعا لا ... وإنما كان تصوره يرتفع إلى هذا الأمل ، فأعلن أنه لولم يجد إلا الذر لجاهد به أهل الباطل .

ليت للبشرية الآن مثل عمر ... ليت عمر الآن يحـكم أمريكا ، أوروسيا ... فيسخر الطاقة الذرية الهائلة عندها فى الحق . ويدمر بها أهل الباطل ... إذا لسعدت البشرية كلها ، ولعلت فى الأرض كلة الله .

ولـكن الواقع غير هذا ... الواقع أن الطاقة الذرية الآن مسخرة فى الباطل ، وتلك هى النتيجة الحتمية لنوم أهل الحق .

لقد كان عمر يحلم بحرب ذرية ... يحطم بها الباطل .وينصر بها الحق... وكان تصوره مبهما ... حتى حقق الإنسان اكتشاف الذرة فى عصرنا هذا ... فحقق لعمر نصف أمله الذى كان يحلم ... وبقى النصف الآخر ... أن تـكون الحرب الذرية فى سبيل الله والحق . لا فى سبيل الطاغوت .

فهل آن لأهل الحق أن يحققوا لعمر آماله ؟

دعنى . . فلأضرب عنقه !

لما أشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مـكة ... خاف أبو سفيان إن دخلها رسول الله عنوة أن يضرب عنقه .. فركب خلف العباس بن عبد المطلب ، وذهبا إلى لقاء رسول الله .

قال العباس : فجئت به ، كلما مررت بنار من نيران المسلمين ، قالوا : من هذا ؟ فإذا

رأوا بغلة رسول الله وأنا عليها قالوا : عم رسول الله على بغلته . حتى مررت بنار عمر ابن الخطاب . فقال : من هذا ؟... وقام إلىّ ..

فلما رأى أباسفيان على عجز الدابة ، قال : أبوسفيان . عدو الله ؟ الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد . قال . ثم خرج يشتد (يركض) نحو رسول الله . وركضت البغلة . فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطىء . فاقتحمت عن البغلة ، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل عليه عمر . فقال : يا رسول الله ، هذا أبو سفيان . قدأمكن الله منه بغير عقد ، ولاعهد ، فدعنى ، فلأضرب عنقه !.

قلت : يارسول الله . إنى قد أجرته .

* * *

وأفلتت الفرصة من عمر مرة أخرى . ونجا أبو سفيان بأعجوبة ... وآه لو استمكن منه عمر ، إذا لأطار عنقه بسيفه !.

إن عمر هو عمر ... بتارا فى الحق . لايخشى فى الله لومة لائم .

نائب رسول الله

لمافرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيعة الرجال ، بايع النساء ، واجتمع إليه نساء من نساء قريش ، فيهن هند بنت عُتْبة ، متنكرة ، لحَدَثها ، وما كان من صنيعها بحمزة . فهى تخاف أن يأخذها رسول الله لفعلتها . فلما دنون منه ليبايعنه ، قال رسول الله : تبايعننى أن لاتشركن بالله شيئا .

فقالت هند : والله إنك لتأخذ علينا أمراً . ما تأخذه على الرجال ، وسنعطيكه .

قال : ولاتسرقن .

قالت : والله إن كنتُ لأصيب من مال أبى سفيان الهنة والهنّة (الشىء القليل) . وماأدرى أكان ذلك حلالى أم لا ..

قال أبوسفيان ـ وكان شاهدا لماتقول ـ : أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه فى حِلّ .

فقال رسول الله : وإنك لهند بنت عتبة ؟

فقالت : أنا هند بنت عتبة . فاعف عما سلف ، عفا الله عنك .

موقف رائع حساس ... هند التي صنعت من كبد حمزة أحدوثة ، ولا كتها ، ثم لفظتها ... هند هذه تقف اليوم ذليلة أمام رسول الله ... فماذا صنع بها ؟

لا شيء ... عفو عام ، وصفح تام !!.

قال : ولا تزنين .

قالت : يارسول الله ! هل تزنى الحرة ؟

قال : ولا تقتلن أولادكن .

قالت : قد ربيناهم صغارا ، وقتلتهم يوم بدر كباراً ، فأنت وهم أعلم .

فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى استغرب !.

مم كان الضحك منك ياابن الخطاب ؟

لعلك تعجب من أمر الله ، الذى أمكن من أعداء الحق ، فوقفوا أذلة بين يدى رسول الله ...

لست أدرى تماما ما الذى أضحك عمر ... وإنما يمكن أن يقال إن الذى أضحكه منظر إذلال الباطل وأهله ، واعزاز الحق وأهله ، يوم فتح مكة ... وهذا هو الشيء الذى يثير مثل عمر ، ذلك الغاضب دائما .

قال : ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن .

قالت : والله إن إتيان البهتان لقبيح ، ولبعض التجاوز أمثل .

قال : ولا تعصينني فى معروف .

فقال رسول الله لعمر : بايعهن .

واستغفر لهن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فبايعهن عمر ...

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لايصافح النساء ، ولايمسّ إلا امرأة أحلها الله، أو ذات مَحْرَم منه .

وهكذا أناب رسول الله عمر فى مبايعة النساء . وقام عمر بالمهمة خير قيام . .

وتعلم عمر من تلك البيعة أمورا . . .

تعلم أن الحاكم مسئول عن النساء ، كما هو مسئول عن الرجال ، على حد سواء .

وتعلم أن المرأة فى المجتمع نصفه الحى العامل ، وأن الدولة ينبغى عليها أن توجههن الوجهة البنائة فى الحياة .

لقد كانت تلك البيعة أساسا عاما فى نظرة الإسلام إلى المرأة . .

إنه يفرض أصولا عامة عليها . . .

. . ألايشركن بالله شيئا

. . ولا يسرقن

. . ولا يزنين

. . ولايقتلن أولادهن

. . ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن

. . ولا يعصين فى معروف

ومن هنا ندرك خطورة الدور الذى تلعبه المرأة فى حياة المجتمع . . وشدة اهتمام الاسلام ، باعدادها لذلك الدور اعداد عظيما .

المرأة فى الإسلام يجب أن لاتشرك بالله شيئا ، أن تتجه مباشرة فى رجائها وخوفها، وكل أمرها . إلى الله الذى خلقها .

وامرأة هذا حالها من العقيدة الصحيحة ، تكون نعم المعين لزوجها فى إيمانه بالله . . وحين تلتقى معه على ذلك المبدأ العام ، فانما هما نور على نور .

والمرأة فى الإسلام لاتسرق، لافى أموال زوجها ، ولا فى أموال الغير، وإنما هى صادقة . غير خؤونه . .

والمرأة فى الاسلام لاتزنى .. ولاتدفع الناس إلى الزنى .. امرأة طاهرة ، عفيفة ...
فأين فينا الآن مثل هذا الخلق الرفيع ؟ .

انظر ذلك التيار الجهنمى من بعض نساء اليوم .. اولئك اللاتى ينحدرن نحو الحياة الحديثة بشرها وفجورها ، فى غير ماحياء .

هذه الجثث العارية فى كل مكان ، هذه الآلاف المؤلفة منهن فى كل عبث ..
ماهذا ؟ .. هل هذه هى المرأة فى الاسلام ؟ .
كلا ... ذلك انحدار .. ليس من دين الله فى شىء .

المرأة فى الإسلام ، لاتقتل أولادها ، ولاتلجأ إلى تلك الطرق الملتوية من الاجهاض ، لتتفلت من مسئولية الأمومة والأطفال والتربية .

إنماهى امرأة ولود ودود ، فرحة برسالتها ، فخورة بأمومتها ، تخرج إلى الدنيا أطفالا يؤمنون بالله ، ويجاهدون فى سبيل الله .

أما تلك المرأة الممسوخة الشوهاء ، التى تريد أن تنسلخ من أنوثتها ، لتنطلق فى مراتع العبث ، فذلك شىء لا يعرفه الاسلام .

والمرأة فى الاسلام لاتأتى ببهتان يفترى بين أيديها وأرجلها .

قال الفراء : كانت المرأة فى الجاهلية تلتقط المولود فتقول : هذا ولدى منك ، فذلك البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن ، وذلك أن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها .

وقيل : بين أيديهن قبلة أو لمسة ، وأرجلهن : الجماع .

فالمرأة المسلمة منهية عن العلاقات الآثمة التى تؤدى إلى الأبناء غير الشرعيين ، كما هى منهية عن العلاقات المحرمة التى تؤدى إلى القبل والجماع .

والمرأة فى الإسلام لاتعصى رسول الله فى معروف .. وانما تتبع رسول الله فى بيتها ، ومعاملة زوجها ، ومعاملة الناس .

ومن هنا أخرجت المسلمات القانتات التائبات العابدات ، أجيالا تغنت البشرية بأمجادها ، ودانت الأمم لسلطانها .

كانت أمومة مؤمنة طاهرة ، فأخرجت من بطونها أطفالا مؤمنين طاهرين .

فمتى نعود بالمرأة فى مجتمعنا الحديث إلى ما يريده رسول الله صلى الله عليه وسلم .. متى؟

وهكذا تعلم عمر درسا فى سياسة النساء وأدرك مهمتهن ، ورسالتهن فى المجتمع ..

أبرع سخرية ؟!

أسوق وسط هذا الحشد الهائل من أخبار عمر ، ذلك الخبر العجيب لنضحك معا ، مما قال عمر ونغرق فى الضحك ، من إخلاص ذلك الرجل ، لقضية الحق .

روى أن أبا سفيان قال للنبى صلى الله عليه وسلم ، حين عرض عليه الاسلام : كيف أصنع بالعُزّى ؟

فسمعه عمر ، من وراء القبة ، فقال له : تخرأ عليها ؟!

إن أباسفيان حائر فى أمر العزى ، ذلك الصنم الأعظم عند قريش ، ماذا يصنع به بعد أن يسلم ؟!

وسمعها منه عمر ، عملاق الحق ، فصاح به لفوره : تخرأ عليها !!

اجلس ياأباسفيان فوق العُزى ، اكشف عن ثوبك ، ثم اخرأ عليها ..

هذا هو أسلوب التنفيذ الذى يريده عمر ! .

إن عمر لايطيق أن يرى أحدا من أهل الباطل يفوه بكلمة فيها انحراف عن الحق .. فكيف به حين يسمع أباسفيان زعيم قريش ، الذى وكلت إليه أمورها ، يسأل رسول الله ماذا يصنع بالعُزى ؟ .

فخرجت تلك الجملة من فمه تفور غضبا ، وتثور سخرية ..

فى بيت رسول الله

قال عمر – وهو يروى موقفه من حادث اعتزال رسول الله لنسائه شهرا – : فدخلت عليه (يعنى على رسول الله) فإذا هو مضطجع على حصير ، ليس بينه وبينه فراش ، قد أثر بجنبه ، متكىء على وسادة من جلد ، حشوها ليفٌ ! !

فسلمت عليه ، ثم قلت وأنا قائم : طلقت نساءك ؟

فرفع بصره إلىّ ، فقال : لا .

ثم قلت وأنا قائم استأنس : يارسول الله لو رأيتنى ، وكنا معشر قريش نغلب النساء ، فلما قدمنا على قوم تغلبهم نساؤهم .

فتبسم النبى صلى الله عليه وسلم ..

ثم قلت . لو رأيتنى ، ودخلت على حفصة . فقلت لايغرنّك أن كانت جارتُك هى أوضأ منك ، وأحبّ إلى النبى صلى الله عليه وسلم – يريد عائشة –

فتبسم أخرى ...

فجلست ، حين رأيته تبسم ، ثم رفعت بصرى فى بيته ، فوالله مارأيت فيه شيئا يردّ البصر غير أَهَبَة ثلاثة (أى جلود جمع إهاب) .

فقلت : ادع الله فليوسّع على أمتك ، فإن فارس والروم وسع عليهم ، وأعطوا الدنيا ، وهم لايعبدون الله .

وكان متكئاً فقال : أو فى شكّ أنت ياابن الخطاب ؟. أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا .

فقلت : يارسول الله ، استغفر لى . .

ماهذا ؟ .. هذا عمر بين يدى الرجل الذى آمن برسالته .. عمر بين يدى رسول الله .. فى بيت رسول الله . .

انطلق معى إلى تلك اللحظات الخالدات .. هاهو عمر فى منزل محمد صلى الله عليه وسلم ..

محمد الذى يحمل عبء الدعوة وأثقالها ، وآلام البشرية وأحمالها . . . تآمر به نساؤه ، فيهجرهن . . ويأوى إلى تلك المشربة من بيوته .. وحيدا .. يأنس بالله الذى أرسله ...

يدخل عمر اليه ، ومايزال به ، يقص عليه مما فعل مع حفصة ، ومما قال لها ، حتى تبسم صلى الله عليه وسلم ..

ولـكن الأمر الذى هو أعجب من ذلك كله هو مارأى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

ماذا رأى عمر ؟ .

رأى محمداً صلى‌الله عليه‌وسلم مضطجعا على‌حصير، ليس بينه وبينه فراش ،قد أثر بجنبه ؟ رآه متكئا على وسادة من جلد حشوها ليف ؟!

ماهذا يارسول الله ؟. ماهذا ياسيدى ؟.. يامن عرضت عليك جبال مكة أن تـكون لك ذهبا ، ولـكنك آثرت أن تنام على حصير ، مسرورا بما أنت عليه ، غير ساخط ولا ناقم .. لماذا ؟ لأنك تعلم علم اليقين أن الله أعدلك فى الآخرة نعيما مابعده من نعيم !

أى قلب لا يبكى تأثرا من فعل محمد صلى الله عليه وسلم هذا ؟

والله لو كانت القلوب حجارة أوحديدا ، لا انشقت ، ولانت، وبكت ، من عظمة رسول الله ، فى حياته الخاصة ، قبل حياته العامة .

كيف كان شعورك ياعمر .. حين رأيت الرجل الذى آمنت به ينام على حصير ، على وسادة حشوها ليف ؟ .

لعلك قد بكيت أنت الآخر ، من روعة التواضع لله ، وقوة اخلاص رسول الله ؟ .

ومن هنا تعلم عمر ، ووعى ، واستقر فى قلبه ، من سلوك رسول الله ..

حتى إذا ماحكم العالم، كان ماتلقاه من رسول الله ،هو الذى يعيش عليه حتى يلقى الله.

من هنا تلقى عمر تربيته ، ومن كرسول الله تربية ، ومن كرسول الله تعليما ؟

ثم ماذا ياعمر ؟.. ثم رفعت بصرك فى بيته ، فوالله ما رأيت فيه شيئا يرد البصر ...

هذا هو بيت محمد صلى الله عليه وسلم أيها الناس ... كما وصفه عمر ، الصادق الأمين ، لاشيء فيه يذكر !.

وأثر المنظر فى نفس عمر ، وتوجه إلى رسول الله بالرجاء : ادع الله فليوسع على أمتك ، فإن فارس والروم وسع عليهم ، وأعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله .

وهنا أدرك صلى الله عليه وسلم أن عمر قد غابت عنه أمور من أسرار الحياة العليا ، وكان متكئا : فقال : أوَ فى شك أنت يابن الخطاب ؟ . أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا .

وهذا هو الفارق بين محمد صلى الله عليه وسلم وعمر ..

إن محمداً صلى الله عليه وسلم يعلم من أسرار الحياة مالا يعلمه عمر .

إن عمر يتكلم على قدر علمه ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يبادر إلى بيان الحقيقة للفاروق ... أوفى شك أنت يابن الخطاب ... أتشك أن الله فاتح الدنيا عليكم، رغم ما أنتم فيه من قلة ؟

ولكن هذا ليس الوجه من القضية ، إنما الأعمق والأخطر منها ، هو بيان سر الحياة لعمر ... تفهيمه لماذا أعطى الله فارس والروم أموالا جساما ، وملكا عظيما ، رغم كفرهم بالله ؟ .

وكان البيان من أصدق إنسان ... أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا ..

أفهمت يا عمر ؟.. هذا هو السر الذى تجهل .. إن الله عجل لهم المال فى هذه الحياة ، لأنهم لا نصيب لهم فى الحياة الأخرى ...

وفهم عمر ، وأحس أنه غابت عنه أشياء ، فقال آسفا : يارسول الله ، استغفر لى !

لقد كان فى ذلك الموقف من رسول الله آية للعالمين .. آية عملية ، بما كان عليه من بساطة فى منزله ، وآية نظرية ، بما بين لعمر من أسرار الحياة .

وعندى أن هذه الحادثة تعتبر من أخطر الحوادث فى حياة عمر ... التى نأخذ منها الكثير من أصول سياسته .

إن محمدا صلى الله عليه وسلم — وهو رأس الدولة — ينام على حصير ، ولا يتخذ فى منزله شيئا من أثاث ذى بال !.

فإذا جاء اليوم الذى يكون فيه عمر رئيسا لتلك الدولة ، فينبغى أن يكون على ذلك الأسلوب .

وإن محمدا صلى الله عليه وسلم ، أبى أن يسأل الله الدنيا والمال ، ووجه ابن الخطاب الوجهة الأرق والأعلى ، وجهة الله ، الذى هو خير من المال ، ومن كل مافى الدنيا .

فإذا جاء الحكم من بعد إلى عمر ، كان هذا مركوزا فى طبيعته ، مترسبا فى أعماقه ، فأخرجه ، فساس به الدنيا كلها .

قضية ... وأى قضية ؟. وسر ، وأى سر ؟. فلتتعلم القرون ، ولينصت الناس .

لو أمَّرت عمر ؟

عن ابن عمر قال : لما اشتد بالنبى صلى الله عليه وسلم المرض ، قيل له فى الصلاة ، فقال: مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس . قالت عائشة : إن أبا بكر رجلٌ رقيق القلب ، وإنه إذا قام فى مقامك لايكاد يُسمع الناس من البكاء ، فلو أمرت عمر ؟.

فقال : مروا أبا بكر فليصلِّ .

فعاودته فقال : مُروه فليصلِّ فإنكن صواحب يوسف .

قالوا : (إنكن صواحب يوسف) امرأة العزيز والنساء اللاتى قطعن أيديهن ، أى انكن تُحَسِّنَّ للرجل ما لا يجوز ، وتغلبن على رأيه .

قلت : والفرق بين الرأيين كالفرق بين العقلين ، وشتان ما بينهما .

إن رسول الله يرى أن يصلى أبو بكر بالناس ، لأنه يعلم الأسرار المكنونة من الرجل ، وأنه رغم بكائه فى الصلاة ، ليست به من ضعف ، وإنما بكاؤه بكاء من يخشى الله ، وينصهر فى كلام الله ، فتفيض عينه بالدمع مما عرف من الحق ... فهو العملاق الباكى ، هو الرجل القوى غاية القوة ، لأنه أدرك من جلال الله وجماله مالم يدرك غيره من الناس ، فهو الأحق بإمامة المؤمنين ، وهو سفيرهم إلى ربهم ، ونعم السفير .

أما عائشة ، فترى أن عمر أقوى على هذا الموقف ، لأنه رجل شديد ، صوته جهير ، ليس كثير البكاء كأبيها .

وغاب عن عائشة مالم يغب عن رسول الله ، وواجهته ، حتى أمرها بشدة أن يصلى أبو بكر بالناس .

وكان عمر يدرك ذلك من نفسه ، وكان ذلك يزيده حبا لأبى بكر رضى الله عنه ، ولا غرو فهو يحب مايحبه رسول الله .

وقد بدا ذلك واضحا ، حين صلى عمر مرة بالناس ، على غير علم منه أن رسول الله لم يشأ ذلك ، فثار بابن زَمَعة الذى أمره بالصلاة وقال : والله ماظننت حين أمرتنى إلا أن رسول الله أمرك بذلك ، ولولا ذلك ماصلّيت بالناس .

عندنا كتاب الله !

عن ابن عباس قال : لما اشتد بالنبى صلى الله عليه وسلم وجعه قال : ائتونى بكتاب اكتب لكم كتابا لا تضلّوا بعده .

قال عمر : إن النبى صلى الله عليه وسلم غلبه الوجع ، وعندنا كتاب الله ، حسبنا ! .

فاختلفوا ، وكثر اللّغط ، قال : قوموا عنى ، ولا ينبغى عندى التنازع .

فخرج ابن عباس يقول : إن الرزية كلّ الرزية ، ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين كتابه .

وهكذا اقترح عمر على رسول الله الإكتفاء بكتاب الله ، ولعل رسول الله قد أخذ برأيه آنذاك ، حيث سكت ، ولم يأمر بكتابة الكتاب الذى أراد .

وعمر فى هذا يبدو جريئا كعادته ، مشيرا بما يراه ، لا يهاب فى ذلك شيئا .

وذلك جانب من شخصيته الفذة دائما ... يكشف لنا عن مدى حرية الرأى التى كان عليها مجتمع رسول الله .

وأن عمر كان زعيم المعارضة دائما ، ولكن معارضة الحق والقوة ، لا معارضة الزيف والمناورات .

أمر من أخطر الأمور في حياة الأمة ، يتعلق بالسياسة العليا للدولة ، يريد رسول

الله أن يوصى فيه بوصيته ، ولكن عمر يرى أن رسول الله فى حالة مرض لاتسمح له بالوصاية ، فينادى حسبنا كتاب الله !.

وتلك صورة لحرية الرأى فى الإسلام ، لعل فيها ردا على أولئك المتقولين ، الذين يزعمون أن الإسلام يحجر العقول ، أو يخدر الشعوب !.

كلا ... ليس فى الإسلام تحجير ، ولا تخدير ، وإنما هو على الحرية أسس ، وفى الحرية يعيش .

عمر يُصعق ؟!

.. إلا أن عمر هذا ، القوى ، الشديد ، الباطش بالمبطلين .. هذا العملاق الكبير ، يتضعضع ، وينهار ، عند وفاة رسول الله !

لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم قام عمر فقال : إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله قد توفى ، وإنه والله مامات ، ولكنه ذهب إلى ربه ، كما ذهب موسى بن عمران وقد غاب عن قومه أربعين ليلةً ، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قدمات ، والله ليَرجعنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رجع موسى ، فليقطعنّ أيدى رجال وأرجلهم ، زعموا أن رسول الله مات !!

ماهذا ؟ .. أهذا كلام يقال ياعمر ؟ .. ولكنه الحب .. حب الرجل لرسول الله ، جعله يتصور أنه لن يموت ، وأنه عائد حتما إليهم ..

والحب حين يأخذ على الإنسان حياته ، يعطل عقله ، ويحجب تفكيره .. وهذا ماحدث لعمر العظيم ، العملاق ، حين تهاوى من عليائه ، وانهار بنيانه أمام الحادثة الكبيرة .

وليس كذلك الصديق .. إنه مقام آخر ، إنه يحب رسول الله ، أكثر من حب عمر ، ولكنه أقوى إيمانا من عمر ، وأشد تثبيتا ، فلم يغب عقله كما غاب عقل عمر ... وإنما جاء يسعى ، من ضاحية المدينة التى كان غائبا فيها ، حتى نزل على باب المسجد ، حين بلغه الخبر ، وعمر يكلم الناس ، فلم يلتفت إلى شىء ، حتى دخل على رسول الله فى بيت عائشة ، وهو مُغطى فى ناحية البيت ... فأقبل حتى كشف عن وجهه ، ثم أقبل

عليه ، فقبّله ، ثم قال : بأبى أنت وأمى ، أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا ... ثم رد الثوب على وجهه ...

ثم خرج ... وعمر يكلم الناس ، فقال : على رسلك ياعمر ، أنصت .

فأبى إلا أن يتكلم ... فلما رآه أبو بكر لا يُنصت ، أقبل على الناس ، فلما سمع الناس كلامه ، أقبلوا عليه ، وتركوا عمر !.

فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ! من كان يعبد محمدا فإن محمد قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حىّ لايموت ، وتلا هذه الآية : (وما محمدٌ إلا رسولٌ ، قد خلتْ من قبله الرسل ، أفإنْ مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلبْ على عقبَيْهِ فلن يَضرَّ الله شيئا ، وسيَجْزى الله الشاكرين) .

انظر إلى هدوء أعصاب أبى بكر ... رجل يعلم أن رسول الله قد مات ، فيأتى من خارج المدينة ، فيجد عمر يقول ما يقول والناس من حوله ، فما يلتفت إليه ، وإنما يذهب ليتأكد أولا بنفسه ، ويدخل ، ويكشف عن وجهه الشريف ، فيعلم أنه قد مات فعلا ، فيقبِّله ... ويخرج فى هدوء ، ويكون منه هذا الكلام العجيب ، الذى يدل على غاية الاتزان وغاية السكينة !

إنه حزين أشد الحزن لوفاة رسول الله ، مافى ذلك شك ولكن حزنه لم يأخذ عليه عقله ، وإنما زاده إيمانا وتثبيتا !!.

(قال) : فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى تلاها أبو بكر يومئذ ، وأخذها الناس عن أبى بكر ، فإنما هى فى أفواههم ! .

قال عمر : فوالله ماهو إلا أن سمعت أبا بكر يتلوها ، حتى وقعت على الأرض ، فعُقرت ، ماتحملنى رجلاى ، وعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدمات !

أرأيت ؟.. عمر يخر صعقا ؟.. إن أعصابه لم تقو على احتمال الصدمة !..

إنه لايستطيع أن يتصور أن هذا كان آخر عهده بالرجل الذي أحبه ، من أعماق نفسه ، وأعطاه كل ما يملك في الحياة !.

وزيـر أبي بكـر

حزم !

.. أفاق عمر ... على يقين أن رسول الله قد مات ..

وعاد إليه عقله سريعا ، فكان أول مافكر فيه ، هو من يتولى أمر هذه الدولة بعد رسول الله ..

إنه لوترك الأمر ، دون أن يتولاه رجل لائق ، فان الثورة سوف تضطرم فى أنحاء الجزيرة ، وإن العرب سوف يخرجون على سلطان المدينة .

وأسرع عمر يشق طريقه ، خلال المجتمعين بالمسجد ، يتحدثون فى وفاة رسول الله ، وسار حتى أتى أباعبيدة عامر بن الجراح ، فقال « ابسط يدك أبايعك ، فأنت أمين هذه الأمة على لسان رسول الله » .

قال أبو عبيدة : « مارأيت لك فَهَّةً (1) قبلها منذ أسلمت !. أتبايعنى وفيكم الصدِّيق وثانى اثنين ؟! » .

وجاء الخبر ، أن الأنصار قد اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة ، يريدون أن تكون الإمارة على المسلمين لهم .

فأرسل عمر إلى أبى بكر فى بيت عائشة ليخرج إليه ...

إنه قد حدث أمر ؟

ورد أبو بكر الرسول يقول : « إنى مشتغل » .

لكن عمر رأى أمر المسلمين أخطر من أن يترك لحظة .

لذا بعث كرة أخرى يقول لأبى بكر : « إنه قد حدث أمر لابد لك من حضوره» .

وخرج أبو بكر يسأل : أى أمر يمكن أن يصرفه عن جهاز رسول الله ؟.

قال عمر : « أماعلمت أن الأنصار قداجتمعت فى سقيفة بنى ساعدة يريدون أن يولوا هذا الأمر سعد بن عُبادة ، وأحسنهم مقالة من يقول : منا أمير ومن قريش أمير ؟» .

---

(1) سقطة .

وأحس أبو بكر خطورة الموقف ، فأسرع ، ومعه عمر ، وأبو عبيدة يريدون السقيفة .

إذاً يقتلك الله ![1]

فلما بلغوها تولى أبو بكر مجادلة الأنصار فى حزم ورفق .

أما عمر فأقام إلى جانبه ينتظر مايصير إليه الأمر .

فلما رأى الحُبَاب بن المنذر يحرّض الأنصار ليثوروا إن لم يكن منهم أمير ومن المهاجرين أمير ، قام فقال : « هيهات ! لايجتمع اثنان فى قرن !. والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ! ولكن العرب لاتمنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم وولى أمورهم منهم ! . ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين . من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته ، إلا مدل بباطل ، أومتجانف لإثم ، أو متورط فى هلكة ؟! »

ورد الحُباب يطلب إلى الأنصار إجلاء المهاجرين عن المدينة ، أويتولوا عليهم الأمر ، ثم وجه الحديث إلى المهاجرين الثلاثة يقول : « أما والله إن شئتم لنعيدنها جذعة » .

فصاح به عمر . « إذاً يقتلك الله ! » .

ورد الحُباب : « بل إياك يقتل ! »

ماهذا ؟ . . هذه هى الحياة . . حياة الفرسان .. حياة الواقع .. كانوا رجالا عمليين ، يخوضون تجربة الحياة فى وجوهها كلها . .

هؤلاء هم الأنصار والمهاجرون يختلفون ، ويرتفع بينهم الخلاف إلى حد التشاتم ، والتثاور ، والتهديد . . فهل فى ذلك من عيب . . . كلا . . إنما العيب أن لاتكون الحياة هكذا . .

---

(١) راجع « الفاروق عمر » جزء أول وثانى للدكتور محمد حسين هيكل .
وراجع « أخبار عمر » للأستاذ على الطنطاوى .

أبداً . تجد المجتمع الحى فيه هذه الانفعالات .. ثم لاتلبث أن تتبلور ، وتشرق من خلالها الشمس ...

أما المجتمعات الميتة الذليلة ، فهى تلك التى لاتعرف خلافا ، ولاتعرف التدافع .

ثم هذا الموقف من أصحاب رسول الله ، يكشف للناس كافة أن الحرية كانت الأساس الأول فى الاسلام .

هاهو رسول الله لم يدفن بعد ، بينما أصحابه يبحثون السياسة العليا للدولة !

كيف كان البحث بينهم . . . على أوسع صورة من الحرية ،والمعارضة ! !.

فليفقه هذا الذين يحكمون شعوبهم حكما استبداديا ، وهم يظنون أنهم على إسلام ! .

وليبحث هذا الشرق والغرب ، الذين يزعمون أن الحرية السياسية من مبتدعات عقولهم .

هذا عمر !

وثارت النفوس . . فتدخل أبو عبيدة فى الأمر ، ووجه الحديث إلى أهل المدينة : « يامعشر الأنصار ؟ كنتم أول من نصر وآزر ، فلاتكونوا أول من بدّل وغيّر » .

وهدأت النفوس قليلا ، وعاد المجتمعون يتجادلون بالحجة ، وانضم بشير بن سعد من زعماء الخزرج إلى المهاجرين ، فشق كلمة الأنصار .

ورأى أبو بكر أن الأمر قد استوى ، وأن اللحظة لحظة الفصل ، فقام يدعو الأنصار إلى الجماعة ، ويحذرهم الفرقة ، ثم أخذ بيد كل من عمر وأبى عبيدة ونادى « هذا عمر ، وهذا أبو عبيدة ، فأيهما شئتم فبايعوا ! »

إن أبابكر يرشح لرياسة الجمهورية عمر أو أباعبيدة .. فمن يقع عليه الاختيار ؟

ولكن الناس اختلفوا .. ورأى عمر ذلك ، فقام فنادى بصوته الجهورى : « ابسُط يدك يا أبابكر ! »

قضى الأمر . . وفصل عمر فى القضية . .

وبسط أبو بكر يده فبايعه عمر ، وهو يقول : « ألم يأمر النبي أن تصلى أنت يا أبا بكر بالمسلمين ؟ ! فأنت خليفة رسول الله ، فنحن نبايعك لنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعا » .

وهكذا أيد عمر رأيه بالحجج العقلية التى اقتبسها من واقع الحياة .

وبايع أبو عبيدة أبا بكر ، وهو يقول : « إنك أفضل المهاجرين ، وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة ، أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك ، أو يتولى هذا الأمر عليك ؟! »

وتتابع أهل السقيفة ، فبايعوا أبا بكر ، مجمعين ، لم يندّ عنهم إلا سعد بن عبادة .

أرأيت ؟ . . اختلفوا ، وثاروا ، وكادوا يشتبكون ، ثم هُدوا إلى الحق ، فثابوا إليه جميعا . . كأن لم يكن بينهم خلافا !

وهكذا المعارضة فى الإسلام . . كل يرى مايشاء ، ثم يحتكم الجميع فى النهاية إلى كتاب الله وسنة رسوله .

لقد قال كل منهم قوله ، وعرض رأيه ، ثم احتكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأوا أن أبا بكر أحقهم بذلك الأمر ، لأنه أحبهم إلى رسول الله ، وإمامهم فى الصلاة بعد النبى ، وثانى اثنين إذ هما فى الغار . وتلك حججهم ساقوها دليلا على دعواهم .

وكان هذا أول موقف لعمر فى إثر وفاة رسول الله حسم به الخلاف ، واندفعت من بعده تلك الأمة لتملك الأرض شرقا وغربا .

سياستان ؟

كانت سياسة أبى بكر أن يتبع رسول الله فى كل شىء .

فما صنع رسول الله هو لا محالة يصنعه ، وللمسلمين أن يقولوا ما شاءوا وأن يخالفوه عن رأيه ، فلن يسمع لهم ما كان يصدر عن أمر رسول الله ، وقد أمر رسول الله أن يُتم بعث أسامة فليتم . ليختلف المهاجرون والأنصار ، ولتثر شبه الجزيرة كلها ، ولتتعرض المدينة

للعاصى أن تتعرض له من خطر . كل ذلك لايمكن أن يصرف الصديق عن إنفاذ ماأمر رسول الله بانفاذه . أليس الله قد اصطفاه وأوحى اليه كتابه ، ووعده النصر وأن يحفظ دينه، فكيف تُطوّع لمسلم نفسه ألاينفذ أمره !! . وكيف لخليفته الأول أن يكون أول مخالفيه؟!.

أما عمر .. فكان يرى واجبا على السياسى أن يقيم وزنا لكل ماحوله من الأحداث .

ومن هذه الأحداث أن خلاف المهاجرين والأنصار لم يظهر فى عهد رسول الله ماظهر فى اجتماع السقيفة .وأن انتقاض العرب على سلطان المدينة لم يبلغ حد الثورة إلاحين ذاعت الأنباء بوفاة رسول الله. ثم إن المسلمين قد كانوا يدينون لأمر رسول الله عن إيمان وتسليم. وليس من حق أبى بكر أن يطمع فى أن يدينوا له كما كانوا يدينون للرسول المصطفى ، لجدير به وقد انقطع الوحى بوفاة رسول الله ، أن يكون السياسى الذى يدبر الأمور بثاقب نظره وحسن بصره بالأمور ، بعد أن لم يبق لغير البصر بالأمور تدبير أو سلطان .

هذا اختلاف جوهرى بين الرجلين فى سياسة الدولة .

ولكن هذا الإختلاف لم يكن ليجنى على تقدير أحدهما صاحبه ومحبته إياه ، واحترامه له .

لذلك . . أدى عمر لأبى بكر حقه ، فلم يصنع أكثر من أن أبلغه رأى المسلمين ، أن يؤمر عليهم أحدا أسن من أسامة ، الصغير السن .

فلما أصر الصديق على رأيه سار عمر فى الجيش جنديا مجاهدا فى سبيل الله بإمارة أسامة ، الشاب الأسود ! .

وأدى أبو بكر لعمر حقه ، فاصطفاه وزيراً يشير عليه كما كان يشير على رسول الله .

قلت: إن ما كان من الشيخين ،من تعاون ومحبة ، رغم خلاف وجهة نظرهما فى سياسة الدولة ، دليل لا ينكر ، على أن الإسلام هو خير وسيلة للسمو بالعواطف البشرية .

فلو أن خلافا كهذا قام بين رجلين مسئولين فى احدى الدول ، لعمل كلاهما على التنكيل بالآخر ، واقصائه عن الحكم ، مخافة أن يستأثر بالدولة من دونه !

ولكن أبا بكر وعمر ليسا كذلك ، وإنما هما أخوان فى الله ، متعاونان فى نصرة دين الله ، ينصح أحدهما للآخر ابتغاء مرضات الله ، .

وبهذا يتميز الإسلام عن أساليب البشر فى اخراج نماذج الناس .

ولقد رأت البشرية كلها كيف رشح أبو بكر عمر من دونه للرياسة ، وكيف رشح عمر أبا بكر لها .. وكيف رشح عمر أباعبيدة لها فرفضها .. عجائب والله عجائب !

ولقد سجل أبو بكر اعجاب التاريخ كله ، حين قال له أحد الناس: لسنا ندرى من الأمير أنت أم هو (يعنى عمر) .. فقال أبو بكر : هو ، ولكنه أبى !!

إنهم يدرءون التهمة عن أنفسهم ، كأنما رئاسة الدولة تهمة يفرون منها !! .

لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ؟

ثم كان ذلك الموقف الخالد من أبى بكر .. حين أرادت قبائل عبس وذبيان ، القريبتين من المدينة ، أن تمنعا الزكاة .

وهنا تتصارع المدرستان السياسيتان ، مدرسة أبى بكر ، ومدرسة عمر ، وتفترقان .

فقد رأى أبو بكر أن يقاتلهم ، ودفع حجة مخالفيه فى الرأى بقوله : « والله ، لو منعونى عقالا ! كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه» !

وكان عمر من هؤلاء المخالفين ، القائلين بموادعة من أرادوا منع الزكاة ، والاستعانة بهم على المرتدين . وقد كان عنيفا فى تأييد رأيه ، حتى لقد وجه الكلام إلى أبى بكر فى شىء من الحدة يقول : « كيف تقاتل الناس ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فمن قالها عصم منى ماله ودمه ، إلا بحقها ، وحسابهم على الله ؟! » .

وأجاب أبو بكر على اعتراض عمر بقوله : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، وقد قال : إلا بحقها » .

قال عمر :« والله ماهو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق»

وسارت جيوش المسلمين تحارب المرتدين ، وتسجل نصراً بعد نصر ، وابن الخطاب مقيم إلى جانب الخليفة ، يشير عليه بالرأى ويدبر وإياه سياسة الدولة !.

كأن لم يكن هناك اختلاف ، وإنما تطاوع عمر لأبى بكر ، وعاونه أكثر المعاونة فى حروبه !.

وذلك نموذج آخر للمعارضة فى الإسلام ، نلقى به فى وجوه الذين يسألون عن حرية الرأى فى هذا النظام .

.. ثم نعود إلى قضيتنا الكبرى .. قضية المال ... فنسأل : لماذا رأى عمر ألا يقاتل مانعى الزكاة ؟. لعله كان يجتهد رأيه ، وينظر إلى عموم المسألة ، فهؤلاء يمكن استخدامهم مؤقتاً فى القضاء على المرتدين .. رأى سياسى لا بأس به ... ولكن أبابكر كان أعمق فهماً لحقيقة الإسلام ، وأوسع مدى لادراك القضية فى عمومها ... كان يرى أن التهاون فى أخذ الزكاة فيه قضاء على الدين كله من أساسه ، والقضاء على الدولة الناشئة قضاء تاماً .

ذلك أن الجماهير الجائعة فى الدولة ، لايهمها من أمر الدولة إلا أن تسد جوعتها ، وتملأ بطنها ..

ذلك شأن الجماهير دائماً ، أهم شىء فى تقديرها هو الحياة المعيشية ، هل هى مكفولة ، مأمونة ؟ فإن رأت الحكم يوفر لها معيشتها ، ومطالب حياتها ، أثنت عليه خيراً ، ومضت تؤيده بكل قواها ، وإن رأت غير ذلك لعنت الحكم والقائمين عليه ، وعارضته بكل قواها .

وأبو بكر يعلم ذلك ، فهو كرجل مسئول ، لابد له من القضاء على الفتنة من جذورها. ثم هذا الدين كيف يقوم بغير عدالة اجتماعية ، وكيف تكون العدالة قائمة مالم يأخذ للفقراء حقهم من الأغنياء ؟.

وكان الحق مع أبى بكر ، ووقف وقفته التى انحنى لها التاريخ ، وأدرك عمر على الفور أن ذلك هو الحق ، واندفع يؤيده بكل ماعلم عنه من اندفاع .

عمر يرى عقاب خالد ؟!

كان عمر سيفا بتارا ، يرى أن المخطىء ينبغى أن يؤاخذ بخطئه ، فى قوة وعنف ، مهما كان مركزه الإجتماعى ، أو الأدبى .

وقد كان موقف عمر من خالد بن الوليد ، فى ذلك الشأن ، موقفا رائعا ، وعجيبا !.

قضى خالد بن الوليد على الردة فى بنى أسد ، وانتقل من منازلهم إلى البطاح يقضى على الردة فى بنى تميم ، فقتل زعيمهم مالك بن نويرة ، وتزوج من امرأته ، مخالفا بذلك تقاليد العرب ، إذ كانوا يجتنبون النساء فى الحرب .

وجاء الخبر إلى المدينة ، وذهب عمر إلى أبى بكر مغاضبا ، واندفع يقول : « إن فى سيف خالد رَهَقًا ، وحق عليه أن يُقيده » .

ولم يكن أبو بكر يقيد من عماله .

فقال حين ألح عمر عليه : « هَبْهُ ياعمر تأول فأخطأ ، فارفع لسانك عن خالد ! »

وما كان عمر ليقتنع بماسمع ، وأخذ يطالب فى إلحاح بعزل خالد ...

حتى ضاق أبو بكر بالحاحه ، فقال له : « لاياعمر !. ما كنت لأشيم سيفا سلّه الله على الكافرين ! » .

فما كان من عمر ، إلا أن ذهب يطالب بشتى الوسائل بعزل خالد .. حتى استدعى أبو بكر خالداً إلى المدينة ...

وظن عمر أن أبابكر سيعزل خالدا ... ولكن أبابكر عنفه ... ثم أمره أن يسير إلى محاربة بقية المرتدين !.

خلاف خطير فى السياسة العليا للدولة ، أبو بكر يرى التسامح مع خالد ، وعمر يرى عزله وعقابه ، فأين الحق من الرأيين ؟.

الواقع أن الرأيين حق .. أما أبو بكر فينظر إلى ماهو أهم ، إلى حاجة المسلمين إلى

عبقرية خالد ، فى إخماد نار الفتنة ، وأنفاس المرتدين ، خاصة وأن ما فعله خالد أمر مختلف فيه ، ولعله اجتهد رأيه، وتأول ، فأخطأ .

أما عمر .. فيرى عقاب المخالف ، مهما كانت الظروف ، ومهما كان مقام المخالف.

وعندى أن رأى أبى بكر حق ، ويمكن الأخذ به ، إذا رأى الحاكم أن المصلحة فى العفو عن المسىء .

وكذلك رأى عمر حق ، ويمكن الأخذ به ، إذا رأى الحاكم أن مصلحة المجتمع فى القصاص .

وهذه عظمة من أمر هذا الإسلام .. يجد فيه الناس حلا لكل مشكل ، ومخرجا لكل عظيمة .

ومالنا نذهب بعيدا ... وهذا هو كتاب الله تعالى يقول : « يا أيها الذين آمنوا ، كتب عليكم القصاص فى القتلى ، الحر بالحر ، والعبد والعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شىء ، فاتباع بالمعروف ، وأداء إليه بإحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم . ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » .

لقد جعل الله عقوبة القاتل ، إما أن يقتل ، وإما أن يدفع التعويض ، وإما العفو .. وذلك كله متروك لأولياء الدم .

فإذا كانت جريمة القتل ، ترك الله فيها الخيار للحاكم ، إما أن يقتل القاتل ، وأما أن يأمر أن يدفع تعويضا ، وإما أن يعفو عنه ... فما كان دون ذلك ، فمن باب أولى أن يكون الأمر فيه لرأى الحاكم .

وإن ما كان من خالد ، لم يرتفع إلى مستوى الخطأ ، وإنما هو اختلاف ..

ومن هنا اختلف الشيخان ، عمر يرى القصاص ، وأبو بكر يرى العفو ... وكل يأخذ من معين كتاب الله !

فما أعظم هذا الإسلام !.

وإذا كان لنا أن نتعلم من ذلك الموقف شيئا ، فإنما نتعلم أن السياسة فن عريض ، وأن ما يصلح الآن ، قد لا يصلح فى كل آن ، وأن التطور مع الأحداث ، فى إطار شريعة الله ، أمر ينبغى أن يكون .

وأنه لايجوز أن يتحجر المسلمون ، ويصابوا بالشلل الفكرى ، ويقفوا جامدين أمام أحداث زمانهم ، بدعوى خشية الله .

فإن زعم خشية الله إذا أدت إلى شل القوى الفكرية من الإنسان ، فبئست الخشية ، وساء سبيلا .

إن الله يريد الإنسان انسانا ، مخلوقا حيا ، يتحرك ، ويجاهد ، ويفكر ، ويخطىء ، ويصيب ، ثم يستغفر إذا أخطأ ، ويحمد الله إذا أصاب .

هذا هو الإنسان الذى يريده الله . . لايريد إنسانا ، ملاكا لا يخطىء ، ولايعصى ولو أراد ذلك لأبقى آدم فى جنته ، يحيا حياة الملائكة ... وإنما يريد الله الإنسان بظلامه ونوره ، وجهله وعلمه ، ومحاولته الوصول إلى الكمال ، فيخطىء آنا ، ويصيب اخرى ... هذا هو الإنسان الذى يريده الله ... أما أولئك المشلولون فكرا ، الخاشعون سمتا ، الذين لا يفكرون ، ولا يواجهون مجتمعهم بدينهم ، فهم قوم غاب عنهم الحق ، ففقدوا أجمل مافى هذه الحياة ... وهو دخول تجربة الحياة .

من أجل ذلك حرم الاسلام الرهبانية ، وقال : رهبانية أمتى الجهاد .

انزلوا إلى معترك الحياة ! واصطلوا بنارها ، ولتخطئوا ، وحاولوا أن تستقيموا ثانية ، وهكذا .. فهذه هى الحياة ، وهذا هو الاسلام .

ومن أجل ذلك حرم الاسلام الاعراض عن الزواج ، وقال : النكاح من سنتى ، فمن رغب عن سنتى فليس منى .

ونادى ربكم نداء عليًّا : انكحوا ، ماطاب لكم من النساء ، مثنى ، وثلاث ، ورباع ...

يريد الله الحياة ... دعوة عريضة ، عالية ، تنادى بدخول الحياة من أوسع أبوابها ..
تناكحوا ، تناسلوا فإنى مباهٍ بكم الأمم يوم القيامة ! !

ماهذا ؟ .. هذا هو الدين بإعراض القفا .. ليس الدين أن تعتزلوا الحياة ، وتقولوا زهدنا ، إنما الدين أن تخوضوها ، وتضطربوا فيها ، وتقولوا اهدنا ربنا لأقرب من هذا رشداً .

ليكن الزواج ، وليكن التناسل ، وليكن ماوراء ذلك من مشا كل .. فهذا كله شيء يريده الله ..

ولأن تلقى الله مجاهدا فى سبيله ، بخطئك وصوابك ، خير من أن تلقاه صفرا لا خير لك ولا شر .

هل يدرى الناس ما الاسلام ؟ ... الاسلام سلام وحرب ، فإن طالت الحرب دعا إلى السلام ، وإن طال السلام دعا إلى الحرب .

الاسلام حياة وموت .. فإن طالت الحياة فاجأك بالموت وإن كثر الموت فاجأك بالحياة .

الاسلام طعام وصيام .. فإن امتلأت من الطعام دعاك إلى الصيام ، وإن أطلت الصيام ، دعاك إلى الافطار .

وهكذا .. يريدك حيا ، ولا يريدك ميتا ..

وما الفرق بين الحياة والموت ، أليس هو الحركة .. :

تحركوا أيها الكسالى ... جاهدوا .. ولا عليكم أن تخطئوا .. فقط اجعلوا وجهتكم الله، ولا عليكم بعد ذلك ... والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا .

وإن أمامكم ما كان من خلاف فى السياسة العليا بين أبى بكر وعمر .. هذا يرى العفو ، وذاك يرى العقاب .

ولكنهم كلهم يريدون وجه الله ، فهداهم الله بإيمانهم ، ونصرهم ، وفتح لهم المشارق والمغارب !

وهذا الفهم الثائر الحى المنطلق ، هو ما نريده من جيلنا الصاعد ، فى هذه الأيام ، التى نريد فيها أن ننطلق إلى أمجادنا .

لقد تحررنا من المستعمر ، وتحررنا اقتصاديا ، وتحررنا سياسيا ، ولكن كل هذا لا يكفى ، ما لم نتحرر دينيا .: هناك موروثات وعفونات مترسبة فى أعماقنا ... خلافات ، أوهام ، ظلمات ، نظنها دينا ، وهى ليست من الدين فى شىء .

نريد أن نتحرر فى فهم ديننا ، ونفهمه كما كان يفهمه الخلفاء الراشدون ... حرية فى الرأى ... فى ضوء كتاب الله وسنة رسوله ... لا نريد جمودا يشل عقولنا ، ولا خوفا باردا يجمد أفكارنا .

ولكن ننطلق ، وننطلق ، نهتف : ربنا هب لنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا .

وسوف نخطىء ، ونخطىء ، ولا علينا ، فسوف نستغفر ، ونستغفر .

تالله لو ربينا ، شبابنا ، وفتياتنا على ذلك ، لانفتحت لنا المغاليق ولآتانا الله من فضله عجبا .

إنى أرى ؟!

هذا هو عمر ، ذلك الرجل العظيم ، الذى اقتبس عظمته من الحرية .. حرية الرأى فى أوسع معانيها .

كانت معركة اليمامة تلك التى قتل فيها أربعون الفا من المرتدة ، وألف ومائتان من أصحاب رسول الله ... وكان منهم جمع عظيم من حفظة كتاب الله ...

فكر الرجل الحر ، عمر بن الخطاب ، فى الأمر ، ورأى فيه رأيا بينه وبين نفسه ، وذهب سريعا إلى أبى بكر ، وقال : « إن القتل استحر بقراء القرآن يوم اليمامة ، وإنى

أخشى أن يستحر القتل بالقراء ، فى المواطن كلها ، فيذهب قرآن كثير ، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن » .

قال أبو بكر ، دهشا : « كيف أفعل شيئاً ، لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟!»

إلا أن عمر ، كان يرى رأيا ، غير رأى الصديق ، فأيد رأيه بالحجة ، إثر الحجة ، حتى أقنعه .

ودعا أبو بكر زيد بن ثابت .. وأمره أن يجمع القرآن ! .

مادلالة الواقعة ! .

دلالتها أن عمر ، أثبت مرة أخرى أن حرية الرأى لا تأتى إلا بخير .

ولو أن عمر كان من أولئك الأتقياء ، الذين يعيشون فى رعب من عذاب النار ، وينعزلون عن الحياة شيئا فشيئا حتى يصابوا بالتحجر والجمود . . لو أنه كان من هؤلاء الموتى ، مااستطاع أن يفكر ، ولا أن يرى ذلك الرأى العظيم .

ولحرمت الأمة إلى يوم القيامة تلك النعمة ... ولكنها الحرية ، حرية القلب الذى آمن بالله ربه ، فاندفع يفكر فى كل مافيه خير الأمة كلها .

إجمع القرآن ياأبابكر . . . وخذ برأى عمر ، فإن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه .

لقد كان عمر تنفيذا لقوله تعالى « إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون » .

وجمع القرآن كما رأى عمر .. وبقى فينا أثرا من آثار حرية الرأى عند عمر .

قال المستشرق الانجليزى وليم ميور : « والأرجح أن العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن ظل اثنى عشر قرناً كاملا بنص هذا مبلغ صفائه ودقته » .

ويرى فتح الشام !

ثم تمضى حرية الرأى بعمر إلى أبعد امتداداتها . .

أصبح أبو بكر يوما ، فدعا إليه أهل الرأى ، وعمر فى مقدمتهم ، وذكر لهم أن رسول الله ، كان عول أن يصرف همته إلى الشام .

«والعرب بنو أم وأب . وقد أردت أن أستنفرهم إلى الروم بالشام ، فمن هلك شهيدا، وماعند الله خير للأبرار ، ومن عاش منهم عاش مدافعا عن الدين مستوجبا عند الله عزوجل ثواب المجاهدين » .

وطلب إليهم رأيهم فى ذلك ، فكان عمر بن الخطاب أسبقهم إلى اجابته ، قال : «والله ماسبقنا إلى شيء من الخير قط إلاسبقتنا إليه ! قد والله أردت لقاءك بهذا الرأى الذى ذكرت ، فماقضى الله أن يكون ذلك حتى ذكرته الآن ، فقد أصاب الله بك سبل الرشاد . سرّب إليهم الخيل فى أثر الخيل ، وابعث الرجال تتبعها الرجال ، والجنود تتبعها الجنود ، فإن الله عزوجل ناصر دينه ، ومعز الإسلام وأهله ، ومنجزما وعد رسوله » .

وهنا نقف جميعا نتطلع إلى عمر قائلين : ماهذا أيها العمر ؟

هل هو التواضع أن تقول : والله ماسبقنا إلى شيء من الخير قط إلاسبقتنا إليه ؟..

نعم إن نفسك العالية تعترف بالحق لأهله ، وترى أبا بكر أسبق منها إلى كل خير .

فلتتعلم البشرية آداب الصداقة من استاذها عمر .

أم هى قوة الإيمان بالله ورسوله ، تدفعك أن تقول : فإن الله عز وجل ناصر دينه .. ومنجز ما وعد رسوله ؟.

ولكن الأمر فوق الطاقة ياعمر ؟ . . كيف تلقى ببضعة آلاف من العرب الحفاة ، امبراطورية الرومان ؟ .

وبهت الحاضرون .. وعاد أبوبكر يدعوهم إلى التجهز ، فسكتوا ...

فماذا كان من عمر ؟

صاح فيهم : « مالكم يامعشر المسلمين لاتجيبون خليفة رسول الله إذا دعاكم لما يحييكم ؟! » .

وكانت صيحة عمر هى القاضية ... فرضي الحاضرون الجهاد ، وانطلقوا يتأهبون !.

أما نحن ... أبناء هذا الجيل فنقف أمام تلك الفقرة الخالدة « إذا دعاكم لما يحييكم » سائلين : أفي القتال حياه ؟ .

سلوا عمر يقل لكم : نعم .. كل الحياة ، بل الذين لم يقاتلوا موتى ، ولا يشعرون .

قال تعالى : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم .. » .

فما من إنسان إلا ويكره القتال ، ولكن الخير دائما فى القتال ..

وبلغة العصر الحديث .. الحروب سبب تقدم البشرية .

فكيف إذا كان ذلك القتال ، انتصارا للحق ، وإعلاء لدين الله ؟ .. إنه إذا خير عظيم .

ذلك أن الأمة المقاتلة ، تأخذ بأسباب القوة .. القوة فى الأجسام ، والقوة فى الإنتاج ، والقوة فى التسلح ، والقوة فى العلم .. وهذه أسباب تحيى الأمة ، وتنشر فيها أسباب الحياه .

ونحن الآن أحوج ما نكون إلى فهم هذا الإتجاه من الإسلام العظيم .. وحسبنا ما كان من مفاهيم ضائعة حالمة خانعة .

ينبغى أن نركز فى رءوس هذا الجيل أن الإسلام قوة ، واستعداد ، وتسلح ، وقتال إذا لزم الأمر ...

وعندئذ يرى الشباب فى الاسلام آماله وأحلامه ، فيتدفق إلى دين الله أفواجا .

إن الشاب لن يستجيب لك إذا قلت له أن الاسلام سلام وتسبيح وصلاة .. ولكنه يأتيك توا إذا قلت له إن الاسلام قتال وجهاد وصراع .

هذا هو الفهم العمرى العظيم .

الجماهير تختار عمر !

استبان الموت لأبي بكر ، فخاف أن يترك الناس بلا خليفة فيكون يوم كيوم السقيفة ، ولم يرد أن يعين رجلا بعينه ، فيفعل مالم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فجمع الناس، لم يشغله مرضه وألمه عن الإهتمام بأمرهم ، فنزع بيعته من أعناقهم . وكلفهم أن ينتخبوا غيره للخلافة وقال لهم : إنه قد نزل لى ما ترون ، ولا أظننى إلا ميتا ، لما بى من المرض ، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتى ، وحل عنكم عقدتى ، ورد عليكم أمركم ، فأمّروا عليكم من أحببتم ، فانكم إن أمرتم فى حياة منى ، كان أجدر ألا تختلفوا بعدى .

فذهبوا فتشاوروا ، وبحثوا ، فلم يتفقوا على أحد ، فرجعوا إليه ، فوكلوه أن يختار لهم .

قال : فأمهلونى حتى أنظر لله ولدينه ولعباده .

وبدأ (استشاراته) وجعل يدعو أصحاب الرأى وكبار الصحابة ، واحدا بعد واحد .

فدعا أولا عبد الرحمن بن عوف ، فقال له : أخبرنى عن عمر بن الخطاب ؟ :

فقال له : ما تسألنى عن أمر إلا وأنت أعلم به منى .

فقال له : وإنْ !

فقال عبد الرحمن : هو والله أفضل من رأيك فيه .

يا أيها الجيل الحاضر ، تأمل كيف كان هؤلاء العظماء عظماء .. حتى فى كلامهم ؟ .

إن عبد الرحمن يثنى على أبى بكر ، ثم يثنى على عمر .. أدب ، تواضع ، شهادة حق !!.

ألا إن هؤلاء لهم الناس .

ثم دعا عثمان ، فقال له مثل ذلك .

فقال : علمى به أن سريرته خيرٌ من علانيته ، وأنه ليس فينا مثله .

فقال أبو بكر : يرحمك الله ، والله لو تركته ما عدَوْتك .

ثم شاور سعيد بن زيد ، وأسيد بن الحضير ، وغيرهما من المهاجرين والأنصار .
فقال أسيد : اللهم أعلمه الخيرة بعدك ! يرضى للرضا ، ويسخط للسخط ، والذى يُسر خير من الذى يعلن ، ولن يلىَ هذا الأمر أحد أقوى عليه منه .

ما أنت قائل لربك ؟

لقد كان مجتمعَ هؤلاء الناس حرا إلى أوسع آفاق الحرية .
سمع بذلك بعض الصحابة ، ممن لا يرى انتخاب عمر ، فدخلوا عليه ، وقال قائل منهم : ما أنت قائل لربك ، إذا سألك عن استخلافك عمر علينا ، قد ترى غلظته ، وهو إذا ولى كان أفظ وأغلظ ؟!

إن هناك معارضة ... معارضة يسارية .. ترى غير ما ترى الأغلبية .. إنها لا تريد عمر ، ولا تريده خليفه .

فماذا كان موقف أبى بكر ؟ .
هل سارع إلى اعتقالهم ، أو اتهامهم بالخيانة ، أو حتى نظر إليهم نظرة ريبة ؟ .
كلا ... وإنما قال : أجلسونى .
فلما جلس ، قال : أبالله تخوفونى ؟ خاف من تزود من أمركم بظلم . أقول : اللهم إنى قد استخلفت على أهلك خير أهلك .
ثم قال للمعارض : أبلغ عنى ماقلت لك مَنْ وراءك .
ثم اضطجع ، ودعا بعثمان وأملى عليه قرارا .. هذا نصه :
« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ماعهد به أبو بكر بن أبى قحافة ، فى آخر عهده بالدنيا ، خارجا منها ، وأول عهده بالآخرة ، داخلا فيها ، حيث يؤمن الكافر ، ويوقن الفاجر ، ويصدق الكاذب ، إنى استخلفت عليكم بعدى ... »
وأخذته غشية ، فذهب به قبل أن يسمى أحدا .
فكتب عثمان : « عمر بن الخطاب » .

ثم أفاق أبو بكر ، فقال : اقرأ علىّ ما كتبت .

فقرأ عليه ذكر عمر .

فكبر أبو بكر ، وقال : أراك خفت أن تذهب نفسى فى غشيتى تلك ، فيختلف الناس ، فجزاك الله عن الإسلام خيرا . والله إن كنت لها لأهلا .

ثم أمره أن يكتب تتمة الكتاب : « فاسمعوا له وأطيعوا . وإنى لم آلُ الله ، ورسوله ، ودينه ، ونفسى ، وإياكم خيرا . فإن عدل فذلك ظنى به ، وعلمى فيه ، وإن بدّل فلكل امرىء ما اكتسب ، والخير أردت ، ولا أعلم الغيب ، (وسيعلمُ الذين ظلموا أىّ مُنقلبٍ ينقلبون) والسلام عليكم ورحمة الله » .

ثم أمره ، فختم الكتاب ، وخرج به مختوما ، ومعه عمر ، وأُسيد بن الحضير ، وأسيد بن سَعْيَة القرظى .

فقال عثمان للناس : أتبايعون لمن فى هذا الكتاب ؟

قالوا : نعم .

فإنه عمر !

(وفى رواية) أن أبابكر أشرف على الناس كَوّته ، فقال : ياأيها الناس ! إنى قد عهدت عهدا ، أفترضونه ؟ .

فقال الناس : رضينا ياخليفة رسول الله .

فقام علىّ ، فقال : لا نرضى إلا أن يكون عمر .

قال : فإنه عمر .

فأقروا بذلك جميعا ، ورضوا ، فرفع يديه فقال : « اللهم إنى لم أردْ إلا صلاحهم ، وخفت عليهم الفتنة ، فعملت فيهم ماأنت أعلم به ، واجتهدت لهم رأيى ، فوليت عليهم خيرهم ، وأقواهم عليه ، وأحرصهم على ماأرشدهم . وقد حضرنى من أمرك ماحضر . فاخلفنى

فيهم ، فهم عبادك ، ونواصيهم بيدك ، وأصلح لهم أميرهم ، واجعله من خلفائك الراشدين ، يتبع هدى نبي الرحمة ، وهدى الصالحين بعده ، وأصلح له رعيته » .

كلمات تلك ، أم دعوات صالحات ، أم توجيهات نافعات ، أم بالخلود حقيقات ؟ .

إن هذا الرجل المسمى أبو بكر لعجيب !

إنه يكلم ربه .. على ملأ من الناس ، فلا يشغله حضورهم عن الله ، ولا يشغله الله عن الناس ، وإنما هو يقف قدم فى الدنيا ، وقدم فى الآخرة . ورأسه فى السماء !.

فكر فى كل فقرة من هذا الدعاء ، تجد فيها قطرات من بحار الحقيقة ، تتموج بعيدا بعيدا .. إلى الأبد .

فإن قال أبو بكر : فإنه عمر !

فأنا أقول : فإنه أبو بكر !

أمير المؤمنين

اللهم إنى غليظ فليِّنِّى ؟!

فرغ عمر من دفن أبى بكر ، بعد منتصف الليل ، من مساء الإثنين ، لاحدى وعشرين ليلة خلت من شهر جمادى الآخرة ، للسنة الثالثة عشرة من الهجرة .

وعاد إلى منزله ، يفكر فيما ألقى عليه من مسئوليات .

وأصبح ، فخرج إلى الناس بالمسجد ، فأقبلوا على بيعته ، إقبالا سكن بعض ماجاشت به نفسه .

فلما كان الظهر ، وازدحم الناس للصلاة ، صعد عمر المنبر ، درجةً ، دون الدرجة التى كان يقوم أبوبكر عليها ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبى ، وذكر أبا بكر وفضله ، ثم قال : « أيها الناس ! . ماأنا إلا رجل منكم ، ولولا أنى كرهت أن أرد أمر خليفة رسول الله ماتقلدت أمركم » .

ثم توَجّه بنظره إلى السماء ، وقال : « اللهم إنى غليظ فلينى ! . اللهم إنى ضعيف فقوّنى !. اللهم إنى بخيل فسخّنى ! » .

ثم سكت قليلا ... ثم قال : « إن الله ابتلاكم بى ، وابتلانى بكم ، وأبقانى فيكم بعد صاحبىّ ، فوالله ، لايحضرنى شىء من أمركم فيليه أحد دونى ، ولا يتغيب عنى فآلو فيه عن الجَزْء والأمانة ، ولئن أحسنوا لأحسننّ إليهم . ولئن أساءوا لأنكّلن بهم » .

ماهذا ؟ ... هذه سياسة عمر ... الخطوط العريضة من تلك السياسة ... تخطيط يعلنه على الشعب ، ليحاسبه على تنفيذه .

وعمر حين يعلن شيئا إنما يقرر حقا ، ويرسم أعمالا سوف تقع وتكون ... لأن عمر ليس كذابا ، ولاخؤونا ، ولا سياسيا محترفا .

ماذا قال آنفا ؟ .

إنه يقول : « ماأنا إلا رجل منكم » ... أول الخطوط أنه فرد عادى ، لاميزة له على أحد من الشعب ، له مالهم ، وعليه ما عليهم .

وهذا أول الطريق من سياسة الرجل .

ثم ماذا ؟ ... ثم يقول : « اللهم إنى غليظ فلينى » ... رئيس الدولة ، يعترف بما يراه من نفسه نقصا ـ وماهو بنقص ـ ويعلن ذلك على الملأ ، ويتجه إلى الله أمام الناس ، ويصيح بذلك الدعاء الكبير « إنى غليظ فلينى » ... لا تخافوا أيها الناس من شدتى ، فإنى أرجو الله أن يلينى لأهل الحق ، ويجعلنى غليظا على الباطل وحده .

ثم ماذا ؟ ... ثم يقول : « اللهم إنى ضعيف فقونى » ! ... كلا يا عمر ... كلا والله ... مابك من ضعف ، إنك أقوى الناس على حمل الأمانة ، ولكنه التواضع لله دفعك أن تعلن ضعفك على الملأ : وتسأل الله أن يقويك !.

ثم ماذا قال الرجل ؟ ... قال : « اللهم إنى بخيل فسخنى » ... فهل كان عمر حقا بخيلا ؟ كلا ، وإنما هو هضم النفس ، صفة من صفات الأبرار ، يرون كمالهم نقصا يستعاذ منه !. لقد كان عمر جوادا ، سباقا إلى كل خير ، ولكنه يريد المزيد ... المزيد من الصفات العليا .. وعند الله مزيد .

ثم ينتفض الرجل ، عملاقا جبارا ، ويعلن فلسفته فى الموضوع ، فيقول : « إن الله ابتلاكم بى ، وابتلانى بكم » .. نفس الفكرة ، فكرة الإسلام فى الحياة ، أنها بلاء ، اختبار .

إن عمر يعلن أنه يختبر بشعبه ، وان شعبه يختبر به ... إن المسألة ليست علوا فى الأرض ، وجبروتا يتسلط على الشعب ... وإنما هو اختبار ، اختبار الحاكم ماذا يفعل فى الناس ، واختبار الناس كيف يكون سلوكهم مع الحاكم .

إن عمر ينطق بالنظرية الإسلامية فى الحياة « الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » ... ومن يفهم الإسلام كعمر ؟ .

ثم يعلن فى النهاية أعظم مبدأ من سياسته العامة فيقول : « ولئن أحسنوا لأحسنن إليهم ، ولئن أساءوا لأنكلن بهم » .

وهذان هما العمودان اللذان تقوم عليهما سياسة عمر .. مكافأة المحسن ، ومعاقبة المسىء .

عمر يتطور سياسيا ؟

ونادى عمر فى الناس ، يأمرهم أن يردوا سبايا أهل الردة إلى عشائرهم ، ثم قال : « إنى كرهت أن يصير السبى سُنّة فى العرب » .

فماذا يريد من أمره هذا ؟.

لقد سبى المسلمون من العرب ، فى حروب الردة ، تنفيذا لأمر أبى بكر ، حين أذاع فى أرجاء شبه الجزيرة أنه أمر كل قائد من قواده ألا يقبل من مرتد إلا الإسلام ، ومن أبى ، أن يقاتله على ذلك ، ولا يُبقى على أحد منهم قدر عليه ، وأن يحرقهم بالنيران ويقتلهم كل قتلة ، ويسبى النساء والذرارى .

فهل يريد عمر أن يخالف عن رأى أبى بكر ؟.

كلا ... إنما يريد ابن الخطاب أن يتألف بذلك العرب من مختلف القبائل ، ليمد بهم المثنى فى العراق .

وكان هذا ابتكارا من عمر فى سياسة الدولة ، وشيئا جديدا .

فماذا نفهم من ذلك ؟ ... نفهم أن الإسلام يرى التطور فى السياسة مع الحوادث والمقتضيات ، وأن الجمود على ما كان شيء مستحيل .

لقد استقرت تلك السبايا بأيدى الغزاة ، وها هو عمر ، يأمرهم بردها ، بعد أن صارت حقا لهم ... لأنه يرى أن فى ذلك المصلحة العليا للدولة !.

لأحملنهم على الطريق !

وخرج عمر إلى الناس بالمسجد فى اليوم الثالث ، فلما فرغوا من بيعته ، قام فيهم ، فقال : « إنما مَثَلُ العرب مثل جمل أنِف[1] اتّبع قائده ، فلينظر قائده حيث يقوده . أمّا أنا ، فوربّ الكعبة لأحملنهم على الطريق » .

إن عمر يهدد ... يهدد باستعمال القوة ، وأنه سوف يحملنهم على طريق الحق حملا ،

(١) ذلول ، وهو الذى عقر الخشاش أنفه ، فهو لا يمتنع على قائده ، للوجع الذى به .

ليس الأمر أمر مزاج شخصى ، هو الحق الذى ينبغى أن يعلو ، وما يترتب على ذلك من أخذ الأمور بالحزم والعزم .

ودوى هدير عمر فى المدينة كما يدوى هدير الموج فى الآفاق ...

وزاده دويا أن قائله عمر ... هذا الذى إذا قال فعل ، وإذا فعل صدق ، وإذا صدق عزم ! .

عمر يحلل شخصية عمر !!

أحس عمر آثار قوله فى وجوه الناس ، وآنس منهم رعبا ... فصعد المنبر حين ازدحموا لصلاة الظهر فقال : « بلغنى أن الناس هابوا شدتى ، وخافوا غلظتى ، وقالوا : قد كان عمر يشتدعلينا ورسول الله بين أظهرنا ، ثم اشتد علينا وأبوبكر والينا دونه ، فكيف وقد صارت الأمور إليه» ؟! .

ومن قال ذلك فقدصدق .

« ... إننى كنت مع رسول الله ، فكنت عبده وخادمه ، وكان من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة ، وكان ، كما قال الله ، بالمؤمنين رءوفاً رحيما . فكنت بين يديه سيفاً مسلولا حتى يُغمدنى أويدعنى ، فأمضى . فلم أزل مع رسول الله حتى توفّاه الله ، وهو عنى راض ، والحمد لله على ذلك كثيراً ، وأنابه أسعد .

« ثم ولى أمر المسلمين أبو بكر ، فكان من لا تُنكرون دعته ، وكرمه ، ولينه ، فكنت خادمه وعونه ، أخلط شدتى بلينه ، فأكون سيفاً مسلولا حتى يُغمدنى ، أو يدعنى ، فأمضى . فلم أزل معه كذلك ، حتى قبضه الله عز وجل ، وهو عنى راض . فالحمد لله على ذلك كثيراً ، وأنا به أسعد .

« ثم إنى قد وليتُ أموركم أيها الناس . فاعلموا أن تلك الشدة قدأضعفت ، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدى على المسلمين .

«فأما أهل السلامة ، والدين ، والقصد ، فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض .. ولست أدع

أحداً يظلم أحداً ، أو يتعدي عليه ، حتى أضع خده على الأرض ، وأضع قدمى على الخد الآخر ، حتى يُذعن بالحق . وإنى بعد شدتى تلك ، أضع خدّى على الأرض ، لأهل العفاف ، وأهل الكفاف .

« ولكم علىّ أيها الناس خصال ، أذكرها لكم ، فخذونى بها :

« لكم علىّ ألا أجتبى شيئاً من خراجكم ، ولا ما أفاء الله عليكم ، إلا من وجهه .

« ولكم علىّ إذا وقع فى يدى ، ألا يخرج منى إلا فى حقه . ولكم علىّ أن أزيد عطاياكم ، وأرزاقكم ، إن شاء الله تعالى ، وأسدّ ثغوركم .

« ولكم علىّ ألا ألقيكم فى المهالك . ولا أجمِّركم[1] فى ثغوركم ، وإذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال .

« فاتقوا الله ، عباد الله ، وأعينونى على أنفسكم بكفها عنى !. وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وإحضارى النصيحة فيما ولاّنى الله من أمركم .

« أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم » .

* * *

ماهذا ؟ ... هذا — والله — كلام له ما بعده !. إن عمر يحلل شخصيته بنفسه ، فهل رأيت حاكما فى الدنيا . بلغ ذلك السمو الذى بلغه عمر ؟.

اللهم لا ... ولكن عمر . يبلغ هذا ، وماوراء هذا ... بأنه الحق تمثل فى إنسان ، أو بأنه إنسان ذاب فى الحق !.

ياعمر .. ياسيد القرون ، والأجيال ، من بعد صاحبيك ... تقدم ... وعلم العرب ، وغير العرب ، كيف يكون رئيس الدولة إنسانا قبل أن يكون حاكما ، وكيف يكون هاديا قبل أن يكون جبارا ، وكيف يكون مرشدا قبل أن يكون رئيسا .

تقدم يا سيد الناس ... وتكلم ... واسمعى أيتها الدنيا ، نساء ورجالا ، صغارا وكبارا ... اسمعوا إلى عمر ، أعجب إنسان أخرجه محمد صلى الله عليه وسلم !.

(١) تجمير الجيش : جمعهم فى الثغور ، وحبسهم عن العود إلى أهلهم .

ماذا تقول ياسيدى ؟

« فاعلموا أن تلك الشدة أضعفت ، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم ، والتعدى على المسلمين » ..

ياويل من يظلم بعد الآن ، ياويل من يتعدى على أحد بعد الآن . .

إن عمر له بالمرصاد . . لقد قام فى الدنيا عملاق الحق ، ومارد الإسلام . . عمر ابن الخطاب !.

أسمعنا ياسيدى . ، تكلم ..« فأما أهل السلامة ، والدين ، والقصد ، فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض».. ما أسعدهم بك ياعمر! .إنك سوف تكون لهؤلاء ألين من بعضهم لبعض!

لماذا ؟ . لأن الذين إستقاموا جديرون بالاحترام ، والرحمة ، والتوقير .

مقياس عجيب . لا يتأتى إلا ممن كان على فقه من دين الله.. ومن أعظم من عمر فقها؟.

الحق المسلح

ثم يقول عمر قولا ، مازال يهز الكرة الأرضية وسيظل يهزها حتى تقوم الساعة . . من شدة مافيه من طاقات الحق ، المنطلقة إلى آفاق الأبد .

قال : « ولست أدع أحداً ، يظلم أحداً ،أو يتعدى عليه،حتى أضع خده على الأرض، وأضع قدمى على الخد الآخر ، حتى يُذعن بالحق . وإنى بعد شدتى تلك ، أضع خدّى على الأرض ، لأهل العفاف ، وأهل الكفاف » ! !

هل سمعت الدنيا ؟ . . هل سمع رؤساء الدول ؟ . هل سمعت الشعوب والجماهير ؟ هل سمع الشيوعيون ؟ . هل سمع الرأسماليون ؟ .

هل سمع أولئك الذين يختلفون على حقارات ! ويتناوشون على أوهام ؟ .

أى شىء يجعلنا بعد هذا الذى سمعناه من عمر ، نأوى إلى نظام شيوعى ، أو رأسمالى ؟

وماذا فى الشيوعية ، أو فى الرأسمالية ، يدانى ــ ولو قليلا ــ ما عند عمر ؟.

إن عندنا من الكنوز العلمية ، والسياسية ، والإنسانية ، ما لو طبقنا معشاره ، اصلح بنا وجه الأرض .

إن عمر يعلن ـ وإعلانه الحق الواقع ـ أنه لن يدع أحدا يظلم أحدا أو يتعدى عليه .. فهل حدث هذا فعلا فى عهد عمر ؟ .

نعم . . فما شهدت الأرض عدلا مثل عدله، وما ظلم أحد فى عهده، وعلم ذلك منه، إلا رد إليه حقه ! .

ثم انظر إلى تصوير عمر للحالة التى ينوى احداثها فى كل ظالم . . « حتى أضع خده على الأرض ، وأضع قدمى على الخد الآخر » ... غاية الاذلال للظالم ، إنه سيطرحه أرضا ، خده إلى الأرض ، وقدم عمر فوق خده الآخر ؟

وغاية الشدة والبأس . . حتى متى ؟ . . حتى يذعن بالحق .

جبار على الظالمين ، جبار على المعتدين . . هذا هو عمر . .

إلا أنه على النقيض . . مع أهل العفاف ، وأهل الكفاف . . وفى ذلك يقول : « وإنى بعد شدتى تلك ، أضع خدى على الأرض لأهل العفاف ، وأهل الكفاف » ! !

ما أعظم عمر ، وما أكبر نفسه ،وما أكرم معدنه !!

إنه يضع خده على الأرض لصنفين ، أهل العفاف ، والكفاف . . . فمن هم هؤلاء ؟

هم الذين يعفون عما بأيدى الناس ، ولا يظلمون أحداً .

وهم الذين حياتهم كفافا ، أى بالكاد يجدون ما به يستمرون فى حياتهم ، فلا فضل مال عندهم ، ولا شىء يزيد عن حاجتهم .

إن الكفاف هو ما كف عن الحاجة ، عن السؤال .

وهذا أصل عظيم فى عمر . . ونقول عظيما لأنه كان أمرا نافذا ، طول حياته . طبقه ، وأخذ الناس به ، واشتهر عنه .

إن عمر يذهب إلى تحقير الظالم أو المعتدى إلى أن يطأ وجهه بقدمه ، ويدوس عليه ثم يذهب بعيدا كذلك فى تعظيم أهل العفاف والكفاف واحترامهم .

فما الفلسفة التى نأخذها مما ذهب إليه عمر ؟

الفلسفة أن عمر يتكلم هنا بصفته أميراً للمؤمنين، وأن رأيه شيء نافذ فى جماهير، وأنحاء الدولة.

ليس بقول فليسوف فى صومعته ، أو عالم فى مكتبته ، وإنما الرأى للتنفيد والتطبيق .

ومن هنا تتأتى خطورة قول عمر ، ومن هنا كذلك نأخذ أمورا ، بها نهتدى فى حياتنا الحديثة .

أن الدولة عليها أن تحتقر أشد الاحتقار أى مواطن فيها يظلم مواطنا آخر ، أو يعتدى عليه .

وإنما يتحقق ذلك الاحتقار بما يناسب ظروف المجتمع ، المتطورة ، وتشرع الدولة لتحقيق ذلك ماتشاء .

وعلى الدولة أن تكون فى خدمة المواطنين الصالحين ، أهل العفاف والكفاف ، وهم الجماهير ، الذين يكدحون ليأكلوا ، ويؤكلوا أولادهم .

وإنما يتحقق الرفق والتواضع ، بما تقرر لهم الدولة من المزايا ، والخدمات الإجتماعية .

ثم ماذا قال عمر ؟

« لكم على ألا أجتبى شيئا من خراجكم ، ولا ما أفاء الله عليكم إلا من وجهه » .

أى لا يجوز للدولة أن تدخل خزانتها شيئا من حرام ، لأنها دولة مسلمة ، الإسلام يفرض عليها أن يكون مالها مكتسبا من حلال .

وهنا ينبغى أن نراجع ميزانية الدولة ، وننظر هل هناك من الايرادات شيئا ، يأتى من حرام ؟ . فإن وجدنا شيئا ، وجب علينا الغاءه فورا مهما كانت الأسباب .

ثم ماذا قال عمر ؟ .

« ولكم على إذا وقع فى يدى ألا يخرج منى إلا فى حقه » .

فلسفة المصروفات فى ميزانية الدولة عند عمر .. فلسفة الانفاق .. لا يخرج منى إلا فى حقه . . لا يجوز أن تنفق الدولة شيئا إلا فى حقه .

فما هو هذا الحق ، وما حدوده ؟ .

هو العدل والحلال ... يكون الانفاق مستوفيا لهاتين الصفتين ، فإذا فقدها أو أحدها ، فهو انفاق فى غير حقه .

تنظر الدولة ميزانيتها ، المصروفات منها ، على هذا الأساس،هل المبالغ المطلوب انفاقها تحقق عدلا اجتماعيا ؟ فاذا مارأتها تحقق ذلك العدل ، نظرت بعد ذلك ، هل هى تنفق فيما أحل الله ؟ فإن كان المال المعتمد صرفه مستوفيا للشرطين فهو فى حقه ، وهو مايراه عمر .

ولو أن الباحثين فى الاقتصاد ، والواضعين لميزانيات الدول ، أرادوا أصولا عامة ، يهتدون بها فى وضع ميزانياتهم ، ما وجدوا خيرا مما وضعه عمر ، وأعلنه منذ اربعة عشر قرنا أمام الجماهير .

لا يحصل مال إلا من وجهه ، ولا يخرج منه إلا فى وجهه ؟

قضى الأمر ، ونطق عمر بفصل الخطاب !

فالميزانية فى الإسلام ليست مجرد ايرادات تجمع مما هب ودب . لا تفريق فيها بين حلال أو حرام . وإنما هى أموال طيبة . ليس فيها شىء يحرمه الله . . وكذلك المصروفات ، هى أموال طيبة تنفق فى وجوه الخير التى أحلها الله وشرعها .

فلا يجوز عند عمر أن يأخذ مالا من الربا ، أو الخمر ، أوالزنا ، أو الافساد ، ثم نقول هذه أموال عامة . . كلا ، بل نبطل كل هذا ، وندمر الأساس الذى تنبع منه ، فنلغى الربا ، ونحرم الخمر ، ونحرم الزنا ، ونحرم الفساد ، ومتى حرم الأصل فقد حرمت الفروع .

ولا يجوز عند عمر أن ننفق أموالنا فى دفع الربا ،أو فى وسائل الزنا ،أو فى تجارة الخمر أو فى تشجيع الفساد . . كلا ، بل تحارب الدولة هذا كله ، ولا تنفق فيه مليما واحدا .

هذه هى الأصول العامة فى الميزانية العامة للدولة عند عمر، فهل تراها تركت أمرا إلا احتوته ؟!

رفع مستوى المعيشة

ثم ماذا قال عمر ؟ .

« ولكم على أن أزيد عطاياكم ، وأرزاقكم ، إن شاء الله تعالى » .

تلك الثروة التى لا يكف الناس عنها فى أنحاء العالم ، ذلك الشىء المسمى برفع مستوى المعيشة .. ذلك الذى هو شغل دول العالم الشاغل . كل دولة ، تعمل على رفع مستوى شعبها، بكل طاقاتها ، وكل ألاعيبها ، وكل مكرها ودهائها .

هذا الأمر ، عبر عنه عمر فى بساطة ، كبساطة الشمس إذا أشرقت . . حين أعلن « أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم »

إنه يقول للجماهير ، إن لكم علىّ ، إن لكل مواطن على الدولة حقا ثابتا ... ماهو هذا الحق ؟... أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم ...

أن أزيد مهاياكم وأجوركم ، وهذا هو المقصود بالعطايا فى هذا الزمان الذى نحن فيه.

وأن أزيد وسائل الربح لكل إنسان ، وهذا هو المقصود بالأرزاق التى يشير إليها عمر !.

عجبا لهذا الرجل !. أى عبقرية يغترف منها ، ومن أين له كل هذا العلم ، الذى جاهدت البشرية أعمارها ، حتى وصلت إلى شىء قليل منه ؟.

عمر يقرر أن الدولة ملزمة تجاه الشعب ، ومفروض عليها أن تزيد مهايا الأفراد وأجورهم ، وأن تزيد لهم أرزاقهم عموما ، تفتح فرصا جديدة للعمل ، تفتح فرصا جديدة للربح .

ثم يتوج هذا كله بالاستثناء ... بقوله : إن شاء الله تعالى !!.

وهنا يتميز عمر عن أى رئيس دولة معاصر ... أولئك الذين يقفون ، ويعلنون ، ويقررون ، أنهم سيعملون ، ويعملون ، ويرفعون مستويات شعوبهم ، ويرفعون . كل ذلك بصيغة الكبر ، والجزم ، كأن الأمر طوع بنانهم ، ولا معقب على أحكامهم !.

ولكن عمر ، ذلك الربانى الموصول بربه ، الذى لا ينسى الله فى أى من أمره . يعلم أن هناك إرادة فوق إرادته ، ومشيئة فوق مشيئته ، فيعقب على قراراته بقوله : إن شاء الله تعالى !.

ومن هنا يجب أن نتعلم ، من عمر ، قبل أن نتكلم .

يجب على كل رئيس دولة أن يتعلم من عمر ، فإذا وقف يقول لشعبه : سوف نعمل كذا ، وكذا ... وجب عليه فورا أن يقول : إن شاء الله تعالى ،

امتثالا لقوله سبحانه : «ولا تقولن لشيء إنى فاعل ذلك غدا . إلا أن يشاء الله ...»

إن عمر كان يأخذ من ذلك التوجيه الربانى ، ومما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن ذلك التوجيه ، ومن آداب رسول الله ، ومن أسلوب عمر فى الخطاب أمام الجماهير ، ينبغى أن يتعلم الساسة جميعا ، صغروا أم كبروا .

الدفاع عن الدولة .

ثم يمضى عمر فى بيان سياسته العامة فيقول : « وأسدّ ثغوركم » أى أن رئيس الدولة مسئول أمام الشعب عن صيانة حدود الدولة ، وتوزيع الجيوش على الثغور ، دفاعا عن كيانها .

ثم يقول : « ولكم علىّ ألا ألقيكم فى المهالك » ... ولكن ليس معنى إعداد الجيوش ، وجعلها فى أعلى درجة من القدرة على الضرب والحركة ، أن تدفع إلى المهالك . أو تكون ألعوبة فى أيدى رئيس الدولة . يعبث بها كيف يشاء . ويغامر بها فى مغامرات طائشة ، تهلكها وتهلك الدولة من ورائها ... كلا . وإنما هو مسئول عن حسن قيادتها ، وحسن سياستها .

والدولة لها أن تمنعه من اساءة استعمال القوة التى بيده أمرها .

سياسى و مُربى ؟

وفى زحمة الألفاظ السياسية البحتة ، يتحول عمر إلى مُرب عجيب ، عميق التربية ... فيقول : « ولا أجمّركم فى ثغوركم . وإذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال »!

وتجمير الجيش . هو جمعه فى الثغور ، وحبسهم عن العود إلى أهلهم .

فلماذا يعد عمر الجماهير ألا يحبس الضباط والجنود طويلا فى مواقعهم التى فيها يعسكرون ؟ ,

لأن غياب المقاتل طويلا عن بيته ، فيه ما فيه من احتمال الفتنة والفساد ، لأهل ذلك البيت ... فمن الخير أن يعود بعد قليل إلى منزله ، لينظر أحواله ، ويأنس إلى أهله ، ثم يعود إلى القتال .

مبدء شرعه عمر ، مازالت الدنيا تنظر إليه فى اعجاب واكبار !.

ثم يعلن المربى العظيم مبدأ أخطر من الأول فيقول : « وإذا غبتم فى البعوث ، فأنا أبو العيال » .

ومعنى « أنا » هنا ، أى الدولة ، لأن عمر له صفة عامة ، يتكلم بها .

فما معنى ذلك ؟ ... معناه أن عمر يعد الجماهير ، ووعده حق نافذ ، أنهم إذا غابوا عن منازلهم ، وبيوتهم ، وأولادهم ، وأهلهم ، فى بعوث القتال ، بعيدا عن بيوتهم ، فهو أبو العيال ؟ ! .

قفوا أيها الناس ... وانظروا ... ماذا قال عمر ؟ .

أنا أبو العيال ؟... الدولة تحل محل الأب فى الأسرة ، فى حالة غياب الأب ، فى القتال ، دفاعا عن الدولة ، أو نشرا لدين الله ، أو بسبب الموت ، أو غير ذلك !.

فهى مسئولة عن الأسرة مسئولية الأب عنها .

تنفق على الأسرة كما كان الأب ينفق عليها .

وتحافظ على مقدساتها ، وحرماتها ، كما كان الأب يحافظ عليها ..

وتعطف على أبنائها ، كما كان الأب يعطف عليها ! .

انظروا أيها الاشتراكيون ، المفتونون بما عندكم ، هذا نذر يسير ، من بناء الاسلام الاشتراكى .

رضى الله عنك عمر ... أسياسيا كنت أم مربيا ؟.

أعينونى على نفسى !

ثم يبلغ عمر الذروة من مقام التربية والارشاد فيقول : « فاتقوا الله ، عباد الله » ...
ذلك أن الشعب التقى ، شعب عظيم ، دائماً وأبدا ، كما وأن الشعب الفاجر ، شعب حقير ، دائما وأبدا .

والتقوى تعبير جامع مانع ، يعنى اتقاء عقاب الله ، باتيان طاعاته ، والبعد عن معاصيه.
وإذا علم أن الله أمر بكل خير ، ونهى عن كل شر ، فمعنى هذا أن الشعب التقى ، شعب يفعل الخير دائما ، ويبتعد عن الشر دائما .

ومتى كان الشعب على ذلك الأسلوب فهو أعظم الشعوب .. فعمر حين يقول للشعب « فاتقوا الله » فإنما يرشده الى أقصر طريق إلى العظمة الحقيقية ، إلى الطريق الحاسم الذى ينبغى على الأمة أن تسلكه لتحقق السعادة لنفسها ، وللدول جميعا .

ثم يقول : « عباد الله » ... أنتم جميعا عباد لله ، لا عباد لعمر ، ولا للدولة ، ولا لأحد ... وإنما العبودية لله ...

وهذا أقصى غايات التشريف ، والتحرير ، للجماهير .

ثم ماذا ياأعدل من شهدته الأرض ؟..

ثم يقول: «وأعينونى على أنفسكم بكفها عنى!»... أعينونى على حكمكم ، بابعاد أنفسكم عن مؤاخذة الدولة لكم ... كأن عمر يريد أن يقول للجماهير : إذا أردتم أن تجعلوا حكمى لكم سهلا ، فابتعدوا عما يوجب مؤاخذتكم ، أى انتظموا على أمر الله ،وأطيعوا..

ثم ماذا أيها المربى ؟.

ثم يقول : « وأعينونى على نفسى ، بالأمر بالمعروف ،والنهى عن المنكر ، وإحضارى النصيحة ، فيما ولانى الله من أمركم !» .

يطلب عمر إلى الجماهير أن تعينه على نفسه ، أن تساعده على التغلب على نفسه ، وهواها ، وذلك بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ..

وهذا أصل آخر من أصول السياسة العامة عند عمر ... إنه يرى أن رئيس الدولة لا يستطيع أن يتغلب على شهواته وأهوائه فى الحكم ، إلا إذا أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ... فما معنى هذا ؟. معناه أن نظرية عمر فى الحكم ، هى نظرية الاسلام فى ذلك . وما كان لعمر أن يخرج عن منطوق الاسلام ومفهومه !

والإسلام يرى أن الأمة كلها كراكبى سفينة ، إذا تركوا أحدهم يخرقها ، غرقوا جميعا ، وإن منعوه نجوا جميعا .

والنصوص القرآنية الأحاديث فى ذلك مستفيضة ، مشهورة ، لا نرددها هنا ، وإنما نومىء إليها . ونقول : الإسلام يجعل كل الأمة مسئولة ، حاكمها ومحكومها ، عن أمور الدولة جميعا .

والمعروف مارآه المؤمنون حسنا .

والمنكر مارآه المؤمنون قبيحا .

والمؤمنون يقيسون الأمور بمقياس السماء الذى أنزل إليهم من ربهم ، وأمروا باتباعه وتنفيذه .

إذا عمر يطلب إلى الشعب أن يراقبه ، وأن يأمره بالمعروف إذا تكاسل عنه ، وينهاه عن المنكر ، إذا أقدم عليه .

ومن هو عمر ؟ . . . هو من شهد الجميع له بالخير . . . ومع هذا يطلب إلى الجماهير ، أن تراقبه . وتبين له الخطأ من الصواب ؟!

وعندى أنه لاتوجد دولة معاصرة بلغت مابلغته الدولة الإسلامية على عهد عمر ، من حرية النقد ، وحرية السياسة .

إن المألوف أن تطلب الشعوب إلى الحكومات حرية النقد ، وحرية الكلمة ، بينما عمر الذى يطلب إلى الشعب أن ينتقده ، ويبين له الخطأ من الصواب ! .

ثم يبلغ الرجل غاية التواضع ، والتذلل بين يدى الله جل ثناؤه فيقول : « أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم !»

تواضع ، عبودية ... ثم احساس عميق بحاجة الجميع ، حاكما ومحكوما ، إلى رحمة الله ، ومغفرته ! .

المناصب ليست حكرا؟

وتقدم أبو عُبَيْد عمرو بن مسعود الثقفى للسير إلى العراق، وثنى من بعده سليط بن قيس.
ثم اجتمع الناس اليهما ، وأجمعوا السير معهما ، فكان معهما ألف رجل من أهل المدينة .

وسر عمر سرورا بالغا ، حين رأى اقبال الجماهير على الجهاد ، وخروجهم إمداداً لإخوانهم بالعراق .

وأسرع قوم إلى الخليفة يقولون له : « أمِّر عليهم رجلا من السابقين من المهاجرين والأنصار » .

إلا أن عمر أجابهم : « لا . والله لا أفعل !»

إن الله إنما رفعكم بسبقكم وسرعتكم إلى العدو ، فإذا جُبُنتم وكرهتم اللقاء ، فأولى بالرياسة منكم من سبق إلى الدفع ، وأجاب إلى الدعاء . والله لا أؤمر عليهم إلاأولهم انتدابا ً ».

وثم دعا أباعبيد فولاه الإمارة .. ودعا سعد بن عُبيد ، وسليط بن قيس . وقال لهما : « أما إنكما لوسبقتماه لوّليتكما . ولأدركتما بها إلى مالكما من القدمة » .

اطمأن المثنّى بن حارثة ، قائد قوات المسلمين بالعراق ، حين رأى هذا الجيش ، يتأهب للسير معه إلى العراق .

أما عمر فرأى أن لاحاجة ، بالمثنى إلى البقاء بالمدينة ، ولذلك أمره أن يرجع إلى العراق ، فيلحق بقواته فيه .

حتى إذا دنا موعد الرحيل ، قال عمر لأبى عبيد ، يوصيه : « اسمع من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، وأشركهم فى الأمر . ولاتجتهد مسرعا حتى تتبين ، فإنها الحرب ، والحرب لا يُصلحها إلا الرجل المكيث ، الذى يعرف الفرصة ، والكف » .

تلك هى الأقصوصة التى واجهت عمر فى أيامه الأربعة الأولى من خلافته .

لقد جاء المثنى يطلب مددا ، يستعين به على الموقف فى العراق ، فدعا عمر الناس إلى

الخروج ، فتباطأ عنه أكثرهم ، ثم برز من بينهم أبو عبيد ملبيا دعوته ، حتى تتابع الناس وراءه ..

فلما قيل لعمر ليؤمر عليهم أحد المهاجرين أو الانصار رفض رفضا تاما باتا ، وأمر عليهم أول رجل لبى دعوة الجهاد ، فكان عمر فى ذلك تطبيقا حرفيا سريعا ، لمبدئه الخالد « ولئن أحسنوا لأحسنن إليهم ، ولئن أساءوا لأنكلن بهم » .

لقد أحسن عمر إلى أسبق رجل إلى الجهاد فرفعه فورا ، أميرا على الجيش ، وفيه ما فيه من السابقين ، من المهاجرين والأنصار !

ونكل بجميع الذين تباطأوا عن الجهاد ، أيا ما كان مقامهم من رسول الله . . حين تركهم ، وأمر عليهم ذلك الرجل .

وذلك هو العدل المطلق ، الذى لا يفرق بين انسان وانسان ، وانما الجزاء على قدر العمل ، مع صرف النظر عن أوضاع الناس فى المجتمع .

وكانت قاعدة عظمى من عمر . . أن القيادة لمن هو لها أهل ، وأن أولى الناس بها أسرعهم استجابة للتضحية فى سبيل الله !

عزل القائد العام للقوات المسلحة !

ما إن تولى عمر الخلافة ، حتى سارع إلى عزل خالد بن الوليد - قائد عام القوات الإسلامية المسلحة - وسيف الله المسلول ، والرجل الذى تعلقت الجماهير بانتصاراته الخارقة !.

لماذا هذا ؟

لقد كثر الكلام ، فى هذا الموضوع ، قديما وحديثا ، وأدلى الناس فى الأمر بأقوالهم وظنونهم .

فما هو الحق من الأمر ؟ .

عندى أن الحق هو أن عمر بن الخطاب ، يريد أن تتعلق قلوب الناس بالله ، لا بخالد بن الوليد .

والجماهير دائما وأبدا تلتف حول الفاتح الميمون ، وتكثر من نسج الخيالات فى شأنه .

ولقد أوتى خالدبن الوليد من يمن الإنتصارات ، وعظمة الفتوحات ، ماجعله حديثا فى فم الزمان ، وأغنية على لسان الجماهير .

ومعنى هذا أن الجماهير قد افتتنت بخالد ونسبوا النصر إلى خالد ، ونسوا الله ، الذى هو الناصر الحق ، وهو الذى بيده الأمر .

وحين تتعارض الأمور ، يقف عمر فورا إلى جانب الحق ، ويبطل الباطل .

وهذا هو الوجه من قضية عزل خالد ، فإن عمر لايرى لشىء فضلا إلا لله ، ولانصرا الامن الله ، ولاعزا إلا من الله ... فإذا تسببت انتصارات خالد ، أن تنسب الجماهيرالنصر إليه ،فمعنى هذا أن التوحيد الذى جاءبه محمد صلى الله عليه وسلم قد أصيب فى نفوس الناس ، وأنهم بدءوا يرتبطون بالأسباب ، ولايرتبطون بالله . . وهذا أخطرداء وأعضل مرض ، تصاب به الجماهير ، يحرمها من تأييد الله ، ومتى حرمت من تأييده سبحانه ، وكلت إلى نفسها ، ومتى وكلت إلى نفسها ، هزمت وذلت واندحرت .

إذا القضية خطيرة ، أخطر مما يظن المؤرخون ، أو يتوهم الكتاب .

القضية أن عمر يريد أن يبقى التوحيد صافيا كما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

وأن تعلم الجماهير دائما أن النصرمن عند الله لايرتبط بعبقرية خالد ، ولابعبقرية أحد غير خالد .

ولئن جاء النصر على يدى خالد ، فليس معنى هذا أنه لايأتى على يد غيره أوأنه هو سبب النصر الأوحد .

كلا . . . وإنما الله أراد النصر ، وأراد أن يكون على يد خالد ، فهو سبحانه السبب الحقيقى ، وما خالد إلا مظهر لإرادة الله .

فيجب إذا أن ترتبط الجماهير بالله لابخالد ، وأن يكون اعجابها بالله لابخالد ، وأن يكون شكرها لله لا لأحد سواه .

تلك هى القضية .. وذلك هو الوجه الذى نظر إليه عمر ، حين رأى أن يعزل خالدا. ويؤمر مكانه أبا عبيدة بن الجراح ، بمجرد توليه للخلافة بعد أبى بكر...

ولقد سجل عمر رأيه فى القضية ... تماما كهذا الرأى ، حين خشى أن يفهم الناس عزل خالد على غير حقيقته ، فكتب منشورا يذاع فى الأمصار والبلدان ، ذكر فيه أنه لم يعزل خالداً ، عن سخطة ولا عن خيانة ، ولكن الناس فتنوا به ، فخشى أن يوكلوا إليه ، ويبتلوا ، فأحب أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وأن لا يكونوا عرضة للفتنة به ، وينسبون النصر إليه ، وما النصر إلا من عند الله .

أوامر إلى القائد العام الجديد ؟

وكتب عمر إلى أبى عبيدة بن الجراح ، غداة قبض أبو بكر ، يخبره بوفاة الخليفة ، ثم كتب بعزل خالد ، وتولية أبى عبيدة إمارة الجيش مكانه ، وأن يكون خالد ، أمير اللواء الذى كان أبو عبيدة أميره .

وأصدر عمر أوامره وزواجره إلى أبى عبيدة فى كتاب توليته . . فماذا قال للقائد العام الجديد ؟ .

« لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ، ولا تنزلهم منزلا قبل أن تستريده لهم . وتعلم كيف مأتاه . ، ولا تبعث سرية إلا فى كثف من الناس .

« وإياك وإلقاء المسلمين فى هلكة ! .

« وقد أبلاك الله بى ، وأبلانى بك ، فغمض بصرك عن الدنيا ، وأله قلبك عنها »

« وإياك أن تهلكك ، كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيتم مصارعهم ! »

تالله إن هذا لشىء عجاب !

إن عمر يأمر أبا عبيدة ؟ . . أبو عبيدة أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الأصحاب السابقين ، وأمين الأمة ، يقول له عمر : غمض بصرك عن الدنيا . وأله قلبك عنها؟!

أوفى شك أنت من صاحبك يا ابن الخطاب ؟

كلا . . إنما هى الأخوة المؤمنة ، تخاف على صاحبها ، فتنصحه لله ، وتوجهه لله .

ولو أنك قرأت وصية عمر لقائده العام ، لرأيته يبدأ بها عسكرية صريحة . يرسم له الخطة ، ويبين له التكتيك .. ثم ينتهى بها رسالة فى التربية . والتوحيد الربانى !

وهكذا كان هؤلاء الناس ... عسكريين من الطراز الأول ثم ربانيين من الطراز الأول كذلك .

وهذا ينبغى أن يكون منا، فى عصرنا الحديث. ينبغى أن نوجه جيشنا بكافة مستوياته نحو الله، ونحو مثلنا العليا . وذلك كله إلى جوار مايتعلمون من دروس العسكرية وفنونها.

ومتى اجتمع للجيش قوة الروح ، وقوة السلاح، فهو الجيش الذى لا يقهر، بإذن الله .

تخطيط سياسى جديد ؟

بعث نصارى نجران وفدا يجادل النبى ، فلما دعاهم الا يعبدوا إلا الله ، ولا يشركوا به شيئا ، ولا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله ، تولوا ، وعادوا إلى بلادهم .

ثم إنهم بعثوا إليه وفدا، صالحه على الجزية، يدفعونها لقاء دفاع المسلمين عن حرية عقيدتهم

فلما تولى أبو بكر أقرّ نصارى نجران ، وعاهدهم ... على ماعاهدهم النبى عليه .

لكن عمر ، ماإن تولى الأمر ، حتى اتجه فيه اتجاها جديدا ...

دعا إليه يَعْلَى بن أمية ، وأمره أن يجلى نصارى نجران عن ديارهم !.

وقال له : « إيتهم ، ولاتفتنهم عن دينهم . ثم أجْلِ من أقام منهم على دينه . وأقرر المسلم . وأمسح أرض كل من تُجلَى منهم . ثم خيِّرهم البلدان . وأعلمهم أنا نجليهم بأمر الله ورسوله ، ألا يُترَكَ بجزيرة العرب دينان . فليخرج من أقام على دينه منهم . ثم نعطيهم أرضاً كأرضهم . إقراراً لهم بالحق على أنفسنا . ووفاء بذمتهم فيما أمر الله من ذلك . بدلا بينهم وبين جيرانهم من أهل اليمن . وغيرهم ، فيما صار لجيرانهم من الريف » .

وكان هذا تخطيطا جديدا لعمر ... تنفيذا لما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل ... ألا يُترك بجزيرة العرب دينان ...

لماذا ؟.. لأن جزيرة العرب مهد الدعوة ، أوبلغة العصر الحديث المملكة الأم . فلا يعقل أن يترك بها دين غير دين الاسلام .

لماذا ؟... لأنها بمثابة القلب من جسم الامبراطورية الاسلامية . فينبغى أن يكون القلب مسلما ، طاهرا ، يدفع دماء التوحيد ، وأنوار الاسلام ، ويغذى بها سائر أعضاء الجسم .

وهذا أمر طبيعى . تستلزمه مقتضيات أمن الدولة الجديدة . ذات العقيدة الجديدة .

ولا مانع بعد هذا . وفيما وراء جزيرة العرب ، أن تكون هناك اديان اخرى . وعقائد أخرى ، فى الممالك التى دانت للاسلام .

هذا من ناحية السياسة العامة للدولة . أما من ناحية الأوامر التى ألقاها عمر إلى قائده ، تنفيذا لخطة الإجلاء ، فإنها غاية فى الصدق ، وغاية فى العدل ، وغاية فى الرحمة !.

قال عمر : « إيتهم . ولا تفتنهم عن دينهم » ... إياك أن تحاول فتنتهم عن المسيحية التى هم عليها ... لا تضغط عليهم بأى نوع من أنواع الضغط السياسى ، أو الحربى ، أو الدبلوماسى ، أو حتى المحاولة !. هم أحرار فى دينهم ، وليبقوا على مسيحيتهم ماشاءوا البقاء عليها !.

ولوشاء عمر ، لأخذهم أخذا ، وقهرهم قهرا على الاسلام ... ولكنه لم يفعل ، لأنه يسوس الأمور بما عرف عن الاسلام من حرية العقائد ، وحرية الأديان !.

أين هذا الذى كان من عمر ، وهو ماهو عليه من سلطة مطلقة فى جزيرة العرب ، مما تفعله كثير من دول العالم الآن ، من اضطهاد من ليسوا على عقيدتهم الدينية ، أو السياسية ، أو الاقتصادية ، وتعذيبهم ، والتنكيل بهم ، حتى يرغموهم على اعتناق مالا يريدون !.

ثم ماذا ياأعجوبة الدنيا ؟... « ثم نعطيهم أرضاً كأرضهم ، إقرار لهم بالحق على أنفسنا ، ووفاء بذمتهم فيما أمر الله من ذلك ، بدلا بينهم وبين جيرانهم من أهل اليمن وغيرهم » ...

أرأيت ؟... إن عمر يعطى من أجلاهم من النصارى ، أرضا غير أرضهم ، مثلها ، أو خيرا منها ، يختاروا أيها شاءوا !.

عدل ... قسطاس مستقيم ... ميزان سليم ... وذلك هو عمر ... أوذلك هو التطبيق الاسلامى الصحيح يتمثل فى عمر .

أمير المؤمنين ؟.

كان يقال لأبى بكر خليفة رسول الله ، فلما استخلف عمر قيل لعمر خليفة خليفة رسول الله .

فقال المسلمون : فمن جاء بعد عمر قيل له خليفة خليفة خليفة رسول الله ؟! فيطول هذا ، ولكن اجتمعوا على اسم تدعون به الخليفة يدعى به من بعده الخلفاء .

فبعث إليه عاملُ العراق ، لَبيدَ بن ربيعة العارى ، وعَدِىّ بن حاتم الطائى ، فلما قدما المدينة أناخا راحلتيهما ، بفناء المسجد ، ثم دخلا المسجد ، فإذا هما بعمرو بن العاص.

فقالا له : استأذن لنا على أمير المؤمنين .

فقال عمرو : أنتما والله أصبتما اسمه ، نحن المؤمنون وهو أميرنا .

فوثب ، فدخل على عمر . فقال : السلام عليك ياأمير المؤمنين .

قال عمر : مابدا لك فى هذا الاسم ؟.

قال : إن لَبيدِ بن ربيعة ، وعدىّ بن حاتم ، قدما فأناخا وقالا لى : استأذن لنا على أمير المؤمنين ، فهما والله أصابا اسمك ، أنت الأمير ونحن المؤمنون .

فجرى الكتاب بذلك .

ومن يومئذ لم يَدْعُ أحد عمر خليفة خليفة رسول الله ، بل دعاه الناس جميعا « أمير المؤمنين ».

وبقى هذا اللقب له ، ولمن بعده من خلفاء المسلمين وملوكهم .

ماذا نأخذ من تلك الحادثة ! .

نأخذ منها أن الألقاب تتطور مع حوادث العصر ومقتضياته ، وأن العبرة بالأعمال لا بالألقاب .

فقد كان أبو بكر يدعى خليفة رسول الله ، ثم هاهو عمر يدعى أمير المؤمنين .

وهكذا كانت عقلية المسلمين الأوائل ... عقلية متطورة مع الأحداث ، لا يجمدون ، ولا يتحجرون ، ولايطعن تطورهم فى دينهم .

أما نحن الآن ، مسلمو هذا الزمان ، فأمرنا عجب ، مازلنا نستمسك بأوهام مضى عليها أكثر من ألف عام ، ونأبى أن نتطور فيها مع مقتضيات عصر الفضاء .

فبينما تجد الرجل السوفيتى أو الأمريكى يطير فى سفينة الفضاء ، تجد ناسا من المسلمين مازالوا يتجادلون : هل تجوز الصلاة بالرأس عارية أم لاتجوز؟!!

كأن الاسلام مرتبط بتلك القضية ، أوكأن الحياة قائمة عليها ؟.

وذلك هو الجمود الرهيب .

هناك تخلف فى أفكارنا ، هناك تخلف فى عقائدنا ، هناك تخلف فى أحاسيسنا .

والاسلام برىء من كل هذا ، عدو للجمود ، عدو للموت ، لأنه دين الحياة ، ودين الإحياء ، ودين العقل المتطور .

تكريم !؟

وألقت الامبراطورية الفارسية بجيوشها ، تريد أن تسحق العرب الذين اجترءوا على انتزاع العراق منها ، وتلقى عليهم درسا لا ينسى ، يردهم على أعقابهم ، إلى صحرائهم التى جاءوا منها .

وجاء أبو عبيد بالجيش الذى خرج على رأسه من المدينة ، وانضم إلى الجيش الذى تحت إمرة المثنى ، وقاد أبوعبيد الجميع إلى اللقاء .

واصطدمت القوتان ، وكانت معركة النمارق ، والتقى الفريقان ، واقتتلوا قتالا شديدا ، أظفر الله فيه أباعبيد بجابان — قائد الفرس — وجنوده .

وأسر جابان ، وأسر قائد تحت إمرته ، يدعى مردا نشاه ، وقتل هذا الأخير من أسره .
أما جابان ، وكان شيخا كبيرا ، فخدع الذى أسره إذ قال له : « إنكم معشر العرب

أهل وفاء ، فهل لك أن تؤمنني ، وأعطيك غلامين أمردين ، خفيفين فى عملك ، وأعطيك كذا وكذا .. »

وأجزل له الوعد . قال آسره : نعم . قال : فأدخلنى على أميركم حتى يكون ذلك بمشهد منه ، فأدخله على أبى عبيد ، فشهد على ماتم .

على أن قوما من المسلمين عرفوه ، وقالوا لأبى عبيد : اقتله فانه الأمير .

وأجابهم أبوعبيد : « وإن كان الأمير . فإنى لا أقتله ، وقد أمنه رجل من المسلمين، فالمسلمون فى التوادّ ، والتناصر كالجسد ، مالزم بعضهم ، فقد لزم كلهم »!!.

ماذا نأخذ من تلك الأقصوصة ؟... نأخذ منها أن علينا دائما أن نحذر ألاعيب أعدائنا دوليا ، وداخليا ، فهذا هو القائد الفارسى يخدع حارسه ، ويستغل سماحة الاسلام ، ليفر من أيديهم .

ولئن كان الاسلام سمحا ، فينبغى أن يكون أهله دائما على حذر ، فإن أعداءه ليسوا على شىء من السماحة أو الوفاء .

ونأخذ منها كذلك مبدأ هاما جدا من مبادىء سياسة عمر ... نأخذه من قول القائد المسلم « فالمسلمون فى التواد والتناصر كالجسد ، مالزم بعضهم ، فقد لزمهم كلهم » ذلك المبدأ الذى يجعل لأى مسلم ؛ مهما كان وضعه الاجتماعى ، من الحقوق مثل مالأعظم المسلمين وضعا فى المجتمع . هذا رجل لايعدو أن يكون حارسا بسيطا ، يؤمن أكبر فارسى ، فيمضى أبوعبيد أمانه ، ويعلن القاعدة العامة « المسلمون كالجسد، مالزم بعضهم فقد لزم كلهم » ! .

أى تكريم لإنسانية الفرد فى المجتمع الاسلامى أكبر من ذلك التكريم ؟.

فرد عادى من الشعب يصبح قوله ملزما للدولة ، متى أعطى أمانا لعدو ، أقرت الدولة ذلك الأمان ! .

ذلك أن المسلمين كالجسد الواحد ! .

مساواة ؟!

ومضت جيوش أبي‌عبيد ، وانطلقت لتجهز على‌ماتبقى من جيوش فارس، وفر الفرس، وتركوا للمسلمين مغانم كثيرة .

ووجّه أبو عبيد قواده ، والمثنى فى مقدمتهم، فاحتلوا سوادالعراق من أعلاه إلى أسفله، وأذاعوا الرعب فى الناس ، وأعادوا إلى ذاكرتهم أيام خالد بن الوليد وفعاله .

ورجع الدهاقين إلى أبى عبيد ، يصالحونه ، ويعتذرون عما كان منهم فى ممالأة الفرس على العرب . ويذكرون أنهم غلبوا على أمرهم ، فلم يكن لهم فيما حدث نهى ولا أمر .

ولما أتم أبوعبيد الصلح معهم ، جاءوه بآنية فيها ألوان‌من طعام فارس الشهى ، وقالوا: هذا قِرًى لك ، وكرامة أكرمناك بها .

فماذا كان جواب القائد العربى ؟ .

قال : أأكرمتم الجند بمثله ، وقريتموهم ؟ ! قالوا : لا !

فرده ، وقال : « لاحاجة لنا فيه ! بئس المرء أبوعبيد ، إن صحب قوماً من بلادهم ، وأهراقوا دماءهم دونه ، أو لم يهريقوها ، فاستأثر عليهم بشىء يصيبه ! .

« لا والله ، لايأكل مما أفاء الله عليهم ، إلا مثلما يأكل أوساطهم ! »

ولم يأكل من طعام أتى به الدهاقين ، غداة ذلك اليوم ، حتى علم أنهم قرّبوا مثله لأصحابه ! !

ماهذا ؟ . . . هذا شىء عجاب !.

ماشهدنا ولا علمنا ، أخلاقا ، سمت ، مثل ما سمت بهؤلاء الناس أخلاقهم !

قف أيها العربى الحديث ...قفوا أيها الناس جميعا ،واشهدوا ماذا كان من عظمة ذلك القائد ؟.

ولو أن قائدا ، شرقيا أوغربيا ، عقد صلحا مع دولة من الدول ، ثم دعته تلك الدولة ، عقب اعلان معاهدة الصلح ، إلى حفلة ساهرة راقصة ، لاهتبلها فرصة واعتبرها كياسة دبلوماسية ، وسارع ، من فوره ، فى زهو ملابسه العسكرية الرسمية ، يرقص فى الحفلة حتى

الفجر ، يشرب من خمورها ، ويراقص حسانها ، وينعم بلذاتها . . . ولقالوا بعدذلك : قائد عظيم ، وسياسى حكيم ، ودبلوماسى خطير ! .

لكن القائد العربى «أبوعبيد» ، يأتيه عظاء العراق خاضعين ،ويعقدون معهاتفاقيات الصلح ، ثم يدعونه إلىطعام فاخر ، ليكون ذلك دليلاعلى السلام بينهم وبين الجيش الفاتح.

ليس هناك أى عيب ، ولاخروج على المألوف ، أن يلبى دعوتهم ، ويأ كل من وليمتهم ، تأكيدا للصداقة بين الفريقين ... بهذا تقضى الدبلوماسية ؟ .

لكن أباعبيد ، ذلك الذى تخرج من أعظم جامعة شهدتها الأرض ، جامعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رفض أن يمس لهم طعاما ، حين علم أنهم لم يكرموا الجند بمثل ماقدموا إليه ، وقال قوله الخالد : « لاحاجة لنافيه ! بئس المرء أبو عبيد ، إن صحب قوما من بلادهم ، وأهراقوا دماءهم دونه ، أولم يهريقوها ، فاستأثر عليهم بشىء يصيبه ! لاوالله لايأ كل مما أفاء الله عليهم إلا مثلما يأ كل أوساطهم ! »

أى جمال ، وأى جلال ، فى قولك ياأباعبيد ؟

عليك صلوات الله وسلامه يارسول الله ، يامن أخرجت إلى البشرية مثل أبىعبيد ، أولئك الكرام ، العظام ، الذين ارتفعوا فوق الهام والأوهام !

لست أدرى أتنسب هذه العظمة إلى رسول الله أم تنسب إلى أبى عبيد ؟ .

أينسب الضياء إلى قرص الشمس أم ينسب إلى شعاعها ؟ .

ثم أى حب يكون لك من الجيش ، فردا فردا لك ياأبا عبيد ، حين يعلمون فعلك الجميل ، وقولك الكريم ؟ ... حين رفضت أن تأ كل من طعام لم يأ كلوا منه ... ورددته إلى أصحابه ... وأنت تقول : بئس المرء أبوعبيد ؟ !! .

إنك ياأباعبيد بقولك هذا ، تعتبر أستاذا لكل من جاهد ، أوقاتل فوق هذه الأرض.. أستاذا لكل قائد ، فى كل جيش ، تعلمه كيف القيادة ، وكيف يكون الاحساس بين القائد وجنوده ، وبين الرئيس وشعبه .

أين مافعلت مما يفعل قادة الجيوش ، أوقادة الأمم ، حين ينعمون بما لاينعم به أحد من الجنود ، أو من ابناء الشعب ؟

وأين الناس جميعا ليسمعوا منك تلك القاعدة العظمى التى قررتها ، فصارت أصلا من أصول الاسلام : «لا يأ كل مما أفاء الله عليهم إلا مثلما يأ كل أوساطهم »؟!

وهنا نقف ، لنستنبط أخطر حكم فى سياسة الاسلام .

أن القادة يأ كلون كما يأ كل أوساط الناس .

أن القادة يعيشون فى المستوى المعيشى ، الذى تعيش عليه الطبقة المتوسطة من الشعب !

ويؤخذ من ذلك كذلك ، أن الاسلام لا يعترف بامتيازات للطبقة الحاكمة من دون الشعب . وإنما يريدها سواسية ، جسد واحد ، متكافل متعاون !

ولا يعترف بامتياز لقادة الجيش على جنوده ، وإنما الكل على مستوى واحد ، فى الطعام ، واللباس ، والحقوق .

وإن جيشا هذا شأنه ، لابد أن ينتصر ، وأن يكون كالجسد الواحد .

فلو أن الجندى منه نظر إلى قائده ما وجد له عليه فضلا ، ولو أن القائد منه نظر إلى الجندى ما رأى لنفسه عليه فضلا.. حينئذ تتواءم النفوس، وتتحد القلوب، وتئز كلها إلى الله أزًّا .

الإمبراطورية الفارسية تنتقم !

وغضبت فارس . . . وقررت الإنتقام . . . ووجهت قوة عظيمة ، وجعلت فى مقدمة الجيش راية كسرى، وكانت من جلود النمر، عرضها ثمانى أذرع، وطولها اثنتا عشرة ذراعا .

وسارت جيوش فارس من المدائن . . .

تراجع أبو عبيد وجنوده إلى قرية قس الناطف ، فعبروا النهر اليها ،وتحصنوا ينتظرون عدوهم بها .

وأقبل بهمن قائد الفرس ، فلم يكن إلا النهر بينه وبينهم . . . ثم بعث إلى أبى عبيد يقول له : « إما أن تعبروا إلينا ، وندعكم والعبور ، وإما أن تدعونا نعبر اليكم » .

وأشار أصحاب أبى عبيد عليه ألا يعبر ، وأن يدع الفرس يعبرون .

لكن أبا عبيدة غضب غضبا كبيرا ، ثم قال : « لا يكونوا أجرأ على الموت منا ، بل نعبر إليهم !.»

فناشده سليط بن قيس ، ووجوه الناس، وقالوا : « إن العرب لم تلق مثل جنود فارس مذ كانوا ، وإنهم قد حفلوا لنا، واستقبلونا من الزُّهاء والعُدَّة ، بما لم يلقنا به أحد، وقد نزلت منزلا لنا فيه مجال وملجأ ، ومرجع من فرّة إلى كرة » .

فقال : « لا أفعل ! جَبُنتُ والله إذًا ! » .

وجبن سليطا ، فرد عليه سليط بقوله : « أنا والله أجرأ منك نفسا ، وقد أشرنا عليك بالرأى ، فستعلم » ونسى أبو عبيد قول عمر له : « إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة . تقدمُ على قوم قد جرءوا على الشر فعلموه ، وتناسوا الخير فجهلوه » .

نسى هذا كله ، وأمر جنوده بالعبور . . فعبروا ...

كان جند المسلمين دون عشرة الآلاف ، مع ذلك ضاق بهم المكان الذى تركه لهم الفرس وراء الجسر ، فلم يكن لهم فيه مرجع من فرّة إلى كرّة .

ولم يمهلهم بهمن « قائد الفرس » حين تم عبورهم ، أن أمر جنوده فحملوا عليهم ، وفى مقدمتهم الفيلة عليها الجلاجل ! .

ونظرت خيول المسلمين إلى هذه الفيلة ، وسمعت رنين جلاجلها ، فأنكرت مارأت وماسمعت ، وفرّت فلم يثبت منها إلا القليل على كره .

ورشق الفرس المسلمين بالنّبل ، فقتلوا منهم خلقا كثيرا .

وترجل أبو عبيد ، وترجّل جنوده ، ومشوا إلى الفرس ، فقتلوا منهم ستة آلاف .

ولكن الفيلة تقدمت إليهم ، فجعلت لا تحمل على جماعة إلا دفعتهم .

ونادى أبو عبيد رجاله ، أن اقطعوا بطن هوادج الفيلة ، وأن يقلبوا عنها أهلها ، وأن يقتلوهم .. ففعلوا ..

وتداول الفريقان التقدم والتراجع ، فكانت المعركة سجالا ، ساعات من النهار .

أبو عبيد يستشهد ؟

رأى أبو عبيد على مقربة منه ،فيلا أبيض عظيما،يضرب بخرطومه يمنة ويسرة ، فيشتت المسلمين من حوله .

فتقدم إليه ، فضرب خرطومه بسيفه .

وهاج حر الضربة هائج الفيل .

فتقدم إلى أبي عبيد ، فضربه برجله ، فألقاه على الأرض ، ثم وقف فوقه فأزهق روحه ،

فهل وقف اندفاع المؤمنين ، لما رأوا من مصرع قائدهم ؟ .

كلا .. فقد كان أبو عبيد قد أوصى إن مات أن يتأمر مكانه على التعاقب سبعة من قومه بني ثقيف ، سماهم بأسمائهم .

فلما رأى أولهم ماحل بأميره أخذ اللواء مكانه ، وقاتل الفيل حتى تنحى عن أبي عبيد فجر جثته إلى المسلمين ، ثم عاد يحاول قتل الفيل .

لكنه لقي حتفه ، كما لقي أبو عبيد حتفه !.

وتتابع الثقفيون السبعة ، كل منهم يأخذ اللواء ، فيقاتل حتى يموت !

... ماهذا ياأبناء العروبة الحديثة ؟ .

هذه شجاعة أسلافكم ، ورغبتهم في الموت ... ثمانية يتتابعون على الموت ، كأنما يتساوقون إلى سهرة ممتعة ! .

المثنّى يحمل اللواء ؟

ورأى المثنى موقفا دقيقا ... فاندفع إلى اللواء فحمله ...

وبدأ الناس يعبرون مرتدين . والمثنى يقاتل دونهم ، ويحول هو ورجاله بين الفرس وبينهم .

وأصابت المثنى ، وهو في موقفه ذاك ضربة رمح جرحته ، وأثبتت فيه حلقا من درعه ،

واستطاع من بقي من جند المسلمين أن يعبروا النهر ، والمثنى واقف دونهم ، لم يزعزعه ذلك الجرح الذي أصابه .

فلما رأى المثنى عبور أصحابه جميعا ، سار في مؤخرتهم . . تاركا وراءه سليط بن قيس شهيداً ! .

وتم الانسحاب . . . واستشهد في تلك المعركة ألوف من أبطال المسلمين ! .

وكانت هزيمة . . . انتقم بها الفرس من العرب ! .

ماذا نأخذ من دراسة تلك المعركة ؟ .

نأخذ منها أن الرأى قبل شجاعة الشجعان ، وأن مخالفة أبى عبيد لرأى أصحابه ، حين أشاروا عليه بعدم العبور ، واستبداده برأيه ، ومخالفته لأوامر عمر الصريحة ، بالحذر من مكر الفرس ... كل ذلك أدى إلى تلك الكارثة الحربية .

ونأخذ منها أن القائد المسلم ينبغى عليه أن يكون واسع الأفق ، عميق التفكير ، يقلب الأمور على وجوهها كلها .

فليس الإسلام أن نندفع إلى الموت ، حبا فى الشهادة ، وما عند الله ، وكفى . . . ولكن الإسلام أن نضع إلى جوار ذلك الاحساس ، اعتبارات الهزيمة وما يترتب عليها من آثار سيئة .

والقائد العبقرى ، من نظر إلى الاعتبارات جميعا ،وخرج منها كلها برأى حصيف...

وماذا على أبى عبيد لو أطاع رأى أصحابه ، وبقى فى موضعه ، ولم يعبر إلى الفرس . . أكبر الظن أن النصر كان محققا للمسلمين ..

ولكن القوم كانوا إلى الموت سراعا ... يخفون إليه فى لذة ، لا يعرفها إلا من ذاق لذة القتال فى سبيل الله .

وكان الموت عندهم أحب إليهم من الحياة . . . لذلك تسابقوا إلى العبور ، ليلتقوا بأعدائهم ، فإما النصر ، وإما الموت .

واستشهد أبو عبيد ، واستشهد القادة السبعة من ورائه ، واستشهد سليط ، واستشهد معهم ألوف .. وكلهم سعداء بلقاء الله ، على أحسن حال من الرضا أليست هى الشهادة التى يتمناها الجميع ؟ .

إنها هزيمة مؤقتة ، سوف لا تؤخر عقارب الساعة ، ولا حتمية التاريخ .

إن الاندفاع الإسلامى سيمضى ، حتى يظهره الله على الدين كله ..

وسوف نرى ... لمن تكون عاقبة الأمور .

عار الهزيمة !

وكان أول من قدم المدينة ، من الذين شهدوا غزوة الجسر عبد الله بن زيد .
ورآه عمر ، حين دخل المسجد فناداه : ماعندك يا عبد الله ؟ .
وألقى عبد الله بالأخبار .
فلم يجزع عمر ، وإنما تلقاه ساكنا ، ثابتا ...

ودخل بعض الذين فروا من الغزاة إلى المدينة ، منكسى رءوسهم ، خزيا من عار الهزيمة والفرار .

أما الباقى ، فنزلوا البوادى حياء أن يلقوا أهلهم ، فيعيّروهم فرارهم وجبنهم .

ورأى عمر حالهم : فرقّ لهم ، ورحمهم ، وجعل يدافع عنهم ...

فكان يقول : « اللهم كل مسلم فى حلّ منى . أنا فئة كل مسلم . مَنْ لقى العدو ، فَفظِعَ بشىء من أمره ، فأنا له فئة . يامعشر المسلمين لا تجزعوا ! . أنا فئتكم ، وإنما انحزتم إلىّ . يرحم الله أباعبيد !. لو كان انحاز إلىّ لكنت له فئة »!.

هذا هو عمر الشديد ، الجبار ، يتحول إلى رحمة ، ورقة ، ورأفة ، ولين !

لماذا هذا ؟ .. لأن عمر هنا رأس الدولة العليا ، يفكر تفكير الحاكم العام ... فمن الحكمة أن يواسى الفارين ، ويدافع عن انسحابهم ، حتى لا تحدث نكسة فى الشعور العام.

إنه علاج سياسى عميق ... إن عمر يريد أن يقول للجماهير : إياكم واليأس ، غدا لنا كرة مع امبراطورية فارس ، وإنا لمنتصرون .

بكاء ؟!.

وهنا نسوق أقصوصة ، فيها لشبابنا عبرة ، ولقادتنا درسا ...

قالوا : وكان معاذ ، القارىء ، أخو بنى النجّار ، ممن فروا من الجسر إلى المدينة .

وكان يبكى ، كلما قرأ قوله تعالى : « وَمَنْ يُوَلِّهِم يومئذٍ دُبُرَه إلا مُتحرِّفا لقتال أو مُتحيِّزاً إلى فئةٍ فقد باء بغضبٍ من الله ومأواه جهنم وبئس المصيرُ » .

فكان عمر يقول له : « لا تبك يامعاذ ! . أنا فئتك ، وإنما انحزت إلىّ !» .

مِم البكاء يامعاذ ؟.. أتبكى مخافة أن تكون ممن غضب الله عليه ،لأنه فر من عدوه ، وأعطاه ظهره ؟.

إن هذه لحساسية شديدة من معاذ ... رجل يبكى فى موقف أكثر الناس يحمدون الله على السلامة منه ويفرحون !.

فلو أن رجلا فى العصر الحديث ، نجا من معركة حربية ، وعاد إلى وطنه ومنزله ، لجاء الناس يهنئون بسلامة العودة .

ولكن صاحبنا ، يبكى أشد البكاء ، من تلك السلامة التى هى فى نظره خيانة وندامة.

إنه يخاف عذاب الله ، ويخاف أن يكون من الذين توعدتهم الآية ! .

وتلك هى الحساسية الروحية ، التى نريد أن نبعثها فى قلوب الجيل الصاعد .

نريد أن ننمى فى أبنائنا وبناتنا ، تلك الحساسية الربانية ، التى تجعلهم يبكون لما فرطوا فى جنب الله ، لايبكون لمافاتهم من الدنيا .

نريد أن نبلور عواطفنا ، ونؤقلم أحاسيسنا ، مع توجيه القرآن ، وتوجيه السماء .

ويوم نكون هكذا ، لانحتاج إلى كثير من القوانين ، ولا كثير من أجهزة التنفيذ، ولا كثير من الشرطة ... لأن كل مواطن عنده رقيب لايغيب .

المسيحيون والمسلمون صفا واحدا ؟

وما كان لعمر أن يدع الموقف فى العراق مائعا ، وإنما هو يجمع الجيوش ويرسلها مددا للمثنى ...

بينما المثنى هو الآخر ، بدأ يستمد القبائل العربية من حوله ، أيّا ما كان دينها ، فالموقف موقف الجميع ، لافرق بين مسيحى ومسلم .

وألقت فارس بجيوش لاحصر لها ، لتخوض مع العرب معركة فاصلة حاسمة !.

وكانت قوات المثنى تشتمل على أولئك الذين استمدهم فأمدوه ، وفيها من القبائل التى استجابت لنداء عمر .

وفيها من بنى النمر ، نصارى قدموا مع أنس بن هلال ، وجُلاَّب جلبوا خيلا .

وفيها من تغلب ، نصارى جاءوا مع ابن مِرْدَى الفِهر التغلبى ، وجلاب جلبوا خيلا.
وفيها غير هؤلاء رجال من قبائل عربية أخرى مقيمة بالعراق .
هؤلاء جميعا رأوا موقف العرب مع العجم فقالوا : نقاتل مع قومنا .
وكذلك جمعت رابطة الجنس إلى جيش المسلمين عددا غير قليل من نصارى العراق، وقفوا إلى جانبهم ، وحاربوا فى صفوفهم .
واصطف الفريقان للقتال ، وكان الشهر رمضان ، فأفطر المسلمون ، ليقووا على القتال .
وجاءت الساعة ... وقال المثنى لجيشه : « إنى مكبر ثلاثا فتهيئوا ، ثم احملوا مع الرابعة » .
وتهيأت الرايات جميعا تنتظر التكبيرة الرابعة ، لتنقض انقضاضا ...
ولم يكد المثنى يكبر أول تكبيرة حتى أعجل الفرس العرب ، وعاجلوهم ، فشدوا عليهم.
واشتبك الفريقان ، فى قتال دام ساعات ، أعنف القتال .
وخشى المثنى أن تطول المعركة ، ففكر فى خطة تعجل بالقضاء على العدو .
فدعا اليه أنس بن هلال النَّمِرىّ ، ثم دعا ابن مِرْدَى الفِهْر التغلبى ، وقال لكل منهما : « إنك امرؤ عربى ، وإن لم تكن على ديننا ، فإذا رأيتنى قد حملت على مهران فاحمل معى » .
رأى الفرس ماحدث فاندفعوا يحمون قائدهم .
فاجتمع القلبان ، وثار النقع ، فلايعرف أى الفريقين لمن منهما الغلب ؟
ولم يطق الفرس أن يثبتوا لهذا البأس ، فانهزموا ، وانقلبوا يولون الأدبار ، يريدون أن يعبروا الجسر . وحصرهم فرسان المسلمين ، وهم فى اضطرابهم . فقتلوهم شر قتلة .
وبلغ من فزع الفرس وهم على هذه الحال ، أن كان الرجل من المسلمين يقتل عدة منهم، فلايرتد إليه أحد يحاول قتله ، حتى لقد سمِّى يوم البويب هذا يوم الأعشار لأنهم أحصوا مائة رجل من العرب قتل كل واحد منهم عشرة من الفرس فى المعركة !

وقتل من الفرس فى تلك المعركة مائة ألف بقيت جثثهم صرعى طريحة فى الميدان ، وانتصر المسلمون نصرا مبينا

وقاتل أنس بن هلال النمرى النصرانى حتى قتل .

وجرح من أعلام المسلمين يومئذ وقتل عدد غير قليل .

واستشهد فى المعركة مسعود بن حارثة ، أخو المثنى .

وانتهت المعركة ، فضم المثنى أخاه مسعودا ، وأنس بن هلال النصرانى إليه ، وتوجع لما أصابهما ، لم يفرق اختلاف دينهما من وجده عليهما .

ماذا نستنبط من معركة البويب ، وسياسة المثنى فيها ؟

إن أهم مايلفت الأنظار فيها ، هى خروج العرب على اختلاف أديانهم ، نصارى ومسلمين ، لمحاربة الغزاة الإستعماريين ، أبناء فارس .

خرجوا جميعا صفا واحدا يقاتلون ، دفاعا عن شرف العروبة وشرف العرب .

وهذا الذى كان فى تلك المعركة ، وفى عهد عمر بن الخطاب ، فيه رد على أولئك الذين تضيق صدورهم ، حرجا أن يقال أن الإسلام يدعو الأمة كلها ، بكافة أديانها إلى الحفاظ على مقدساتها ، والدفاع عن شرفها .

إلا أن ما حدث فى عهد عمر ، فيه رد على أولئك جميعا .

المثنّى ... يستشهد !

وفى أوج النصر الذى كلل رأس المثنى ، نغر عليه جرحه ، الذى أصابه يوم الجسر ، وما زال به حتى قضى عليه .

ومات المثنى بن حارثة الشيبانى .. ذلك الحكيم الذى جمع قلوب العرب ، من أهل العراق حوله ، مع أنهم لم يكونوا على دينه ، فاستطاع بما صنع أن يضرب الفرس ضربة لم يفيقوا منها ، ولم ينتصروا قط بعدها .. فكان بذلك من رجال الطليعة فى التمهيد للدولة الإسلامية الكبرى .

فتـــح دمشـــق!

ماذا فى الجبهة الغربية ؟

ننتقل الآن إلى الجبهة الغربية ـ جبهة الشام ـ ونترك الجبهة الشرقية مؤقتا ، بعد أن انتصر فيها المثنى نصره الساحق ، لننظر ماذا يجرى فى ربوع الشام .

ونذكر أن خالد بن الوليد ، انتصر على الرومان ، نصره الساحق فى معركة اليرموك ، وأن عمر ما إن تولى الخلافة ، حتى سارع إلى عزله وهو فى أوج انتصاره ، وتولية أبى عبيدة قائدا للجبهة الغربية .

نذكر ذلك ونحن ندخل إلى الجبهة الغربية ، لننظر ماذا تعمل القوات الإسلامية المسلحة فيها ؟

وبعث أبو عبيدة يسأل أمير المؤمنين رأيه فيما يفعل بعد نصر اليرموك ...

ورد عمر عليه : « أما بعد ... فابدءوا بدمشق ، فانْهَدوا لها ، فإنها حصن الشام ، وبيت مملكتهم ، واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل ، تكون بإزائهم فى نحورهم ، فإن فتحها الله قبل دمشق فذلك الذى نحب ، وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق ، فلينزل بدمشق من يمسك بها ، ودعوها ، وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فحل ، فإن فتح الله عليكم ، فانصرف أنت وخالد إلى حمص ، وضع شُرَحْبيل ، وعمراً بالأردن وفلسطين » .

قرأ أبو عبيدة كتاب عمر ، وتفكر فى الخطة العسكرية البارعة التى أمره بها . .

دمشق تستسلم !

وعلى الفور ، انطلق هو وخالد بن الوليد ، فى قوة الجيش الكبرى يقصدون دمشق ، عروس الشام .

وكانت أسوار دمشق مضرباً للمثل فى التحصن والمَنَعَة .

وكانت دمشق كلها قلعة واحدة ، ذات أبراج فى كل نواحيها ، فلم يكن لمهاجمتها سبيل إلا بعد حصار طويل .

وطالت مقاومة دمشق ، وطال حصار المسلمين إياهم ... وضيق المسلمون عليهم الحصار ... وانقضى الشتاء ، وأقبل الربيع ، والعرب على حصارهم لا يريمون عنه .

وبدء اليأس يتسرب إلى نفوس الدمشقيين ...

وكان خالد بن الوليد قائد القوات المقيمة على الباب الشرقى ، يقظا لاينام ولا ينيم ، وكانت له عيون زاكية ، فلا يخفى عليه مايجرى فى دمشق شىء .

ونقلت إليه مخابراته يوما ، أن بطريرك المدينة ولد له ولد فرح به ، فأولم للناس ، فأكل الجند وشربوا وغفلوا عن مواقفهم .

وكان خالد قداتخذ حبالا كهيئة السلالم ... فلما أدرك الليل أعجازه نهد هو وجنده الذين قدم بهم من العراق ، وقال لهم : إذا سمعتم تكبيرنا من السور فارقوا إلينا .

ثم تقدمهم ومعه القعقاع بن عمرو ، ومذعور بن عدىّ ، وأمثالهم من الشجعان المغاوير ، فعبروا الخندق عائمين على القِـرَب . وأثبتوا حبالهم فى شُرف السور ، وتسلقوا سلالمها .

حتى إذا ارتقوا على الجدار ، جذبوا بعض الحبال ، وأثبتوها فى الشرف التى تلى داخل المدينة وألقوها . فانحدر خالد ، وطائفة ممن معه ، ونزلوا أمام الباب . فعالجوا فتحه بسيوفهم .

وكبر إخوانهم الذين أقاموا بأعلى الجدار ، فلما سمع رجال خالد تكبيرهم ، أسرعوا يعبرون الماء ، ويتسلقون الحبال إلى زملائهم فوق السور .

فاجأ خالد حراس الباب ، وهم فى غفلتهم فقتلوهم ، وفتحوا أغلاق الباب بالسيوف ، فدخل منه من لم يرق إلى أعلى السور ، واندفعوا داخل المدينة يكبرون .

وفزع الناس فى سائر أرجائها . وانتشر بينهم خبر المسلمين ، واقتحامهم الباب الشرقى وقتلهم من قابلهم .

عند ذلك أسرعوا إلى سائر الأبواب ، ففتحوها وصالحوا أباعبيدة ، فأمنهم ، ودخل من باب الجابية ولا علم له بما فعل خالد !.

فلما عرف مايجرى من سفك الدماء ، بعث إلى خالد أن يكف عن القتال ، فقد صالح الناس وأمّنهم .

فلم يكن بدٌّ لخالد من أن يسمع لأمره .

وهكذا تم فتح دمشق الخالدة ...

ومن يومها ودمشق احدى عواصم الإسلام الكبرى ! .

وفرض الصلح على أهل دمشق جزية ، يدفعونها لقاء منعهم ، وحرية عقيدتهم ، وحماية مدينتهم وأموالهم .

وكانت هذه الجزية دينارا ، وكيلا معينا من الحنطة على كل رأس ، وزيتا ، وخلاقوت المسلمين .

هذا خلا الضرائب التى كان الدمشقيون يدفعونها لحكامهم من الروم ، فقد ظلوا يدفعونها لمن قام على حكمهم من المسلمين .

دمشق تحت الحكم العربى؟

واستقر المسلمون بعاصمة الشام ، وجلت عنها حامية هرقل ، وجلى عنها المتعصبون للروم من أهلها .

فماذا كانت سياسة المسلمين فى ادارتها ؟ .

نفس السياسة التى رسمها أبو بكر فى عهده ، حين بعث خالد بن الوليد يفتح العراق . تركوا لأهل دمشق ما كان لهم من إدارة مدينتهم ، واقاموا الأمر فيها على الأساس الذى صوره خالد فى كلمته لبعض أهل العراق: « إن كنتم عربا فماذا تنقمون من العرب؟:وإن كنتم عجما ، فماذا تنقمون من الإنصاف والعدل ؟ »

هذا هو الأسلوب السياسى الحكيم الذى حكم به اولئك الأماجد البلدان المفتوحة..

إحدى اثنتين .. إما أنكم عرب ، فنحن إخوة ، لا ننقم حكم أنفسنا لأنفسنا ، وإما أنكم غير عرب ، فنحن نحكمكم بالانصاف والعدل .

وهذا الأسلوب يمكن أن يستضاء به فى السياسة العربية الحديثة .

يترك لكل دولة إدارة شئونها الداخلية ، ثم يكون التعاون فى السياسة الدولية والشئون الحربية .

الانجيل والقرآن فى معبد واحد !

وكان هناك جانب من دمشق فتح عنوة فكان كله حقا للمسلمين ، على حين فتح جانب منها صلحا ، فوجبت عليه الجزية دون سواه .

ولذلك أخذ المسلمون نصف ما فى المدينة من كنائس ومنازل وأموال بحكم الفتح عنوة ، وفرضوا عليها الجزية بحكم الفتح صلحاً .

وتقاسم المسلمون مع أهل المدينة الكنائس والمنازل والأموال .

فأخذ المسلمون سبع كنائس من الكنائس الأربع عشرة القائمة بدمشق .

وقسموا الكنيسة الكبرى، كنيسة القديس يوحنا المعمدان،فتركوا نصفها للنصارى يقيمون فيه صلواتهم ، ويتلون فيه الانجيل .

وجعلوا النصف الآخر مسجدا للمسلمين يتلى فيه القرآن ، ويذكر فيه اسم الله، وينادى من فوقه للصلاة !.

وظلت هذه القسمة العجيبة نحوا من ثمانين سنة !!.

حتى صالح عمر بن عبد العزيز نصارى دمشق على أن يعطوهم جميع كنائس الغوطة ، ويتركوا ما كان لهم من كنيسة يوحنا ، فرضى النصارى ، وأقر عمر بن عبد العزيز هذا الاتفاق!

حادثة عجيبة ... وأعجب منها أن تنشطر الكنيسة شطرين ، شطر مسجد ، وشطر كنيسة .. وأن تؤدى عبادات الإسلام فى هذه ، وتؤدى طقوس النصارى فى تلك ! .

مبنى واحد ، فيه دينان عاليان ! .

وذلك أسلوب من سياسة عمر بن الخطاب الدولية ، تلك السياسة التى بلغت الغاية من سمو العقائد ، وحرية العبادة ، وحرية الحياة !

كان يمكن أن يقهر الغزاة أهل دمشق على مايريدون ، وأن يجعلوا الكنيسة كلها مسجدا .. ولكن أصحاب رسول الله ليسوا كذلك ، إنهم أصحاب رسالة سماوية ، تؤمن بحرية العقيدة ، وحرية الإنسان ! .

وأعجب من هذا وأعجب أن يظل ذلك الاتفاق محترما ، ونافذا ، ثمانين سنة ! !

الضرائب بنسبة رأس المال !

وأبلغ أبو عبيدة عهد الصلح عمر بن الخطاب ، فكتب إليه بتعديله .

وذلك بأن فرّق بين الطبقات فى الجزية ، فجعلهم على قدر غنى الغنى ، وإقلال المقل ، وتوسُّط المتوسط .

هذا ما أمر به عمر أبا عبيدة قائد عام الجبهة الغربية .
وهو يدل دلالة قاطعة على تمكن حاسة العدل من نفس عمر .
إنه أبى أن يسوى بين تبعات الأغنياء والفقراء ، فى دفع الضرائب .
وانما فرضها بنسبة رأس المال ، وجعلها ثلاث شرائح .
شريحة الأغنياء ، شريحة الطبقة المتوسطة ، وشريحة الفقراء .

وعمر فى هذا فوق ماقرره من عدالة فى فرض الضرائب ، يعتبر أسبق انسان إلى عدالة الضرائب .

تحرك القوات إلى الجبهة الشرقية ؟

وكان مما حوى الكتاب الذى أرسله عمر إلى أبى عبيدة ، بتعديل فئات الجزية ، أمراً إليه برد القوات التى جاءت من العراق مع خالد بن الوليد ، لتعزيز جبهة الشام ، إلى العراق ثانية ، على أن يظل خالد بالشام .

وعلى الفور أمَّرَ أبو عبيدة ، هاشم بن عُتْبة على جند العراق ، وجعل معه القعقاع بن عمرو ، وأمثاله ، من أولى النجدة والبأس ، وعوضهم عمن استشهدوا فى وقائع الشام جنداً ، يعدل الجند الذى جاء من العراق عددا وقوة .

وخرجوا جميعا يقصدون المثنّى وقواته بالعراق .

إبادة ٨٠٠٠٠ ؟!

انطلقت قوات المسلمين بالشام ـ الجبهة الغربية ـ لتخوض معركة ثانية مع قوات الرومان .

وسارت هذه القوات جميعا ، فعبرت اليرموك ، حتى إذا بلغت فِحْل عسكرت بها ، فوقفت أمام الرومان ببيْسان .

وكان الرومان أمامهم يقفون فى ثمانين ألفا ، أشد ما يكونون حرصا على أن يظفروا بأولئك الذين قضوا على قواتهم باليرموك ، وفتحوا عليهم دمشق .

ولما طال وقوف المسلمين عند فِحْل ، خيل إلى قائد هرقل على قواته العظيمة ، أنه يستطيع أن يبغت المسلمين ، ويقضى عليهم ، وهم على غفلة !

فلما أقبل الليل ، تخطى بجيوشه مكانا مناسبا للعبور ، وقد تأكد عنده أن المسلمين قد أمنوه ، فهم على غير استعداد للقتال .

إلا أن شرجيل - قائد قوات المسلمين - كان رجلا علمه القرآن الحذر وكان رجاله كلهم ذلك الرجل الحذر اليقظ ، الذى لا يأمن مجىء الرومان فى أى وقت من الأوقات .

وكان شرجيل لذلك لا يبيت ولا يصبح إلا على تعبئة تامة .

فما أن هجم الرومان هجمتهم ، حتى تلقاهم المسلمون ، وقاتلوهم أشد القتال !

واستبسل الرومان مستقتلين ، وطالت المعركة الليل كله ، واستمرت اليوم الذى يليه إلى الليل .

فلما أظلم الليل خارت قوى الرومان ، فاضطربت صفوفهم ، فانهزموا وهم حيارى ، بعد ما أصيب قائدهم ، ومن بعده من القواد .

وانطلقوا يفرون ، فتلقتهم الأرض الموحلة ، فتعذر عليهم السير فيها .

ولحق بهم المسلمون . . وكانوا يظنونهم ينسحبون على نظام ، فاذا هم فى اضطرابهم لا يستطيعون سيرا ولا فرارا .

وركبهم المسلمون ، فوخزوهم بالرماح ، وألقوهم فى الوحل ، وقتلوهم شر قتلة .

فقتل الثمانون ألفاً ، من الرومان ، لم يفلت منهم إلا الشريد !

وكذلك انتصر المسلمون نصراً عظيما ، وغنموا غنائم عظيمة !.

وكتب أبو عبيدة إلى عمر ، أمير المؤمنين ، يبشره بالنصر ، وبأنه سيسير ومعه خالد بن الوليد إلى حمص .

تلك هى معركة بيسان ... التى أبيد فيها ثمانون ألفا من الرومان ... فماذا نستنبطه منها ؟

يجب علينا دائما أن نحذر أعداءنا ، وأن لا نغفل لحظة من نهار أو ليل ... وأن نكون على أسلوب آبائنا من اليقظة والحذر . . فلو أن الرومان فاجأوا المسلمين وهم غافلين ، لأبادوهم ابادة تامة ، ولكنهم وجدوهم على استعداد للقتال ، فانقلبت المعركة وبالا عليهم .

لذلك ينبغى أن نكون دائما فى حالة « انتباه » . . ليس فقط القوات العسكرية ، وإنما كل الأمة ، قادة وشعبا ...

وحسبنا ما كان من أعدائنا سنة ١٩٥٦ ... حين باغتت الدول الثلاث ، اسرائيل وفرنسا وانجلترا ، هذه البلاد ، لتقضى على القوة الجديدة التى انبعثت فى الشرق ولكن الله ردهم على أعقابهم خاسرين !

لنأخذ من تاريخنا الحديث ، ومن أسلوب أسلافنا العظماء خطتنا التى نسير عليها دائما...

يجب أن نكون على حذر ، وأن نستعد للعدو ... ولنذكر قول الله تعالى «وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » .

ثم ماذا ؟.. ثم علينا أن نشمخ بانوفنا إلى السماء ، إذا قام فى الدنيا من يفاخر بأمجاده..

نشمخ ونقول : هاهى معركة بيسان ... أبدنا فيها ثمانين ألفا من الرومان ! .

سياسة المسلمين العليا

وتتابعت البلاد ، بعد معركة بيسان ، وهزيمة الرومان الساحقة فيها ، تستسلم للفاتحين .

فطلبت طبرية الصلح إلى القائد العربى ، على أن يدفعوا الجزية دينارا عن كل نفس كل سنة ، وكيلا معينا من البُرّ ، عن كل قدر معين من الأرض .

واحتذى مثالهم كثير من البلاد .

وخضعت الأرض لسلطان المسلمين .

فماذا كانت سياسة الفاتحين فى تلك البلاد ؟ .

أقاموا الجند فى المدينة ، ثم تركوا لأهلها إدارة شؤونها ، على أن يتولوا هذه الإدارة بالعدل والانصاف .

وتلك هى السياسة العليا للدولة الإسلامية فى البلاد المفتوحة .

إنهم جاءوا إليها دعاة لا فاتحين ، وهداة لا مستعمرين .

فإن أسلموا ، كان لهم ما للفاتحين ، وعليهم ما على الفاتحين ، أمة واحدة .

وإن أبوا ، فالجزية ، وهى ضريبة دفاع بلغة العصر الحديث ، يستعين بها المسلمون على نفقات الجيوش ، التى تحمى تلك البلاد ، وتقر الأمن فيها .

ويترك ماسوى ذلك من الحكم الداخلى لأهل البلاد ، فهم أدرى بما فيها .

سياسة بسيطة .. إلا أنها عالية ، رفيعة ، أدت فى النهاية إلى استسلام تلك البلاد ، ثم إسلامها عن طواعية !.

معركة القادسية العظمى؟!

المعركة العظمى ؟

نحن فى سنة خمس عشرة هجرية ... وعمر رابض كالأسد ، فى عاصمة الدولة الجديدة ، المدينة ، يفكر فيما آلت إليه أمور القوات الإسلامية المسلحة فى الجبهة الشرقية ، جبهة فارس .

فبينما سجلت القوات الاسلامية نصرا ساحقا فى الشام ، إذا بقوات المثنى تتقهقر بانتظام فى العراق ، وتنتظر الأمدادات التى تأتيها .

وقرر عمر أمرا خطيرا ... قرر أن يجهز على الإمبراطورية الفارسية قضاء لاتقوم بعده أبدا . . . وإنك لتعجب وتسأل : أفى وقت واحد ياعمر . . . أفى وقت واحد تحارب الامبراطوريتين ؟! .

لماذا لاتكتفى بواحدة ، فإذا فرغت منها ، بدأت بالأخرى ؟!

ولكن عمر له تفكير آخر غير تفكيرنا ، إنه يفكر بعقل المؤمن ، الذى يثق بوعد الله ، ويثق بنصره ! .

ففى الوقت الذى كانت فيه القوات الإسلامية تتجه إلى حمص بقيادة أبى عبيدة ، لتلتقى مع الرومان فى معركة فاصلة ... كان قد قرر أن يخوض مع الإمبراطورية الفارسية المعركة الحاسمة كذلك !! .

وأرسل عمر منشورا إلى عماله على البلاد والقبائل : «لا تدعوا أحداً له سلاح، أو فرس ، أو نجدة ، أو رأى ، إلا انتخبتموه ، ثم وجهتموه إلىّ . والعجلَ العجلَ !! » .

وقال عمر : « والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب ! »

حتى إذا اجتمع له الجند بضعة آلاف ، خرج بهم حتى نزل على ماء يدعى صِرارا ، فعسكر به ، لا يدرى الناس أيسير بنفسه على رأس هذا الجيش إلى العراق ، أم يقيم بالمدينة ويؤمر على الجيش رجلا غيره ؟

مؤتمر عاجل

وسأله عثمان بن عفان فى ذلك ، فدعا الناس للصلاة ، فلما اجتمعوا سألهم رأيهم فيمن يسير على رأس الجيش إلى العراق ؟

قالت الجماهير : سِرْ وسِرْ بنا معك .

ودخل عمر فى رأيهم ، وكره أن يدعهم ، إلا أن يخرجوا من هذا الرأى ..

ثم إنه دعا أصحاب المشورة فاجتمعوا إليه ، فقال لهم : احضرونى الرأى فإنى حائر .

وتداولوا فيما بينهم ، ثم أجمع ملؤهم على أن يبعث أمير المؤمنين رجلا من أصحاب رسول الله على رأس الجيش ويبقى هو بالمدينة ، يُمد هذا الرجل بالجنود .

وقالوا له : « فإن كان الذى يشتهى من الفتح فذلك ما يريد ويريدون ، وإلا ندب جند آخر يغيظ به العدو حتى يجىء نصر الله » .

وقال عبدالرحمن بن عوف : « أقم ، وابعث جندا . فقد رأيت قضاء الله لك فى جنودك قبلُ وبعد . فإنه إن يُهزم جيشك ليس كهزيمتك . وإنك إن تقتلْ أوتهزم فى أنف الأمر ، خشيت أن لايكبِّر المسلمون ، وألا يشهدوا أن لاإله إلا الله » .

إن عبدالرحمن بن عوف يخشى إن هزم عمر ، أن يؤدى ذلك إلى زوال الإسلام ؟ .

فلما استمع عمر إلى آرائهم ، جمع الجماهير ، فخطبهم .. وكان مما قال لهم : « يحق على المسلمين أن يكونوا وأمرهم شورى بينهم . وإنى إنما كنت كرجل منكم ، حتى صرفنى ذوو الرأى منكم عن الخروج . فقد رأيت أن أقيم ، وأن أبعث رجلاً . »

هذا نموذج من أساليب الشورى ، التى كانت تدور فى ذلك المجتمع .

رئيس الدولة يرغب فى الخروج بنفسه للقتال على رأس الجيش ، ثم هو يعرض الأمر على الشعب ، ويستمع إلى رأى كل انسان ، ثم يأخذ بالأوفق ، ويقرر البقاء وإرسال قائد غيره .

ليس هناك إذا تحجر ولا ديكتاتورية ، وإنما الجميع يتشاورون ويشيرون ، ويؤيدون ويعارضون .. فى نظام تام ، وطاعة تامة .

إنها الحرية فى نظام ، والنظام فى حرية ! .

الأسد فى براثنه ؟ !

ولم تقف حرية الرأى بهم عند هذا الحد ، وإنما تجاوزته إلى ما هو أقل شأنا من السياسة العامة ... إلى اختيار الرجل الذى يحل محل عمر فى قيادة الجيش الزاحف إلى العراق .

وسأل عمر خاصته عمن يتخيره لإمارة هذا الجيش .. فأجابوه : قد وجدت الرجل !

قال : فمن ؟.

قالوا : الأسد فى برائنه ! . سعد بن مالك ! .

ووافقهم عمر ، واستحضر سعدا ، فأمره على حرب العراق .

ثم أوصاه : « ياسعد .. لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه ، فإن الله عزوجل لا يمحو السيء بالسيء ، ولكنه يمحو السيء بالحسن ! . وليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته ، فالناس ، شريفهم ، ووضيعهم فى دين الله سواء ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ماعنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يلزمه فالزمه ، وعليك بالصبر ! »

تلك توجيهات عمر لسعد بن أبى وقاص فماذا نأخذ منها ؟ .

الناس سواء ؟

تلك هى القاعدة الذهبية من فلسفة عمر ، التى هى فلسفة الإسلام ، وفلسفة رسول الإسلام .

ليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته ؟ .

فالناس ، شريفهم ، ووضيعهم ، فى دين الله سواء ؟ .

وذلك أخطر مافى تلك القضية ... قضية المساواة بين الناس .

الله إله الجميع ، والناس عنده سواء .

لأنه سبحانه لم يجعل نسبا بينه وبين أحد ، إلا بالطاعة ، بالعبودية ، باتباع أوامره ، فهذا هو النسب الوحيد الذى ينتسب الإنسان به إلى ربه ، إن صح أن يسمى هذا نسبا .

وفى ذلك رد على أدعياء الوساطة إلى الله سبحانه .

وهذا هو الدين الصحيح ، يوم كان الدين غضا طريا ، لم تلوثه عفونات العقول ، ورواسب الأوهام .

هذا هو الإسلام كما يفهمه عمر ... إسلاما نظيفا طاهرا ، لم يتلوث بعكارات الأفهام السقيمة ، والعقول الضعيفة .

وأطلقها عمر تجلجل، من شدة مافيها من نور «ليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته».

فليفهم هذا جيلنا الصاعد ، وليعلموا أن من أراد أن يتقرب إلى الله فليتقرب إليه بطاعته ، بعمله الصالح .

وليكونوا على فهم عمر ، وإنه للفهم الحق من هذا الدين .

ولينبذوا تلك العفونات التي يتجمع من حولها الغافلون من المسلمين

ثم ماذا ياعمر ؟ .

« فالناس شريفهم ووضيعهم في دين الله سواء » . مامعنى هذا ؟ .. معناه أن الجميع في حساب الله سواء ، فلا قرابة سعد لمحمد صلى الله عليه وسلم تغنى عنه من الله شيئا . وإنما عمله ، وجهاده في سبيل الله هو الذي يقربه من الله .

وإنما التفاضل عند الله بالعافية ، ويدركون ماعنده بالطاعة .

يدركون ماعنده من حسن الثواب ، ويتفاضلون في درجات الجنة ، ودرجات التقرب إليه سبحانه ، بالطاعة

فمن تفوق في الطاعة ، تفوق في الثواب ، ومن تخلف فيها تخلف في الثواب .

وهذا أصل عظيم آخر ، نضيفه إلى مذهب عمر يتلألأ بهاء وسناء . وعدلا وقوة .

فليس في الوجود مبدأ يتقرر بين الناس أعدل من مبدأ عمر « الناس سواء »

وأمام من ؟ ... أمام الله ...

ليس فقط في الآخرة ، وإنما ينبغي أن يكون ذلك كذلك في الدنيا ، في نظام الدولة ، ونظرتها إلى المجتمع .

وتلك النظرة هي أكبر دافع لكل إنسان إلى العمل ... لأنه متى علم أنه لا يصل إلى الدرجة التي يرجوها من الله إلا بالعمل ،سارع إليه ، وتنافس فيه ...وهذا هو الطريق الأحسن ، لرفع انتاج الأمة ، في شتى القطاعات .

الكل يعمل... والكل يتنافس في العمل ... لأن كلا منهم يريد أن يتقرب إلى ربه !

الاستعداد للمعركة ؟

واكتمل لسعد بن أبي وقاص جيش بلغ ستة وثلاثين ألفا .

وكان هذا أضخم جيش عبأه المسلمون لغزو العراق .

وأمر عمر سعد بن أبي وقاص بالمبادرة إلى القادسية ،والقادسية باب فارس فى الجاهلية. وأن يكون بين الحجر والمدر ، وأن يأخذ الطرق والمسالك على فارس .

ثم قال له : « ولايهولنك كثرة عددهم وعددهم ، فإنهم قوم خدعة مكرة ، وإن أنتم صبرتم ، وأحسنتم ، ونويتم الأمانة ، رجوت أن تنصروا عليهم ، ثم لم يجتمع شملهم أبدا . . . »

تلقى سعد توجيهات عمر .. فعبأ جيشه تعبئة أقرها عمر .. فأمر أمراء الأجناد ،وعرّف العرفاء ، فجعل على كل عشرة عريفا . وأمر على الرايات رجالا من أهل السابقة فى الإسلام ، وجعل على المقدّمة ، والمُجنّبتين أبطالا ، حاربوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان فى هذا الجيش أربعمائة وألف حاربوا مع رسول الله .

وسار سعد بالناس متمهلا حتى نزل القادسية . وخرجت قوات الفرس فى مائة وعشرين ألفا ، بقيادة رستم ، قائد الفرس الأول . .

المبدأ قبل القتال ؟

وعلم سعد بمسيرته ، فكتب إلى عمر ، فأمره أن يبعث إلى كسرى من يناظرونه ، ويدعونه .

فبعث سعد إلى يزدجرد وفدا ، فيه أهل الرأى والسياسة والشجاعة .

وأمرهم أن يدعوه إلى الإسلام ، فإن أبى فالجزية ، وإلا فالمناجزة .

وبلغ الوفد المدائن – عاصمة الفرس – فعجب أهلها حين رأوا رجاله عجافا ، وجعلوا ينظرون إلى أشكالهم ، وإلى أرديتهم على عواتقهم ، والسّياط فى أيديهم، والنعال فى أرجلهم ، وإلى خيولهم الضعيفة ، وخبطها الأرض بأرجلها ، ويتساءلون بينهم : كيف يقدم هؤلاء على غزونا ، ويطمعون فى الظفر بنا ، واقتحام عاصمتنا ؟! .

واستأذن الوفد على يَزْدَجِرْد ، فاستدعى وزراءه وأستشارهم .

ثم أذن للوفد فدخل عليه ، فقال لهم فى كبرياء وعظمة : « ما الذى أقدمكم هذه البلاد؟ أراكم اجترأتم علينا لما تشاغلنا بأنفسنا ؟. »

فأجابه أحدهم : « .. فإن أبيتم فالجزية ، فإن أبيتموها فالمناجزة » .

وختم كلامه : « فان أجبتم إلى ديننا خلّفنا فيكم كتاب الله ، وأقمنا كم عليه ، على أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم ، وشأنكم وبلادكم ، وإن أتيتم بالجزية قبلنا ومنعناكم ، وإلا قاتلناكم » .

عجبا ! .. حفنة من عجاف الرجال ، الذين لا يثير مظهرهم أى احترام ، يهددون كسرى ، ويخيرونه بين إحدى ثلاث ، إما الاسلام ، وإما الجزية ، وإما الحرب !!

حفنة تهدد امبراطورية . . .

دعوة مسلحة ، فكرة مسلحة ، إنهم عرضوا عليه الإسلام أولا ، وبينوا له فكرتهم ، فإن أسلم ، رجعوا عنه ، وتركوهم وبلادهم . .

فما معنى هذا ؟ .. معناه أنهم دعاة لا غزاة ، إنهم على استعداد أن يعودوا من حيث أتوا ، ويتنازلوا عن كل مغنم ، إذا أسلم كسرى ومن وراءه ! .

الفكرة أولا . . تعريف الناس بالله أولا ، نقلهم من الظلمات إلى النور هو الهدف .

فإن أبوا أن يستنيروا بنور لا إله إلا الله ، فليدفعوا الجزية ، ضريبة الدفاع عنهم ، فإن أبوا هذا وذاك ، فالقتال يفصل بين الفريقين ! .

وهذا التكتيك من الإسلام أسلوب بارع عجيب فى توهين قوى الكفار ، وتفكيك جموعهم ! .

وهو بعد هذا يدل دلالة واضحة ، على مدى انصهار جيوش الاسلام آنئذ فى دينها ودعوتها ، فهى تضع فكرتها فى كفة وحياتها فى كفة ، فإما آمن بها الناس ، وإما قوتلوا عليها والفصل للسيف .

ماذا كان من يزدجرد حين سمع كلام الوفد العربى ؟ .

قال فى كبرياء أجوف « إنى لا أعلم أمة فى الأرض ، كانت أشقى ، ولا أقل عددا ، ولا أسوأ ذات بين منكم ، وقد كنا نوكل بكم قرى الضواحى ، ليكفونا كم ، لا تغزوكم فارس ، ولا تطمعون فى أن تقدموا لهم . فإن كان عددكم كثر فلا يغرنكم كثرته ، وإن كان الجَهْد دعاكم فرضنا قوتاً إلى خِصْبكم ، وأكرمنا وجوهكم ، ، وكسونا كم ، وملكنا عليكم ملكا يرُفق بكم » .

وسمع الوفد العربى كلام كسرى ... فسكتوا ...

فانبعث المغيرة بن شُعْبة فقال : « أيها الملك ... هؤلاء رءوس العرب ، ووجوههم ، وهم أشراف يستحيون من الأشراف . وإنما يُكرم الأشراف ، ويُعظم حقهم الأشراف. وليس كل ماأرسلوا به قالوه ، ولا كل ماتكلمت به أجابوك عنه . فجاوبنى لأكون الذى أبلغك وهم يشهدون على ذلك لى . فأما ما ذكرت من سوء الحال ، فهى على ماوصفت وأشد ... »

وذكر لهمن سوء عيش العرب ، وإرسال الله رسوله اليهم ، ثم قال له : «اختر : إن شئت الجزية ، وإن شئت السيف ، أو تُسلم فتُنْجى نفسك » !!

وغضب يزدجرد غضبا شديدا ، حين اجترأ ذلك العربى الجلف عليه بمثل ذلك القول الخشن ، وقال : « لولاأن الرسل لاتقتل لقتلتكم . لاشىء لكم عندى ! » .

ثم أمر من جاء بحمل من تراب ، فقال : « احملوه على أشرف هؤلاء ، ثم سوقوه ، حتى يخرج من باب المدائن . إرجعوا إلى صاحبكم ، فأعلموه أنى مُرسِلٌ إليه رستم حتى يدفنه ويدفنكم معه فى خندق القادسية ، ثم أورده بلادكم حتى أشغَلكم بأنفسكم بأشد مما نالكم من سابور ! » .

فماذا كان من الوفد العربى ؟.

قام عاصم بن عمرو فحمل التراب على عاتقه ،وهو يقول : « أناأشرفهم ، أناسيدهؤلاء» .

وسار يحمل التراب ، فخرج من إيوان كسرى ، فركب راحلته ، وانطلق وأصحابه حتى بلغوا القادسية .

ودخلوا على سعد ، وقص عاصم ما حدث ، وكيف حملوا أرض فارس ، ثم قال : « أبشروا ، فقد والله أعطانا الله مقاليد ملكهم »!.

كسرى يأمر بالزحف فورا !

وقال يزدجرد لرستم : « لتسيرن أولأسيرن بنفسى » .

وخرج رستم بقواته الضخمة تتقدمها الفيلة ، أمضى سلاح لدى الفرس !.

وبلغ رستم القادسية فى جيش عدته مائة وعشرون ألفا ، يتقدمهم ثلاثة وثلاثون فيلا، بينها فيل سابور الأبيض .

وصف جنوده أمام جنود المسلمين ، وقدم الفيلة أمامه ، وبدا بذلك فى مظهر من القوة يثير الرعب فى النفوس .

ومرض سعد بن أبى وقاص أول المعركة مرضا جعله لايستطيع أن يركب أو يجلس ، فهو مكب على وجهه ، فى صدره وسادة يعتمد عليها ، ويشرف على الناس من القصر ، يرمى بالرقاع فيها أمره ونهيه .

وأعجز المرض سعدا عن كل حركة يوجبها مكانه من جيش المسلمين فى هذا الوقت الرهيب .

وخطب سعد وهو علىحاله تلك من يليه من الجند : «... إن اللههو الحق لاشريك له فى الملك ، وليس لقوله خُلف . قال الله جلّ ثناؤه : (ولقدكتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرضَ يرثُها عبادىَ الصالحونَ) إن هذا ميراثكم ، وموعود ربكم ... وقد جاءكم هذا الجمع ، وأنتم وجوه العرب ، وخيار كل قبيلة .. فإن تزهدوا فى الدنيا وترغبوا فىالآخرة جمع الله لكم الدنيا والآخرة ، ولا يقرب ذلك أحداً إلى أجله . وإن تفشلوا وتهنوا وتضعُفوا ، تذهبْ ريحكم ، وتوبقوا آخرتكم » .

ورأى رستم تجهز العرب ، فثارت فى نفسه الحمية لوطنه ، لذلك لم يلبث ، حين عبر جنده النهر ، واصطفوا صف القتال ، أن لبس ملابس الحرب ، وأمر بفرسه فأسرج فركبه وهو يقول : غدا ندقّهم دقا . ووقف الجيشان ينتظران أمر الصدام .

كيف كانوا يقاتلون ؟

نعرض هنا صورة للكيفية التى كان يقاتل بها آباؤنا أعداءهم .. ليتبين الجيل الصاعد من أبنائنا وبناتنا كيف كان هؤلاء الناس ، وأى طراز من المقاتلين كانوا ؟ .

وأرسل سعد بن أبى وقاص فى الناس : إذا سمعتم التكبير فشدُّوا شسوع نعالكم .

فإذا كبِّرتِ الثانية فتهيئوا .

فإذا كبرت الثالثة فشدُّوا النواجز على الأضراس واحملوا .

ماشاء الله ياسعد ، ماشاء الله !.

أهكذا ياسعد تتحول المعركة إلى ساحة تكبير ، ومعبد كبير ؟.

ولا عجب ، فهى جامعة رسول الله ... تلك الجامعة العجيبة التى لا ترى فصلا بين الدين والدنيا .

ماأعظم المنظر ! ... أربعون ألفا يكبرون مرة واحدة : الله أكبر !.

أربعون ألف قلب تهدر بتعظيم الله ؟!

تالله إنه لأكبر دليل على صدق دعوتك يارسول الله ؟ ..

هؤلاء الذين تركتهم ، وذهبت إلى الرفيق الأعلى ، ما زالوا على طريقك سائرين ، وهم أولاء يكبرون الله قبل أن يشهروا السيوف !.

إنها لا إله إلا الله ، التى جئت بها يارسول الله ، وهذا هو أثرها ، وهذا هو شعاعها .

فهل كان هذا فقط هو ماتلألأ فى ساحة المعركة ؟ .

كلا ... فما هو آت أروع وأعجب ! .

أمر سعد من يقرأ سورة الجهاد ، فقرئت ، فى كل كتيبة !.

فهشت قلوب الناس ، واطمأنوا إلى ماهم مقبلون عليه .

جو قرآنى ... قلوب مؤمنة ، تستفتح بكلام الله ، قبل أن تخوض المعركة ... فما أعظم هؤلاء الناس ! .

فلما فرغ القراء ، كبر سعد ، فكبر الذين يلونه ، ثم كبر الثانية فتهيأ الناس .

فلما كبر الثالثة ، أنشب أهل النجدات القتال ، وخرجوا يبارزون أهل فارس .

وكبر سعد الرابعة ... فالتحم الجيشان .

وانقضى النهار ، وغربت الشمس ، والقتال لايزال حاميا .

فلما ذهبت هدأة من الليل ، رجع الجيشان ، كل إلى مواقفه ، وكل يحسب للغد حسابه . .

المرأة العربية فى المعركة

فلما تنفس الصبح ، شُغِل العرب ، وشغل الفرس بدفن القتلى ، ونقل الجرحى .

وقد دفن المسلمون قتلاهم بوادٍ قريب ، ونقلوا الجرحى إلى العُذَيب ، ليقوم النساء على العناية بهم .

أما الفرس فدفنوا القتلى فى المؤخرة ، وحملوا الجرحى إلى الضفة الأخرى من النهر .

تلك هى المرأة المسلمة ، العربية ، فى أيام الاسلام الأولى ، حيث كان الاسلام إسلاما صحيحا ... كانت تدخل الميدان ، وتنزل إلى خط النار ، وتقوم بأعمال التمريض والتطبيب.

وفى ذلك رد على أولئك الموتى ، الذين يريدون للحياة المنطلقة أن تقف . وللأحياء أن يموتوا .

إن المرأة العربية يجب أن تعمل ، وتحارب ، وتدافع عن وطنها ... كل ذلك فى حدود دينها ، وآداب الاسلام المعلومة .

القعقاع فى المعركة ؟

نحن فى اليوم الثانى من أيام المعركة الخالدة ، معركة القادسية العظمى ، التى اتصل فيها القتال ثلاثة أيام وليلة فى مكان واحد .

هاهى الشمس تشرق على الصحراء ، فتملؤها نورا ودفئا ..

وهاهما الجيشان يدفنان موتاهما ...

وهناك فى الأفق البعيد ... أقبل القعقاع مسرعا ، فى ألف من الجند ، الذين جاءوا من الشام نجدة لجيش العراق .

سار هاشم بن عتبة فى ستة آلاف مدداً لسعد بن أبى وقاص ، وجعل القعقاع على مقدمته وتعجله أمامه ، كى يدرك سعداً قبل فوات الأوان .

قسم القعقاع رجاله الألف عشر فرق ، وأمرهم ألا تسير فرقة حتى تكون الفرقة التى سبقتها على مدى البصر .

ثم سار هو على رأس الفرقة الأولى .. وبلغ سعداً وأصحابه بالقادسية قبل استئناف المعركة ..

فسلم عليهم ، وبشرهم بالجنود وإقبالها ، ثم تقدم الصفوف ، يستفتح القتال ، بعد أن قال للناس : اصنعوا كما أصنع !.

فلما كان بين الصفين نادى : مَنْ يُبارز ؟ .

فخرج إليه ذوالحاجب ، وعرّفه بنفسه قائلا : أنا بهمن جاذويه !.

عند ذلك صاح القعقاع : يالثارات أبى عُبَيْد ، وسَليط ، وأصحاب يوم الجسر ! .

ولم يطل الصراع بين الرجلين . فقد انقضّ القعقاع على ذى الحاجب وأورده حتفه !.

وكان القعقاع كلما رأى فرقة من فرق جيشه كبّر ، وكبر الناس معه .

فازدادوا بذلك ثباتا ، وخيل إلى الفرس أن هذا المدد المقبل لا آخر له . ولا طاقة لجنود رستم بقتاله !.

وكيف يطيق الفرس قتال المسلمين ، وهاهو القعقاع يصرع كل من يخرج إليه ؟.

خرج إليه فارسان من الفرس يريدان أن يثأرا لصاحبهما ، فصرعهما تباعا ! .

ونادى القعقاع فى الناس : « يامعشر المسلمين ، باشروهم بالسيوف ، فإنما يُحصَد الناس بها »!.

وحمل الناس بسيوفهم على الفرس ، وجعلوا يضربونهم بها حتى المساء !.

ذلك أنموذج نعرضه على العالم أجمع للجندي العربى . فهل فى جيوش الدنيا مثل هذا؟!.
اللهم لا... ولـكن الناس يجهلون ... يجهلون حقيقة العربى ، إذا آمن بربه ، وانطلق يفتح الدنيا باسم الله ...

ولـكن ماذا نأخذ من تلك الخطة البارعة التى نفذها القعقاع ، فأوهمت الفرس أن هناك مددا لاينتهى فى طريقه إلى المسلمين ؟.

نأخذ من ذلك أن أولئك الناس كانوا عباقرة ، اجتمع لقلوبهم الايمان ، ولعقولهم سعة التفـكير ، ولأجسامهم قوة البدن .

كانوا رجالا أولى بأس شديد ، وفـكر حديد .

ومن هنا نعلم أن المسلم الحق ، هو ذلك الرجل العبقرى ، الداهية ، الخبير بالأمر الذى يليه ... أماأولئك الذين لايحسنون إلا فنون التسبيح والذكر ، ولايعرفون من الحياة كثيرا أو قليلا ، فأولئك لم يرتفعوا إلى مقام الايمان بعد .

ونفهم كذلك من أفاعيل القعقاع ، أن البطولة من الايمان ، وأن لا إيمان بلا بطولة ، وأن النصر مع الصبر ، والفوز مع حسن التدبير .

أبو مِحْجَن الثقفى ؟

وإلى جيلنا الصاعد ... نقدم نموذجا آخر ... للبطولة العربية ، وكيف تـكون ...

كان سعد بن أبى وقاص ، وقد حبس أبا محجن الثقفى ، وقيد رجليه فى الأغلال ، وذلك فى بداية المعركة . وكان أبو محجن من فرسان العرب المشهود لهم .

فلما اشتد القتال ، وتردد تـكبير الناس فى أذنه ، اشتاقت نفسه للحرب شوقا شديدا .

وصعد ، يجر أغلاله ، حتى أتى سعدا ، يستعفيه ، ويستقيله .

لـكن سعدا زجره ، وردّه .

فذهب إلى زوجه ،سلمى بنت حفص ، فطالب إليها أن تحل قيده ، وأن تُعيره البلقاء، فرس سعد .

وأقسم إن سلمه الله أن يرجع ، فتضع رجله فى القيد ! .

قالت سلمى : وما أنا وذاك ؟!

فرجع مكتئبا ، يرسف فى القيد ، ويقول أبياتا من الشعر مناسبة .

فلما سمعت سلمى شعره ، رقّت له وقالت : إنى استخرت الله ، ورضيت بعهدك .

وأطلقته .. فاقتاد البلقاء ، وركبها ، وعليه سلاحه ! .

وانطلق بين الصفين ، يكبِّر ، ويركض الفرس إلى الميمنة حينا ، وإلى الميسرة حينا آخر .

ويقصف الأعداء بسيفه قصفا مُنكرا .

ولم يعرفه الناس وظنوا أنه فارس من الفرسان .

أما سعد بن أبى وقاص ، فجعل ينظر من القصر ويقول : والله لولا محبس أبى محجن لقلت هذا أبو محجن ، وهذه البلقاء ! .

فلما انقضى اليوم ، رجع فوضع رجليه فى القيد .

وتحمّل سعد ، فنزل ، فوجد فرسه يعرق ، فسأل فى ذلك ، فروت لهسلمى ماحدث! .

فرضى عن أبى محجن ، وأطلقه .

هذا أنموذج آخر ، نقدمه إلى جيلنا الحديث ، لعلهم يجدون فيه البطولة التى ينشدون .

ونقدمه إلى العالم كله ، ليعلم كيف كانت الفدائية صفة أصيلة فى هؤلاء الناس .

وكيف كانوا يتنافسون على الموت ، كما يتنافس جنودهم اليوم على الحياة ! .

واتصل القتال يومئذ إلى منتصف الليل ثم لم يكن للفريقين بدٌّ من أن يرجع كل إلى عسكره ، يعيد تنظيم صفوفه .

اليوم الثالث

وأصبح الناس ، والجيشان فى مواقفهم .. وبين الصفين من القتلى والجرحى ، ألفان من المسلمين ، وعشرة آلاف من الفرس .

ودفن كل جيش قتلاه ، ونقل الجرحى إلى حيث يُعنى بهم .

وكانت نساء المسلمين ، يُعْنَيْنَ بالجرحى ، ويمرضنهم ، ويبذلن من صفوف العناية مايرفه عنهم ، وينسيهم ألمهم .

ولقد اشتركن فى هذه المعركة الحاسمة ، فكان لهن فيها فضل سجله الشعراء ، وخلدته كتب التاريخ .

وكرر القعقاع خطته ، فبعث جيشه ليلا ، ليأتى مع الصباح تباعا ، كما فعل بالأمس .

ووقف القعقاع فى المؤخرة حين طلعت الشمس ينظر إلى ناحية الصحراء ، فلما بدأت خيله تقبل كبر ، وكبر الناس معه ، وقالوا جاء المدد .

وأدرك هاشم بن عتبة وجنوده رجال القعقاع فلما عرف ماصنع صاحبه جعل رجاله كذلك فِرَقا . وأمرهم أن يتلاحقوا دِراكا ، فلا تسير فرقة حتى تغيب الأخرى عن نظرها .

وسار هو على رأس الفرقة الأولى ،فبلغ القادسية حين أخذ المسلمون مصافهم للقتال .

فلما رآه الناس ورأوه كبر ، كبروا معه . . واندفع هاشم إلى القلب حتى بلغ النهر ، وهو يرمى العدو بأسهمه ، ثم عاد فكرر فعلته ، فلم يجرؤ أحد على مصاولته .

والتقى الجيشان فى صدام أى صدام ، وظلا يقتتلان حتى أقبل الليل والغبار مخيم ، فلا يعلم سعد ، ولا يعلم رستم لمن الدائرة ؟

كيف كان النصر؟

هدأ القتال حين أقبل الليل . . وكان تقدير سعد أن الجيشين سيقضيانه يتهيآن ليوم رابع . . .

لكنه خشى أن يأتيه العدو من مخاضة بأسفل العسكر .

فأرسل جماعة من الجند وقال لهما : « إن وجدتما القوم قد سبقوكما إليها فانزلا بحيالهم ، وإن لم تجداهم علموا بها ، فأقيما حتى يأتيكما أمرى » .

ولم يجدوا على المخاضة أحدا ، فسولت لها نفساها أن يخوضاها ، وأن يأتيا الأعاجم من خلفهم . وأخذ طليحة ــ قائد الجماعة ــ مكانه وراء العسكر ، وكبر ثلاث تكبيرات ، ارتاع لها أهل فارس ، وظنوا أن جيش المسلمين أزمع الغدر بهم .

وتعجب لسماعها المسلمون، وظنوا أن الأعاجم فتكوا برجالهم فهم يكبرون مستغيثين!

وأغار عمرو ــ قائد ثان الجماعة ــ على جماعة من الفرس أسفل المخاضة ، فلم يبق لديهم ريب فى غدر العرب بهم ، فقدموا صفوفهم زاحفين .

ورأى القعقاع صنيعهم ، فزاحفهم من غير أن يستأذن سعداً .

والتحم الفريقان مرة أخرى ، فكان للسيوف قعقعة وصليل كصوت القيون ، وكان المقاتلون لا يتكلمون بل يصيحون .

وبات الجيشان يقتتلان أشد قتال وأقساه، ولم يغمض لأحد من الجند تلك الليلة جفن.

وانقضت تلك الليلة الدامية ، التى يسميها المؤرخون ليلة الهرير .

ولم يدع القعقاع الناس يريحون ظهورهم .. ونادى فيهم : « إن الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم ، فاصبروا ساعة واحملوا ، فإن النصر مع الصبر » .

واجتمع إليه جماعة من الرؤساء ومعهم جنودهم ، ثم تتابع الناس . . وحملت القبائل على من بإزائهم فى قتال شديد ظل متصلا حتى الظهيرة .

وعند ذلك بدأت صفوف الفرس تضطرب .. وتأذن الله بالنصر للقلوب المؤمنة .

واستمكن أحد رجال القعقاع من رستم ،وهو يلقى بنفسه فى النهر فرارا .. فاقتحم الرجل النهر وراءه ثم خرج به ، فضرب جبينه بالسيف حتى قتله .

ثم صعد سريره يصيح : قتلت رستم ورب الكعبة ! إلىّ ! إلىّ ! .

وأطاف الجند به يكبرون ويهللون .. ووهنت قوة الفرس .. وحاول الجالينوس ــ أحد قوادهم ــ أن يعبر بهم النهر ، لكن الردم انهار بهم فى النهر المتدافع التيار، فغرق بانهياره ثلاثون ألف فارس ، مقترنين بالأصفاد .

وكذلك انهزمت جيوش يزدجر شر هزيمة ، وانطلقت فلولهم يولون الأدبار .

المرأة العربية فى خط النار

واندفع المسلمون ، يتعقبون الفارين ، ويجهزون عليهم .

واندفع نساؤهم وصبيانهم حين عرفوا أمر النصر إلى ميدان المعركة ليشاركوا فيه .

قالت أم كثير ـ امرأة همام بن الحارث ـ : « شهدنا القادسية مع أزواجنا ، فلما أتانا أن قد فرغ من الناس ، شددنا علينا ثيابنا وأخذنا الهراوى ، ثم أتينا القتلى ، فما كان من المسلمين سقيناه ورفعناه ، وما كان من المشركين أجهزنا عليه . وتبعنا الصبيان ، نوليهم ذاك ، ونصرفهم به »

وكذلك اشترك المسلمون جميعا ، رجالا ، ونساء ، وصبية ، فى هذه المعركة .

وتلك آية أخرى ، نرفعها فى وجوه المتحجرين . دعاة التجمد ، ونقول لهم : ها هى المرأة العربية المسلمة ، فى عهد عمر ، تدخل خط النار ، وتقاتل فيه ... وهؤلاء هم الصبيان يشاركون كذلك فى القتال .

ومن هنا يجب أن ينشأ الجيل كله ، بناته وبنيه ، تنشئة عسكرية ضاربة ... حتى إذا مس المعتدى وطننا ، خرجنا جميعا ، نصليه نارا .. ولن يستعمر شعب آثر الموت على الحياة وتعلم فنون القتال ووعاها .

وانتهت معركة القادسية ... وكانت نتيجتها الحتمية ، كسائر المعارك التى خاضها المسلمون مع أعدائهم ، نصرا للحق ، وهزيمة للباطل .

واستشهد من المسلمين ثمانية آلاف وخمسمائة ! !

٨٥٠٠ يستشهدون من جيش عدده نحوا من أربعين ألف ؟! .

فما معنى هذا ؟ ... معناه أن الخسارة فى الرجال كبيرة ... ولكنها ليست خسارة فى تقييم الإسلام العظيم .. ذلك الذى يعتبر الشهادة أسعد أمانى المسلم ، ويعتبر نصر الحق أكبر آمال المسلمين . .

فى هذه المعركة العظمى .. نال ٨٥٠٠ الشهادة فسعدوا سعادة الأبد .

وانتصر الحق نصرا لم يشهد مثله أبدا ... وانفتحت له بعدذلك الامبراطورية الفارسية فتحا نهائيا .. وذلك أكبر من الخسارة فى الأرواح وأكبر من كل شىء .

أين عمر ؟

أين كان ابن الخطاب ، والمعركة تدور رحاها والدماء تسيل ، والسيوف تصلصل ؟ .

هل كان يتمتم بتعاويذ يرتلها ، ويرفع يديه بدعوات يرسلها .. ثم يقف عند ذلك ؟

كلا ... فهو الذى وضع الخطة ، وجمع لها الرجال ، وحشد لها الحشود ثم ارسلهم تباعا إلى ساحة المعركة .

كان عمر قلب المعركة الخافق ، ودمها الدافق ، يخرج كل يوم إلى خارج المدينة حتى الظهر ، يتنسم أخبارها ...

وإنه ليسير يوما ، إذ لقيه راكب على ناقة ، عرف حين سأله أنه مقبل من هناك ، فقال له : ياعبد الله حدثنى .

قال الرجل : هزم الله المشركين .

وجعل عمر يخب معه ، يسأله ، والراكب يحدثه ، وهو على ناقته لا يعرفه .

وكان هذا الراكب ، رسول سعد بن أبى وقاص إلى أمير المؤمنين ! .

وكان يحمل رسالة سعد إلى عمر بالفتح ، وبعدة من أصيب من المسلمين ، وأسماء من عرف منهم .

فلما دخل الرجلان المدينة ، وسلم الناس على عمر بإمارة المؤمنين ، قال الرجل : هلا أخبرتنى رحمك الله أنك أمير المؤمنين ؟ !

وأجابه عمر فى بساطة : لا بأس عليك يا أخى !

وتناول منه كتاب سعد ، وقرأه على الناس !

يا أيتها الدنيا تعالى واسمعى ... هذا عمر القائد الأعلى للجيش الظافر ، يسير على قدميه وجندى عادى يركب إلى جواره .

فهل فى الدنيا مثل عمر؟

عمر يتطور ماليا ؟

ماذا فعل سعد فيما أفاء الله عليه من الغنائم فى تلك المعركة العظمى ؟.

قسمه فى الناس ، فكان عطاء الفارس ستة آلاف ، والراجل ألفين ، ثم فضل أهل البلاء فزاد كل واحد منهم خمسمائة .

مع ذلك بقى من الفىء شىء كثير غير الخمس الذى نحّاه سعد ، ليبعث به إلى المدينة .

وكتب سعد إلى عمر بما فعل ، وسأله عما يفعل بما بقى عنده ؟.

فكتب عمر اليه : « أن ردّ على المسلمين الخمس ، وأعط من لحق بك ممن لم يشهد الوقعة ».

ونفذ سعد أمر عمر ... فبقى لديه مااضطره أن يبعث إلى عمر يسأله ما يفعل به .

وأمر عمر أن يوزّع على حَمَلة القرآن .

فما هى الفلسفة التى تستنبط من ذلك ؟.

إن عمر يتطور تفكيره فى الناحية المالية تطورا خطيرا ... فمن المعلوم أن الغنائم توزع أربعة أخماسها على المحاربين ، والخمس الباقى يرد إلى بيت المال ليوزعه أمير المؤمنين فى الأوجه التى نصت عليها النصوص القرآنية .

فما الذى جعل عمر ، يخرج على المألوف ، ويأمر ابن أبى وقاص بتوزيع الخمس أيضا على المحاربين ؟.

ماهذا التطور العجيب ؟.

إن له دلالة واحدة ... أن الحاكم له أن ينظر فى التطبيق إلى المصلحة العامة للجماهير ، بحيث لا يخرج عما شرعه الله .

وشريعة الله هنا أن الخمس يرد إلى بيت المال ... ورأى عمر أن يرد إلى المحاربين ... فهل خرج عمر عن شريعة الله ؟.

كلا ... وحاشا ... وإنما فهم من النصوص فهما عاليا ، وأفقا واسعا .

فهم أن الخمس للحاكم يوزعه كيف يشاء . وقد رأى الحاكم الذى هو عمر ، أن يرده فى المقاتلين ، حيث كثرت الأموال التى ترد إلى الخليفة ، فلم يعد بحاجة إلى مزيد .

فما معنى هذا ؟ ... معناه أن عمر يعمل على تفتيت رءوس الأموال ، وتوزيعها على أكبر عدد ممكن من الجماهير .

فلو قلنا أن الذين تبقوا من المسلمين بعد معركة القادسية ٣٢٥٠٠ بعد حذف الذين استشهدوا ، وأن الخمس سيوزع على هؤلاء جميعا . فمعنى هذا أن عددا كبيرا من الشعب سيقتسم تلك الأموال .

وهكذا كان عمر رجل تطور إلى أبعد آماد التطور . وكان ينظر إلى الشريعة على أنها تدور حيث توجد المصلحة ، ولاينظر اليها على أنها مجرد قيود وسدود فى وجه البشر ، كما يفهم كثير من مسلمى هذا الزمان !.

فتح عاصمة كسرى!

هاهو عمر العملاق ، يواصل الزحف ، ليقضى على الأمبراطورية الفارسية قضاء تاما!.
إنه يأمر سعدا بالسير إلى المدائن ، عاصمة الفرس ! .

وزحف سعد بجنوده المنتصرة ، حتى تجمعوا على شاطىء دجلة ، ولم يبق بينهم وبين المدائن سوى النهر .

ورأى الجند مبانيها الفاخرة ، وعماراتها النادرة ، يطل من بينها قصر عظيم ، فمارآه ضرار بن الخطاب، حتى نادى بأعلى صوته : الله أكبر !. هذا أبيض كسرى !. هذا ماوعد الله ورسوله ! .

عند ذلك تعالت الأصوات بالتكبير من كل جانب وأيقن الناس جميعا أنهم بإزاء هذا الإيوان الذى طالما سمعوا به مذكورا فى شعر الشعراء .

كيف كان إيوان كسرى ؟ ... كان ملكا عظيما ، وهندسة فخيمة ، وعلوا بغير الحق فى الأرض .

وبينما كان المسلمون يقفون كالآساد ينتظرون ساعة الصفر على شاطىء دجلة ، كان كسرى قد رعب لساعته مما رأى ، فأمر رجاله ، فحملوا بيت ماله ، وماخف من متاعه وخزائنه ، وحملوا النساء والذرارى ، وخفوا بها يقصدون بلدة من فارس اسمها حُلْوان ! .

كتيبة الأهوال !

ماذا يفعل سعد بن أبى وقاص ، ذلك الأسد المؤمن ؟
أيقف نهر دجلة حائلا بينه وبين اقتحام المدائن على الشاطىء الآخر ؟

كلا ... هاهو يفاجىء جنوده قائلا : « إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر ، فلاتخلصون إليه منه . وهم يخلصون إليكم إذا شاءوا فيناوشونكم فى سفنهم وليس وراءكم شىء تخافون أن تؤتوا منه ، فقد كفاكوهم أهل الأيام ، وعطلوا ثغورهم ، وأفنوا

ذادتهم . وقد رأيتُ من الرأى أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم ، قبل أن تحصركم الدنيا . ألا إنى قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم » ! .

ما هذا يا ابن أبى وقاص ؟ .

إنه الإيمان ... ذلك الذى يحرك الجبال ، ويسمو على الأهوال ! .

ولم يكد سعد يتم كلمته ، حتى قالوا جميعا : « عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل » !

عجبا ! . جيش يستجيب للمستحيل ... كيف لا ؟ ... أليسوا جنود الله ؟ .

ولكن كيف العبور ، وجند فارس على الشاطىء الآخر؟ .

ونادى سعد وقال : من يبدأ ويحمى لنا الفراض (الثغور من الناحية الأخرى) حتى تلاحق به الناس ، لكى لا يمنعوهم من الخروج ؟! .

وخرج ستمائة من الذين يرغبون فيما عند الله ، فأمر سعد عاصما عليهم .

وتقدمهم فى ستين منهم إلى حافة النهر ، وهو يقول للذين ترددوا : أتخافون من هذه النطفة ؟! . ويتلو قوله تعالى : « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا » .

ثم دفع فرسه ، فاقتحم النهر ، واقتحم زملاؤه معه !

ورأى القعقاع هذه الكتيبة الأولى تتقدم فى سبحها ، ومد بصره إلى الجانب الآخر من النهر ، فرأى الفرس كأنما يتهيأون للقائها ، فأمر أصحابه الستمائة فدفعوا خيولهم إلى النهر ، فدخلوه كما دخله عاصم وأصحابه .

وتعجب الفرس لما يصنع عدوهم ، وقالوا : مجانين ، مجانين ! . وقال آخرون : إنكم والله ماتقاتلون إنسا ، بل تقاتلون جنا ! .

ولما رأى الفرس عاصما وأصحابه توسطوا النهر ، أرسلوا فرسانا منهم ليمنعوهم من الخروج ، وليقاتلوهم فى الماء .

ودنوا من عاصم حين دنا من الفراض ، فقال عاصم لأصحابه : الرماحَ ، الرماحَ !. أشرعوها ، وتوخَّوا العيون .

وارتدت خيول الفرس حين أصابت الرماح عيونها ، فلم يملك فرسانها دفعها ليلقوا هؤلاء الذين خاضوا غمار الموت فى لجة النهر لايبالون مايصيبهم .

ولم يُصَبْ أحد من كتيبة الأهوال بأذى ، بل خرج عاصم على رأسها إلى الشاطىء ففرّ الفرس أمامه !

وأدركه القعقاع على رأس الكتيبة الخرساء فلم يبق على الشاطىء من الفُرس أحدا! .

لست أدرى لماذا لا نصب ذلك التاريخ المجيد فى قلوب جيلنا الصاعد ... ليعلموا كيف كان العرب ، وكيف كان آباؤهم ، يوم كانوا يؤمنون بالله ورسوله ؟ .

حتام نحجب عن أبنائنا عظمة تاريخنا ، وعجائب آبائنا ؟ .

هل فى الدنيا بطولة ، أوشجاعة ، أوفدائية تبلغ ذلك الحد من الجرأة على الموت ؟ .

كلا ... فكيف يجوز لنا أن نعجب من بطولات أخرى ، هى دون ذلك بكثير ؟

نريد أن تفتح آذان الجيل الجديد على أمجادنا ، وأن نقول لهم : إن الأرض لم تشهد أعظم من آبائكم ، ولاأمجد من فعالهم ، يوم كانوا يؤمنون بالله ورسوله .

والطريق مفتوحة للجميع ... والله هو هو لم يتغير ، ولم يتبدل ... فعودوا إليه كما عاد أسلافكم ، واسلكوا سبيله كما سلكوا ، ينصركم كما نصرهم ، وينفخ فيكم من روحه كما نفخ فى آبائكم .

جيش يسير على الماء !.

ورأى سعد بن أبى وقاص تحكم أصحابه فى ثغور المدائن ، فأمر فرسانه فاندفعوا جميعا ... ألوفا مؤلفة إلى لجة النهر ، من حيث اقتحمه عاصم .

وامتلأ النهر بالخيل فلم يكن ماؤه فى هذه الساعة لِيُرى .

وأمر عاصم أصحاب الزوارق والسفن من الفرس فدفعوها إلى الجانب الذى فيه المسلمون ، فنقلت من جيش المسلمين من لم يعبر على جواده .

فلما عبر سعد بالجيش كان أهل المدائن جميعا قد فرّوا !! .

يقول ابن كثير: « وكان يوما عظيما ، وأمرا هائلا وخطبا جليلا ، وخارقا ، وباهرا ، ومعجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ،خلقها الله لأصحابه ، لم يرمثلها فى تلك البلاد ،ولا فى بقعة من البقاع » .

أين الامبراطورية الفارسية ؟ .

فرت أمام هؤلاء ... الذين جاءوا إليها ، ليزيلوها فزالت !.

وكان الذى يساير سعد بن أبى وقاص فى الماء سلمان الفارسى ، فجعل سعد يقول «حسبنا الله ونعم الوكيل . والله لينصرن الله وليه ، وليظهرن الله دينه ، وليهزمن الله عدوه ، إن لم يكن فى الجيش بغى أو ذنوب تغلب الحسنات » .

فقال له سلمان : « ذلّت لهم والله البحور كما ذلل لهم البر . أما والذى نفس سلمان بيده ليخرجن منه أفواجا كما دخلوا أفواجا » .

فخرجوا منه كما قال سلمان ، لم يغرق أحد ولم يفقدوا شيئا !!.

ماذا نتعلم من حوار الرجلين الكريمين ؟

نتعلم أن الله ينصرنا إن لم يكن فى جيشنا بغى ، أو ذنوب تغلب الحسنات ؟ !

عجبا لك يا ابن أبى وقاص ! . لو اجتمع فلاسفة الدنيا كلهم ما استطاعوا أن يلاحقوك فيما تدرى من أسرار الله فى الحياة !.

من أين لك يا ابن أبى وقاص ذلك السر العجيب من أسرار النصر ؟ .

إنه من كتاب الله ، ومن محبتك لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

فترقرقت الحكمة على لسانك كأنها تنزل عليك من السماء !.

فهل آن لنا أن نتطهر كما تطهر هؤلاء ؟.

إننا لو فعلنا ، نلنا ما نالوا ... ليتنا نفعل ...

فى إيوان كسرى !

إن هذا الرسول ... محمد صلى الله عليه وسلم ... حق ... إى والله حق !.

كيف هذا ؟ ... إن هناك قصة ، يجب أن نقصها هنا ... ليعلم الناس جميعا أن محمدا حق ، وأن ما جاء به حق !.

قال عدى بن حاتم ، وهو يروى قصة إسلامه ، وقد كان ملكا فى قومه ، على دين النصرانية : ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم لعلك ياعدى إنما يمنعك من دخول فى هذا الدين ماترى من حاجتهم ؟ فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه . ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ماترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ؟ فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف . ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان فى غيرهم ؟ وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم » .

تلك هى الأقصوصة ... نسوقها ليعلم الناس من هو رسول الله ؟.

لقد تنبأ صلى الله عليه وسلم وهو يحدث ابن حاتم بفتح إيوان كسرى ... ثم مرت الأيام ... وها نحن فى السنة الخامسة عشرة من الهجرة ، وها هى جيوش المسلمين تدخل المدائن ، وتدخل إيوان كسرى بالذات !!.

وتلك آية دالة على أن محمدا حق . وأن ماجاء به حق من عند الله .

والآن نعود إلى سعد بن أبى وقاص والذين معه لننظر ماذا يفعلون ؟.

ودخل سعد بجنده القصر وجعل يجيل بصره فيم احتواه من نفائس وعجائب ، ويتلو قوله تعالى « كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوماً آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ».

وصلى سعد صلاة الفتح ، ثمانى ركعات بتسليمة واحدة .

ثم أمر أصحابه فجاءوا بأطفال المسلمين من سائر مدن العراق وقراه ، فأنزلهم المدائن!.

ونزل سعد قصر الأكاسرة ، وأقام به ، واتخذ الايوان مصلى ! .

وارتفعت كلمة لا إله إلا الله فى قصر عبدة النار ! .

٣٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ؟!

ووجد سعد خزائن كسرى مترعة بالأموال ، وبنفيس الثياب والأمتعة والآنية والألطاف والأدهان ، وما إلى ذلك مما لا تعبر الألفاظ والأرقام عن قيمته .

ليس هذا وحده ،.. وإنما بعث سعد جنده يطاردون يزدجر ، والذين فروا معه إلى حلوان ، فأدركوهم وجاءوا بما حملوه ، فإذا قيمته تضاهى قيمة ما بالقصر .

ووجد المسلمون بدور المدائن من التحف والنفائس ما أذهل خيالهم ، وما دلّ على ترف أهلها ترفاً لم يعرفه غير الفرس .

ذكروا أن سعدا وجد بخزائن كسرى ثلاثة آلاف ألف ألف ألف دينار !!.

ووجدوا بالقصر من التحف والأمتعة ما لا تُدْرَى قيمته .

وجاء الذين خرجوا فى أثر يزدجر بتاج كسرى مرصّعاً بالدر والجواهر ، وبثيابه من الديباج المنسوج بالذهب ، المنظوم بالجوهر .

كما جاءوا بخرزات كسرى ووشاحه ودرعه التى فيها الجواهر .

ووجد المسلمون بدور المدائن سِلالا مختومة برصاص ظنوا مافيها طعاما ، فإذا هو آنية من الذهب والفضة ، وبلغ من كثرة ماوجدوا من ذلك أن كان الرجل يطوف ليبيع الذهب بالفضة متماثلين ! .

وهكذا وضعت كنوز كسرى ، وكنوز الفرس كلها ، تحت أقدام الفاتحين المؤمنين ..

ونحن نسجل هذا هنا ، من هذا الفصل من الكتاب ، ليعلم العالم أجمع أن الدولة الاسلامية فى عهد عمر ، بلغت غاية ما تبلغه الدولة من الغنى وكثرة الأموال .

وحسبك أن الأمبراطورية الفارسية كلها ، تلك الامبراطورية التى عمرت مئات السنين ، وكانت عبارة عن نصف العالم القديم ، قد أصبحت بمقدراتها ، وأموالها ، وسائر طاقاتها ملكا للدولة الاسلامية .

وإنك تستطيع أن تتصور مدى ما كانت عليه فارس من نعيم وأموال ، إذا تصورت أن خزانة كسرى وجدوا بها ٣٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار !!.

فكيف إذا أحصينا ماعند أغنياء الدولة آنئذ ، وسائر طبقاتها من أموال .

ويمكنك أن تدرك ذلك ، إذا تصورت مثلا ،كتلة كالكتلة الغربية ، بدولها العديدة بذهبها وثرواتها كلها ، ومصانعها ، وشركاتها ، تصبح ملكا لدولة من الدول .

لقد كانت الفرس فى ذلك العالم القديم تشبه كتلة بأكملها من الكتلتين القائمتين فى عالمنا الحديث .

فانظر بكم تقوم أموال الكتلة الشيوعية ، أو الغربية ؟ .

نقول هذا لنضع تحت أعين الناس ، فكرة سريعة ،عن دولة عمر ، وأنها كانت تموج بالأموال ... حتى إذا تكلمنا فيما بعد عن سياسة عمر ،كان فى اعتبارنا أن الدولة كانت غنية إلى أبعد حدود الغنى ، ومع هذا استطاع عمر أن يسوسها سياسة عادلة !.

فكيف والامبراطورية الفارسية كلها ، ما كانت إلا واحدة من غنائم المسلمين ، إذ هناك الامبراطورية الرومانية وكنوزها هى الأخرى !.

إنه يمكن أن يقال ، أن العالم كله ،كان يومئذ تحت قدمى عمر !.

نجحوا فى الامتحان ؟

إلا أن الأعجب من هذا كله ، أن توضع تلك الكنوز التى لا أول لها ولا آخر بين يدى أبناء الصحراء ، الذين لايجدون شربة ماء ، ثم لاتفتنهم ، ولا تزحزحهم عن الأمانة ، ولاتدفعهم إلى النهب والخيانة ! .

وتلك هى العظمة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذين تابعوهم بإحسان .

إن أحدا من الجيوش لم يأخذ شيئا لنفسه مما وقع فى يده ، وإنما أداها بتمامها إلى سعد ابن أبى وقاص ! .

أقبل رجل بحُقّ نفيس ، فقال مندوب سعد والذين معه : ما رأينا فيما عندنا مثل هذا مايعدله أو يقاربه .

وسألوا الرجل : هل أخذت منه شيئا ؟

قال : لاوالله ، لولا الله ماأتيتكم به !.

وسألوه : من هو ؟.

فقال : لاأخبركم فتحمدونى ، ولكنى أحمد الله وأرضى بثوابه .

اسمع أيها الجيل الصاعد ، وتعلم ، وتألم ، وقارن بين ما كانوا عليه ، وما صرنا اليه ، تدرك لماذا بهروا العالم بفتوحاتهم ، وأمجادهم ... ووقفنا نحن ، لانتقدم إلا قليلا ؟.

ورأى سعد أمانة رجاله فقال : والله إن الجيش لذو أمانة ، ولولا ماسبق لأهل بَدْرٍ لقلت إنها على فضل أهل بدر » .

وكان جابر بن عبدالله يقول : « والله الذى لاإله إلاهو مااطّلعنا على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة . فلقد اتهمنا ثلاثة نفر ، هم طُلَيْحَة ، وعمرو بن معدى كرب ، وقيس بن المكشوح ، فما رأينا كأمانتهم وزهدهم » .

ماذا نأخذ من هذا ؟ ... نأخذ من هذا أن الأمانة لاتتكون بقانون ، فما أسهل اللعب بالقوانين ، وأن الصدق لايتأتى بالبطش ، فما أسهل الالتواء على البطش ...

وإنما تكون الأمانة ، ويكون الصدق ، بمعرفة الله ، وبالإيمان بالله ، وبالخوف من الله .

وهذا ماجعل هؤلاء الناس ، توضع الدنيا فى أيديهم فلا تفتنهم ، وتدفع الكنوز إلى أصابعهم فلا تدفعهم إلى خيانة ، وإنما يؤدون هذا كله إلى الدولة ، لتوزعه بالقسطاس بين الناس .

ومن هنا يجب أن تؤسس المرحلة الجديدة فى الأمم الصاعدة من عالمنا العربى ، على الإيمان بالله وخشية الله ...

وإلا فسوف تعز الأمانة ، ويعز عليك أن تجد صادقا .

لقد كنا نرى رجالا من جيوش الانجليز وحلفائهم فى الحرب العالمية الأخيرة ، يبيعون مخازن بأكملها إلى من هب ودب ، بأبخس الأثمان .. وكلنا يعلم أولئك الذين أثروا من ذلك السبيل ، وسميناهم بأغنياء الحرب ...

فلماذا خان أولئك الضباط والجنود من الحلفاء جيوشهم وقياداتهم ، وباعوا ماباعوا لقاء دريهمات ، يأخذونها لينفقوها سكرا وعربدة ؟.

ألأنهم غير مثقفين ؟.. كلا... فنهم من يحمل أرقى الشهادات العلمية ؟.

إذا أين العلة ؟ . العلة أنهم لايؤمنون بالله ، ولا يخشون الله ، ومن هنا تفككت شخصيتهم ، وانهارت الأخلاق فى كيانهم .

أين هؤلاء الخونة ... مما كان عليه أسلافنا ، الذين وضعت كنوز امبراطورية بأكملها فى أيديهم ، فمامد رجل واحد منهم أصبعه إلى شيء منها ؟ .

أين ؟... شتان ... هؤلاءهم أجدادنا الذين ينبغى أن نربى جيلنا الصاعد على أخلاقهم ونربط عقول أبنائنا بأفكارهم .

فليس الأمر أن تملك الدولة جيوشا ، وإنما الأمر أن يكون لهذه الجيوش أخلاق .

وإن أخطر شيء أن تقيم صروح العظمة ثم تسلمها إلى أيدى الأوباش ، الذين لايؤتمنون على مايملكون ... إنهم ينتهبونها متى حانت لهم الفرصة ، ولا يهمهم فى كثير أو قليل أمر الدولة ، ولا المصلحة العامة .

لقد كانت دولة الاسلام الأولى محكمة البناء ، لأنها مكونة من رجال يخافون الله ، لايخونون ، ولايسرقون .

وهذا مانريد أن نؤسس عليه بناءنا الحديث ... حتى إذا مااختبر البناء ، وتعرض لهزة دولية ، أو هجوم من الأعداء ، كان حديدا لايلين .

توزيع رءوس الأموال

ماذا يفعل سعد بن أبى وقاص ، القائد العام للجبهة الشرقية ، فى تلك الأموال الهائلة، التى تجمعت لديه ، مما أفاء الله عليه من معركة فتح المدائن ؟ .

إن أموال كسرى كلها ، وأموال أغنياء الفرس كلها ، وأموال الامبراطورية كلها ، تحت قدميه ، فماذا يفعل فيها ؟.

هل يتركها كتلة واحدة ويسوقها إلى المدينة عاصمة الإسلام ، أم يوزعها على الجميع ؟.
وما كان لسعد إذا قضى الله ورسوله أمرا ، أن يكون له الخيرة من أمره ...
وقضى الله فى الغنائم أن يوضع خمسها فى بيت المال ، وأربعة أخماسها للمحاربين...
وقد كان ... فصل سعد خمس الغنائم ليرسله إلى المدينة ...

وقسم سعد الفىء فى الجند ، وكان قدتم ستين ألف فارس ، فأصاب الفارس منهم اثنى عشر ألفا ، ثم جعل أهل البلاء على قدر بلائهم .

وقسم سعد المنازل بين الناس ، وأنزل الأسر فى الدور ، فأقاموا بها حتى ارتحل منهم عنها بعد ان امتد الفتح إلى ماوراءها من الريف .

ماذا نستنبط من هذا ؟ ... نستنبط أن رءوس الأموال ينبغى أن تفتت دائما ، كى لاتكون دولة بين الأغنياء .

وأن أهل الكفاءة يجب أن يكافأوا عن امتيازهم ، ليزدادوا احسانا على احسانهم ، ويحاول المتخلفون اللحاق بهم .

عففتَ فعفّتْ رعيتك ؟

ذهب بشير بن الخصاصية بخمس الفىء إلى المدينة ، ووضعه بين يدى أمير المؤمنين .
وكان عمر قد سبقت إليه الأنباء بفتح المدائن ، ومع ذلك تعجب لما رأى كثرة هذا الفىء ، ونفاسته ، وإحضار المسلمين له كاملا !

والتفت عمر إلى من حوله وقال : « إن قوماً أدّوا هذا لأمناء ! ».

وأجابه على بن أبى طالب : « إنك عففت فعفت رعيتك ، ولو رتعت لرتعتْ »

صدقت يا ابن أبى طالب ... وكشفت عن سر خطير من أسرار السياسة العامة .

نعم إن الحاكم فى الدولة كالقلب فى الجسم ، إذا صلح صلحت الدولة ، وإذا فسد فسدت الدولة .

ولقد كان عمر عفيفا ، فعفت الجماهير ... ولو رتع لرتعت الجماهير .

ومن هنا ندرك أن سياسة عمر ، كانت ترتكز أولا على عفة عمر ... عفته عن الأموال العامة ، وعفته حتى عما هو خاص له ، ونزوله عن هذا الحق الخاص ابتغاء وجه الله ! .

وكيف لا تعف الجماهير ، وحاكمها عفيفا ؟ .

ومن هنا ندرك كذلك ، أن هؤلاء الذين يحكمون الأمم الإسلامية ، ويرتعون فى الذهب يمينا وشمالا ، بحق وغير حق ، ليسوا من الاسلام فى شىء ، وليسوا من عمر فى شىء ... وإنما هم ينتهبون الأموال العامة بدعوى أنها أموالهم ، وما هى بأموالهم ، إن هى إلا قطرات عرق المساكين والمحتاجين والكادحين .

هذا الصنف من الحكام أخطر على الاسلام ، من الكفار والمحاربين ... لأنهم فكرة كئيبة عن الاسلام ، ويضربون مثلا سيئا عن هذا الدين .

أعوذ بك أن تمكر بى ؟ !

ونظر عمر إلى ثياب كسرى ، وأسيافه ، ودروعه ، فدعا إليه سُراقة بن جُعْشُم ، وكان من أجسم العرب وأبدنهم ، فألبسه قميص كسرى ، وسراويله ، وقباءه ، وسيفه ، ومنطَقته ، وسوارَيه ، وتاجه ، وخُفَّيه ، وقال له : أدبر ، فأدبر ، ثم قال له : أقبل ، فأقبل .

ثم قال عمر . بَخٍ بَخٍ .. أُعَيْرابيٌّ من بنى مدلج ، عليه قَباء كسرى وسراويله وسيفه ومنطقته وتاجه وخفاه ؟ ! . رُبَّ يوم يا سُراق بن مالك لو كان عليك فيه هذا من متاع كسرى وآل كسرى كان شرفا لك ولقومك ! .

ورفع عمر رأسه إلى السماء وقال : « اللهم إنك منعت هذا رسولك ونبيك ، وكان أحب إليك منى ، وأكرم عليك منى ، ومنعته أبابكر ، وكان أحب إليك منى ، وأكرم عليك منى ، وأعطيتنيه ، فأعوذبك أن تكون أعطيتنيه لتمكر بى ! »

وبكى عمر ... حتى رحمه من كان عنده ! ! .

ثم أشار إلى هذا المتاع ، وقال لعبد الرحمن بن عوف : « أقسمت عليك لما بعته ، ثم قسمته قبل أن تمسى ! » .

وقسم عمر الخمس بين الناس على أقدارهم .

لماذا البكاء ياعمر ؟ ..

إنه يعلم مافى المال من فتنة ... ومافيه من فساد ، ومافيه من ترف يؤدى إلى انهيار النفوس وانهيار الأمم .

ومن هنا كره عمر أن تبقى ملابس كسرى ومهماته بين يديه ، وأمر ببيعها ، وقسمة ثمنها على الناس .

إنه لايحب الترف ... ولم ترغب نفسه أن يلبس منها شيئا ، أويضع تاجه على رأسه . كلا ... فإن عمر يرى أنه عبد من عباد الله ليس امبراطورا ، ولاملكا ...

ومن هنا نتعلم أن على الدولة أن تسارع إلى أداء الحقوق إلى أصحابها ...

فهاهو عمر يسارع إلى تقسيم الخمس بين الناس ، ويكره أن يمسى وهذا المال فى الخزانة العامة .

إن بطء الإجراءات ، والتواء التنفيذ فى الأجهزة الحكومية ، وغير الحكومية ، دليل على فساد الدولة ، وبعدها الشديد عن الإسلام .

لأن الاسلام يأمر بأداء الحقوق فورا إلى أهلها ، ويأمر بالعمل على وضع ذلك موضع التنفيذ ، أيا ماكان الأسلوب وأيا ماكان الطريق .

مبدأ هام ؟

ورأى عمر القطيف لاينقسم . فقال لمن حوله : « أشيروا علىّ فى هذا القطيف » .
قال الملأ : قد جعل الجند ذلك لك ، فالرأى فيه رأيك .
وقال بعض : « إنه لأمير المؤمنين ، لا يَشرَكه فيه أحد » .
وأبى عمر أن يأخذه لنفسه ، أويبدى فى أمره رأيا !! .

فقام على بن أبى طالب فقال : « لم يجعل الله علمك جهلا ، ويقينك شكا . إنه ليس لك من الدنيا إلا ماأعطيت فأمضيت ، أو لبست فأبليت ، أوأكلت فأفنيت . وإنك إن تُبقِه اليوم على هذا ، لم تعدم فى غد من يستحق به ماليس له » .
قال عمر : « صدقتنى و نصحتنى » .

ثم قطع القطيف ، وقسمه بين الناس ، فأصاب عليّاً منه قطعة لم تكن أجود تلك القطع ، ومع ذلك باعها بعشرين ألفاً .

وكان هذا القطيف هو بساط كسرى ، وكان هذا البساط مربعا ، ستون ذراعا فى مثلها ، وكانت الأكاسرة تُعده للشتاء إذا اشتد القر ، وذهبت الرياحين . وقد صُورت فى هذا القطيف طرق المملكة ، وبُسطت فيه الأرض مذهبة تجرى خلالها أنهار رُصِّعت بالدر ، وجعلت حافاته كالأرض المزروعة ، فيها نبات الربيع قام على سوق من ذهب ، وجُعل ورقه من الحرير ، وثمره من الجوهر !! .

هذا هو البساط الذى طلب عمر رأى الناس ... ورأى أحدهم أن يجعله عمر لنفسه خاصة لايشركه فيه أحد ...

فهل طاب عمر نفسا بهذا الرأى ؟ . وماذا عليه لوأخذ بساط كسرى ، وفرشه فىداره، أليس هو حاكم دولة كما كان كسرى حاكم دولة ؟ .
إن أحدا لن يعترض على عمر إذا فعل ذلك ...

ولكن عمر لا يرى لنفسه فضلا على أحد من الشعب ولا يجيز أن يختصها بشىء من دون الناس ... فأبى ذلك الرأى ... وأخذ برأى على بن أبى طالب ، وقسمه بين الناس !

وهنا يتلألأ مبدأ خطير من مبادىء عمر ...

أن لكل فرد فى الشعب ، ما لرئيس الدولة من الحقوق المالية ، سواء بسواء .

من أين لنا هذا الرأى الخطير ؟ .

من فعل عمر ، واتجاه عمر ، واقرار من حضر من صحابة رسول الله لاتجاهه ، ويكفى أن فيهم عليا ، وما أدراك ما على ! !

هذا بساط ... أى هذا مال ... هذا رأس مال أخذ عليه الرأى ، فاستقر الرأى على قسمته ، ولو لم يصلح للقسمة ... فمعلوم أن السجادة إذا قطعت ، فقدت قيمتها ... ومع هذا قطعت ، وقسمت ، ووزعت .

وهذا هو المبدأ الخطير ، الذى ينبغى أن تدركه جماهير الشعوب العربية والإسلامية ..

أن لكل إنسان حق فى ثروة البلاد ، تماما كحق رئيس الدولة فى هذه الثروة .

فإن قيل : من أين لكم هذا ؟ . قلنا . مما فعل عمر !.

ومن هنا ندرك أن أولئك الذين يختصون أنفسهم بنفائس الرياش والقصور ، وثمين الدر والياقوت، هؤلاء ليسوا من الإسلام فى شىء ، وإنما هم قوم غافلون سارقون مجرمون.

إن كل جوهرة فى قصر أو رياش فى فيللا ، أو زخرف فى بناء ، كل شىء من هذه يعتبر مسروقا من الضعفاء والمساكين والكادحين والضائعين ، الذين لم يجدوا من ينصرهم ، فضاعوا ، ليتلذذ هؤلاء .

إن على الدولة أن تطاردهم ، أن تقلل ما بأيديهم وترده إلى أصحابه الشرعيين ، إلى الجماهير التى ضيعوها قرونا طويلة .

لا ينبغى أبدا أن تنعم طبقة قليلة ، بينما تلهث سائر الطبقات ، بحثا عن ضرورات الحياة .

القعقاع يفتح جلولاء !

وخيل إلى يزدجرد أنه يستطيع من المسلمين انتقاما ... فاجتمع الفرس من كل مكان فى جلولاء (على أربعين ميلا من المدائن) وقال بعضهم لبعض : « لو افترقتم لم تجتمعوا أبدا. فهلموا فلنجتمع للعرب ولنقاتلهم ، فإن كانت لنا فهو الذى نحب وإن كانت الأخرى كنا قد قضينا الذى علينا وأبدينا عذراً »

وجاءت هذه الأنباء سعدا ، وهو فى مقر قيادته العامه بايوان كسرى ، فبعث بها إلى عمر بالمدينة ، فبعث إليه عمر : « أن سرح هاشم بن عتبة إلى جلولاء فى اثنى عشر ألفا واجعل على مقدمتهم القعقاع بن عمرو ». وعين له من يكونون على الميمنة والميسرة والساقة بأسمائهم .

والتقى الفريقان ... فاقتتلوا قتالا شديدا لم يعهد مثله .. وتقصفت الرماح من هؤلاء وهؤلاء .. وحانت صلاة الظهر فصلى المسلمون إيماء ...

كان الفرس يخوضون معركة حياة أو موت وكان المسلمون يصرون على النصر الذى ألفوه وأصبح لهم شعارا .

وحمل المسلمون ، وقاتلوا عدوهم قتالا مخيفا .. وانهزم الفرس ...وأخذهم المسلمون من كل وجه ، حتى لقد قتل من الفرس فى ذلك الوقت مائة ألف رجل .. وفر من بقى منهم ... فأتبعهم القعقاع يريد أن يجعلهم حديثا ! .

عمر لا يرى التوسع !

وكتب سعد إلى عمر بفتح جلولاء ، وبالغنائم العظيمة التى غنمها المسلمون فيها، واستأذنه فى مطاردة الفرس داخل بلادهم .

لكن عمر آثر الحذر ، فكتب إليه يقول: «وددت لو أن بين السواد (ما بين نهرى

العراق من الأراضى الزراعية) والجبل سدا، لا يخلصون إلينا، ولا نخلص إليهم. حسبنا من الريف السواد! . إنى آثرت سلامة المسلمين على الأنفال »

وكان رأيا سديدا من عمر .. وهو رأى عميق يدل على أن الرجل كان ملهما.

لقد ضاعت فتوحات هتلر فى الحرب العالمية الأخيرة، حين لم يقنع بفتح أوروبا فذهب بفتح روسيا شرقا، وإفريقيا غربا، وانجلترا فى وقت واحد. فاتسعت جبهات القتال، وأصبح سهل المنال.

وواجهته الدنيا كلها بجيوشها، فما استطاع لها وقفا ... وكانت هزيمة ألمانيا ... ولو أنه بسط سلطانه على أوروبا وحدها واكتفى، فلربما كان لألمانيا مصير آخر.

أما عمر، ذلك الملهم، فإنه آثر الوقوف عند ذلك الحد، ولم يدفعه النصر الساحق إلى الرغبة فى التوسع

فهو بذلك أعظم من قادة بروسيا والعسكريين من حول هتلر جميعا.

أهيب رجل ؟!

كان عمر يثير الرعب فى نفوس أصحابه، قبل أعدائه، فهو الحق المجسم فى رجل.

خاف الله فخافه الناس، المقربون منهم إليه، قبل البعيدين عنه.

شخصية عجيبة ذلك الرجل!.

وإليك تلك القصة لتتبين ذلك المعنى ...

بعث سعد بأخماس فىء معركة جلولاء إلى المدينة مع جماعة فيهم زياد بن أبى سفيان.

فلما قدموا على عمر وصف زياد فتح جلولاء وحلوان فى براعه وبلاغة، وصفا جعل عمر يقول له: « هل تستطيع أن تقوم فى الناس بمثل الذى كلمتنى به؟ »

وأجاب زياد: « نعم يا أمير المؤمنين! فوالله ما على وجه الأرض رجل أهيب فى صدرى منك فكيف لا أقوى على ذلك مع غيرك؟! »

وقام زياد ، وقص على الناس خبر الواقعة ، وأعاجيب أبطال المسلمين فيها ، وكم قتلوا من الفرس ، وما أصابوا منهم .

وأعجب عمر بها فقال : « هذا والله الخطيب المِصْقع !

وانشرح زياد صدراً فقال لفوره : « إن جندنا أطلقوا بالفعال لساننا » .

هذه شهادة زياد ، أحد القواد الأبطال ، الذين خاضوا الأهوال وجندلوا الفرسان ..

وهو مع هذا ، ومع قوة شخصيته ، يهاب عمر هيبة لا يهابها أحداً على وجه الأرض !

لماذا ؟... لأن عمر يهاب الله هيبة شديدة ، فهابه الناس أشد من هيبته لله .

وما زياد ؟... وما أبطال غير زياد ... أمام عمر ؟...

إن هم إلا بعض قوة الرجل ، وبعض شخصيته ... أما هو فإنه يعلو عليهم جميعا بعلوه عند الله .

التوزيع فوراً !

وأشار بعض أصحاب الرأى على أمير المؤمنين أن يجعل الفىء فى بيت المال .

فقال : والله لا يجنّه سقف بيت حتى أقسمه !.

وبات الفىء فى صحن المسجد ، وعليه عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن أرقم يحرسانه.

فلما أصبح عمر ، وصلى بالناس الفجر ، وطلعت الشمس ، أمر ، فكشف عن الفىء .

فلما نظر إلى ياقوته وزبرجده وجوهره وذهبه وفضته ، بكى !.

فقال له عبد الرحمن بن عوف : « ما يُبكيك يا أمير المؤمنين ؟! فوالله إن هذا لموطنُ شكر ! » .

قال عمر : « والله ماهذا يُبكينى !. وتالله ماأعطى قوما هذا إلاتحاسدوا وتباغضوا ، وماتحاسدَ قوم إلا أُلقِيَ بأسُهم بينهم » .

سرٌ آخر من أسرار الحياة ، وأسرار السياسة ، يكشف عنه عمر !.

عمر يبكى !.. مم يبكى ؟... من كثرة المال الذى جعله الله بين يديه ، وتحت قدمه ..

وعبد الرحمن بن عوف يتعجب من بكائه ، ويقول له : هذا موطن شكر ...

ولكن عمر كان أبعد نظرا من ابن عوف ، إنه يرى أن المال يؤدى إلى التحاسد ، ويخشى أن يكثر فى المسلمين ، فيتحاسدوا ، فيكون بأسهم بينهم !!.

ماهذا ؟... هل انشق الغيب لعمر ؟.

ولم لا ؟... ألم يجعل الله الحق على قلبه ولسانه ؟.

وقد كان ياعمر ... تماما كما توقعت ... وانفتحت خزائن الأرض من بعدك للمسلمين ؟ وأترفوا ترفا لم يترفه أحد من الأمم ... فكان الشقاق ، وكان الخلاف ، وكانت الانقسامات الداخلية ، وهو ماتعنيه بقولك ياشفاف الغيوب « وماتحاسد قوم إلا ألقى بأسهم بينهم » !!.

فهل فى ساسة الدنيا من يفقه من الحياة وأسرارها مافقه عمر ؟.

أبدا ... وأين للناس سياسيا مثل عمر ؟.

أين هذا الزعيم السياسى الذى يبكى إذا زادت موارد دولته ، وازدهرت ثروتها ؟ .

إنه يقف فخورا ، يسجل للعالم كله أن اقتصاد البلاد قد ازدهر فى عهده !.

لكن عمر ... يبكى ... ومن هنا يعلو عمر على هؤلاء جميعا .

وذلك هو المقام ... مقام الصديقين والشهداء ، الذين يقبسون من نور النبوة !.

وقسم عمر الفىء الذى أبكاه بين الناس ، على ملأ وتشاور ، وإجماع من المسلمين .

واستراح عمر ، حين فرغ من توزيع تلك الأموال على الجماهير .

استراح لأن أسلوبه دائما هو أن يسارع بالحق إلى أصحابه ، لايريد تسويفا ، ولاابطاء. وذلك دائما شأن المؤمنين .

أى شىء يقتبس من الحادثة ؟... يقتبس منها أن الدولة ينبغى عليها أن تتخلص تباعا ، من رءوس الأموال فى خزائنها . وأن تلقى بها إلى الجماهير ، والمعدمين ، ليحركوها ، ويرتزقوا منها .

وهذه أحسن طريقة لازدهار الأموال ، وحسن إدارتها .

المرأة العربية تقاتل !

وتلاحقت انتصارات المسلمين بشمال العراق وجنوبه ، ولم يكن انتصارهم على الفرس يسيرا .

فقد اشتد القتال ، وتداوله الفريقان ، واستمات فيه الفرس .

وإنهم لكذلك إذ رأى الفرس كتيبة مقبلة ، حسبوها مدداً للمسلمين ، فانهدت قوتهم . فانهزموا .

ولم تكن هذه الكتيبة إلا نساء المسلمين ، خرجن من أخبيتهن ، واتخذن من خُمرهن رايات ، وسرن بها يُردْن معاونة الرجال ! .

ماذا نأخذ من تلك الحادثة الخطيرة ؟.

نأخذ منها أن المرأة العربية المسلمة فى عهد عمر ، وهو أكمل نموذج ، للمجتمع المسلم وملامحه العامة ، كانت امرأة مقاتلة ، تكون الكتائب ، وتزحف فى خط النار ، وتقاتل.

ويكفى من جمال تلك الواقعة أن الفرس ظنوا كتيبتهن مددا ضخما للمسلمين ، فرعبوا ، وانهزموا .

المرأة ... المرأة العربية تثير الرعب فى قلوب الرجال الأعداء .

وهكذا كنّ على عهد عمر ... أزهى عصور الاسلام ...

ولعل فى هذا أبلغ رد ، على أولئك الذين يريدون أن يجعلوا المرأة جمادا لا يشارك فى الحياة ، ولا ينفعل بالأحداث العامة .

كلا ... فلتتعلم المرأة العربية كل فنون القتال ، ولتتدرب على شتى أساليب الحرب .

ولنكون من النساء الكتائب ، والفرق ، ولنعدهن ليحاربوا الأعداء .

لقد أبين على عهد عمر أن تفوتهن فرصة المشاركة فى المعارك ، فخرجن فى كتيبة ، يقاتلن ... ولم يخيب الله رجاءهن فيه ، فرُعب منهن الأعداء وفروا .

تلك هى المرأة العربية ، وتلك هى مواقفها ، فلتخرس الألسن التى تريد لها تخلفا ونوما .

ولقد انبعثت المرأة الجزائرية في ثورة الجزائر ، فانبعثت فيها روح المرأة العربية المسلمة الأصيلة . وأتت بالعجائب والغرائب ، في محاربة الفرنسيين والاستعمار .

ولاقت الأهوال ، وتحملت التعذيب الوحشى بشتى صنوفه ، فلم تهن ، ولم تضعف . ولم تستسلم ... حتى حررت الجزائر جنبا إلى جنب مع الرجال .

فأثارت اعجاب العالم الحديث كله ، وأصبحت جميلة بوحريد ، وجميلة بوباشا ، وأمثالهن كثيرات ... كثيرات جدا ... أغنيات في فم الزمان .

تحيتى إليهن ... إلى الجزائريات المجاهدات ... فإنهن كن المثل الصادق للمرأة العربية المسلمة حين تنبعث تقاتل عن دينها ووطنها وشرفها وحريتها .

إن المرأة الجزائرية قد بعثت المرأة العربية في حقيقتها ، فما أروع ما كان منكن يا بنات الجزائر !.

وهذا هو الاسلام ... وهذه هى المرأة العربية الحقيقية ...

فمن كان فى شك ، فليعلم أن الإسلام يفرض القتال على كل رجل ، وكل امرأة ، وكل طفل ، مادام هناك شبر واحد محتلا من أرض الإسلام .

والعالم الاسلامى الآن ، أكثره محتل بقوى الاستعمار ، فأصبح مفروضا على المسلمين والمسلمات قتال المستعمرين .

هذا هو وضعنا ... وهذا هو توجيه الاسلام ... ومن هنا يتحتم علينا أن ندرب فتياتنا على القتال بشتى صوره ، حتى يأخذن مكانهن فى معركة الأوطان القريبة ، جنبا إلى جنب مع الرجال .

وإن فى فعال الجزائريات لأوضح دليل وأروع مثال .

ما أجمل المرأة العربية المقاتلة ، إن منظر فتاة واحدة تحمل المدفع ، وتطلقه على الأعداء ، يثير الحمية فى نفوس آلاف الشباب ، ويجعلهم ينطلقون إلى الموت انطلاق الآساد .

ألا سحقا لدعاة التخلف ثم سحقا .

فلتقاتل المرأة العربية ، ولتسكن طيارة ، وغواصة ، ومحاربة ، وضاربة بالمدفع ، وضاربة بالقنابل ...

لتخرج كما خرجت أختها الجزائرية ، ولتحارب المستعمر فى كل مكان ، حتى يتحرر كل شبر من أراضى الإسلام .

كيف تقف المرأة الاسرائيلية سنة ١٩٤٨ وغيرها وراء المدفع ، وتحصد العرب حصدا برشاشها ونمنع نحن المرأة العربية من القتال ؟ .

كيف ... ونحن نريد أن نتغلب على هؤلاء ؟ .

ومالنا لانبيح القتال لنسائنا ، وننتظر منهن أن يكون نسلهن من الرجال مقاتلا ؟ .

إن المرأة المقاتلة تغرس فى أطفالها حب القتال ، وحب الإقدام .

فإلى القتال ، إلى الميادين ، أيها الرجال ... وأنتم أيها النساء !

سياسة عمر العالمية ؟

... ندخل الآن إلى منطقة خطيرة من هذا الكتاب ... ندخل إلى دولة جديدة ضمت إلى الدولة الإسلامية الناشئة النامية ...

هذه الدولة هى العراق ... فماذا كان الحال فى تلك الدولة ، وما وجه الخطورة فى الموضوع !.

وجه الخطورة أن هذا هو أول قطر خارج الجزيرة العربية يدخل فى حكم الإسلام ..

قطر فيه عرب ، وفيه فرس ، وفيه وثنيون ، وفيه عبدة نار ، وفيه جاهليون .

وفيه يهود ، وفيه مسيحيون ، وفيه مسلمون فاتحون .

ومن هنا تبدأ الخطورة ، ذلك أننا نريد من هذا الكتاب أن يكون عرضا لسياسة عمر ، وهذا القطر هو أول التجربة .

إن هناك قوماً يتصايحون : لقد كان الإسلام ديناً محدوداً ، لا يصلح إلا لأعراب الجزيرة العربية ، وحياتهم البدوية ... أما أن يكون نظاماً عالمياً ، يصلح لكل زمان ، ولكل مكان ، فلا !!.

كذلك يتصايحون ... ومن أجل هذا نقول بخطورة هذه المنطقة من الكتاب .

هذا قطر خارج الجزيرة العربية ... كان جزأ عظيما من الامبراطورية الفارسية، بل هو أهم مافيها ويكفى أن به عاصمة الأمبراطورية «المدائن» وأنها سقطت بإيوانها فى أيدى الفاتحين .

وواجه عمر المشكلة ، وفى يده دينه الجديد ، الإسلام العظيم ...

فهل يصلح الإسلام نظاما عاماً لهذا القطر الجديد ؟.

هذا القطر الذى يحوى أديانا مختلفة ، وطبقات مختلفة ، واتجاهات مختلفة ... هل يصلح الإسلام له نظاماً ؟ .

ذلك هو السؤال الخطير ...

التاريخ يعيد نفسه !

... كما هو حال بعض شعوب الدول العربية اليوم ... حيث يعمل أكثر أهلها فلاحين فى الأرض ... بينما ينهب الاستعمار خيرات بلادهم ...

كان حال العرب بالعراق أيام الاستعمار الفارسى ...

كان العرب فى العراق يعملون فلاحين فى أرضه ، ثم ينالهم القليل من خيره ، أما وافر الخير فيذهب إلى الدهاقين الفرس ، الذين كانوا يسومون العرب الخسف والظلم .

تماما ... كما هو حال الدول العربية التى لم تتحرر بعد من الاستعمار ... وكما كان هو الحال فى بلدنا هذا ، الجمهورية العربية المتحدة .

وقد أمر أبو بكر قواده حين وجههم لفتح العراق ، ألا ينالوا هؤلاء الفلاحين العرب بسوء . لايقتلون منهم أحدا ، ولا يأخذون منهم أسرى ، ولا يسيؤن إليهم فى أمر يتصل بهم .

وكانت هذه سياسة عمر التى اتبعها مع فلاحى العراق جميعا ، عربهم وغير العرب .

بل أكثر من هذا ... إنه اتجه إلى أن يشعر الفرس أنفسهم ممن لم يقاوموا الفاتحين ، ولم يقوموا فى وجوههم ، أن الحكم الجديد لم ينل مصالحهم المادية بأذى ، ولم يصبهم فى أشخاصهم وأهليهم بسوء . يتساوى مع هؤلاء من أقاموا بأرضهم ، ومن فروا فزعا من القتال ، ثم عادوا إلى أرضهم آمنين .

وحسب الأمير المسلم أن يقتضيهم خراجاً أوجزية لاينوءون بأيهما .

وبإقامة العدل بين الأهلين ، يطمئن المحكومون ويستريحون إلى سلطان المسلمين .

مدن حربية اسلامية ؟.

قدمت وفود الجند على عمر من جلولاء وحُلوان وتكريت والموصل يذكرون له الفتح والمغانم .

فنظر إليهم وقال : « والله ماهيئتكم بالهيئة التى أبدأتم بها ! : ولقد قدمت وفود القادسية والمدائن وانهم لكما أبدءوا فما غيركم ؟» .

قالوا : وُخومةُ البلاد .

وكان سعدقد كتب إلى عمر : « إن العرب قد رقت بطونها ، وجفّت أعضاؤها ، وتغيرت ألوانها » .

إن الأمر إذا أصبح خطيرا ... فماذا يفعل عمر ليواجه تلك المشكلة .

لقد دب الهزال إلى جنود الجيش العربى ، مما يضعف مقاومتهم ويقلل من قوتهم الضاربة . وكان ذلك لأنهم يعيشون فى جو غير جو الصحراء الصافية الذى ألفوه ونشأوا فيه .

وتحركت العبقرية من عمر ، وشاور أصحابه ، وبعث إلى سعد أوامره : « إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان . فابعث رائدا يرتاد لهم منزلا بريا بحريا ، ليس بينى وبينكم فيه بحر ولا جسر » .

وأراد عمر أن يحقق بهذا الاختيار أمرين ... أن يكون المكان الذى يختار لمقام العرب جافا كالصحراء ، تجرى مع ذلك فيه المياه العذبة الصالحة .. والثانى ألا يحول بحر أو جسر دون إرسال المدد إلى الجند المقيمين بهذا المكان إذا احتاجوا يوماً إليه .

وسبق عمر بهذا أحدث ما وصلت إليه الدول العظمى فى عصرنا الحديث ، من اتخاذ القواعد الحربية ، تكتل فيها جنودها ، استعداداً للتحرك فى أى وقت ! .

وسبقها مرة أخرى حين أحسن اختيار أماكن تلك القواعد ، بما يكفل لها سرعة الحركة ، وسرعة الإمداد ! .

ماذا نفهم من هذا ؟.. نفهم من ذلك أن فكرة المعسكرات وفكرة الحياة العسكرية ، ضرورة لكل أمة تريد أن يكون لها شأن فى الحياة .

وأن عمر كان عبقرى العباقرة حين أمر بانشاء تلك المدن العسكرية ، ليقيم بها العرب بعيدا عن فتنة الريف والمدن فيحتفظ العربى بقوته ، ويعيش على استعداد دائم .

المسجد فى أعلى مكان !

واختار عمر مكان الكوفة ، تنفيذا لفكرته ، حيث تقع على الفرات فى مكان نضارة وخضرة ، وهى غير بعيدة مع ذلك عن الصحراء .

وسار سعد من المدائن إلى موقع الكوفة ، فاختار أعلى مكان منها ، وأمر أن يُبنى المسجد عليها ، وأن يترك حوله فناء فسيح ، يكون سوقا للبيع والشراء .

وبنى مهندس فارسى من طوب مبانى الأكاسرة داراً لسعد بحيال المسجد ، جعلت فيها بيوت الأموال وسميت قصر سعد ، وأقام الجند منازلهم حول فناء المسجد .

وطاب مقام الناس بالكوفة .. فاستأذنوا عمر فى أن يقيموا منازل من القصب ، تكون أكثر من الخيام ثباتا .

فأذن فى كتاب يقول فيه : « إن المعسكر أشد لحربكم وأزكى لكم . وما أحب أن أخالفكم » .

ولم يلبث الناس حين قرىء عليهم كتاب عمر أن ابتنوا منازلهم من القصب وأقاموا بها .
ثم وقع الحريق فى هذه المنازل فالتهمتها . فأمسى أصحابها بدون مأوى .
فبعثوا إلى عمر يذكرون له خبر الحريق ، ويستأذنونه فى البناء باللبن ، فأذن لهم .
وقال عمر : « افعلوا ، ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات ، ولا تطاولوا فى البنيان ، والزموا السنة تلزمكم الدولة »

وكذلك قامت منازل الكوفة وأقام الناس بها ! .
مامعنى هذا ؟ . معناه أن المسلمين يتطورون مع ظروف الحياة ومطالب العيش .
مرضت أبدانهم من الأقامة برطوبة الريف ، فاتخذوا مكانا جافا ، وأنشأوا به مدينتهم الحربية .

ثم رأوا الخيام شيئا لا يستريحون فيه ، فاتخذوا بيوتا من قصب .
ثم رأوا القصب غير صالح بعد حادث الحريق الذى التهمه .
فطلبوا انشاء المبانى بالطوب ، فأذن لهم عمر ، وأقاموا المبانى .
ثم ماذا ؟... ثم يمضى التطور بهم إلى غايته... مع التنظيم فى إطار التوجيه الإسلامى!
ما هو هذا التنظيم ؟ ... البساطة ، وعدم الركون إلى الدنيا وزخرفها . لأن المسلمين جنود ، مطالبون بالجهاد دائما ...

قال عمر « لا يزيدن أحدكم على ثلاث أبيات » ... أى لا يزيد على ثلاث حجرات.. يكفى الأسرة الواحدة المتوسطة ثلاث حجرات !!

لا ترف ولا سرف ، وإنما مستوى معقول !.

وقال « ولا تطاولوا فى البنيان » ... لا نريد قصورا عالية ، وتفاخرا فى المبانى... وإنما بساطة وتواضع كما أمر رسول الله .

ولذلك يقول عمر « والزموا السنة تلزمكم الدولة » ... الزموا أسلوب رسول الله فى الحياة وتوجيهه فى المبانى تلزمكم العزة والنصر ! . إياكم ومخالفة اسلوب رسول الله فى الحياة وما أمر من البساطة والتواضع فى المبانى .

وكانت الكوفة ... قاعدة عسكرية للقوات الاسلامية ... وكان المسجد فى أعلى مكان منها ... وأمامه بيت القائد العام ... وتتمدد من حول المسجد بيوت بسيطة للجنود وأسرها .

ماهذا ؟... هذا نموذج مصغر للحياة الاسلامية . والمجتمع الاسلامى ...

المسجد هو الأعلى ... رمزا عظيما ... يشير إلى أن كلمة الله هى العليا ...

وأمام المسجد منزل القائد العام ... وفى هذا رمز إلى أن الإسلام حق مسلح ... فالمسجد إشارة إلى الحق ، والقائد العام وجنوده إشارة إلى القوة ... القوة التى هى فى استعداد تام لحماية هذا الحق بأرواحها ودمائها .

وما دون ذلك من شئون الحياة يجرى بما يناسب ظروف الحياة نفسها .

يتطور ويتأقلم مع مقتضيات الزمان ...

هذا هو الإسلام ... نظام مرن يتطور إلى أبعد آفاق التطور ...

لقد تطور المسلمون من سكنى الريف إلى سكنى الكوفة ، ومن الخيام إلى بيوت القصب ، ومن هذه إلى بيوت المبانى ، ولو استلزمت حياتهم تطورا آخر لفعلوه فورا.. وعمر من ورائهم يتطور معهم وبهم ، ماداموا يتطورون إلى ما فيه صلاحهم ... سألوه أن يبنوا من القصب فأذن لهم ، ثم سألوه أن يبنوا بالطوب فأذن لهم !.

أمير المؤمنين يتطور ، والأمة تتطور ... هذا هو الاسلام ، وغير هذا ليس من الإسلام .

فعلى الذين يسوسون الأمم العربية ، أو الاسلامية ، أن يعلموا هذا ، وأن ينطلقوا فى الحياة إلى أبعد غايات الانطلاق ، وأن يتطوروا مع العصر الحديث إلى آخر مدى التطور .

فقط فى حدود توجيه الاسلام ... فى حدود العدل والخير والمساواة والرحمة ... ولا قيود بعد هذا ...

ثم عليهم أن يضعوا فى حسابهم دائما أن تكون كلمة الله هى العليا ، مظهرا وجوهرا ..

وأن تكون الجماهير كلها حول كلمة الله ، جنودا على استعداد تام للدفاع عنها ، وإعلائها دائما .

ذلك هو التخطيط العام للسياسة الإسلامية العليا ، وهو ما كان واضحا فى الكوفة ، أول مدينة اسلامية عربية ، أنشئت خارج الجزيرة العربية ، وكانت تمثل طبيعة الإسلام والمسلمين الحقيقية .

احرقوا باب سعد !!

استقر سعد بالكوفة ، فزاد فى قصره باباً جعل له ظُلَّة ، لأن غوغاء الناس بالسوق كانت تمنعه من الحديث .

وبلغ ذلك عمر ، وأن الناس يسمون الدار قصر سعد ، فسرّح محمد بن مَسْلَمة إلى الكوفة وقال له : « اعمِدْ إلى القصر حتى تحرق بابه ، ثم ارجع ، عودك على بدئك » .

وقدم ابن مسلمة الكوفة . وبلغ نبؤه سعداً ، فاستدعاه ، فأبى أن يدخل القصر !.

فخرج هو اليه ، وعرض عليه نفقة ، فأبى أن يأخذها . ودفع اليه كتاب عمر ، فإذا فيه : « بلغنى أنك بنيت قصراً ، اتخذته حصناً ، ويسمى قصر سعد ، وجعلت بينك وبين الناس باباً !... إنه ليس بقصرك ولكنه قصر الخبال . انزِلْ منه منزلا مما يلى بيوت الأموال ، وأغلقه ، ولا تجعل على القصر بابا يمنع الناس من دخوله ، وتنفيهم به عن حقوقهم ، ليوافقوا مجلسك ومخرجك من دارك إذا خرجت » .

فلما تلا سعد مافى الكتاب حلف أنه ماقال الذى قالوا .

واقتنع ابن مسلمة بصحة يمينه ... فعاد إلى عمر ... فقص عليه الخبر كله .

وقال عمر : « فهلاّ قبلت من سعد ؟! » .

قال ابن مسلمة : « لوأردت ذلك كتبت لى به ، أوأذِنت لى فيه » .

وأجابه عمر : « إن أكمل الرجال رأياً مَنْ إذا لم يكن عنده عهد من صاحبه عمل بالحزم ، أوقال به ، ولم يَنْكُلْ » .

وعذر أمير المؤمنين سعدا ، وأقره .

ماهذا ؟... هذا قانون عظيم من قوانين سياسة عمر ... جدير بالدراسة ، والتأمل ، والبحث .

إن عمر غضب أشد الغضب ، أن يتخذ سعد لنفسه قصرا ، من دون الناس .

وزاده غضبا أنه علم أن سعدا قد اتخذ بابا ، وأغلقه فى وجوه الناس .

فبعث من يحرق باب القصر ، وأمر سعدا أن ينتقل إلى منزل آخر بسيط ، ويترك ذلك القصر .

هذه أوامر عمر الصريحة ، التى هى أوامر الاسلام ، وهذه غضبته التى هى غضبة الإسلام.

لايريد عمر أن يكون لسعد قصراً ، يعلو به على الناس .

ولا أن يكون له باب يحول بينه وبين الشعب .

فما معنى هذا ؟... معناه أن الحاكم عند عمر ، ليس له من الحقوق المادية فى السكنى ، أو فى النفقة ، أكثر مما هو حق لأى مواطن بسيط ... فليس لسعد أن يسكن قصرا ... وعلى باقى الناس أن يسكنوا بيوتا ... كلا ... وإنما الكل سواء .

ثم ماذا ؟... ثم لايجوز للحاكم أن يغلق بابه دون الشعب ، لأنه خادم الشعب ، وأخ لكل مواطن ، ولا يتأتى للناس أن يقضوا مصالحهم والأبواب فى وجوههم مغلقة.

وعلا عمر مرة أخرى على أحدث ما وصلت اليه نظم الحكم والإدارة فى العصر الحديث ...

علا علوا عظيما عليها ... حين قرر ذلك المبدأ الخطير ... مبدأ فتح أبواب الحاكمين للمحكومين ، وفتح أبواب المصالح والوزارات للجماهير .

ثم ازداد علوا ، يوم أمر باحراق باب سعد ، وماهو سعد ؟ ... هو القائد العام للجبهة الشرقية .. الذى هزم الإمبراطورية الفارسية واحتل ايوانها ؟ .

ولكن عمر لايعرف فى الحق كبيرا !

التطور سريعا !

وبنيت البصرة فى الوقت الذى بنيت فيه الكوفة ، وبنيت فى دلتا النهرين ، متصلة بالخليج الفارسى .

وكان ذلك فى السنة الثامنة عشرة من الهجرة ، من خلافة عمر !

فنزلها الناس فبنوا مساكن بالقصب ، وبُنى المسجد من القصب كذلك .

ثم إن الحريق التهم البصرة كما التهم الكوفة ، فأذن عمر فبنى أهل البصرة كما بنى أهل الكوفة باللبن .

وصارت البصرة من بعدُ ثغر العراق على الخليج الفارسى ، فبنيت مساكنها بالحجارة وأقيم بها مسجد من أفخم المساجد ؟ .

وهكذا كانوا ... قوما أحياء ... وطبيعة الحى أن يتطور ويتلاءم مع بيئته وظروفه... أما الموتى فهم وحدهم الذين لايتطورون ! .

الأرض للفلاحين ؟ .

لما فتحت جلولاء كتب سعد إلى عمر فى أمر الفلاحين ، من فرَّ منهم ومن أقام ، وكان قد فر منهم بضعة وثلاثون ومائة ألف ، يتألف منهم بضعة وثلاثون ألف بيت .

فكتب إليه عمر : « أن أقِرَّ الفلاحين على حالهم إلا من حارب أو هرب منك إلى عدوِّك ، وأجر لهم ماأجريته للفلاحين قبلهم » ...

ونفَّذ سعد أوامر عمر هذه ، فأقرَّ الفلاحين ، ودعا من لجَّ ، ووضع الخراج على من رجع ، وقبل الذمة .

مصادرة أموال الأسرة المالكة

واستصفى سعد ما كان لآل كسرى ، ومن لج معهم من الأمراء والدهاقين وغيرهم .

وكان مااستصفاه من هذه الأموال كثيرا ، موزعا بين جبل فارس وتخوم العرب .

وكانت هذه الأموال التى استصفاها سعد ، حبساً لايجوز بيعه ، كما لايجوز بيع المنافع العامة من الآجام ، ومفيض المياه ، وسكك البريد ، وما كان لبيوت النار : معابد المجوس .

ترتب على تنفيذ هذه السياسة أن بقيت للفلاحين أرضهم ، واعتبروا من أهل الذمة ، سواء منهم من أقام بأرضه أثناء الحرب ، ومن فرّ منها جزءا ثم عاد بعد الحرب إليها .

كذلك رُدّت الأرض المملوكة للذين اشتركوا فى الحرب من الفلاحين وغير الفلاحين ،

ثم دعاهم سعد إليه ، واعتبرهم من أهل الذمة ، ولمّا يكن قدقسم أرضهم بين رجال المسلمين .

تأميم الأراضى

أما الأراضى التى كانت لآل كسرى ، ولمن اشترك فى الحرب من الأمراء والأشراف والدهاقين ، فاعتبرت ملكا خاصا للدولة ، حُرِّم التعامل فيه ، وأبيح للفلاحين من أهل العراق استغلاله لقاء أجر يدفعونه لخزانة الدولة .

وقد أجرى هذا الحكم على الأرض المملوكة لبيوت النار .

فأما المنافع العامة من مجارى المياه ، وسكك البريد ، فكانت ملكا عاما ، حرم التعامل فيه ، قائمة بحكم المنفعة التى خُصِّص لها .

عدل عمر فى العراق ؟

لقد كنت أعنى ما أقول ، حين قلت منذ قليل اننا على أبواب فصل خطير من هذا الكتاب ، ذلك أننا الآن ننظر ماذا فعل عمر فى العراق ، حين فتحه المسلمون ، وحين حكموه ؟.

ونحن هنا نتمهل قليلا، ونتريث طويلا ، ونحن نستعرض مع عمر، سياسته فى العراق.

فماذا نجد من تلك السياسة ؟

نجد أن عمر رجلا عجيبا ، متطورا ، يتبلور مع زمانه ، ويتأقلم مع الأحداث ، فى سرعة عجيبة .

لم يكن كما هو فى أفكار الكثيرين رجلا زاهدا ورعا تقيا وكفى ...

وإنما كان سياسيا من أرفع طراز ، عبقريا من أعلى مقام .

كيف كان العراق حين فتحه المسلمون ؟ .

كان ككل دولة عمها الظلم والفساد .. كان طبقتين ... طبقة عالية شامخة ظالمة تملك كثيرا ... واغلبية ضعيفة مستضعفه لا تملك شيئا ! .

طبقة آل كسرى ومن التف حولهم من الحكام والقواد والدهاقين ... وهؤلاء يملكون الكثير .

وطبقة الفلاحين المستضعفين ، وأولئك الأغلبية الساحقة من الجماهير .

لقد طالب فعلا الجنود العرب الفاتحون بقسمة الأراضى الزراعية بين النهرين ، دجلة والفرات ، بينهم ، لأنها غنيمة أرض فتحت عنوة ، وحق خالص لهم ...

فماذا كان حكم عمر فى تلك القضية ... وهى أخطر قضية ؟ .

وحكم عمر ... فلتسمع الدنيا ... ليسمع المعسكران الدوليان ... ولتسمع تلك الدول العربية التى مازالت فى شك من اشتراكية الإسلام ...

أما أملاك الأسرة المالكة ، آل كسرى، وأما أملاك الكبراء والعظماء ، كالباشوات، والباكوات الذين كانوا عندنا ، وأما أملاك الدهاقين ومن دار فى فلكهم ... أما هذا كله فيصادر ويصبح ملكا للدولة ، لايجوز التعامل فيه ، ولا بيعه ولا شراؤه ، حبسا على منفعة الجماهير .

وأما أملاك صغار الفلاحين ، فتبقى بأيديهم كما هى ، سواء حاربوا الفاتحين أم لم يحاربوهم !

هذا هو حكم عمر فى القضية ، قضية إمبراطورية بأكلها استسلمت لسلطانه ، بطبقتيها ، طبقة الرأسماليين وطبقة الفقراء .

فحكم فيها حكماً عادلا ، عظيما ، ليكون للناس من بعده آية ، ونوراً به يهتدون .

قضى عمر بمصادرة أموال الطبقة الرأسمالية العاتية كلها . . .

كما قضى بإقرار أراضى الطبقة الشعبية بيدها .

وهنا يتلألأ من خلال حكم عمر فى القضية نور عظيم ، ويتشعشع عالياً فى الآفاق .

ذلك النور هو العدل ، العدل فى أى صورة ، وبأى أسلوب . . .

العدل الذى طلبه الله فى كتابه ، وبعث من أجله رسوله ، وانبعث من أجل تحقيقه أصحاب رسول الله يحاربون الدنيا لإقراره فى الأرض .

فلما انتصروا على إمبراطورية فارس ، وذلت الأكاسرة تحت أقدامهم ، وواجهتهم المقادير بالمبادىء التى انبعثوا يقاتلون الناس من أجلها ، كانوا مثال صدق لمبادئهم وكانت سياستهم وحكمهم ، أوضح دليل على صدق دعواهم ، إنهم يريدون إعلاء كلمة الله ، كلمة العدل . .

لقد قال الله تعالى لهم « اعدلوا ... » وقال لهم « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

فكان جوابهم ، وكان واقعهم فى الحياة : ربنا قد عدلنا ... فقال التاريخ : نعم قد عدلوا .

وعندى أن سياسة عمر فى العراق ، تعتبر أصلا عاما ، ومبدأ هاما فى سياسة الإسلام عموما .

ذلك أن العراق الذى نتحدث عنه هنا ، ليس هو العراق المعروف الآن ، وإنما كان يشمل عراق اليوم وجانباً كبيراً من سوريا وجانباً كبيراً من إيران اليوم .

كان إمبراطورية كاملة ، بكامل مقدراتها ، وكامل ثرواتها ، وإن كان الشطر الأكبر منها هو الأراضى الزراعية .

فإذا جاء عمر وهو أمير المؤمنين ، وجاء معه أصحاب رسول الله ، وهم أفقه الناس بهذا الدين ، وجاء معهم جميعاً عدد عديد من الجماهير المسلمة ، الذين تابعوهم بإحسان ، إذا جاء هؤلاء جميعا فهم تمثيل صحيح للاسلام . . . وإذا أصدروا حكماً فى قضية ما ، فإن حكمهم هو حكم الإسلام .

لماذا ؟ . . لأن مجتمعهم كان هو المجتمع الإسلامى الصحيح ، وفهمهم كان هو الفهم الإسلامى الصحيح .

وكيف لا والقاضى هو عمر . . . والمحكومون هم أصحاب رسول الله ، وأتباعهم ؟.

فماذا كان حكم هؤلاء ؟ . . . كان حكما يحق الحق ، ويزهق الباطل . . . حكما يجب على القرون من بعدهم أن تحتذيه .

حكموا بمصادرة كل ماتملكه المترفون ، وحكموا باقرار كل ماتملكه الجماهير الكادحة .

وبذلك تحقق التوازن بين الطبقات ، وقربت الفوارق بين الأغنياء والفقراء .

بل على العكس ، تم تدمير الطبقة الرأسمالية تدميراً تاما ، حين صودرت أملاكها ، واعتبرت أموالا عامة .

وهذا عقوبة لها على مقاومتها للحق ، وإذلالها للشعوب .

بينما تركت الأرض للفلاحين ، لأنهم مظلومون ، ينتظرون أن ترد إليهم حقوقهم المسلوبة .

ثم ماذا ؟ . . . ثم أمرت الدولة الجديدة ، أن من أراد استغلال شىء من الأراضى المصادرة فله ذلك نظير إيجار بسيط يؤدى إلى الخزانة العامة .

ثم ماذا ؟ ... ثم أمرت الدولة الجديدة بتأميم المنافع العامة ، التى يحتاجها الشعب فى حياته العامة ... كالآجام، والمراعى، ومفيض المياه ، وسكك البريد، وما كان لبيوت النار : معابد المجوس .

فما معنى هذا ؟ :. معناه أن عمر سبق العالم الحديث كله بنظامه هذا ... نظام التأميم .

وإلا فما معنى جعل المراعى ملكا للدولة .. إلا أن يكون المقصود بها عدم سيطرة الرأسماليين على المراعى ، التى لا يستغنى عنها الشعب ؟ .

وما معنى أن تكون منابع المياه ملكا للدولة ، إلا أن يكون هذا هو التأميم بعينه ؟

وما معنى أن تكون سكك البريد ملكا للدولة إلا أن يكون هذا هو التأميم ؟

إن عمر يأبى أن يملك أحد مرفق المواصلات، وإنما يجب أن يكون ملكا للدولة، للشعب.

ولئن كان عمر أمر بتأميم سكك البريد ، فلأن هذا هو الموجود فى عهده من مرافق المواصلات .

وهو مبدأ عام يقاس عليه .. البرق ، سكك الحديد ، البريد ، الاتصال للاسلكى ، التليفونات ، التليغرافات ، كل وسائل الاتصال الخارجية والداخلية ، يجوز أن تكون ملكا للدولة .. قياسا على أوامر عمر !

هذا هو عمر أيها الناس ... أوضح نموذج للاسلام فى الأرض ... هذا هو يستولى على أموال الأغنياء ويردها إلى الخزانة العامة ، ويقر الفلاحين فى أراضيهم ، ويؤمم المنافع العامة فى الدولة .

فماذا تقولون ؟ ... وأين تذهبون ؟ .

الأموال تتدفق !

وسعد العراق بالحكم الجديد.. وانزاح عن صدره كابوس الأكاسرة ، وحكم الدهاقين ونعم بحكم الإسلام ، حكم العدل والمساواة .

وأدى هذا التنظيم إلى تدافق الأموال إلى خزانة الدولة من مصادر شتى ، من الخراج ، والجزية ، وأجر الأرض المملوكة للدولة .

وأجرى العطاء من هذه الأموال على الجند وأهليهم بالكوفة والبصرة وسائر مصالح المسلمين .

ورفض عمر أن توزع أراضى السواد - ما بين النهرين - على الجند الفاتحين ، رفض هذا رغم أنهم أصحاب حق باعتبارها غنائم ... وانتهج أسلوبا جديدا ، وتطور تطورا عجيبا ... وقضى بترك الأرض لأصحابها ، يؤدون عنها خراجا ... إيجارا بسيطا ...

وبدأت الايرادات الجديدة تفد إلى الخزانة العامة ، وبدأ عمر يصرف للجنود مهاياهم من تلك الأموال ، كانت هناك ايرادات ، وهناك مصروفات ، فهناك ما نسميه اليوم بالميزانية .

وآثر عمر أن يظل العرب جنودا فى قواعدهم العسكرية ، يرابطون ، ويستعدون للانطلاق فى أى لحظة إلى القتال .

لأن عمر يعلم أن القتال أشرف مهنة للانسان ، خاصة إذا كانت فى سبيل الله .

وهكذا كانوا ... يختارون من المهن أشرفها ، ومن الحياة أفضلها .

وهكذا يتبين لنا أن عمر حين ووجه بامبراطورية فارس ، تتهاوى تحت قدميه ... ساسها على أسلوب إسلامى ، ليس مقتبسا من الشيوعية ، أو الرأسمالية ، وإنما من كتاب الله ، وسنة رسول الله ، فجاءت اشتراكيته فى العراق ، اشتراكية العدل والمساواة ، لأنها اشتراكية تطير بجناحين سماويين ، الكتاب والسنة .

وليس فى الوجود أعدل من كتاب الله ولا أصدق من سنة رسول الله ...

عمر .. والنظم الاقتصادية المعاصرة ؟

وجاءت اشتراكية عمر فى العراق نوعا فريدا متميزا عما سواها من نظم الأرض جميعا .

فإذا نظرت إلى مصادرة عمر لأملاك الأسرة المالكية أسرة كسرى ، ومصادرته لأملاك كبراء الدولة جميعا ... قلت هذه شيوعية ... ولكنها ليست شيوعية ، لأن الشيوعية لم تكن قد وجدت على الأرض بعد ... وإنما هى إسلامية . قرآنية ، عمرية ، مما تعلمه هؤلاء من شريعة الله ، شريعة العدل .

وإذا نظرت إلى اقرارهم الأرض بايدى صغار الفلاحين ، قلت رأسمالية ، واقرار لرءوس الأموال بأيدى أصحابها ، ولكنها ليست رأسمالية ... لأن الرأسمالية الحديثة ، لم

تكن وجدت على الأرض ... وإنما هى إسلامية ، تلك الشريعة التى تأمر بالعدل ...العدل فى أى صورة ، وفى أى أسلوب .

وإذا نظرت إلى حبس المنافع العامة ، وإيقافها على الجماهير ، وتحريم التعامل فيها ... قلت هذا هو التأميم بعينه... ولكنه ليس تأميما ... لأن التأميم لم يكن معروفا لأحد فى ذلك الزمان ... وإنما هو الإسلام ... ذلك الذى ركز فى طبائعهم خوف الله ، وتحرى العدل فى كل أمر من أمورهم .

وهكذا نجد نظم الأرض كلها ، قد انتظمت فى هذا الأسلوب الذى اختطه عمر فى العراق .

نجد نظاما يكاد يكون شيوعيا ، حين يصادر أملاك الرأسماليين ... ولكنه يتفوق على الشيوعية ، حين يبيح لمن شاء من الفلاحين أن يستغل تلك الأرض ، نظير إيجار يدفعه إلى الدولة ... فهو حل شيوعى من جانب ، رأسمالى من جانب آخر .

ونجد نظاما يكاد يكون رأسماليا ، حين يقر الأرض بأيدى الفلاحين الذين يزرعونها ، ولكنه يتفوق على الرأسمالية ، حين يمنع ملكية الأراضى الواسعة بأيدى الأغنياء ، ويسارع إلى مصادرتها ، ليمنع الظلم ، ويكسر أنف الأغنياء . فهو رأسمالى من جانب ، شيوعى من جانب آخر .

ونجد نظاما هو التأميم حين يحبس المنافع العامة . ويمنع تداولها ، أو بيعها وشراءها ، ولكنه يمتاز على التأميم الحديث ، بأنه لا يتوسع فى التأميم إلى درجة تكون عامة ، مما يؤدى إلى شلل الحياة الاقتصادية فى البلاد .

فماذا نأخذ من هذا ؟... نأخذ من هذا أن الإسلام نظام كامل متكامل ، محيط شامل ... ينظر إلى الأمور نظرة عامة كاملة ... لايتعصب لاتجاه دون الآخر ، وإنما ماحقق العدل فهو فى نظره الحق ، وما لا يحقق العدل فهو فى نظره الباطل .

لذلك قد يوافق أحيانا نظاما من النظم فى شىء قليل أو كثير منه ، فيظن الجاهلون أن الاسلام يطابق ذلك النظام ، وهذا خطأ محض ، لأن الإسلام كل عام ، وأى نظام آخر جزء خاص .

وقد يفترق الاسلام عن نظام من النظم ، فيظن الجاهلون أن الاسلام يحارب ذلك النظام بعينه . وهذا جهل أيضا بالاسلام ، لأن الاسلام ميزان إلهى عادل ، له مقياس للأمور غير مقاييس الناس .

فما وجه الحق من الأمر ؟.

الوجه أن الاسلام هو الاسلام ، وأن ميزانه هو الميزان ، وأن أى شىء يعرض لنا فى هذه الحياة نضعه فى هذا الميزان ، فما أقره أخذنا به ، وما رفضه رفضناه .

ولا يهمنا بعد ذلك طابق النظم القائمة فى الأرض أم خالفها ...

فلا يجوز أن يقال أن الاسلام شيوعى ، أو أن الاسلام رأسمالى ، أو أن الاسلام نظام طبقى ... وإنما يقال : الاسلام نظام عام ، أنزله الله تبارك وتعالى ، كامل متكامل ، شامل متعامل ، فيه كل شىء ، ويهدى إلى كل خير ، فأيما نظام كان أو يكون ، فإنما نزنه بذلك الميزان ، فإن قبله قبلناه ، وإن رفضه رفضناه .

ومن هنا ندرك لماذا جاءت سياسة عمر فى العراق ، شيئا فيه كالشيوعية ، وفيه كالرأسمالية وفيه غير ذلك ...

ذلك أن عمر يقضى بالحق . ويحكم بالعدل ... ويسلك إلى ذلك سبلا مختلفة ، كلها تؤدى إلى غاية واحدة ، هى العدالة العامة .

ومن هنا يجب أن نتعلم جميعا ، قادة وشعوبا ، أنه إذا عرض لنا أمر فى حياتنا ، نسارع إلى عرضه على كتاب الله وسنة رسوله ، ثم نعرضه على عقولنا ، ثم نتخذ فيه رأيا نتحرى فيه الحق ما استطعنا ، والعدل ، قدر الطاقة ، ولا علينا بعد ذلك ، أخطأنا أم أصبنا ، فإنما العصمة ليست لأحد .

ثم ننطلق بعد ذلك فى الحياة ، مطمئنين أننا نسير ، كما يحب الله ويرضى .

ثورة اصلاحية عامة .

هذا من ناحية التشريع ، والاقتصاد ... فماذا هناك فى العراق من ناحية الإنشاء والتعمير والتنمية ؟ .

كان الفرس قد شُغلوا عن العراق بما أصابهم من اضطراب بلاطهم ، وفساد أمرهم ، وتسلط الأثَرة على نفوسهم .

فاضطربت شئون العراق ، وفسدت مرافقه ، وتدهور انتاجه .

فرأى عمر أن يصرف همته إلى اصلاحه ... لذلك أمر رجاله أن يمسحوا أرضه ،وأن ينظموا مجاريه ليصل الماء إلى كل بقعة صالحة للزراعة فيه ، وأن يُصلحوا قناطره وجسوره وأن يعمروا كل ماخرّبه الفساد ، أوخربته الحرب فى أرجائه .

وكان المهندسون الفرس الذين أقاموا بالعراق خير عون على تنفيذ هذاالإصلاح .

ذلك أنهم رأوا السلطان مستتبا للمسلمين فى البلاد ، ورأوا كسرى عاجزا عن استرداد هذا السلطان ، ثم رأوا أمنا مطمئنا ، وعدلا شاملا ، فآثروا التعاون مع الفاتحين، لخير العراق وأهله .

وزاد ماتم من هذا الاصلاح فى ثبات السلطان الجديد واستقراره .

رأى الفرس الذين أقاموا أهل ذمة ، وردت إليهم أموالهم ، ماجره هذا الاصلاح لهم من زيادة ثروتهم .

ورأى الفلاحون فيه عمرانا يزيدهم أمْنا ونَعْمة .

ورأى العرب من أهل القبائل التى استقرت به أن بنى جنسهم خير من الفرس حكما ، وأعم عدلا .

فاستراح الجميع إلى النظام الذى أقامه أمير المؤمنين أساسا لحكم البلاد .

انصرفوا إلى أموالهم يثمّرونها ، وإلى أعمالهم يدأبون لاتقانها وتجويدها .

وما كان أن يتجهوا بتفكيرهم إلى غير هذه الناحية وهم يرون قوات المسلمين على مقربة منهم ، فى كل مكان ، مستعدة للقضاء على من تسول له نفسه أن يثور بالحكم الجديد.

العمل يقضى على الخلافات ؟

وهكذا نرى العراق فى عهد عمر ، خلية ثورية تعمل ، فى إطار الإسلام العام ، وتحت لواء العدالة الإسلامية الشاملة .

هذا الأنموذج الكامل جدير بالتأمل من اولئك الذين يظنون بالاسلام الظنون ... حيث يجدون تلك التجربة الهائلة لحكم الاسلام ، مثلا واضحا لكيفية معالجة هذا الدين لأمور الحياة .

لقد دخلت امبراطورية كاملة فى الإسلام فابتلعها بما فيها من خير وشر ... ورفع لواءه خفاقا فوقها ...

وكان تخطيطه السياسى العام فيها يقوم على الآتى ...

الحرية ... حرية العقيدة ... من شاء مسلما فسلما ، ومن شاء مجوسيا فمجوسيا ... ومن شاء مسيحيا فمسيحيا ... ومن شاء عبادة النار فليعبد النار ... ومن شاء يهوديا فيهوديا .. ومن شاء أن لايعبد شيئا ، فلايعبد شيئا !

دخلت الإمبراطورية الفارسية بأكملها فى الحكم الإسلامى فابتلعها فورا ... وتركها وشأنها فى عباداتها ...

وهنا أمر خطير ينبغى أن يلتفت إليه الجميع ... أن الإسلام استولى حقا على امبراطورية الأكاسرة عنوة وقهرا هذا من الناحية السياسية والحربية ... وهذا هو التسلسل الطبيعى لتكبر كسرى ، واحتقاره لوفد المفاوضات العربى .

فكان كبرا بكبر ... وعلت كلمة الله على كسرى وأتباعه ، هذا منطق طبيعى ...

ولكن هل أجبر الاسلام أهالى فارس على الإسلام ؟ .

كلا ... فقد تركهم وشأنهم ، واعتبرهم أهل ذمة ... وأخذ منهم الجزية ... تلك الضريبة البسيطة ... ضريبة الدفاع ...

وذهب المسلمون الفاتحون يعرضون دينهم فى أسلوب غاية فى البساطة وغاية فى الجمال .

ذهبوا يعرضونه بعد أن أثبتوا للجميع مقدرتهم على فرض كلمتهم بالقوة ، بالسلوك الجميل ، فكل مسلم نموذج كامل لدينه ودعوته ، فى كلامه ، فى حديثه ، فى عاداته ، فى أعماله . فى معاملاته ... هو الإسلام يتحرك فى رجل .

هذا من الناحية الفردية ... إلا أن الدين لا يكتمل بالسلوك الفردى وحده ... وإنما لابد من المجتمع المسلم .. الدولة المسلمة ...

فكانت الكوفة أول نموذج مصغر للدولة المسلمة ، ثم البصرة ثانى نموذج لتلك الدولة .

تجد الكوفة أوضح مثال للدولة الإسلامية ... فى أعلى مكان المسجد ... يرمز إلى حق الله على الناس ... وأمامه قصر سعد ، موضع الحكم ... ومن حوله ... فى كل اتجاه مساكن الجيش ... الأفراد ... لا تزيد عن ثلاث حجرات ...

ثم ماذا ؟ .. ثم مجتمع إسلامى مائة فى المائة ، يحكمه سعد بن أبى وقاص بكتاب الله ، مفوضا من أمير المؤمنين ، مصدر السلطة العليا فى الدولة .

وهناك البصرة ... نفس الأسلوب ، ونفس المجتمع ، ونفس القانون ...

مصدران للاشعاع الاسلامى الصافى ... نموذجان للدولة الاسلامية ، والمجتمع الاسلامى ...

أما الامبراطورية المستسلمة كلها ، فهى وشأنها فيما تعتقد وتدين ...

وهنا موطن العظمة من هؤلاء الناس ... يقهرون الممالك حربا ...

ويتركونها وشأنها عقيدة ...

ثم يقيمون الإسلام فى أنفسهم ... فينظر الأجانب إليهم ، فمن شاء أسلم لما يرى من عظمة أخلاقهم ، ومن شاء بقى على عقيدته ! .

أرأيت ؟ ... عظماء والله عظماء ... يا أصحاب رسول الله !! .

تستطيعون أن تأخذوا هؤلاء الناس على الإسلام أخذا ، لأنكم فاتحون قاهرون مسيطرون ... ولكنكم لم تفعلوا ... وإنما تركتموهم أحرارا ...

وجاء هؤلاء إلى الاسلام بعد ذلك أفواجا ... بما آنسوا من عدلكم ، ولمسوا من أخلاقكم ، وأحسوا من رحمتكم ...

وهذا هو الأسلوب الذى سلكه أصحاب رسول الله، وفتحوا به قلوب الناس ، بعدأن فتحوا بلادهم بالسيف .

من ذا الذى لا يسلم وقد رأى ما رأى من عدل عمر ؟.

من ذا الذى لا يدخل الإسلام ، وقد رأى ما رأى من احترام عمر لحرية الإنسان ؟.

هذا عن آثار الحرية فى مجتمع الإسلام الجديد ... فما هى الدعامة الثانية من دعامات التخطيط السياسى الإسلامى الجديد فى العراق ؟

العمل

العمل للجميع .. لم يعد هناك أسرة مالكة فقد ذهب كسرى وذهبت أسرته، ولم يعد هناك عاطلون بالوراثة ، فقد تم تدمير عظاء الفرس وكبراءه ... وبقى بعد ذلك الشعب ، الطبقات الكادحة ، وانضم إلى مجموعها الفاتحون ، جيوش الإسلام الفاتحة ...

واتجه الجميع إلى العمل ... العمل فى اتجاه المصلحة العامة ، واتجاه الخير ، واتجاه شريعة الله ...

وانطلقت الأمة الجديدة بروح جديدة ، هى روح الإسلام .

انطلقت تعمل ، وتبنى الجسور ، والترع ، والسكك ، والمبانى ، والمدن ...

انطلقت على قلب رجل واحد ، كأنها جسم واحد ، فارتفع البناء... وشمخ نحو السماء

أما الفاتحون ... فكانوا جنوداً لله ... يتدربون على القتال ، وينتظرون الأوامر لينطلقوا .

وأما سائر الأمة ، فالعمل ، كل ميسر لما خلق له .

وهكذا الإسلام ... حرية ... وعمل .. وأمل ...

حرية من أول الحياة إلى آخرها ..

وعمل من أول الطاقة إلى آخرها ...

وأمل فى الله رب العالمين ، أن يمنحهم حياة أفضل فى الدنيا ، وحياة الخلود فى نعيم الآخرة .

ما أجمل الإسلام ! . وما أسعد الذين يعملون بالإسلام !

ثم ماذا هناك من دعامات التخطيط الإسلامى الجديد ؟..

العـــدل

هناك الدعامة الثالثة . . . أخطر دعامة . . . العدل ... كان ذلك هو أبرز سمات ذلك المجتمع .

لقد كانت الإمبراطورية الفارسية تئن وتتوجع من فساد بلاط كسرى ، ومظالم الدهاقين . . .

فجاءها الإسلام ، فسوى بين الناس جميعا بعد أن كانوا سادة وعبيداً . . . وآخى بينهم جميعا بعد أن كانوا أعداء متحاقدين .

وأحس المستضعفون لأول مرة أن الدولة معهم ، على الجبارين الظالمين ، والمتكبرين .

ونظرت الشعوب إلى أعلى ، فرأت عمر ، عملاق العدالة فى الأرض ، يضع قدميه فى المدينة ، ويرتفع برأسه إلى السماء . .

وامتدت عدالة عمر ، فى عماله ، ونوابه ، وسائر الجنود . . .

واهتزت الأرض ، وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ...

ونعمت الإمبراطورية الفارسية بالعدالة المطلقة لأول مرة . . . وتساءلوا : أهذا هو الإسلام ؟ .

فكان جواب الحوادث : نعم ... هذا هو الإسلام ... عدل ، وحرية ، وعمل ..

قالت الجماهير : ومالنا لا ندخل هذا الدين ، وننعم بأنواره ، ونتلذذ برحماته ؟ .

وقد كان . . . وتدفقت تلك الجماهير . . . طواعية . . . بلا إكراه . . . تدخل الإسلام أفواجا .

وهذا هو التخطيط العام للسياسة الإسلامية كان بسيطاً كبساطة الشمس ، إلا أنه خطير الأثر فى الشعوب ، كخطورة أثر الشمس فى الكائنات .

وهكذا الحقائق دائما ... تبدو بسيطة ، إلا أنها شديدة التأثير فى الكائنات .

هل علم الآن ، أولئك الذين يظنون بالإسلام الظنون ، أن الإسلام نظام شامل متكامل ، آوى اليه شعوبا ، مختلفا دينها ، مختلفا اقتصادها ، مختلفا ألوانها ، فوسعها جميعها ، وساسها جميعا ، ورحمها جميعا ؟.

هل علموا ... وقد رأوا سياسته فى امبراطورية بأسرها ؟.

أظنهم يعلمون ... ولكنهم يستكبرون ! .

الاسلام للجميع ؟.

إنما أظلمت عقول كثير من الناس ، فى تلك القضية ، قضية صلاحية الاسلام لكل زمان وانسان ، بأنهم لم يحيطوا بالإسلام علما ... بل كذبوا بما لم يحيطوا به علما ...

ولوأن أهل الأرض صدقوا أن لهم ربا ، خلقهم من لاشىء ، ورزقهم بلاأسباب ، وأحياهم ، وسيرهم فى حياتهم ، ثم يميتهم ، ثم يبعثهم ليحاسبهم ...

لوأنهم صدقوا بذلك ، لانزاح من الطريق الحجر الأكبر الأعسر ... لكنهم كذبوا ... وقالوا : نحن فى شك مما تقولون !.

ولوأنهم صدقوا أن الله الذى خلقهم ، هوالذى أنزل إليهم كتابا إثر كتاب ، وبعث إليهم رسولا إثر رسول ، يهديهم إلى الحق ، ويخرجهم من الظلمات ...

لوأنهم صدقوا ... لقلنا لهم : وأنزل اليكم آخر كتاب من تلك الكتب ، وكان اسمه القرآن ... أنزله لكم جميعا ... لأنه آخر كتاب ينزل منه إلى الناس ...

وكما أنه سبحانه واحد ، لاثانى له . لزم أن يكون كتابه الأخير إلى الناس واحدا لاثانى له ...

فماذا فى ذلك الكتاب ؟.

فيه أن القانون ، المسمى بالاسلام ، قانون الجميع ، اليه يحتكم البشر جميعا .

وطبيعة القانون العام أنه يأتى عاما ، لايخوض فى تفاصيل ، ولا يدخل فى منحنيات الجزئيات ... وانما يترك التفصيل للناس ، يستعملون فيه عقولهم .

من أجل ذلك أمر القرآن بأوامر عامة ، سماها حدود الله ، وترك ماوراء ذلك للحوادث ، وسنن التطور ..

فمثلا أمر بالعدل ... قاعدة عامة ... أما كيف يتأتى ذلك العدل ، فأمر متروك لعقول الناس ، فما يظنونه عدلا فهو العدل .

ومثلا أمر بالعمل ... قاعدة مطلقة ... أما كيف يتحقق ذلك العمل ... فأمر يترك لكل إنسان ، يختار من الأعمال مايناسبه، ويترك للدولة ، توجه أعمال الناس ، واتجاههم إلى ماتظن فيه الخير للجميع .

ومثلا أمر بالحرية ... أما كيف يحقق الناس تلك الحرية ، فأمر يترك لهم ، ينظمونه حسبما تمليه عليهم الحوادث والظروف .

وهكذا ... من أجل أنه قانون للجميع ، ونظام للجميع ، لزم أن يكون عموميات شاملات كاملات ... ويترك التفصيل لعقول الناس .

فالإسلام صيرورة دائمة ، سيالة ، متحركة ، يشع على الحياة البشرية اشعاعاته ، ليكشف لها الضار من النافع ... ثم يتركها تختار ماتشاء ، ولا يقهرها على شيء .

فلا ... ولن ... تعرف الانسانية لها نظاما خيرا منه !

سقوط بيت المقدس؟

فرار أمبراطور الرومان !

فى الوقت الذى أتم فيه سعد بن أبى وقاص تدمير الامبراطورية الفارسية ، وانصرفت الدولة الجديدة تنظم شئون الامبراطورية المتداعية المتلاشية ... كان أبو عبيدة بن الجراح وزملاؤه بالشام يتقدمون فيه ويفتحون مدنه ويجلون الروم عنه .

واندفعت جيوش المسلمين تفتح الشام شمالا وجنوبا وشرقا .

وسار أبو عبيدة من اللاذقية ـ بعد أن فتحها ـ إلى معرّة حمص ففتحها، ووجه خالد بن الوليد منها إلى قِنّسرين كورة ولاية حلب .

وخرج ميناس ، أعظم رجل فى المملكة بعد هِرَقل . على رأس جيش عظيم ، ليصد المسلمين عن التوغل فى ملك قيصر .

وبعث رجالا من أهل ثقته يتلمسون أخبار عدوه ليدبر على ضوئها خطة لقائه .

وبينما هو يتنسم أخباره ... فجأه خالد مع الصبح من حيث لايدرى .

وحاول ميناس أن يصد هذه المفاجأة ... لكن خالدا كان قد أحكم تدبيره ، فهاجم الروم بكل قوته ، فلم يستطيعوا الصبر أمامه ! .

وحاولوا الفرار ، فإذا خالد قد أخذ عليهم مسالكه ، فأمعن جنده فيهم قتلا ، فمات أكثرهم على دم واحد ... وتردى ميناس على رأسهم يتخبط فى دمه !

لو كنتم فى السحاب ؟ !

ولجأ الذين فروا إلى قنسرين وتحصنوا بها ، فتبعهم خالد إليها ، فألفاهم غلقوا أبوابها .

عند ذلك بعث إليهم خالد النذير يقول : « لو كنتم فى السحاب ، لحملنا الله إليكم ، أو لأنزلكم إلينا » !

وقاومت المدينة زمنا ، ثم تضعضعت أمام خالد بن الوليد ، ونزلت على حكمه ... وبعثوا يطلبون الأمان على صلح حمص.

فأبى سيف الله المسلول ، ورأى أن يعاقبهم ، بما قاوموا ، وأبى إلا تخريب المدينة ...

فماذا كان من أهلها ؟ . فروا إلى أنطاكية ، تاركين أموالهم ونساءهم وأبناءهم ...

وهكذا كان خالد بن الوليد ، وكان الذين معه ، مادخلوا معركة إلا انتصروا فيها ، لأنهم صدقوا الله ، فصدقهم الله .

أمَّرَ خالد نفسه !

وكتب أبو عبيدة إلى عمر ، بأعاجيب خالد بن الوليد ، وقضائه على ميناس وجيشه ، واقتحامه قنسرين على منعتها ، وقوله لأهلها : « لو كنتم فى السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا »

وعجب عمر من عبقرية خالد الحربية ، وشجاعته الفائقة ، وما كان منه من معجزات، فاقت مواقفه فى دمشق وحمص وماسواهما من البلاد التى فتحها المسلمون .

وقال عمر : « أمر خالد نفسه ! يرحم الله أبا بكر ! هو كان أعلم بالرجال منى ! »

ثلاث تعبيرات متواليات غاليات ... كأنما ينطق عمر بالحق متتابعا ! .

أمر خالد نفسه ؟... اعتراف من عمر أن خالد إن لم يؤمره ، ففعاله تؤهله لأن يكون أميرا على أى جيش هو فيه .

يرحم الله أبابكر ؟ ... رد وصفاء وحب لمن سبقه فى الحكم ... أين هذا الخلق من أخلاق ساسة العصر الحديث ، حين يقف الرجل منهم يكيل الشتائم ويسب من سبقه سبا أليما ؟ .

كان أعلم بالرجال منى ؟ ... ثم تواضع عجيب من عمر ... حين يتهم نفسه بالجهل بأقدار الرجال ، ويعترف أن أبابكر أعلم منه بالرجال ! .

وهذه هى الأخلاق ... ولمثل هذا فليعمل العاملون ... وليست الأخلاق ، أن تسب من سبقك فى الحكم ، أوتبنى مجدك على أشلاء غيرك ... كلا، إنما الأخلاق أن تحب الناس، وتعترف بحسناتهم ، وتتواضع لهم ، ثم تحاول أن تبنى جديدا ، أو تتم ما بدءوه من أنواع الخير .

العدل والرحمة

فلما جاء أبوعبيدة قنسرين ، وعرف أن أهلها طلبوا الصلح والأمان ، وأن خالدا أبى ذلك عليهم ... رأى فيما أراد خالد أن يجزيهم به عدلا ... فهدم حصون المدينة وأسوارها .

إلا أن أباعبيدة دائما تسبق رحمته غضبه ، فرأى أن يقرن إلى العدل الرحمة ... فأجاب أهل المدينة إلى الأمان والصلح الذى طلبوا .

فأقيم مسجد على بقعة من أرضها ، وترك ماسوى ذلك لأهلها كما كان !

فعاد الذين فروا ، وقد رضوا أداء الجزية .

وأمر أبوعبيدة فأحسنت معاملتهم ، كما أحسنت معاملة غيرهم فى البلاد التى فتحها المسلمون .

وقام العدل بينهم على أساس من المساواة الصحيحة ، وإنصاف الضعيف من القوى .

ثم اتجه أبوعبيدة إلى حلب ، ففتحها هى الأخرى . .

وهكذا دخلت سوريا بمدنها الشهيرة ، تحت حكم الإسلام ، ونعمت هى الأخرى ، بظلاله الوارفة .

سقوط أنطاكية !

وكانت أنطاكية إلى يومئذ عاصمة الامبراطورية الرومية فى الشرق ، والمدينة التى تلى فيها مدينة قسطنطين .

وكان أباطرة الروم يؤثرونها على الاسكندرية لقربها منهم ... وكانت الكنائس المسيحية فيها ذات ضخامة وفخامة وبلغ ساكنوها مائة ألف نسمة ... وكانت مستقر تجارة عظيمة متصلة بين الشرق والغرب .

من أجل ذلك كان عمر حريصا على فتحها ، وكان الاستيلاء عليها يعادل عنده فتح المدائن ، وفتح بيت المقدس .

لذلك كان يتلهف على أنبائها ، كما كان يتلهف على أنباء سعد بن أبى وقاص عن القادسية .

ولكن هل فكر امبراطور الرومان فى الدفاع عنها ، ضد المسلمين الذين يتجهون إليها ؟ .

كلا ... فقد أثرت الهزائم المتلاحقة فى نفسه ، ورأى أنه إذا التقى بالمسلمين فى معركة أخرى ، فهى الهزيمة ، والعار إلى الأبد ... فترك المدينة الخالدة ، أنطاكية ، ثانى عواصم الامبراطورية ، تدافع عن نفسها ... وفر هو إلى القسطنطينية ، عاصمة ملكه ، حزينا مهموما كئيبا ! .

وسار إليها أبو عبيدة ، وخرج اليه أهلها ، فهزمهم فى معركة حامية خارج حصونها ، ثم حاصرها من كل جوانبها ... فاستسلمت له ونزلت على حكمه ... وصالحهم أبو عبيدة على الجزية والجلاء ، ورحل عنهم .

وهكذا سقطت أنطاكية ... العاصمة الثانية للامبراطورية الرومانية ! .

وأصبحت سوريا كلها جزءا من الدولة الاسلامية ...

الإمبراطور يفر !!

وبينما كان هرقل يفر إلى القسطنطينية ، حرصا على حياته ، كانت الامبراطورية تتساقط قطرا قطرا فى أيدى المسلمين ... مر بجبل فصعده ، وأشرف منه على أرض سورية الجميلة وقال والهم يقتله : سلام عليك ياسورية ، سلاما لا اجتماع بعده ، ولن يعود إليك رومى أبدا إلا خائفا !.

تماما كما فر امبراطور فارس أمام سعد بن أبى وقاص ... ها هو امبراطور الرومان يفر أمام أبى عبيدة !!.

إمبراطوريتان ، عظيمتان ، وكتلتان تمثلان العالم كله ، تفران أمام العرب ، الذين لا يملكون شيئا مما تملكان !.

إنه الروح الجديد ، الذى انبعث فى هؤلاء الناس !.

عمر يسوى بين الملوك والصعاليك !

رأى جبلة بن الأيهم مصير هرقل ، ورأى قبائل العرب من أهل الشام يهرع الكثير منهم إلى الإسلام ، فأيقن أن لابقاء لملكه إلا أن يسلم ويسلم ذووه معه .

وكتب إلى أبى عبيدة بإسلامه ، وإسلام بنى غسّان ، فاغتبط أمين الأمة ، وأبلغ النبأ أمير المؤمنين ، فاغتبط عمر لذلك .

ثم إن جبلة كتب إلى عمر يستأذنه فى القدوم عليه فأذن له .

فخرج إلى المدينة فى خمسمائة من أهل بيته ، وأمر عمر الناس باستقباله .

فلم يبق بالمدينة بكر ولاعانس إلاتبرّجت وخرجت تنظر إلى جبلة وإلى زيه .

وكان جبلة قدأمر مائتى رجل من أصحابه ، فلبسوا السلاح والحرير ، وركبوا الخيول ، معقودة أذنابها ، وألبسوها قلائد الذهب والفضة .

ولبس جبلة تاجه ، وفيه قُرْطا مارية جَدّته .

وأعجب أهل المدينة بذلك كله .

فلما انتهى جبلة إلى عمر رحّب به ، ولَطَفَ له ، وأدنى مجلسه .

وأقام جبلة بالمدينة زمنا ، ثم خرج إلى الحج مع عمر ...

فبينما هو يطوف بالبيت ، وطىء إزاره رجل من بنى فَزَارةَ فانحنى ، فرفع جبلة يده فهشم أنف الفَزَارىّ .

واستعدى الرجلُ عمر ...

فدعا جبلة وسأله ، فأقرّ بماحدث .

قال عمر : « قدأقررتَ . فإما أن ترضى الرجل ، وإما أن أقيده منك » .

وتعجب جبلة مما سمع وقال : « وكيف ذلك وهو سُوقة ، وأنا ملك ؟ ! » .

قال عمر : « إن الإسلام جمعك وإياه ، فلست تفضُله بشىء ، إلا بالتقى ، والعافية » .

قال جبلة : «قد ظننت ياأمير المؤمنين أن أكون فى الإسلام أعزّ منى فى الجاهلية ».

قال عمر : « دَعْ عنك هذا ، فإنك إن لم ترْضِ الرجل ، أقدته منك » .

قال جبلة : « إذا أتنصَّر ! ».

قال عمر : « إن تنصّرت ضربت عنقك ، لأنك أسلمت ، فإن ارتددت قتلتك » .

فلما رأى جبلة الصدق من عمر قال : « أنا ناظر فى هذا ليلتى هذه » .

وكان قد اجتمع بباب عمر من شتى الأحياء خلق كثير ... يعجب بعضهم لحزم عمر ، ويرى بعض فيه شدة ما أغناه عنها .

وبلغ من اختلافهم أن كادت تكون بينهم فتنة .

فلما أمسوا تفرقوا ... وأذن عمر لجبلة فى الانصراف .

وأسرّ جبلة إلى رجاله ، فتحمّلوا بليل إلى الشام ، فأصبحت مكة منهم خالية .

وتابع جبلة مسيرته إلى القسطنطينية .. فدخل على هرقل متنصرا هو ومن معه ...

فسُرّ بهم هرقل ، وظن أنه فتح من الفتوح عظيم ، وأقطعه حيث شاء ، وأجرى عليه ماشاء .

وعاش جبلة فى جوار هرقل عيش ترف ولذة . يعادلان ما كان له فى ملكه بالشام ، أو يزيدان عليه !.

تلك هى أقصوصة الرجل ، وإنها لعظيمة الدلالة ، بالنسبة لما يعانيه العالم العربى الآن من أمثال هذا الرجل .

فمن المعلوم أن صاحبنا كان ملكا عربيا نصرانيا و يعيش فى ملكه ، ولذاته ، فى رحاب قيصر ملك الرومان ...

فلما رأى جيوش المسلمين تكتسح بلاد الشام ، بما فيها ملكه ، فكر تفكير الانتهازيين ، فاعلن إسلامه إلى قائد عام الجبهة الغربية ، أبى عبيدة ، الذى أعلنه بدوره إلى أمير المؤمنين . ودخل إلى المدينة دخول الملوك ، وكان منظر موكبه فريدا طريفا .

وذهب يحج ... ووقعت القصة الخالدة ... داس رجل من الشعب على ملابس المذكور ، فانحنى الملك من أثرها !!.

وهاج هائج الملك ، وثارت فى عروقه عصبية الملوك ... فهشم أنف رجل الشارع ! .

وشكا رجل الشارع إلى عمر ، فجاء عمر بالملك ، وسأله فأقر . .

وحكم عمر فى أخطر قضية ... قضية الطبقات ، قضية الشعوب والملوك ، قضية الصراع الخالد بين الظالمين والمظلومين ...

فماذا كان حكم عمر ؟ ...

كان خالداً ... ما زال يدوى فى أسماع القرون : « قد أقررت . فإما أن ترضى الرجل وإما أن أقيده منك . . . » أى أجعله يهشم أنفك كما هشمت أنفه ، بنفس الأسلوب وبنفس الطريقة التى أتممت بها جريمتك !

خلود والله خلود ... يا عمر ...

أين الشيوعيون ، أين الرأسماليون ... أين الدنيا كلها لتنحنى أمام حكم عمر ، كما انحنى الملك حين داس رجل الشارع على ثوبه ؟ .

وهنا يشع الإسلام شعاعه الخالد حين يقول : «... العينَ بالعينِ ، والأنفَ بالأنفِ ، والأذنَ بالأذنِ ، والسنَّ بالسنِّ ، والجروحَ قصاصٌ » ...

نعم ... ومن هنا اشتق عمر حكمه ، وأعلنه فى الأرض ، فاهتزت له السماء !

وما كان لعمر أن يحيد عن كتاب الله . . . وحاشاه . . . وما كان أن يحكم بغير ما أراه الله !

وعظم فى صدر الملك أن يسوى عمر بينه وبين الرعاع ! .

ودائما .'. هذا هو منطق أولئك الذين تمنحهم المقادير فرصة الملك على الناس ، أو البسطة فى الرزق ، أو الارتفاع فى المناصب .

إنهم يداخلهم الغرور ، ويظنون أنهم طبقة غير طبقات الشعوب ، وأنه لا ينبغى أن تسوى القوانين بينهم وبين الجماهير .

لكن عمر ... الذى هو التطبيق الصحيح للاسلام .. نطق بالحق ، وحكم بالعدل .. فماذا كان ؟

قال الملك : وكيف ذلك وهو سوقة وأنا ملك ؟!.

هو هو منطق الطبقة المتكبرة الظالمة .. لايتغير .. ولايتبدل ... كيف ذلك ياعمر ، وهو سوقة ، وهو رجل من الشارع ، وأنا ملك عظيم ؟!

إن هذا الشيء عجاب ياعمر ... أن تسوى بين الملوك والصعاليك ؟! .

وعلى الفور ... نطق عمر بالحق : « إن الإسلام جمعك وإياه ، فلست تفضله بشيء .. إلا بالتقى والعافية » .

وكان قانونا خالدا .. « لست تفضله بشيء » .. إن الاسلام جمعك وإياه ... إن الاسلام سوى بينكما لايعرف الإسلام عبيداً وسادة ، ولاملوكا وصعاليك ، ولا رجالا فوق القانون ، ورجالاتحت القانون ... كلا ... بل الجميع سواء ، ملوكهم وصعاليكهم !!

هذه هي روح الاسلام الصحيحة ... بلازيف ... ولاالتواء ... ولاطمس للحقائق .

فأين المسلمون الآن من تلك الحقائق ... اللهم إننا لسنا على شيء حتى نقيم ما أنزلته الينا من الشرائع .

وأنا أتحدى جميع الدول ، وجميع الشعوب ، وجميع الأنظمة ، أن يضعوا يدى على حادثة واحدة فى حياتهم ، تشبه تلك الحادثة فى حياة عمر ...

فإن قالوا : ليس فى حياتنا شيء كهذا ... قلنا لهم : ولكن حياة عمر كلها هكذا ... حوادث يعلو فيها الحق ، ويرتفع فيها العدل ، ويتلألأ فيها الخير .

بل عندنا من هذا كثير ... كثير جدا ...

ثم ماذا من تلك الأقصوصة التي يجب على الشعوب أن تتغنى بها ، وتتخذ منها شعارات ترفعها ...

يقول الملك : قد ظننت ياأمير المؤمنين أن أكون فى الإسلام أعز منى فى الجاهلية !

نفس منطق الطغاة ... يتخذون الأديان سلما لتحقيق مطامعهم ، فان لم تسعفهم بما يشاءون من مغانم ومكاسب نبذوها ! .

لقد دخل الرجل الإسلام ابتغاء العزة ، لينهب نصيبه من عظمة الإسلام الدولية ... فلما رأى الأمر جداً لاهزل فيه ... أطلق لساقه الريح ... وارتد كما كان !.

ونحن نعانى اليوم من أمثال هذا الرجل عناء كبيرا ، هؤلاء الحكام ، وهؤلاء المرتزقة من السياسيين ، وأصحاب المصالح ، الذين يناهضون كل محاولة للاصلاح فى المنطقة ... لماذا ؟ ... لأنهم أصحاب مصالح مع المستعمر ... لأنهم سادة مابقى الاستعمار ، وليسوا سادة إذا ذهب الاستعمار ! .

هؤلاء الذين لاصلة لهم بالاسلام إلا بقدر مايحققه لهم الاسلام من مكاسب فإن لم يحقق لهم كسبا فهم أعداء للاسلام ، فى خفاء أو علانية !

إبادة مائة ألف !

بينما كان أبو عبيدة يسير مظفرا فى شمال الشام ، كان عمرو بن العاص ، وشرحبيل ، يواجهان قوات الروم التى اجتمعت بفلسطين ، ويجاهدان للقضاء عليها .

وكانت هذه القوات عددا عظيما ، يقودها أخطر قواد الرومان وأدهاهم ، ويسمى أطربون .

وكتب عمرو إلى عمر ... فأمر أمير المؤمنين يزيد بن أبى سفيان أن يوجه أخاه معاوية إلى قيسارية ليفتحها ، فينقطع المدد الذى يأتى إلى أطربون عن طريق البحر .

والتقى معاوية بأهل قيسارية ، وكانوا قوة هائلة ، وقاتلوا مستميتين ... إلا أن النتيجة دائما معروفة ...

فقضى معاوية عليهم حتى كانت قتلاهم فى المعركة ثمانين ألفاً ، بلغوا بعد الهزيمة والفرار مائة ألف .

وسقطت قيسارية ، وامتنع المدد عن أطربون عن طريق البحر .

ثم استولى العرب على ميناء غزة ... ففقد أطربون كل أمل فى مدد يأتيه من جهة الموانى !

رمينا أطربون الروم بأطربون العرب ؟!

ووضع عمرو داهية العرب خطته ، وأحكم تكتيكه ، وكتب إلى عمر يخبره بدهاء أطربون ، وخطورته ، ووصف له من قوة الروم وعُدتهم .

فأمر عمر بإمداد عظيم ، فأرسل إلى عمرو !

ونظر عمر فى كتاب عمرو ، وابتسم لصفته أطربون بالدهاء والمكر ، وقال لمن حوله : « قد رمينا أطربون الروم بأطربون العرب فانظروا عمّ تنفرج ؟ »

هذا أدهى الخلق !

وجاءت الإمدادات الحربية إلى عمرو ، فبعث بعضا منها إلى إيلياء والرملة . . . ثم سار فى القوى الكبرى لجيشه يلتقى أطربون بأجنادين .

ووجد عمرو الروم فى حصون وخنادق ومنعة .

ففكر عمرو مكراً عجيبا ... وبعث رسلا من عنده يتفاوضون فى الصلح ، وأسر إليهم أن يوافوه بمداخل العدو وعوراته .

لكن الرسل لم تشفه ... فآثر أن يتولى الأمر بنفسه ! .

وتفكر عمرو ... وسار إلى أطربون ... ودخل عليه كأنه رسول !.

وتأمل عمرو حصونه ، وعرف منها ما أراد .

وتحدث الرجلان ... فارتاب الأطربون فى شخص محدثه ، وقال فى نفسه : « والله إن هذا لعمرو ، أو إنه الذى يأخذ عمرو برأيه ، وما كنت لأصيب القوم بأمر أعظم عليهم من قتله » ! .

ثم دعا جنديا من رجال حرسه ، فأسر إليه إذا مر العربى بمكان بذاته أن يقتله .

وأدرك عمرو إلى أن فى الأمر كيداً ، فقال لأطربون : « قد سمعت منى وسمعت منك ، فأما ما قلته فقد وقع منى موقعا وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا لنكاشفه ونشهدنا أموره . فأرجعُ فآتيك بهم الآن ، فإن رأوا فى الذى عرضت مثل

الذى أرى فقد رآه أهل العسكر والأمير ، وإن لم يروه رددتهم إلى مأمنهم وكنت على رأس أمرك » .

سمع أطربون هذا القول ، فبدأ يشك فى ظنونه ، واسترجع الحارس الذى أسرّ إليه بقتل هذا العربى .

وقال أطربون لعمر : « انطلق ، فجىء بأصحابك »

وخرج عمرو مسرعا إلى عسكره ، لا يلوى على شىء ، ولا يظن أن يعود لمثلها .

وعرف أطربون الأمر فقال : « خدعنى الرجل ، هذا أدهى الخلق » !

وبلغ النبأ إلى عمر فقال : « غلبه عمرو ، لله عمرو ! »

هذا نوع من الرجال الذين حملوا دعوة الإسلام وبلغوا بها مشارق الأرض ومغاربها .

نوع ممتاز ... عباقرة ... تجد فيهم العظمة من أطرافها ... عبادة، حرب، مكر ، دهاء، سياسة ، شجاعة ، كرم ، عزة ، وفاء ... كل مقومات العظمة تجدها فى أصحاب محمد ! .

وهذا هو عمرو ... وهذا نموذج من دهاء عمرو ، وكيف لعب بقائد الرومان ، وعبث به كأنما هو كرة قدم يدحرجها كيف يشاء .

ذلك هو الصنف الذى يصلح لحمل الإسلام ... إن الإسلام فى حاجة إلى رجال ، لا إلى أعداد هائلة من البشر وكفى ... وإنما نحتاج إلى مثل عمرو وخالد وسعد والقعقاع ... أولئك الممتازون !.

أجنادين ؟

والتقى الجمعان ... عمرو وجيوشه ... وأطربون وجيوشه .

وبلغت شدة بأجنادين مابلغت باليرموك ، وكثرت القتلى من الجانبين، وترجح النصر زمنا بينهما .

ودائما ... كان المسلمون أكثر صبرا وثباتا .

فلما آذنت الشمس بالمغيب ، رأى أطربون صفوفه تضطرب، ورجاله يسرى فيهم الإعياء،

فانسحب بجيوشه متقهقرا إلى ناحية بيت المقدس !

ثم رأى أطربون الموقف ميئوسا منه، وأن مدينة بيت المقدس صائرة لامحالة إلى أيدى المسلمين ، فانسحب بقواته إلى مصر .

وترك من ورائه المدينة المقدسة ، تنتظر مصيرها المحتوم .

مجلس الشورى يجتمع ؟

وحاصر عمرو بجيوشه بيت المقدس شهورا ، واشتدت مقاومة المدينة ، حتى كتب عمرو إلى عمر يستمده ويقول : « إنى أعالج حربا كئودا صدوما ، وبلاداً ادُّخِرَتْ لك ، فرأيك » .

وقرأ عمر كتاب عمرو ، على المسلمين بالمسجد ، واستشارهم فيه .

ورأى عثمان بن عفان ألا يبرح عمر المدينة : « فأنت إن أقمت ، ولم تَسِرْ إليهم رأوا أنك بأمرهم مستخف ، ولقتالهم مستعدّ ، فلم يلبثوا إلا اليسير حتى ينزلوا على الصَّغَار ، ويُعطوا الجزية » .

وعارض على بن أبى طالب رأى عثمان ، وأشار على عمر بالسير إلى إيلياء ، « فقد أصاب المسلمين جهد عظيم ، من البرد والقتال وطول المقَام ... فإذا أنت قَدِمت عليهم كان لك وللمسلمين الأمن والعافية والصلاح والفتح . ولست آمن أن ييأسوا منك ومن الصلح ويُمسكوا حصنهم ويأتيهم المدد من بلادهم وطاغيتهم ، لاسيما وبيت المقدس معظَّم عندهم وإليه يحجون » .

وأخذ عمر برأى علىّ ، فأنابه على المدينة ، وأمر الناس بالاستعداد للسير معه .

موكب عمر ؟

وسار عمر على رأس الجيش الذى اجتمع له ، من المدينة حتى نزل الجابية ، وكان قد كتب إلى أمراء الجيوش فى الشام ، أن يوافوه بها ليوم سمّاه لهم ، وأن يستخلفوا على أعمالهم .

فكيف كان عمر ، فى طريقه إلى الشام ؟.

ليت الناس كلهم يجتمعوا ليشهدوا أعجب منظر فى التاريخ ... موكب عمر ، حاكم أكبر امبراطورية يومئذ ... الامبراطورية التى ابتلعت الكتلتين اللتين كانتا هما العالم القديم ...

قالوا: سار عمر على بعيرله، جعل عليه غرارتان ، فى إحداها سويق ، وفى الأخرى تمر!
وبين يديه قربة مملوءة ، وخلفة جفنة للزاد !

ومعه جماعة من الصحابة ...

وكان يقرب لهم جفنته فى الصباح فيأكلون معه !

ثم ماذا ؟.

وكان يعلم المسلمين الذين يمر بهم، وينهاهم عما يخالف دينهم مما كانوا يقترفونه عن جهل

وأراد عمر دخول بيت المقدس وعليه مرقعة من صوف فيها أربع عشرة رقعة بعضها من أديم ، فقال له أصحابه : لو ركبت بدل بعيرك جوادا ، ولبست ثيابا بيضاء ! .

ففعل ... وطرح على عاتقه منديلا من كتان دفعه إليه أبو عبيدة ! .

وقدم له برذون ركبه ، فلما رآه يهملج به نزل عنه ! .. وقال لأصحابه : أقيلوا عثرتى أقال الله عثرتكم يوم القيامة ،فقدكاد أميركم يهلك بما دخل قلبى من العجب والكبر !.

ثم نزع ما كان عليه ، وعاد إلى لبس مرقعته !!

ما هذا يا عمر ؟! ... أأنت فعلت هذا ، والدنيا بحذافيرها تحت قدميك ، وقوادك يفتحون ما يشاءون من أقطارها ؟.

تالله إن هذا لهو الزهد الحق ياعمر ! .

وأى كبر ، وأى عجب فى ركوبك للبرذون ياعمر ؟ .. وما هذا البرذون ، وما قيمته حتى يثير فى نفسك الكبر والعجب ؟ .

ثم هذا المنديل الذى طرحته عن عاتقك ... هل هذا شيء يثير العجب ...وأنت تملك العالم كله ياعمر ؟ .

أبدا ... وإنما هى العظمة، عظمة المقربين الذين يتنزهون عن الجائز، إجلالا لله وإعظاما لحقه سبحانه على عباده !.

أين هذا مما يفعله الملوك ورؤساء الدول الآن ، حين يجوسون خلال ممالكهم ودولهم، فى أسراب من السيارات الفاخرة ، والمواكب الباهرة ؟

ولكن معذرة ... فلا وجه للمقارنة بين هؤلاء وبين عمر ! .

ولئن قالوا وقالوا عن تقشف رؤساء الدول الشيوعية ، فهل يستطيعون أن يسموا لنا زعيما شيوعيا واحدا ، بلغ ما بلغه عمر من بساطة ، وزهد ، فى ذلك الموقف ؟.

وصف تفصيلى للموكب !

قالوا : قدم عمر بن الخطاب الجابية عن طريق إيلياء على جمل أورق ، تلوح صلعته للشمس ، ليس عليه قلنسوة ولا عمامة ... تصطفق رجلاه بين شعبتى الرحل بلا ركاب .

وطاؤه كساء أنبجانى ذو صوف ... هو وطاؤه إذا ركب ، وفراشه إذا نزل ! .

حقيبته نمرة أو شملة محشوة ليفا ! .. هى حقيبته إذا ركب ، ووسادته إذا نزل ! .

وعليه قميص من كرابيس ، قد رسم ، وتخرق جنبه ! .

فقال : ادعو إلى رأس القوم ... فدعوا له الجلومس... فقال : اغسلوا قميصى، وخيطوه، وأعيرونى ثوبا أو قميصا !! .

فأتى بقميص كتان ، فقال : ماهذا ؟

قالوا : كتان .

قال : وما الكتان ؟ ... فأخبروه ، فنزع قميصه ، فغسل ، ورقع ، وأتى به ، فنزع قميصهم ولبس قميصه ! .

فقال له الجلومس : أنت ملك العرب ، وهذه بلاد لا تصلح بها الإبل ، فلو لبست شيئا غير هذا ، وركبت برذونا ، لكان هذا أعظم فى أعين الروم ! .

فماذا كان جواب عمر ؟ ...

قال : « نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ، فلا نطلب بغير الله بديلا » .

فأتى ببرذون ، فطرح عليه قطيفة بلا سرج ولا رحل ، فركبه بها ، فقال : احبسوا احبسوا ما كنت أرى الناس يركبون الشيطان قبل هذا . فأتى بجمله فركبه .

وقالوا : لما قدم عمر الشام عرضت له مخاضة فنزل عن بعيره ، ونزع خفيه ، فأمسكها بيده ، وخاض الماء ومعه بعيره !.

فقال له أبو عبيدة: قد صنعت اليوم صنيعا عظيما عند أهل الأرض، صنعت كذا وكذا فصك عمر فى صدره ... وقال : أو لو غيرك يقولها ياأبا عبيدة !.. إنكم كنتم أذل الناس ، وأحقر الناس ، وأقل الناس ، فأعزكم الله بالإسلام ، فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله ! »

ياللعظمة ياعمر ! ... إنك ترتفع .. حتى على مقام أبى عبيدة ... ارتفاعا بعيدا ! .

مهما تطلبو العز بغيره يذلكم الله .. فليسمع العالم الإسلامى ، وليسمع العالم العربى ... مهما حاولوا العزة الدولية بغير تطبيق الإسلام فى مجتمعاتهم وأمرهم كله ، يذلهم الله ! .

وهذا القول من عمر ، ينبغى أن تدرسه الجماهير والحكومات المسلمة ، وأن نراجع أنفسنا على أساس منه ... فعمر ينطق بالحق دائما ... وكلامه خالد خلود الحقائق .

ولقد جربت الأمم الإسلامية ، محاولة النهوض من كبوتها ، والوقوف من تخلفها ، فارتدت خاسئة وهى حسيرة ... ذلك أنها التمست العز بغير الاسلام فلم تزدد إلا ذلا .

ولوأنها تنادت فيما بينها بالاسلام ، لالتأم شملها ، واتحد افتراقها ، وانطلقت فى المجال الدولى كتلة واحدة لهادينها ، ولها سياستها المستقلة ، لاشرقية ولاغربية .

آه ... لوعقل الساسة قولك ياعمر ... ثم آه !.

معاهدة بيت المقدس ؟

فلما عرف قواد عمر مقدمه إلى الجابية ... ساروا اليه يتقدمهم يزيدبن أبى سفيان ، ثم أبوعبيدة ، ثم خالدبن الوليد ، على الجند فى عرض يأخذ بالأبصار !

ورآهم عمر مقبلين، عليهم الحرير والديباج ، فغلى الدم فى عروقه لمرآهم ، فنزل عن فرسه، وأخذ الحجارة ، ورماهم بها ، وصاح مغضبا : « سَرُعَ ما لُفِتُّم عن رأيكم ! إياى تستقبلون فى هذا الزى ! وإنما شبعتم منذ سَنتين! وبالله لو فعلتم هذا على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم » .

إن عمر يثور أشد الثورة ، أن رأى قواده الذين دوخوا الرومان ، عليهم مظاهر العز والفخفخة ! .

واعتذروا اليه جميعا وقالوا : « ياأمير المؤمنين إنها يَلاَمِقة ، وإن علينا السلاحَ » .

ورأى عمر سلاحهم ، فخفف مرآه من ثورة غضبه ...

فقال : « نعم إذا ! »

وركب ، حتى دخل الجابية ، وسار القوم فى صحبته .

شخصية عجيبة ذلك الرجل... لايريد حتى أن يرى قادة جيوشه فى شىء من البحبوحة والزينة ...

إن له فلسفة فى ذلك ... إنه يريدهم دائما فى خشونة وبساطة ، ومتى كانوا هكذا نصروا على أعدائهم ، أما إذا أترفوا كترف أعدائهم ، فما هو الفارق بينهم إذا ؟ .

مثال صادق لشريعة الله ...

ونزل عمر بمعسكر الجابية... وجاءت رسل صفرنيوس، أسقف بيت المقدس ، يتمون الصلح مع أمير المؤمنين .

وصالحهم عمر على صلح دمشق ، بل على صلح أكثر منه سخاء ، وكتب لهم معاهدة هذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ماأعطى عبدالله ، عمر ، أمير المؤمنين ، أهل إيلياء من الأمان ... أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصُلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، إنه لاتُسكَنُ كنائسهم ، ولاتُهدم ، ولاينتقص منها ، ولامن حيِّزها ، ولامن صليبهم ، ولامن شىء من أموالهم .

« ولا يُكرَهون على دينهم ، ولا يُضَارّ أحدمنهم ، ولا يسكن بإيلياء (بيت القدس) معهم أحد من اليهود .

« وعلى أهل إيلياء أن يُعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن .

«وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص. فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم . ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه مثل ماعلى أهل إيلياء من الجزية .

« ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ، ويُخلى بيعهم وُصلبهم، فإنهم على أنفسهم وعلى بِيَعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم .

« ومن كان بها من أهل الأرض ، فمن شاء منهم قعد ، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله . وإنه لايؤخذ منهم شيء حتى يُحصَد حصادهم

« وعلى مافى هذا الكتاب عهد الله ، وذمة رسوله ، وذمة الخلفاء ، وذمة المؤمنين ، إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية » .

ووقع عمر على المعاهدة ... وشهد عليها خالد ، وعمرو ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية ...

ورجع رسل صفر نيوس بالمعاهدة إلى القدس ، فسر الأسقف سرورا عظيما .

وساد الفرح أهل المدينة جميعا ... كيف لا وقد أعطت المعاهدة للجميع حرية العقيدة ، وحرية الإقامة ، وحرية الخروج من المدينة ، وحرية اللحاق بالرومان ، وحرية الحياة مهما تنوعت ، ومهما تعددت ؟

وتجلت عبقرية عمر ، عبقرية الاسلام ، واضحة أشد ما تكون فى تلك المعاهدة .

أعطاهم عمر حق الحياة ،وحق الاعتقاد ، وحق الإقامة، وحق الهجرة ،وحق الاختيار، وحق الأمن والاستقرار .

وهذا هو الاسلام فى معاهداته ،وفى المجال الدولى .. . حرية، ووفاء ، واحترام للعهود، واحترام للعقائد ... لا إكراه فى الدين .

لقد خلص النصارى بيت المقدس من سخافات حكم المسيحيين أنفسهم بتلك المعاهدة.

أين هذا مما كان يريد هرقل أن يُكره عليه أهل القدس من ترك مذهبهم إلى مذهب الدولة المسيحى الرسمى ، فمن أبى جُدع أنفه ، وصُلمت أذناه ، وهُدِم بيته ؟

وأنا أرفع تلك المعاهدة فى وجوه أهل العصر الحديث ، أيا ما كان مذهبهم السياسى أوالاقتصادى أو العقائدى ... وأقول لهم : ادرسوا هذه المعاهدة ، وقارنوها بمعاهدات الصلح التى عقدتموها مع غيركم ،فى تاريخكم الطويل ، وحروبكم العديدة ... وسوف تجدوا أنها شىء فوق عقولكم ، وفوق شهواتكم ، وفوق تفكيركم ... شىء عال رفيع ، لايستطيعه إلاعمر ،إلامن اهتدى بهدى الاسلام ، واستنار بنوره .

لقد اعتبرها عمر مدينة دولية ، لها كل الحرمات ، وكل القداسات ... لأى انسان مَن أهل الأرض أن يقيم بها ، أو يرحل عنها فى حرية تامة عامة ...

وهذا هو الاسلام فى المحيط الدولى ... وتلك هى سماحته ، وهذه هى نظرته إلى الحرية واحترامه لحقوق الانسان .

عمر يدخل بيت المقدس !

امتطى أمير المؤمنين فرسه ، ودخل به بيت المقدس ، ومعه عدد من قواده ...

وتلقاه البطريق صفرنيوس وكبراء المدينة ، وتلطف بهم وأدناهم ، وتحدث اليهم حديثا أدخل محبته فى قلوبهم .

ورأى أئمة المسيحية ، وقادة الرومان ، رجلا لا عهد لهم بمثله ...

صدق ، عدل ، بساطة ، رحمة ، انكسار لله ، وذكروا جبروت قيصر ، وعسفه ، فمالت قلوبهم إلى عمر ميلا شديدا .

إلا أنهم محترفة مرتزقة ، لايعدلون بمناصبهم شيئا من تكاليف الحق وتضحياته .

وجاء المساء ، وانصرف القوم ... وخلا عمر بنفسه ... فقام يصلى من الليل طويلا ، شكرا لله على ما أنعم به عليه .

فلما أصبح جاءه صفرنيوس ، وسار معه خلال المدينة ، يشرح له من آثارها ، وكم لها من آثار !.

وبينما الرجلان بكنيسة القيامة ، أدرك عمر موعد الصلاة ... فطلب البطريق اليه أن يصلى بها ، فهى من معابد الله ...

إلا أن عمر اعتذر ، بأنه إن يفعل يتبعه المسلمون على تعاقب القرون ، إذ يرون عمله سنة مستحبة ، فإذا فعلوا أخرجوا النصارى من كنيستهم ، وخالفوا عهد الأمان .

واعتذر للسبب نفسه عن الصلاة بكنيسة قسطنطين المجاورة لكنيسة القيامة ، وكانوا قدموا له عند بابها بساطا يصلى عليه ، وإنما صلى فى مكان قريب من الصخرة المقدسة على أطلال هيكل سليمان .

وفى هذا المكان شيد المسلمون بعد مسجدا فخما ، هو المسجد الأقصى .

أما فى عهد عمر فقد كان هذا المسجد بسيط البناء كمسجد النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة يوم أقيم .

لا إكراه فى الدين ؟.

ووضع عمر برفضه الصلاة فى الكنائس أخطر مبدأ فى علاقات الدول بعضها ببعض ، من حيث التسامح ، وحرية العقيدة .

لم يفعل عمر كما فعل هذا الذى يسمى بنابليون بونابارت ، حين دخل القاهرة ، ودخل بخيوله إلى مسجد الأزهر ، وجعله حظيرة !.

وإنما عمر هو عمر ... وشتان بين رجل تتلمذ على محمد صلى الله عليه وسلم ، ورجل كل مجده أنه صاحب عبقرية عسكرية !.

وهذا النابليون الذى جعله الغربيون أغنيتهم الخالدة ، وألفوا فى مفاخره وعبقرياته آلاف الكتب ... يعتبر شيئا تافها ، لا وزن له ، إذا قيس إلى رجل عملاق كعمر بن الخطاب .

ومن كان فى شك من هذا فلينظر إلى موقف الرجلين من تلك الحادثة المتشابهة .

دخل عمر بيت المقدس فاتحا ، وحان موعد الصلاة ، وعرض عليه البطريق أن يصلى فى كنيسة القيامة أوكنيسة قسطنطين ، فاعتذر الرجل ، مخافة أن يقلده المسلمون فى ذلك ، فيكون فى هذا مساس بحرية عقيدة المسيحيين ، وحرية معابدهم .

ودخل بونابرت القاهرة فاتحا .. فدخل أكبر مسجد فى العاصمة ، دخول الرعاع وقطاع الطرق ، واتخذ منه مربطا لخيوله ، مع مايجره ذلك التصرف الخسيس ، من قذارة وتحقير للمسجد .

فليقارن من كان فى شك مما أقول بين مسلك الرجلين فى الحادثتين المتشابهتين ... وسوف يجد الفارق بعيدا جدا ... هذا مسلك انسان عظيم ... وذلك مسلك جبار زنيم .

هذا هو نابليون بونابارت ، أغنية الغربيين ، ومثلهم الأعلى ... يبدو حقيرا تافها ، يخضع لنوازع الشر ، وعفونات الحقد ..

وهذا هو عمر ، أمير المؤمنين ، يبدو عظيما شامخا ، إذا وزنت أقدار الرجال .

وهذا ماأريد من جيلنا الصاعد أن يفطن له ، وينتبه بكل حواسه اليه ...

أريد من جيلنا الصاعد أن ينبذ من أعماقه رواسب الثقافة الاستعمارية الإجرامية ... تلك التى رسبت فى رءوسنا تعظيم أبطال الغرب ، وتقديس فعالهم ... وفى نفس الوقت طمست على ملامح العظمة من أبطالنا ، أبطال الاسلام ، أبطال العرب .

ونشأنا ... متأثرين أشد التأثر .. عن عمد أوعن جهل .. بذلك التوجيه الإجرامى ..

وكون المستعمر فى العالم الإسلامى جيلا يعتقد أن العظماء هم عظماء الغرب ، وأن الشرق خلو من العظماء .

وأنا أقرر ، وفى يدى أسطع برهان ، أن رجلا كعمر بن الخطاب ، أعظم ألف ألف مرة من هذا النابليون بونابارت ! .

ذلك أن الانسانية ارتفعت بعمر ارتفاعا عظيما ، بينما انخفضت إلى الحضيض بفعال نابليون .

فليست العظمة أن تكون قائدا عبقريا ، ولا أن تكون داهية سياسيا ، ولا أن تكون أكبر من ذلك ، وإنما العظمة أن تكون قبل هذا وذاك إنسانا .

ولقد شهدت الأرض والسماء أن عمر كان إنسانا .

إن عندنا شموعا ولكنها مطفأة ، ولدينا شموسا ولكنها مطموسة ، وعندنا أقمارا ولكنها مغطاة بسحب داكنة .

والآن ... وقد انزاح كابوس الاستعمار ، فقد أصبح لزاما أن نفتش عن أمجادنا ، وأن نبعث إكبار أبطالنا فى نفوس أبنائنا .

إن تلك المدرسة التى رباها الاستعمار كيفما يريد ، يجب أن تسقط بأساتذتها وطلابها وروادها ... يجب أن ترفع من الطريق ، لتتقدم مدرسة جديدة ، مدرسة ثائرة ، تكبر الإسلام ، وتعظم أبطاله ، وتمجد فعالهم ...

إن هناك جذورا عفنة لمدرسة الاستعمار الثقافية ، مازالت تمد شعيراتها فى النجاسات والانحرافات ، هذه الجذور يجب أن تقتلع وتذهب .

سلامٌ عليك ياعمر ... سلام عليك يوم كرمت حرية الانسان ، وحرية العقائد ... يوم أبيت الصلاة فى الكنيسة ، وصليت بعيدا عنها ، فى مكان بسيط فى خلاء !.

عمر يعمل كنّاسا !

معلوم أن الأعمال فى نظر الإسلام سواء ، ليس فيها دنىء وشريف ، كما هو الحال عند الأكثرين من الناس .

وهذا الطابع تراه واضحا فى سلوك المسلمين الأول ، فيما كانوا يباشرون من أعمال عظيمة أو تافهة .

ويبدو هذا السلوك أوضح ما يكون فى مسلك عمر ، فى تلك الأقصوصة ...

قلنا أن عمر اعتذر لصفرنيوس عن الصلاة بكنيسة القيامة ، وأنه صلى بمكان قريب من صخرة يعقوب ، على أطلال هيكل سليمان .

وفى هذا المكان الذى صلى فيه عمر أقيم مسجده ، بسيط البناء ، كمسجد النبى بالمدينة يوم أقيم .

وجعل عمر قبلة المسجد إلى الكعبة ، ولم يجعل الصخرة دونها .

ورأى عمر على الصخرة كناسة كان الروم يلقونها فوقها ، فقال لأصحابه : اصنعوا كما أصنع ...

ثم جثا فى أصلها ، وجعل يحمل ماعليها بنفسه ، فيلقيه بعيدا عنها .

وصنع أصحابه كما صنع ... ومازالوا بالصخرة حتى زال كل ما عليها .

وقد بقيت الصخرة محاطة برعاية المسلمين من يومئذ ، إلى أن أقام عبد الملك بن مروان عليها قبة بالغ فى العناية بعمارتها ، حتى جعلها أروع آية فى البناء ، حتى لقد فاق بها عمارته المسجد الأقصى والمسجد الحرام ...

تلك هى الأقصوصة الخالدة التى تسجل أن عمر عمل يوما ما كناسا ، وحمل بنفسه الكناسة والقاذورات عن الصخرة ..

ودعا أصحابه إلى ذلك ، وهم القادة ، والحكام ، والعظماء ، والكبراء فى الدولة !.

وعملوا كما عمل ... كناسين ... وهو أقل الأعمال شأنا ، فى مقاييس الناس .

فما دلالة تلك الفعلة التى فعل ؟..

إنها دلالة عظيمة ... أن الإسلام يسوى بين الأعمال جميعا ...

فليس هناك عمل عظيم فى ذاته ، وعمل حقير فى ذاته ... وإنما الكل سواء من حيث هو عمل .

وإنما يأتى التفاضل والتفاوت فيما تنطوى عليه نفس العامل وقت تنفيذه لذلك العمل ، فمن كان يبتغى بعمله وجه الله فهو عمل مرفوع عندالله ، ومن كان يبتغى بعمله رياء ، أوشهرة أودنيا يصيبها ، أوامرأة ينكحها ، فهوعمل موضوع عندالله .. وعلى قدر نية المرء واخلاصه تكون درجات الأعمال عندالله .

تلك هى نظرة الإسلام إلى الأعمال ، التى هى نظرة عمر ...

فعمر حين انبعث إلى الكناسة على الصخرة يحملها ، وينظفها ، وحين دعا أصحابه إلى ذلك ... إنما كانوا جميعا يريدون وجه الله ، يعظمون الله فى تعظيم حرماته ... قال تعالى « ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب » ... كانوا يريدون ماعند الله ... ولا ينظرون إلى طبيعة العمل ، وإنما ينظرون إلى غاية العمل .

فكان ماعملوا عظيما عندالله . عظيما فى موازينهم يوم القيامة ... وإن كان فى مقاييس الجاهلين عملا حقيرا لا يصح أن يباشره رجل يحترم نفسه !.

وهكذا هذا الإسلام العجيب ... يزن الأمور وزنا غير موازين الناس ...

فقد يكون الرجل ملكا عظيما فى عرف الناس ، وهل هناك صناعة أعظم من صناعة الملك ؟... إلا أنه لا يساوى شيئا عند الله لأنه يتخذ الملك كبرا وعلوا بغير الحق !.

وقد يكون الرجل كناسا ، يباشر أدنأ الأعمال فيما تعارف عليه الناس ، ولكنه عظيم عند الله ، لأنه يريد بعمله هذا وجه الله !.

وهذا هو الميزان الحق ... ميزان الإسلام ... ومن هنا اختلفت نظرة الإسلام إلى الأعمال عن نظرات الناس ...

وما كان عمر بدعا فيما صنع ، وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل يرفع التراب مع أصحابه فى غزوة الأحزاب ... وقد رأى أبا بكر من قبل يأخذ بفرس أسامة ويقوده ماشيا وأسامة راكبا ؟ .

إنما هو معين واحد ... معين القرآن ووحى السماء ... منه نهلوا جميعا ، ومنه صدروا عن أسلوب واحد ...

عودة الفاتح

وأنهى عمر رحلته إلى بيت المقدس ، وحقق رجاءه ، وفتح الله له المدينة العالمية ، يفعل فيها مايشاء .

بينما هرقل يفر مذعورا إلى القسطنطينية ، لا يدرى ماذا يفعل ، ولا ماسوف يفعله به عمر !

وكانت أنباء الفتح قد بلغت عليا والمسلمين بالمدينة ...

فاستقبلوه بظاهر المدينة استقبالا عظيما ... ولكن فى غير مابطر ، ولافخر ، ولا كبرياء ...»

وإنما فى احساس بنعمة الله عليهم ... أن فتح لهم الأرض يمينا وشمالا يتبوءون منها حيث يشاءون ! .

الدولة المؤمنة تتحرك !

قال صلى الله عليه وسلم . « المؤمنون كجسد واحد ، إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ... »

ليس المقصود من ذلك الحديث تلك المعانى الضيقة التى درج الناس أن يحصروه فيها من الأخلاق والايمانيات ...

كلا ... وإنما هو معنى عام هام ... فى كل شأن من شئون الحياة ...

المؤمنون كجسد واحد، بمعنى أن هذا الجسد يفزع ويألم ويتحرك كله ، إذا أصيب منه عضو من الأعضاء ، أو إذا تعرض للخطر .

وأوضح مثال لذلك هو مانعرضه الآن ، مما حدث فى عهد عمر للامبراطورية الناشئة ...

عاد أبوعبيدة ، وخالدبن الوليد ، ويزيد بن أبى سفيان من بيت المقدس ، من رفقة عمر ، كلّ إلى عمله .

فأقام يزيد بدمشق ، ونزل أبوعبيدة حمص ، واستقل خالد بإمارة قنسرين .

وجعل كل منهم يحكم ولايته بالعدل والرحمة بعد أن خضعت الشام المسلمين من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال .

على أن أهل الجزيرة المقيمين بين العراق والشام كتبوا إلى هرقل ، أنهم على استعداد لمعاونته ، إذا أرسل من البحر جندا يقاتل المسلمين ، ويسترد منهم ما استولوا عليه .

وأعادوا الكتابة إليه فى ذلك ... فظن امبراطور الرومان أنها فرصة، ليلقى على المسلمين درسا ، ويسترد منهم الشام ...

وكتب إلى أهل الجزيرة يشجعهم ويحرضهم . ويذكر لهم أنه أمر سفنه ، فهى تمخر البحر تحمل الرجال والعتاد من الإسكندرية إلى أنطاكية ...

فسارت هذه القبائل بكل قواتها من الجزيرة تريد حمص .

وبلغت أبا عبيدة أنباء ذلك كله ... وشاور أبو عبيدة خالداً فى الأمر ، واستقر رأيهما على أن تجتمع قوات المسلمين بشمال الشام لمواجهة العدو .

وترامت الأنباء فى جميع الأنحاء ، فما أقبلت سفن هرقل إلى أنطاكية حتى ثارت بالمسلمين ، واندلع لهب الثورة فى شمال الشام كله .

وألفى أبو عبيدة نفسه محصورا فى حمص يحيط به الثائرون من كل جانب ، ويسير أعداؤه لمهاجمته مقبلين من ناحية البحر ، ومن ناحية البادية .

وعلى الفور جمع أبو عبيدة قواده واستشارهم وأنبأهم أنه كتب إلى عمر فى الأمر .

انظر كيف كان أمر عمر حين بلغه ذلك .

ثم انظر كيف تحركت الأمة كلها ، وكيف كان تجاوبها حين دهم الخطر مكانا منها ... تماما كما شبههم رسول الله « كجسد واحد » ...

ماذا فعل عمر ؟ ... استجاب سريعا ، وأصدر أوامره سريعا ، وتحولت الأمة كلها إلى العمل سريعا .

كتب فورا إلى سعد بن أبى وقاص : « اندُبِ الناس مع القعقاع بن عمرو ، وسرِّحهم من يومهم الذى يأتيك فيه كتابى إلى حمص ، فإن أبا عبيدة قد أحيط به وتَقَدَّمْ إليهم فى الجِد والحِدَّة » .

ونفذ سعد أمر أمير المؤمنين فوراً ، فى نفس اليوم ... وفى نفس اللحظة تحرك القعقاع فى أربعة آلاف من الفرسان المجربين ، فانطلقوا مسرعين من الكوفة إلى حمص .

هل هذا فقط . . . كلا . . . إن الجسم كله يجب أن يتحرك سريعا ، ليهاجم كله موضع الخطر.

هذه الثلاثين ألفا التى تحركت من الجزيرة وتركت بلادها لتقاتل أبا عبيدة وتنضم إلى قوات هرقل القادمة من البحر ، من أنطاكية ... لابد أن تتلقى درسا يعلمها أن لا تفكر فى مقاتلة جنود الله ...

وعلى الفور أصدر عمر أوامره إلى سعد أن يبعث جيوشا تغزو بلاد الجزيرة ...

فليبعث سعد بن أبى وقاص سُهَيْل إلى الجزيرة فى الجند، فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص ...

ولتكن الرّقة مقصد سهيل ، وليسرح عبدالله بن عتبان إلى نصيبين ... فإذا أخضعوها فليسيرا إلى حَرّان والرُّهاء ...

وليسرح الوليد بن عقبة إلى عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ ...

ولتكن لعياض بن غنم إمارة الجند كله فى حرب الجزيرة .

فإذا سار هؤلاء الأمراء جميعا ، وخربوا ديار أهل الجزيرة ، ذكرت جيوشها ذلك فلم يقاوموا !.

أوامر متدافعة ، سريعة ، جبارة ، تدل على أن الارادة الحديدية قد انبعثت فى عمر ... إرادة التحدى للكفر وأعداء الله ، والاصرار على النصر .

كل الدولة تتحرك ، كل الدولة تتفاعل ، وتتدافع ، لدرء الخطر عن الجسم !.

— وبعث هرقل ابنه قسطنطين على رأس الجيوش التى نقلتها السفن من الأسكندرية ليثأر لكرامته ، ويقضى قضاء تاما على خطط عمر العسكرية ...

وفكر عمر ، وفكر ، وقرر أن يخرج فورا بنفسه ليقود المعركة ..

وحشد ما استطاع من قوات المدينة وما حولها ، وسار هو على رأسها متخذا طريق دمشق إلى ميدان القتال .

أرأيت ؟... كل الجسم يتحرك ... القعقاع إلى حمص ، آخرون يهاجمون الجزيرة نفسها ... عمر ، رأس الدولة ، يخرج بنفسه إلى القتال ...

وهذا هو المثال الحى لمعنى قوله صلى الله عليه وسلم «كالجسد الواحد » ...

وهكذا كانت تلك الأمة تتفاعل وتتجاوب بأسرع مايكون التفاعل والتجاوب ، لأنها كانت فى أقصى درجات الحياة .

النصر بالرعب ؟

فماذا كانت النتيجة عندما انطلق العمالقة من كل مكان ، وعلى رأسهم عملاق الحق الأكبر ؟

أما القبائل التى خرجت تريد حمص ، فأيقنت أن منازلها بالجزيرة لن ترعى لها حرمة بعد الذى صنعت .. فانخلعت منها القلوب ، وآثرت الرجوع من حيث أتت ، لعل فى رجوعها بعض مايكفر من جريمتها ! .

وأصبح أبو عبيدة يوما ، فعلم أن القبائل تفرّق أهلها مرتدين إلى بلادهم وذويهم ، وأنه لم يبق بإزائه إلا الروم جند هرقل !!

فدعا اليه قواده ، وقال لهم أنه يرى محاربة القوم .

وسر خالد بن الوليد ، وأشار بمفاجأتهم قبل أن يأخذوا للموقف الجديد عُدّته .

وظن الروم حين رأوا القبائل تتخلى عنهم ، ورأوا المسلمين يخرجون من حصون حمص للقائهم ، أن فى الأمر مكيدة دُبِّرَت لهم فتولتهم الحيرة .

وهاجمهم أبو عبيدة ... واستمات الروم فى القتال ... لكنهم تضعضعوا ثم انهزموا ! .

ففروا قبل أن يبلغ القعقاع بن عمرو حمص ، وقبل أن يبلغ عمر الجابية فى طريقه إلى الشام ! .

ما هذا ؟... هذا النصر بالرعب ... رجال صدقوا الله فصدقهم ، وخرجوا يريدون الموت ، فكان الله معهم ، وألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، وزلزلهم ... فانهاروا ، وفر من فر منهم وأصبحت مقاومتهم كأن لم تكن !.

تأمل ... الروم يخرجون فى جيوش وأساطيل ، وحلفاؤهم من الجزيرة يخرجون فى ثلاثين ألفا من الجنود ، فما أن أحسوا أن المسلمين قد انبعثوا من كل مكان للقائهم ... حتى رعبوا ، ففروا وانهزموا !!.

علم الله من المسلمين الصدق ... وعلم ما فى قلوبهم ... وأنهم خرجوا يريدون إعلاء كلمة الحق ... فكان أن تدخل الله فى المعركة ، ونصرهم نصرا عزيزا ، كأنه الأحلام !.

ومن هنا يجب أن نتعلم ... نتعلم أن الله يريد منا أن نعمل ، وأن نريد بعملنا وجهه ، وأن نعد للعدو ما استطعنا من قوة حربية ... فإذا آنسنا منه غدرا أو اعتداء ، هببنا هبة رجل واحد للقائه ... وسوف يكون الله معنا .

فلما بلغ عمر الجابية وجد رسول أبى عبيدة بها يذكر له انتصارهم قبل ثلاثة أيام من وصول القعقاع إليهم ، ويستشيره فى الفىء وهل يكون لرجال القعقاع نصيب منه ؟.

واطمأن عمر إلى نصر الله .. وكتب إلى أمين الأمة كى يشرك أهل الكوفة فى العطاء، فسيرهم لنجدته هو الذى أدخل الرعب إلى قلب عدوه ، فأدى ذلك إلى هزيمته ، « وجزى الله أهل الكوفة خيرا ، يحمون حَوْزَتهم ويمدُّون أهل الأمصار » ...

ثم رجع عمر إلى المدينة ...

وهكذا حاقت الهزيمة بالروم فى محاولتهم اليائسة لاستعادة الشام ... فعاد كل أمير من المسلمين إلى إمارته ، بعد أن هدأت ثورة الثائرين ، ويأسوا من عودة الروم إلى الشام .

ليس هذا فقط ... وإنما تداعى أهل الجزيرة ، قبيلة إثر الأخرى . تستسلم ، وتعطى الصلح والجزية ، بعد أن رأوا قوة المسلمين التى لا تغلب ...

وهكذا اتصلت الدولة الإسلامية فى الشمال ، والتأم العراق مع الشام .

لقد أرادوها هزيمة للمسلمين ، فانقلبت خيرا لهم .

عمر ينذر هرقل !.

كتب الوليد بن عُقبة إلى عمر ، يذكر له أن عرب الجزيرة نهضوا معه إلا بنى إياد ، فإنهم ارتحلوا إلى أرض الروم .

فكتب عمر إلى هرقل يقول « إنه بلغنى أن حيًّا من أحياء العرب ترك دارنا وأتى دارك ، فوالله لتُخْرِجَنَّه أولَنَنْبِذَنَّ إلى النصارى ثم لنخرجنّهم إليك » .

ورعب هرقل من انذار عمر ، ونزل على ماأراد ، فأخرج إياداً من أرضه ... وعادوا إلى أرض المسلمين .

مادلالة الحادثة ... دلالتها أن عمر بلغ الغاية من عبقرية السياسة .

لقد هدد هرقل إن لم يرد اليه اللاجئين العرب ، أن يخرج من الدولة الاسلامية النصارى جميعا ، ويطردهم إلى بلاد الرومان ويمزق المعاهدات التى عقدها معهم ...

فعلم امبراطور الرومان أنه أمام رجل لايقهر ، إذا قال فعل ... فانهارت أعصابه ، وأمر بإخراج اللاجئين العرب من أرضه وتسليمهم إلى عمر .

وهكذا ... كانت تلك الحادثة اختبارا لمعدن الرجلين ، تبدى من خلالها أن هرقل لايستطيع أن يصمد لعمر ... وشتان بين رجل ورجل ..

مبدآن خطيران ؟

لم يرتحل بنو تغلب من أهل الجزيرة إلى أرض الرومان ، لكنهم أبوا على الوليد بن عقبة حين لم يقبل منهم إلى الاسلام ، واحتكموا فيما بينهم وبينه إلى أمير المؤمنين .

وكتب الوليد إلى عمر بإبائهم .

فأجاز عمر رأيهم ، وأبى أن يفرض الوليد الإسلام عليهم « فإنما ذلك لجزيرة العرب، لا يُقبل من أحد فيها إلا الاسلام ، فدعهم على ألاّ ينّصروا وليداً ، ولا يمنعوا أحدا من الإسلام» !

فلما بلغهم حكم عمر ،رضى بعضهم أن يدخل فى دين الله، وأصر بعض على نصرانيته ، ثم لم يقبل هؤلاء أن يكونوا أهل ذمة يؤدون الجزية .

وذهب وفد منهم إلى المدينة ، وكان بينهم بعض من أسلم منهم ، فقال مسلموهم لعمر: « لاتنفروهم بالخراج فيذهبوا ، ولكن ضَعِّفوا عليهم الصدقة التى تأخذونها من أموالهم فيكون جزاء ، فإنهم يغضبون من ذكر الجزية ، على ألا ينصروا مولودا إذا أسلم آباؤهم » .

وأصر عمر على أن يؤدوا الجزاء ، فقالوا : « والله لئن وضعت علينا الجزاء لندخلن أرض الروم » .

قال عمر : « لئن هربتم إلى الروم لأكتبنّ فيكم ثم لأسبينكم » .

قالوا : « خذ منا شيئا ولا تسّمه جزاء » .

قال عمر : « أما نحن فنسميه جزاء وسموه أنتم ما شئتم » .

ولما رأى على بن أبى طالب مابلغه هذا الحوار من شدة ، قال « ياأمير المؤمنين ! ألم يضعف عليهم سعد بن مالك الصدقة ؟ » .

قال عمر : « بلى » ؟

ورضى منهم الصدقة بدل الجزاء .

فأين المبدآن الخطيران من تلك الحادثة ؟

المبدأ الأول ... ألا يكره أحد على الإسلام ... تلك القاعدة الخالدة فى حرية العقائد...

وهذا ما ينبغى أن يتأقلم العالم الحديث عليه ... فالأديان أفكار عظيمة نزلت من السماء ... أفكار معروضة على الناس ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ...

والمبدأ الثانى ... التطور فى النظام المالى حسبما تقتضيه الأحداث والملابسات .

كان عمر يصر على أن يدفعوا الجزية ... فأبوا ... فأصر ... فأشار علىّ بطرح الجزية وأخذ الصدقة ... فاقتنع عمر ... وأخذ منهم صدقة مضاعفة ؟

ماهذا ؟ ... إن هو إلا التطور ، والأخذ بالأصلح ... مادام الهدف قد تحقق ، فلسنا طلاب مسميات ، وإنما نحن طلاب حقيقة .

والحقيقة من هذا الأمر أن الاسلام يريد من الذين لم يدخلوا فيه ، ضريبة مالية يؤدونها إلى الخزانة العامة ، لقاء الدفاع عن الدولة ، وتأمين حريتهم ... وقد سماها الاسلام جزية ، فنفر منها بعض من فرضت عليهم ، فلنطرح هذا المسمى ولنأخذ منهم صدقة ... أرأيت ؟... المسميات ليست شيئا ذا بال ، مادامت الحقائق قد تحققت ! .

ولو أن المسلمين عقلوا هذا من دينهم ، لما ثارت بينهم الخلافات والخصومات فى أمور تافهة لا تستحق الالتفات .

ولكنهم شغلوا بالمسميات والخلافات ، عن جوهر دينهم وهدفه العام !

فالاسلام لا يمانع أن نقول عن نظامه الاقتصادى « اشتراكية الاسلام » ، ولا يمانع أن نقول « رأسمالية الاسلام » ... لا يهمه أمر المسميات والشعارات ، وإنما يهمه حقائق النظم المطبقة فى الدولة هل هى تحقق العدالة الاجتماعية أم لا تحققها ؟ .

معجزة ؟!

تم ذلك كله فى السنة السابعة عشرة من الهجرة ، فتم به استقرار السلطان للمسلمين بالشام من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال !

وتلك هى المعجزة من رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ... معجزة تبهر العقول ، وتسلب الألباب ...

ولوأن أحدا قال للناس بمكة ،وقتأن كان محمد ومعه حفنة من المستضعفين فى الأرض: سوف يملك هؤلاء الدنيا بما فيها . لقالوا لك : أأنت مجنون ؟ .

وهاهم أولاء يفتحون الدنيا ، ويملكون الملكين ، كسرى وقيصر ... ويصبحون القوة العظمى ، فى الأرض، لايستطيع أحد أن يقف دونهم ، أويقوم فى وجوههم ، أويرد لهم إرادة !.

ولم يشهد التاريخ أبدا دولة سادت العالم دون أن يبقى أمامها قوة عالمية أخرى تنازعها ... أما دولة عمر فقد سادت وعلت دون أن يبقى فى وجهها كتلة عالمية أخرى تعارضها ...

أما امبراطورية كسرى فذهبت ... وأما قيصرية هرقل فتتساقط قطرا بعد قطر بأيدى المسلمين ... فأين هى الكتلة الأخرى التى يمكن اعتبارها القوة الثانية فى العالم ؟.

لاتوجد ... وهذه هى المعجزة من تلك الرسالة الكبرى ... وهو شىء لم يحققه الله إلا لمحمد صلى الله عليه وسلم ...

إنه تنفيذ الله لوعده حين قال لرسوله والذين معه « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا »...

نفذ الله سبحانه وعده ، وصدق عبده ، ونصر جنده ، وهزم الأحزاب وحده ...

وهاهى الأرض كلها تحت قدم عمر ، وتحت اقدام أصحاب رسول الله ... لماذا ؟ ... لأن الله وعد ... والله لايخلف الميعاد ...

لماذا ؟ ... يعبدوننى لايشركون بى شيئا ... وهذا هو الجديد من أمر هؤلاء الناس،

الذى استحقوا به من الله كل هذا التكريم ، وكل هذا التفضيل ، وكل هذه العزة ، وكل هذه العظمة ...

الجديد أنهم جاءوا بأعظم فكرة عن الله ... يعبدونه لا يشركون به شيئا ... فلا ابن لله كما يزعم النصارى ... ولا شريك بالله كما يذهب اليهود ، ولا انداد لله كما يزعم الفرس وغيرهم ...

وإنما دعاة توحيد مجرد عن العلائق والشوائب ... وهذا هو أعظم شىء جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ... وتركه فى أصحابه ، فانبعثوا به يفتحون العالم كله من أجله .

شرف ؟ ! والله إنه لأعظم شرف ... وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده ، والله ذو الفضل العظيم !

محاكمة خالد!!

عزل خالد !!

... نحن ندخل الآن إلى أخطر مشكل تثور فيه الخلافات وتتنوع فيه الآراء ... لماذا عزل عمر خالدا عزلا باتا بعد انتصاراته الخالدة على الرومان ؟.

أما الأقصوصة فها كها ... وأما البحث فبعدها ...

سار خالد بن الوليد من شمال الشام إلى أرجاء إرمينية حتى بلغ آمد والرهاء ، فكان في مسيرته يفتتح البلاد ، ويستفيء المغانم ، ويلقى في القلوب ارعب ...

ثم عاد إلى قنّسرين ، تسبقه شهرته ، وقد اجتمع له من الفيء شيء عظيم .

لذلك قصده رجال من الآفاق ، يرجون جوائزه ، فلم يَضِنّ عليهم .

وكان الأشعث بن قيس فيمن انتجعه ، فأجازه بعشرة آلاف درهم !

وكانت الفتنة ... تحدث الناس بفعال خالد بن الوليد بقِلِقّسِيّة وإرمينية مُعجبين ... وذكروا بها خوارقه الجيدة ، وانتصاراته المعجزة بالعراق والشام ...

وتحدثوا بجوائزه ، وأعطياته للأبطال والفقراء ، وبجائزته العظيمة للأشعث بن قيس.

فذكروا بها أريحية ملوك بني غسّان وملوك الحيرة .

وبلغ حديث الإعجاب به ، وخبر هذه الجائزة إلى عمر بالمدينة ، كما كانت مخابراته تنقل إليه كل شيء من أمور ولاته .

وثار عمر على خالد ... وذكر ما كان من خالد إذ كان بآمد من أرض إرمينية ، ودخل حماماً فتدلك بغسْل فيه خمر ، فكتب عمر إليه : « بلغني أنك تدلكت بخمر ، وإن الله قد حرم ظاهر الخمر وباطنه ومسه فلا تمسوها أجسادكم » .

وأجابه خالد : « إنا قتلناها فعادت غَسُولا غير خمر » .

فغضب عمر ورد عليه : « إن آل المغيرة ابتلوا بالجفاء فلا أماتكم الله عليه ! »

ليس هذا هو المهم من الأمر ، إنما الأمر الذي اشتد بسببه الخلاف ، أن عمر كان قد أمره أن يحبس ما يصيبه من المال على ضَعَفَة المهاجرين ، وها هو ذا يجعله أعطيات لذوي البأس والشرف واللسان .

ألا يدل ذلك على أنه لا ينفذ ما أمره به من مراجعته فى حساب المال ، وألا يعطى شاة ولا بعيراً إلا بإذنه ، وأنه مصر على قوله يوم وجه إليه هذا الأمر : « إما أن تدعنى وعملى ، وإلا فشأنك بعملك » ؟!

وقال عمر : « والله ما صدقتُ الله إن كنت أشرت على أبى بكر بأمر فلم أنفذه ! والله لا يلى لى خالد عملا أبداً ! » .

أرأيت إلى الأقصوصة ... أقصوصة الخلاف بين الكبيرين عمر وخالد ... إنه خلاف خطير فى الأمر، يريد خالد أن يكون له حرية التصرف فيما يباشر من سياسة المنطقة التى يتأمر عليها ، ويريد عمر أن تكون هناك مركزية ، تستوجب عرض الأمور كلها عليه ...

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لا يرى خالد بأسا أن يوزع بعض ماله على الشعراء والذين يقصدونه ، ويرى عمر كل البأس والخطر أن يكون ذلك من خالد ، وهو ما هو عليه من مركز قيادى ، يستوجب الابتعاد عن كل معنى من معانى الترف أو ما يقترب منه .

تلك هى القضية ، ونحن لا نخوض فيها مع الخائضين ، أو نتعصب فيها لرأى دون رأى ...

كلا ... ولا نقول الحق مع هذا أو مع ذاك ... فالرجلان فوق الظنون والاوهام .. هذا الفاروق ... وذاك سيف الله المسلول ... رضى الله عنهما ...

وإنما الذى نخوض فيه ، هو ما كان من شدة غضب عمر على خالد ، لأنه جعل من ماله الخاص أعطيات للشعراء ، ولم يجعله فى ضعفاء المهاجرين كما أراد عمر ...

والحق هنا يتلألأ فى يدى عمر ... ما فى ذلك شك ولا خلاف ، ذلك أن عمر يرى أن الرجل الضعيف المهاجر فى سبيل الحق ، أولى بالمال ، وأولى بالعون ، وأولى بالعطاء من أولئك المتصعلكة من الشعراء والمداحين ...

وذلك هو ميزان الحق والعدل ... وهو ما ينبغى أن يكون من قادة الدولة المؤمنة بالله ورسوله ، الجادة فى رسالتها المستقيمة فى أمرها ... فأما أن يتحول المال من الدولة إلى

الشعراء والفنانين والمداحين ، فذلك أمر خطير ، يدل على انحراف قادة الدولة عن الحق والعدل.

هذا رأى عمر ... وهو الحق دائما وأبدا ... فماذا نفيد من ذلك الاتجاه ؟ .

نفيد منه أن أموال الدولة ، أموال الشعب ، لايجوز أبدا أن تنفق فى الكماليات ، مادام هناك ضروريات لم تأخذ حقها بعد .

فلا يجوز أن تنفق الدولة آلاف الجنيهات على الرقص والغناء والموسيقى والفن ، وهناك من أبنائها من لم يتوفر لهم المسكن اللائق ، ولقمة العيش اللازمة ، والكساء اللازم .

إنما مثل الدولة إذا فعلت ذلك ، كمثل صبى أحمق ، يعطيه أبوه قروشا ليفطر بها ، فيترك نفسه جائعا ، ويذهب بالقروش إلى السينما ... ماذا نقول عن ذلك الطفل ؟... نقول عنه مجنون ...

كذلك الدولة التى تعتمد الملايين للعبث ، وهناك فى أنحائها ملايين تنقصهم ضروريات الحياة .

هذا مانفيد من اشتراكية عمر ، حين غضب على خالد ، وعزله عزلا باتا مؤبدا عن مناصب الدولة كلها ،لأنه بدأ يتبحبح شيئا قليلا فى أعطياته للشعراء ... بينما هناك مساكين، وهناك ضعفاء ، هم أحوج مايكونون إلى تلك الأعطيات !.

الحق مع عمر ... وليعزل خالد ... ولتذهب انتصاراته ... ولتذهب عظمته كلها .. وليبق الحق فوق خالد ، وفوق الرجال جميعا .

ماأعظمك عمر !.. وماأعظم نصرك للحق .. تكاد السماء تصفق لك إعجابا ياعمر!.

أمن أجل دريهمات ينفقها خالد على الشعراء من ماله الخاص ، تعزله عزلا أبديا ؟ .

نعم ... وذلك هو عمر ، أعجب آية للعدل قدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البشرية .

محاكمة خالد !.

وكتب عمر إلى أبى عبيدة ، أن يستقدم خالداً ، وأن يعقله بعمامته ، وينزع عنه قلنسوته حتى يعلم : أأجاز الأشعث بن قيس من ماله أم من إصابة أصابها ، فإن زعم أنها من إصابة فقد أقر بخيانته ، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف !.

وأمره أن يعزله على كل حال ، وأن يضم إليه عمله !.

وكتب أبو عبيدة إلى خالد فقدِم عليه ، فلم يذكر له عن كتاب عمر شيئا .

وجمع الناس وجلس لهم على المنبر ...

ثم قام رجل البريد الذى أرسله أمير المؤمنين يسأل خالدا : أمن مالك أجزت بعشرة آلاف أم من إصابة أصبتها ؟ .

ودهش خالد ... ولم يجب ... وكرر رجل البريد السؤال ، فلم يفتح خالد فمه .

وأبو عبيدة جالس على المنبر ساكت ، لايقول شيئا .

وألح الرجل فى السؤال ... وألح خالد فى الصمت ، وقام بلال فقال : إن أمير المؤمنين أمر أن تُعقلَ بعمامتك ، وأن تنزع عنك قلنسوتك ، حتى تجيب عما تُسأل الآن عنه .

وازدادت الدهشة بخالد ، فلم يخرج عن صمته .

هنالك تناول بلال قلنسوته ، ولمّ يديه وراء ظهره ، وعقله بعمامته ، وقال : «ماتقول؟ أمن مالك أم من إصابة ؟» .

ونقف هنا لحظة إجلالا للموقف ... وأدعو البشرية كلها لتقف ، اعظاما للحق ...

خالد بن الوليد ، أعظم قائد عسكرى فى التاريخ ، وسيف الله المسلول ، والقاضى على حروب الردة،وفاتح العراق، وفاتح الشام . والذى يصلح أن يفتح ماشاء الله بعدمن الأقطار... القرش ، الصحابى ، الجليل الشأن ، يعقل بعمامته ، يداه وراء ظهره ، ويهان أشد إهانة ، ويسأل أمام الملأ ، أمام الجماهير كلها .. عن أى شىء سُئل ؟ ... عن حق الجماهير ، الـكادحة ، حق الشعوب ... لماذا أنفقه على الشعراء ؟!

بالقضية ... ياأيها الناس جميعا ... تعالوا واسمعوا ... هذاعمر يزأر كالأسد الثائر من أجلـكم أنتم ، يامن تـكدحون ، وتعرقون ، وتـكافحون ...

أبدا ... ليس من حق خالد أن ينفق الآلاف على الشعراء ...

أبدا ... لن يكون هذا ... لأن هذه الأموال إنما هى نتيجة كدح الـكادحين ، وعمل المـكافحين ، فلايجوز لخالد ، ولامن هو أكبر من خالدأن ينفقها على شاعر !

تلك هى القضية ... وهى تطمس على كل سمو مزعوم فى أى نظام وضعى .

وهى تشع اشعاعاتها العالية على البشر كافة ... أن المال ليس ملكا لأحد دون الآخر، يعبث به كيف يشاء ، وإنما المال للجميع ، لمصلحة الجميع ، ويفرض أن ينفق فى خدمة الجميع، فى صالح الجميع .

فلا ملايين ، ولا آلاف للشعراء ... وإنما الملايين للكادحين للعاملين .

لقد كرمت ياعمر حقيقة الناس ...

ثم ماذا ؟ ... ثم تتجلى عظمة خالد ، صاحب رسول الله ، وتتبدى خلال الموقف الرهيب ..

وكرر بلال سؤاله : أمن مالك أجزت أم من إصابة أصبتها ؟ .

وأجاب خالد : بل من مالى ! .

وأطلقه بلال ... وأعاد قلنسوته ، ثم عممه بيده وقال : « نسمع ونطيع لولاتنا ، ونفخم ونخدم موالينا » .

وكتم أبوعبيدة الأمر عن خالد ... فاستبطأ عمر تنفيذه أمره ... فبعث إلى خالد يستقدمه ، ليبلغه بنفسه مايريد .

وتناول خالد كتابه ، فثارت نفسه ، وذهب إلى أمين الأمة وقال له « رحمك الله ! ماأردتَ إلى ماصنعتَ ؟! كتمتنى أمرا كنتُ أحب أن أعلمه قبل اليوم ! ».

وأجاب أبوعبيدة فى موده : « والله ما كنت لأروعك ما وجدت لذلك بُداًّ . وقد علمت أن ذلك يروعك » .

وجاء خالد إلى المدينة معزولا ... والتقى الرجلان ... وقال خالد لعمر : « لقد شكوتك إلى المسلمين . وبالله إنك فى أمرى غير مجمل يا عمر ! »

فقال عمر : « فأين هذا الثراء ! من أين هذا اليسار الذى تجيز منه بعشرة آلاف ؟! » وجعل يكرر عليه هذا السؤال كلما رآه .

فلما ضاق خالد قال له : « من الأنفال والسُّهمان ، مازاد على الستين ألفا فهو لك » .

وفى رواية . ستين ألفاً فى أيام أبى بكر ، وما زاد عليها فى أيامك ، فإن شئت فهى لك.

انظر ... ما زاد من ثروة خالد عما كانت عليه أيام أبى بكر ، ردها خالد إلى عمر ، إلى الخزانة العامة !

قالوا : « وقوّم عمر عروض خالد بثمانين ألف درهم ، ترك له منها ستين ألفا ، وأخذ العشرين الزائدة فأدخلها بيت المال ! »

وتحدث قوم إلى عمر فى شأن خالد ، وقالوا له : ياأمير المؤمنين ، لو رددت على خالد ماله ؟ . وأجابهم عمر : إنما أنا تاجر للمسلمين ، والله لا أرده عليه أبداً .

هذه هى نظرة عمر إلى موقف الحاكم من أموال المسلمين ، إنه يتجر لهم ، ويزيد أرباحهم من هذه الأموال ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

ما معنى هذا ؟ .. إنما نقتبس من تلك الكلمة مبدءا خطيراً ... هو أن للدولة إذا رأت فى ذلك المصلحة العامة ، أن تحل محل الأفراد والشركات فى مباشرة التجارة لحساب الشعب ، وإنما نأخذ هذا من كلمة عمر « إنما أنا تاجر للمسلمين» ... وعمر هنا يمثل الدولة ، يتكلم باسمها ، فهو يتصرف فى الأموال كأنه التاجر الأمين .

فللدولة فى عهدنا الحاضر أن تتجر باسم الشعب ، ولها أن تدير ما شاءت من أنواع التجارات ، صادرها أو واردها ، أو توزيعها ، أو تسويقها ، إذا رأت فى ذلك تحقيقا للصالح العام .

أقول هذا رداً على أولئك الذين يتنادون أن من الخطأ أن تتدخل الدولة فى شئون التجارة ، بأى أسلوب من الأساليب ، وإنما ينبغى أن تترك التجارة حرة من كل قيد ...

وكيف تترك دولة كالجمهورية العربية المتحدة مثلا التجارة حرة كما يزعمون ... والحال أن هذه التجارة بحكم الظروف التى فرضها الاستعمار علينا ، كانت حكراً بأيدى طبقة الأجانب عن الشعب التى ليست منه فى شىء ؟

كيف تترك وارداتنا وصادراتنا حرة ، وكانت طبقة أجنبية هى المسيطرة عليها ، المحتكرة لها ؟

أو كيف نترك عمليات محصولنا الرئيسى القطن حرة وكانت أغلبها بأيدى حفنة من الأجانب ؟.

إنما كان الواجب أن تنزع الدولة ذلك كله نزعا من أيدى غاصبيه ، وأن ترده فى الشعب ، صاحب الحق الأصيل فيها ، وأن تنوب هى عن الشعب فى التنظيم .

ولا يخرج هذا عن مضمون كلمة عمر الخالدة « إنما أنا تاجر للمسلمين » ...

لقد أبى عمر أن يترك لخالد الذى فتح دولا بأكملها ، وكان سببا فى دخول ملايين الدنانير غنائم فى خزائنها .. أبى عليه أن يترك له ٨٠٠٠٠ درهما قيمها ٧٠٠ دينار ... وصادر مازاد عما كان له أيام أبى بكر ، ورده إلى الخزانة العامة ! .

فلما كلم فى ذلك ، قال : إنما أنا تاجر للمسلمين ، هذا مع من ؟.. مع أعظم قائد من الصحابة ، مع رجل من مؤسسى الإسلام ؟ ... لا مع مجموعة صعاليك من الأجانب والمستعمرين ، فرضوا علينا ، أن تكون تجارتنا بأيديهم ! .

فإذا كان عمر قد رفض أن يترك دريهمات لخالد بن الوليد ، وهو سيف الله المسلول ، فأولى بنا أن نرفض رفضا باتا أن نترك أموالنا نهبا موزعا ، وحكرا ، بأيدى أعداء ديننا ووطننا .

إنما الحياة المال ... فيجب الحفاظ عليه بأيدى الشعب الحقيقى ، ونزعه من أيدى أعداء البلاد .

ذلك أننا لو تركناه بأيدى أعدائه ، اتخذوه أداة لاذلاله ، وعونا على تحطيمه ... وهذا ما كان من هؤلاء الأجانب محتكرى التجارة فى بلادنا ... كانوا عونا الاستعمار حربا على بلادنا .

فالدولة حين تنقل المال من أيديهم إلى الشعب ، فإنما تنقل مركز الثقل من الأعداء الى أصحاب البلاد .

وصدق الله : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم ، التى جعل الله لكم قياماً » .

نعم ... فقوام الحياة المال ... فكيف نعطى قوام حياتنا لأولئك الغرباء ؟ .

الحق فوق الأشخاص ؟

هل كان بنفس عمر شيء نحو خالد ؟

كلا ... إنما عزله اعلاء للحق والعدل ... أما علاقته الشخصية بخالد فعلى خير مايرام !

عاتب خالد عمر يوما فى خلوة ، وأعاد عليه أنه كان فى أمره غير مُجْمِل ، فقال عمر له : « ياخالد ! والله إنك علىّ لكريم ، وإنك إلىّ لحبيب ، ولن تعاتبنى بعد اليوم على شيء أبداً »

أى نفس تلك النفس ياعمر ؟ . إن خالدا عليك لكريم ، وإليك لحبيب ... هذا شيء والحق شيء آخر ... مجبالك ... وكيف تتصرف ؟!

وقطع عمر دابر الفتنة من الأمة كلها ، وأذاع فى الأمصار منشورا : « إنى لم أعزل خالداً عن سخطة ولاخيانة ، ولكن الناس فُتنوا به ، فخفت أن يُوكلوا إليه ، ويُبتلوا به ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وألا يكونوا بعرض فتنة » .

علو آخر يعلوبه عمرفوق ظنون الناس ... إنه يكرم القائد العظيم ، ويثنى عليه ، ويبين أنه عزله لا لشك فى سلوكه ، وإنما ليمنع افتتان الجماهير بفعاله ! .

ومات خالد بعد أربع سنوات من عزله ، ولم يترك من حُطام الدنيا غير فرسه وغلامه وسلاحه .

فلما عرف عمر ذلك من أمره حزن وقال : « يرحم الله أباسليمان ! كان على غير ماظنناه به » .

ليس ذاك وحده ... وإنما خطب عمر الناس بالجابية يوما فقال : « إنى أعتذر إليكم عن عزل خالد بن الوليد ، فإنى أمرته أن يحبس هذا المال على ضَعَفة المهاجرين ، فأعطى ذا البأس ، وذا الشرف ، وذا اللسان ، فأمّرت أباعبيدة » .

وحضرت الوفاة خالدا ... فقال : « لقد حضرتُ كذا وكذا زحفا ، وما فى جسدى موضع إلا وفيه ضربة بسيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم ، وهأنذا أموت على فراشى حتف أنفى كما يموت العَيْر ، فلا نامت أعين الجبناء !».

تلك هى الأقصوصة ... أوبعض الأقصوصة ... ونرى فيها مبادىء ومبادىء ...
فيها أن عمر كان شديد الحساب لولاته ، يصادر مازاد فى أموالهم بسبب تلك الولاية.

وفيها أن عمر أمره ألا يتصرف فى الفىء إلا بعد مراجعته فلم يفعل ، وأن يحبسه على ضعفة المهاجرين فجعله لذوى الشرف واللسان ، فخشى عمر أن يظن الناس أن خالدا أصبح ضرورة لاغنى عنها لانتصار جيوش المسلمين فتصغر أقدار القادة دونه ، وتعظم العقيدة فيه ، فتضعف العقيدة بالله ، ذلك شر إن أصاب الدولة وتأصل فيها فسد أمرها . ولاسبيل إلى استئصال هذا الشر إلا بعزل مصدره ، ولوفى غير جريرة ، فإذا رأى الناس جيوش الدولة لاتزال من بعد مظفرة ، قرت عقيدتهم بالله ، وثقتهم بقوادهم وساستهم ، فكان للدولة والدين الله بذلك كسب لا يقاس عزل رجل بجانبه ، ولوكان هذا الرجل خالد بن الوليد .
ونرى فيها أن عمر كان الحق المتحرك ، لايبالى فى سبيل احقاق مايراه حقا ، أن يحطم أعظم الرجال قدرا ، وأثبتهم إيمانا .

ونرى فيها كثيرا ... ولكن المقام مقام إشارة لاعبارة ...

سياسة عمر بالشام ؟ .

وأصبحت الشام من أقصاها إلى أدناها ، قطرا عربيا يخضع للدولة الإسلامية ، وعمه العدل الذى عم العراق من قبل ..

واستمسك أكثر أهله بمسيحيتهم ، وأدوا الجزية عن رضا وطواعية .

وماالجزية ... وماتلك الدريهمات القليلة ، بجانب الحرية ، والعدل ،والمساواة ،والدفاع عن البلاد إذا هوجمت ؟ .

أين هذا مما كانوا عليه أيام الرومان، من ضرائب باهظة، واضطهاد عقائدى، وتفكك مذهبى ؟

وكان هذا أصدق دليل على أن هذا الاسلام أصلح نظام للانسان أينما كان وحيثما كان.

المجاعـــة ؟!

مبادىء خطيرة جدا ؟!

يا أيها العرب ... الذين يتسولون نظما من هنا وهناك ...

يا أيها المسلمون ... الذين ضلوا عن حقائق دينهم ، فأضلوا أنفسهم ، وأضلوا كثيرا .

ياأيها الناس جميعا ... اعطونى آذانكم ... واسمعوا ...

وأعطونى عقولكم وتفكروا ... وأعطونى قلوبكم واشهدوا ...

هذا عمر ... أشمل وأكمل مثال لتطبيق الإسلام فى التاريخ ... يضع أخطر مبادىء اقتصادية فى الأرض ، مبادىء تعتبر وراء الاشتراكية ، ووراء الشيوعية ، ووراء المثالية ، ووراء الإنسانية...

إذا ماذا تكون تلك المبادىء ياصاح ؟ ... إنها الربانية الآتية من عند الله ، إلى محمد رسول الله ، ثم إلى عمر خليفة رسول الله !..

ما القصة إذا ؟ ... يالها من قصة ! ... فاسمعوا ...

لقد أراد الله تعالى أن يمتحن عمر ، ويمتحن الناس على عهده بالشدة كما امتحنهم بالرخاء لينظر ماذا يفعلون ، ويكشف حقيقة معادنهم أمام العالمين .

لقد امتحن الله تلك الأمة بالرخاء ، ووضع كنوز الأرض بين يديها ، فنجحت فى الامتحان ، وتبدت للعالم كله ، أمانة ، وصدقا ، وزهدا ، ووفاء ، وشكرا لله ...

فأراد ربك أن يمتحنها بالشدة ، وبأقسى أنواع الشدة ، لينظر معدنها من الزاوية السوداء فى الحياة ... تطبيقا لأسلوب الله فى الحياة عموما « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » ..

وقد كان ... فبعد أن ابتلاوا بالرخاء ، بأوسع أنواع الرخاء ، حين جعلهم أعز أهل الأرض ، وأغنى أهل الأرض ، وأكرم أهل الأرض ... ابتلاهم بالشدة ، فى أقصى درجاتها ، بالجوع ثم بالوباء ...

نحن فى أخريات السنة السابعة عشرة ، وهاهو القدر يفاجىء الأمة بهولين عظيمين . المجاعة التى انتشرت فى بلاد العرب من أقصى جنوبها إلى أقصى الشمال ، والتى دامت تسعة

أشهر هلك فيها الزرع والضرع والحرث والنسل ، وأصاب الناس منها أشد الجهد والبلاء ، والهول الثانى طاعون عَمَواس الذى امتد من الشام إلى العراق ، فأفنى الألوف من خيرة المسلمين ، رجالا ، ونساء ، جندا ومدنيين ، حتى ارتاع له عمر ، وارتاع له الناس جميعا أيما ارتياع .

عام الرمادة!

كان سبب المجاعة أن أمسك المطر فى شبه الجزيرة العربية كلها تسعة أشهر كاملة ، وتحركت الطبقات البركانية من أرضها ، فاحترق سطحها ، وكل ما عليه من نبات ، فصارت الأرض سوداء مجدبة كثيرة التراب ، فإذا تحركت الريح سفت رمادا .

لذا سمى هذا العام عام الرمادة ! .

ونشأ عن إمساك المطر ، وهبوب الرياح ، وهلاك الزرع والضرع ، جوع أهلك الناس والأنعام ، فقد فنى الكثير من قطعان الغنم والماشية أو جف مابقى منها ، حتى كان الرجل يذبح الماشية فيعافها لقبحها ، رغم جوعه وبلواه .

من ثم اقفرت الأسواق ، فلم يبق فيها ما يباع ويشترى ، وأصبحت الأموال فى أيدى أصحابها لا قيمة لها ، إذ لايجدون لقاءها ما يسد رمقهم .

وطال الجهد ، واشتد البلاء ، فكان الناس يحفرون أنفاق اليرابيع ، والجُرْذان ، يخرجون مافيها .

كان أهل المدينة أحسن من غيرهم حالا أول العهد بالمجاعة .

فالمدينة حضر ادّخر أهله حين الرخاء ما اعتاد أهل الحضر ادخاره ، فلما بدأ الجد ، جعلوا يخرجون ما ادخروا يعيشون منه .

أما أهل البادية فلم يكن لهم مدخر ، فاشتد بهم الكرب من أول الأمر .

ثم إنهم هرعوا إلى المدينة يجأرون إلى أمير المؤمنين بالشكوى ، ويلتمسون لدى أهلها فتاتا يقيمهم .

وازداد هؤلاء اللاجئون عددا فضاقت بهم المدينة ، واشتد بأهلها البلاء ، فصاروا فى مثل حال أهل البادية جوعا وجدبا .

ماذا صنع عمر ؟

اشتدت المجاعة ... وجىء عمر بخبز مفتوت بسمن ، فدعا رجلا بدويّا فأكل معه ، فجعل البدوى يتبع باللقمة الودك إلى جانب الصفحة .

فقال له عمر : كأنك مقفر من الودك ؟

وأجابه الرجل : أجل ! ماأكلت سمنا ، ولازيتا ، ولا رأيت آكلا له منذ كذا إلى اليوم !.

وقامت بنفس عمر أعتى ثورة يمكن أن تقوم بنفس رجل ... وأقسم ... لايذوق لحما ، ولاسمنا ، حتى يحيا الناس !! .

وظل على هذا العهد حتى أذن الله ، فعاد المطر ، وزال عن الناس الجدب ! .

أول مبدأ خطير ؟!

وعمر حين يقسم ... إنما هو الحق يقسم ... يعاهد الله ألايذوق لحما ولاسمنا ، حتى يعود الناس إلى ما كانوا عليه من الرخاء .

وإذا عاهد عمر ربه ، فإنما هو العهد النافذ الذى يدل على يقظة عمر الشديدة ، وحساسيته البالغة نحو الناس ، وحقهم عليه كحاكم لهم .

قدمت السوق عُكّةٌ من سمن ، ووَطْب من لبن ... فاشتراها غلام له بأربعين درهما .

وذهب إليه الغلام فقال له . قد أبر الله يمينك ، وعظم أجرك .. قدم السوق وطب من لبن ، وعكة من سمن ، فابتعتهما بأربعين .

قال عمر : أغليت ... فتصدقْ بهما ، فإنى أكره أن آكل إسرافا .

وأطرق عمر هنيهة ثم قال : كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسسني ما يمسهم ؟!.

وذلك هو أول المبادىء الخطيرة التي وضعها عمر ، في عام المجاعة ...

ومن هو عمر حين قال هذا المبدأ الخالد ؟ .

هو الرجل الذي يحكم العالم شرقه وغربه بلامنازع ! .

ولو أمكنك الآن أن تتصور الكتلتين الشرقية والغربية يحكمهما جميعا رجل واحد ، بدولها ومقدراتهما وامكانياتهما الواسعة ، لاستطعت أن تتصور مدى السلطة والامكانيات التي كانت بيد عمر ، حين نطق بذلك المبدأ .

لو شاء عمر لعاش في قصور وترف ، وما عابه أحد ، فهو رجل يحكم العالم كله ! .

ولو شاء لتعالى على الناس ، وهو حقيق أن يتعالى ، فإن أحقر صعلوك على الأرض يتعالى فما بال عمر لا يتعالى وقد خضعت له الملوك ؟.

ولو شاء لعاش ولو عيشة مقبولة مما يعيشها أوساط الناس ، إن أراد أن يكون زاهدا ، ولحمد الناس منه ذلك وشكروه .

ولكنه اجتاز كل تلك الأحوال ، وسما فوقها جميعا ، وأقسم قسمه الخالد الحق : لايذوق لحما ولاسمنا حتى يحيا الناس !! .

لماذا ياعمر تحرم على نفسك اللحم والسمن ، وقد أحلهما لك الله ؟ .

لماذا تشدد على نفسك هذا التشديد ؟ .

إنما رسمت بما فعلت دستورا خالدا إلى يوم القيامة للجماهير والملوك ... أنه ينبغي على من حكم الناس ، أن يعاني الآلام التي يعانيها أقل انسان في الناس .

حين جاءك غلامك بسمن ولبن ... وأشار عليك أن تأكل منهما ، مادام في السوق مثلهما ... رفضت ياعمر ... وأطلقتها خالدة : كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسني ما يمسهم ؟! .

وهنا ينبغى أن نقوم جميعا ، فرادى ، وجماعات ، ونتفكر فى قول عمر ... وسوف نجد فيه حلا لمشاكلنا وخلافاتنا ..

إن هناك فى كل آن ، من يجأر بأن الإسلام لايعرف الاشتراكية ، ويحار كثير من المسلمين مما يسمعون ، ويقولون : أين الحق من هذا الخلاف ؟ ..

وأنا أسارع ، وأدخل المعركة ، وأقول لهم : الحق هناك ... مع عمر ... تعالوا ننظر ماذا عن عمر ؟ .

هاهو يقول : كيف يعنينى شأن الرعية إذا لم يمسسنى ما يمسهم ؟ !

مامعنى هذا ؟ ... معناه أن عمر يقرر أن الحاكم عليه أن يعانى بنفسه آلام الشعب ، ويذوق بنفسه تجربة الفقر ، وألم الحرمان .. حتى يستطيع أن يعنى بمشاكل الفقراء ، وأن يحل آلام المحرومين .

لذلك حرم على نفسه أن يأكل شيئا لايأكله كل فرد فى الشعب ، حرم السمن واللحم ، حتى يأكل كل فرد السمن واللحم .

فماذا يؤخذ من هذا ؟ ... يؤخذ من ذلك أن عمر يفرض على أهل الحكم أن يكونوا على مستوى أقل الطبقات فى الشعب ، حتى يذوقوا نفس الآلام التى تعانيها تلك الطبقات ، فيعملوا على ازالة ما منه يشكون .

فالرجل الجائع هو الذى يستطيع أن يحل مشاكل الجوعى .

والرجل الضائق هو الذى يقدر على حل مشاكل الضائقين .

وهكذا ... وهو أخطر مبدأ يطلقه عمر ... وفيه رد على أولئك الذين يعيشون فى القصور بين اللذة والنعيم ، ثم يتكلمون عن مشاكل وآلام الجماهير ! .

هؤلاء كذابون ، لأن الذى يشكو من التخمة ، لن يشعر بالجوع ، والذى يشكو من الترف لن يشعر بالقهر .

وهذا هو حكم عمر فى القضية ، قضية العالم العربى ، فى وقتنا هذا ...

إنه يحكم أن الاسلام يفرض على الأمة أن تأكل كلها ، وتسكن كلها ، وتشرب كلها ، على حد سواء ... لأن هذه ضرورات الحياة ..

فإذا جاعت تجوع كلها ... وإذا أكلت أكلت كلها ...

هذا هو الاسلام أيها المختلفون .

إذا أردت أن تصلح الفقراء ، فأمر عليهم فقيرا ، واعمل على أن يظل فقيرا .

وإذا أردت أن تصلح الجوعى ، فأمر عليهم جائعا ، واعمل على أن يظل جائعا .

عمر يسودّ وجهه !

ونفذ عمر ماعاهد الله عليه ... حتى رآه الناس ، عام الرمادة ، وقد اسود لونه ـ وكان أبيض مشربا بحمرة ـ ذلك أنه كان يأكل السمن واللبن واللحم ، فلما أمحل الناس ، حرمها على نفسه ، وأكل بالزيت ، وأكثر من الجوع حتى كان الناس يقولون ، وقدرأوا ماأصابه لو لم يرفع الله المحل ، عام الرمادة ، لظننا أن عمر يموت همًّا بأمر المسلمين .

واسود وجه عمر ... ونحل جسمه ... وقرقرت أمعاؤه ... من الجوع ...

فليقارن السادة حكام المسلمين أنفسهم الآن ... بما كان عليه عمر فى ذلك الأوان ؟.

كان العرب فى مجاعة ... والشعوب العربية الآن فى مجاعة ... ملايين منها لا تجد ضرورات الحياة ...

وهنالك حرم عمر على نفسه اللحم والسمن ، حتى نحل واسود ، وهنا ورغم تشابه الظرف ،تجد كثيرا من حكام المسلمين لا يحرمون على أنفسهم شيئا من أطايب الحياة ... بل يعيشون فى ترف دونه كل ترف !

ألا إن الاسلام برىء من هؤلاء ... برىء منهم وإن زعموه واعتنقوه وادعوه ... لأن الاسلام تنفيذ وتطبيق ، لا أمانى وادعاءات .

حرام على ملوك المسلمين أن يعيشوا فى القصور ، والأغلبية الساحقة من شعوبهم على التراب .

حرام على ملوك المسلمين أن يتخموا من الملذات ، وغالب جماهيرهم لاتجد الخبز والضرورات .

حرام على ملوك المسلمين أن ينفقوا الملايين فى الجواهر والمتاع ، وشعوبهم تحتاج إلى تلك الملايين لتبنى بها المصانع للعاطلين .

هذا هو منطق عمر ، منطق الإسلام ، منطق الحق يامن تعيشون فى أوهام ! .

لأنتم أشد خطرا على الإسلام من الكفار واللادينيين والشيوعيين والرأسماليين ! .

ذلك أن الناس إذا دعوا إلى الإسلام ، قالوا : وماالإسلام ؟ .. أليس هو مايفعله ملوككم ، وأغنياؤكم ، من مباذل ومفاسد ، وترف ، بينما شعوبكم تئن من الطوى ، وتتوجع من الأمراض ؟ .

فماذا نقول لهم وقد صدقوا فى زعمهم ؟ ...

نقول لهم : كلا ... إنما الاسلام هو عمر ، حين جاع ، وجاع ، وحرم على نفسه السمن واللحم ، حتى يأكلهما كل الناس ... أما هؤلاء فليسوا من الاسلام فى شيء إنما هم ادعياء .

ياغوثاه ! ياغوثاه !

إن رجلا كعمر ، لا يسوس الشعوب سياسة الشعراء ، الذين يقولون ما لا يفعلون ... كلا ، وإنما هو يعمل لرفع المجاعة عن الشعب ما استطاع إليه سبيلا ، وذلك بعد أن يكون هو نفسه مثالا حيا للشعب كله ...

جاع عمر ، وحرم على نفسه الملذات طول المجاعة ... ثم انطلق يصدر أوامره إلى نوابه على الأقطار .

كتب إلى عمرو بن العاص بفلسطين يقول : «سلام عليك ! أما بعد ، أفتراني هالكا ومن قبلي ، وتعيش أنت ومن قبلك ! فياغوثاه ! ياغوثاه ! ياغوثاه !.

عمر يتفجع ، ويتوجع ، ويستنجد ... لا لنفسه ، كلا وإنما للشعب ، للجائعين .

وأجابه عمرو : « أما بعد ، فلبّث لأبعثن إليك بعير أولها عندك وآخرها عندى »

انظر ... تجاوب ، تفاعل ، كل إنسان يتألم لما يصيب الآخر ... عمر يستغيث ، وعمرو يستجيب فورا . تماما كالجسد الواحد ، إذا اشتكى عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسهر ...

ليس كمثلنا الآن .. يجوع قوم بيننا .. فيقول الآخرون: وما لنا وهؤلاء .. حسبنا أنفسنا .

لم يكونوا كذلك ، وإنما كانوا سباقين إلى الخير ، سباقين إلى اغاثة الملهوف .

وبعث عمر بمثل هذا الكتاب إلى معاوية بن أبى سفيان ، وأبى عبيدة بن الجراح بالشام ، وإلى سعد بن أبى وقاص بالعراق .

فأجابوه جميعا ، بنحو مما أجاب به عمرو بن العاص ...

كل أعضاء الجسم تستجيب لنجدة أى جزء يصاب أو يحتاج من الجسم ... تماما كما شبههم رسول الله ... مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد ...

القرى قبل العواصم !

وكان أبو عبيدة بن الجراح أسرع الأمراء استجابة لنداء عمر ، وغياثا لأهل شبه الجزيرة .

سبقهم جميعا ، فقدم فى أربعة آلاف راحلة محملة طعاما .

فولاه عمر قسمته فيمن حول المدينة .

فلما فرغ من ذلك أمر له عمر بأربعة آلاف درهم .

فقال : لا حاجة لى فيها يا أمير المؤمنين ! . إنما أردت الله وما قبله ، فلا تدخل علىّ الدنيا !.

ماهذا يا أبا عبيدة ! ... أين لصوص الشعوب والجماهير ، ليتعلموا من جميل فعالك ؟ .

فأجابه عمر : خذها ، فلا بأس بذلك إذلم تطلبها ، وإنى قدوليت لرسول الله مثل هذا فأعطانى بعد أن قلت له مثل ما قلت لى .

وقبض أبوعبيدة المال ، وانصرف إلى عمله . وهذا مبدأ آخر خطير ... إن عمر يقرر أن على الدولة أن تدفع أجرا إلى من يعمل لها ،وعلى من يعمل أن يأخذ ذلك الأجر ويستمتع به لأنه حل له .

فعل هذا عمر ، وفعله أبو عبيدة ، اقتداء بفعل رسول الله .

ولاينقص ذلك من أجر العامل عند الله ...

ومن هنا نشتق قاعدة المهايا والأجور للعمال فى الدولة .

إنهم يؤدون أعمالا عامة ، ويأخذون أجورا عامة من خزانة عامة .

ومن هنا ندرك كيف كانوا يهتمون بأهالى القرى قبل أهالى المدن والعواصم .

ويطعمون البعيدين قبل الأقربين ... وأن ذلك كان سياسة عامة من الدولة تتبعها فى شأنها كلها .

وهذا علامة الحكم الصالح ، أنه يمد الخدمات العامة إلى القرى قبل العواصم ، حتى يطمئن الأبعدون أن حقهم واصل إليهم قبل المتمركزين فى العواصم .

والعكس تجده فى الحكم الفاسد ... تجد العواصم زاهرة ، عامرة ، تستمتع ، بينما القرى ميتة لاأثر فيها لحياة أو إصلاح !

الدولة ملزمة باطعام الجميع !

وبعث عمرو بن العاص الطعام من فلسطين على الإبل ، وفى السفن من ثغر أيلة (العقبة حاليا) . بعث فى البحر عشرين سفينة تحمل الدقيق والوَدَك ، وبعث فى البر ألف بعير تحمل الدقيق .

وبعث معاوية بن أبي سفيان ثلاثة آلاف بعير من الشام .

وبعث سعد بن أبي وقاص ألف بعير من العراق تحمل كلها الدقيق .

هذا خلا خمسة آلاف كساء أرسلها عمرو ، وثلاثة آلاف عباءة أرسلها معاوية .

امدادات سريعة ، تتوالى لنجدة الجزيرة العربية الجائعة ... وهكذا كانوا ، يغيثون بعضهم بعضا . .

فماذا كان مسلك عمر إزاء هذه الامدادات ؟ .

أصدر أمرا بتعيين وزير للتموين يشرف على توزيع الامدادات على أهل الأمصار والبادية ...

ثم ماذا ؟ ... ثم أشرف بنفسه على إطعام أهل المدينة ومن وفد إليها ! .

وقد يقول قائل : وهل اطعام الطعام أمرمهم حتى يباشره رئيس الدولة بنفسه ؟ .

وأقول . نعم ... إنه أمر انساني ... شعب جائع ، فإذا رأى رئيسه يطعمه بنفسه ، قرت عينه ، واطمأن قلبه ، وانشرح صدرا .

وكأين من أمر يعتبره الناس شيئا تافها ، وهو خطير الأثر في نفوس الشعوب .

وانصرف مندوبوه ، إلى أرجاء شبه الجزيرة يخففون عن الناس بلواهم .

فالتقى المندوبون مابعث به سعدبن أبي وقاص من الأقوات عند أفواه العراق ، فاقاموا ينحرون للناس الجُزُر ، ويطعمونهم الدقيق ، ويلبسونهم العَبَاء ، حتى رفع الله البلاء .

اللحم ، والدقيق ، والملابس ... الغذاء والكساء ، تلتزم به الدولة ازاء الجماهير ... ضرورات الحياة .

وقال عمر لمندوبه الذى بعثه يلقى عير الشام : « أما مالقيت من الطعام فمل به إلى أهل البادية. فأما الظروف فاجعلها لُحُفا يلبسونها، وأما الإبل فانحرها لهم يأكلون من لحومها ، ويحملون ودكها ، ولاتنتظر أن يقولوا ننتظر بها الحيا (المطر) . وأما الدقيق فيصطنعون ، ويُحرزون حتى يأتى أمر الله بالفرج ».

أما عمر فقد تولى إطعام أهل المدينة ومن اجتمع إليهم بنفسه ... فكان يأدم الخبز بالزيت يجعله ثريدا ، وينحر بين الأيام الجزور فيجعلها على الثريد ، ويأكل مع القوم مما يأكلون !.

اشهدى أيتها الدنيا ماذا يفعل عمر ... حاكم الأرض كلها ؟ .

يعد الطعام للجماهير ، ثم يجلس معهم ، ويأكل مما يأكلون !

وجها لوجه ... الحاكم والشعب ... ليس هناك حجب ولاعوائق ولاموانع ... وإنما الجميع فى المعركة ، وفى التجربة ...

وهذا أعلى أنواع الحكم ، وأرفع أنواع الديموقراطيات ! .

فكم تتعرض الدول لكوارث الفيضانات أو الزلازل أوالبراكين ، مما يؤدى إلى تشريد السكان وجوع المصابين ، فما علمنا أن رئيس الدولة يذهب بنفسه إلى الكارثة ، ويحرم على نفسه ملذات الحياة حتى ينعم بها المصابون !

ولكن عمر ... ذلك الذى تخرج على يدى رسول الله ... يضرب للانسانية كلها أروع الأمثال ... ويعلمها أرفع أنواع الديموقراطية ، حين يمتنع عن تناول كل صنف ليس فى متناول كل الشعب ، وحين يعد الأطعمة بنفسه ، ويجلس وسط الجماهير يأكل معها ! .

أسرة واحدة ، وهذا أبوهم ، يأكل معهم ! .

ماأسعد الشعب بعمر ، وماأسعد عمر بالشعب ... إن هذا لهو الإسلام ! .

فلما أقبلت الابل من العراق والشام ، كان ينحر على مائدته كل يوم عشرين جزورا ، يطعمها الناس .

وكان لهرجال مخابرات ، يجتمعون عنده إذا أمسوا ، فيخبرونه بكل مارأوه يومهم . يريدعمر أن يعرف الحالة على الطبيعة ، ربما هناك جياع لم يلتفت إليهم ، أوعراة لم يهتم بأمرهم ! .

إحساس بالمسئولية فوق الاحساس نفسه ! ..

احصائيات و بطاقات؟!

يظن كثير من الناس أن الإحصاء ونظام البطاقات شيء من مستحدثات عصرنا الحديث .

وإلى هؤلاء نقدم الدليل على أن عمر قد استعمل ذلك النظام أدق استعمال .

وأمر عمر ليلة بعد أن فرغ الناس من العشاء بإحصاء الذين طعموا على موائده فكانوا سبعة آلاف رجل .

وأحصيت العائلات التى لم تأت ، والمرضى ، والصبيان ، فكانوا أربعين ألفا .

وزاد هؤلا وأولئك بعد أيام .. فكان الذين تعشَّوا عنده عشرة آلاف ، والآخرون خمسين ألفا .

وكان العمال يقدمون فى السَّحر إلى قدور عمر ، فيعملون حتى يصبحوا ... ثم توزع العصيدة ويوزع اللحم على المرضى والصبيان والأمر ممن لا ينالون طعامهم على موائد أمير المؤمنين !

هذا هو الإحصاء فى عهد عمر ... دقة متناهية ... وصورة حقيقية لواقع الناس ... لا تجد فيه تلك الإحصائيات الخيالية التى يقدمها كثير من حكام هذا العصر إلى شعوبهم ، ليخدعوهم بها ، ويموهوا عليهم حقيقة الدولة الاقتصادية .

وأكثر من ذلك ... كان عمر يتعهد هؤلاء جميعاً بنفسه ليطمئن إلى أنهم حصلوا على ما يدفع عنهم متاعب الجوع .

هذا هو عمر أيها الناس ... صدق ونظام وعدل ...

ورب قائل يقول : وأين إذاً نظام البطاقات الذى زعمت فى عهد عمر ؟ .

قالوا : وكان عمر يرسل الدقيق والتمر والأدم إلى منازل القادرين على تهيئتها ، لغذائهم شهراً بشهر .

يوزع ذلك عليهم فى نظام يشبه نظام « البطاقات » أيام الحروب فى عهدنا الحاضر .

يزيد فيه وينقص منه على قدر ما عنده ! :

أرأيتم ؟ . شهر بشهر ... يزاد وينقص حسب كمية الموجود بخزائن الدولة ! .

روعة والله يا عمر . . وأي روعة ؟ .

أخطار مبادىء الاشتراكية ؟

وفي خلال تلك المعركة ... معركة الجوع ... قال عمر : « لو لم أجد للناس ما يسعهم ، إلا أن أدخل على أهل كل بيت ، عِدَّتهم ، فيقاسموهم أنصاف بطونهم ، حتى يأتي الله بالحيا (المطر) ، فعلت ، فإنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم » ! !

تلألأ يا عمر تلألأ ... تلألأ واسطع على آفاق الأرض ، في عصر الذرة ، عصر الفضاء . . ليعلم أولئك المجانين ، أنك قررت أخطر المبادىء الاشتراكية قبل أن يكونوا في الوجود .

وسوف أفصل كلماتك الغاليات تفصيلا ، حتى يوقنوا أنك أنت الأعلى .

« لو لم أجد للناس ما يسعهم إلا أن أدخل على أهل كل بيت عدتهم فيقاسموهم أنصاف بطونهم » ...

عمر يقرر ، وقراره هنا كالقرار الجمهوري في هذه الأيام ، أنه إذا لم يجد كل فرد في الشعب ما يكفيه من القوت ، لأصدر أمره بإلزام كل أسرة أن تطعم مثل عددها ! .

الأسرة التي عددها خمسة ، ملزمة باطعام خمسة .

والتي عددها سبعة ، ملزمة باطعام سبعة ...

وهكذا ... لماذا ؟ .. ليقاسموهم أنصاف بطونهم ؟ !

مبدأ خطير جداً منك يا عمر ... إنه يريد أن يقتسم كل فرد جائع نصف بطن الشبعان .

يالها من فلسفة ... لا تصدر إلا من إشعاع رباني !

حتام هذا يا عمر ؟ . . حتى يأتي الله بالحيا ؟ . . حتى تنقضي المجاعة ، وتأتي الحياة الطبيعية ، ويجد كل إنسان ما يكفيه كما كان .

ثم يعلل عمر حكمه الخطير فيقول : « فانهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم » ؟ !
صدقت يا أصدق قائل .. فانه لن يموت إنسان إذا أكل نصف الطعام الذى تعوده ..
بل على العكس يزداد قوة . . . فكأنك يا عمر تضرب عصفورين بحجر ، تعفى الشبعان من أضرار الشبع ، وتنقذ الجوعان من أضرار الهزال .
ومتى تقاسم الاثنان بطنا واحدة ، استقامت الحياة لكليهما .
أفيلسوف أنت ياعمر ؟ ... كبرت كلمة تخرج من فمى ، إن أقول إلا كذبا ! ...
ما كان عمر فيلسوفا ، لا ولا شاعرا ، لا ولا خياليا ، وما الفلسفة ، وما الشعر ، وما الخيال ؟... أوحال كلها وظلمات ... وأوهام وظنون وافتراضات ... ولكنك أنت نور ، يقبس من نور محمد ، من نور الله ...

فأطلقتها ياعمر ، فيها جمال الحق ، وكمال العدل.. .ومازالت تدوى، وتدوى ،فى الآفاق.
هل سمع العرب ، هل سمع المسلمون ، هل سمع الغرب والشرق؟.. إن عمرقة لاتدانى
ماذا يستنبط من ذلك المبدأ ؟.
نستنبط منه أن الدولة لها أن تسوس الشعب بما يحقق العدالة بين أفراده جميعا .
ولها أن تنزع من كل فرد نصف ضروراته ، وتردها فى الفقراء والمحتاجين إليها ، لتحقق التوازن بين الجميع ... إذا كان الشعب فى مجاعة !

وأنه حرام أن يركب قوم السيارات الخاصة ، ويسكنوا الشقق الفاخرة ، وينفقوا فى سهراتهم أموالا طائلة ، وهناك قطاعات من شعبهم لا تجد ضرورات الحياة .

إن الإسلام يفرض على الدولة أن تصدر فورا أوامرها ، بالاستيلاء على مازاد عن ضروراتهم ، ورده فيما نقص من ضرورات سواهم .
وأن الإسلام لا يعرف شيئا اسمه الحرية الفردية إذا تعارضت هذه الحرية مع مصلحة المجتمع .
فمصلحة المجتمع فى نظره هى الحد الذى ينبغى أن تنتهى عنده حرية الفرد .

فإذا كان الإسلام يبيح التملك للفرد ، فإن هذا التملك يجب أن ينتهى عند النقطة التى تبدأ منها المصلحة العامة .

وأن هذا المبدأ الذى أطلقه عمر ، هو مبدأ اسلامى بحت،لأن عمريتكم بفهم اسلامى ، وهو أوضح صورة للتطبيق الإسلامى الصحيح .

ليتنا نكتب تلك الجملة الخالدة عن عمر فى لافتات عريضة ، ونعلقها فى المدارس ، والجامعات ، وأفواه الطرق ، وفى كل مكان ، ليعلم الشعب الأعمدة الخالدة من عدالة الإسلام .

الأمة كلها تلتجىء إلى الله ؟

عظمة هذا الإسلام ، أنه نظام دنيوى ، يرتكز على أساس سماوى ...
وحياة بشرية ، متصلة بخالق الحياة نفسه ! .

فليس الإسلام مادة جافة قاحلة منقطعة عن خالق الوجود ، كما هو الحال فى النظام المادى .

ولا هو إحصاءات وارقام وبيانات . كما هو الحال فى النظام الاقتصادى الغربى ، كلا ... وإنما هو اقتصاد ومادة ، حية متحركة ، تأخذ حياتها ، وحركتها من الله الحى الذى لا يموت .

ودائما وأبدا تعتبر الشجرة الخضراء الضاربة بأصولها فى الأرض ، السامقة بفروعها فى السماء ، أجمل وأفضل وأبهى من الأعواد الجافة ، المقتلعة من الأرض ، هشيما تذروه الرياح .

تلك تمثل الحياة فى بهجتها ... وهذه تمثل الموت فى كآبته ...
كذلك الاسلام إذا قورن بتلك النظم السائدة فى أنحاء العالم الآن .

هو الشجرة الخضراء المتصلة بمصدرها وخالقها .. أما تلك النظم فمجرد أعواد جافة لا صلة بينها وبين الله مصدر الوجود والحياة .

وسوف نرى الآن أبهج صورة من صور اشتراكية عمر ، اشتراكية الاسلام ، وأنها نظام حى ، يستمد حياته من قيوم السماوات والأرض .

بذل عمر ماهو فوق طاقة البشر ، فى دفع المجاعة عن شعب الجزيرة العربية .

إلا أن المقادير كانت فوق طاقة الرجل ... ففشا المرض فى الناس ، وهلك منهم كثيرون .

فكان عمر يتعهد المرضى بنفسه ، ويبعث بالأكفان لمن مات ، ويصلى عليهم .

وقد استطاع خلال الأشهر التسعة التى قاسى الناس فيها هول الكارثة أن يخفف منها ماقدر أمراء الأمصار على إمداده .

فلما قصرت مواردهم ازداد فى شبه الجزيرة المرض والموت ، وبلغ الهول منهم أشده .

كان عمر ، رأس الدولة ، طيلة الأشهر التسعة يصلى بالناس العشاء ، ثم يدخل إلى بيته ، فلايزال يصلى حتى آخر الليل ، يضرع إلى الله ألا يجعل هلاك الأمة على يديه .

فلما اشتد الهول عزم عمر على أن تخرج الأمة كلها تجأر إلى الله ، فى وقت واحد .

وقرر عمر أن يستسقى ... وكتب إلى نوابه فى الأمصار ، أن يخرجوا بالناس فى يوم عينه لهم ، وأن يتضرعوا إلى ربهم أن يرفع البلاء عنهم .

وفى الوقت المحدد للجميع ، خرج عمر بالناس، إلى الصحراء، وعليه بُرْد رسول الله...

فلما انتهى إلى المصلَّى ، صلى ، وصلى الناس ، وتضرع وتضرعوا ، وجأر إلى الله وجأروا ، وألح فى الدعاء وألحوا ...

وبكى عمر بكاء طويلا بين يدى ربه ، وبكوا ...

كان العباس بن عبدالمطلب قائما إلى جنبه ، فأخذ عمر بيده ، ورفع رأسه إلى السماء وقال : « اللهم إنا نستشفع بعم رسولك إليك ! » ...

ودعا العباس ربه ، وبكى العباس بين يدى ربه ...

منظر خالد ... أمة تخرج بأكملها إلى الفضاء ، وعلى رأسها أميرها ... تجأر إلى الله وتجأر ، وتبكى وتتضرع ...

ماهذا ؟ ... هذا هو الفارق بين النظم المادية ونظام السماء ...

أو بين نظم الموتى ونظام الأحياء .

وهذا مايجعلنا نتشبث بنظامنا ، نظام الاسلام ، ونعض عليه بالنواجز ...

لأنه بعد أن يقدم لنا أكمل نظم ، اقتصادا واجتماعا ، يبقى على صلتنا بالله الذى خلقنا ، تلك الصلة التى هى أثمن مافى الحياة ، والتى إذا انقطعت فقد الإنسان أعز ما فى كيانه .

ففى الوقت الذى عالج فيه عمر المشكلة الاقتصادية التى عرضت له أبرع علاج ، نجده يسارع ومن ورائه الأمة كلها إلى الله ، يدعوه ويسأله ، ويبكى بين يديه ، أن يرفع القحط عن البلاد .

وهذا هو الكمال الاجتماعى الذى يجعل الحياة جنة وارفة الظلال ...

دنيا ودين ، انسانية وربانية ، مادية وروحية .

ادعونى استجب لكم

اخترقت أدعيات المؤمنين اجواز السماء ، وارتفعت إلى الله العظيم ، وعلم الله صدقهم فى التجائهم ، فاستجاب لاضطرارهم ، وانفتحت أبواب السماء بماء منهمر ، وسيول دافقة ...

فاهتزت أرض الجزيرة العربية ، وربت ، واخضرت ، وارتفع البلاء عن الناس .

فاصدر عمر أوامره بإجلاء الاعراب الذين قدموا المدينة بسبب المجاعة ... وجعل يسير بينهم يقول : أخرجوا ! أخرجوا ! الحقوا ببلادكم .

ورحل الأعراب إلى باديتهم ، وعادوا إلى مألوف حياتهم...

ينظر الماديون إلى ذلك الأسلوب ، حين خرج عمر ومعه الشعب كله يدعو الله سبحانه ، ينظرون إلى ذلك نظر المستهزىء ، لأنهم لايعترفون بإله ، وبالتالى لايعترفون بأى شىء يتعلق بهذا الإله ! .

وهذا مايجعلنا دائما شديدى الاستمساك بتوجيه الاسلام .

وقف تحصيل الزكاة ؟

ثم ندخل إلى مبدأ آخر خطير يقرره عمر ... ذلك أنه لم يبعث جباته عام الرمادة ليقبضوا الزكاة ، بل أخرهم إلى أن ارتفع الجدب .

فلما اطمأن الناس إلى العيش ، وكثرت عندهم مادته ، أمر الجباة أن يسيروا إليهم ، وأن يأخذوا من كل قادر حصتين .

حصة عن عام الرمادة ، وأخرى عن العام الذى بعده .

وأن يقسموا إحدى الحصتين على المعوزين ، ويقدموا عليه بالثانية .

وبذلك زاد فى تخفيف الفقر عن الفقراء ، ثم لم يرهق غيرهم ، ولم يحملهم ما لاطاقة لهم به .

وهذا مبدأ آخر يضيفه عمر إلى مبادئه العديدة فى سياسة الدولة ... أنه لا ضريبة إذا نضب معين الضريبة ، ولا زكاة إذا جف الضرع والزرع واستحال الأداء .

وهذا المبدأ هو ما يمضى مع العدل والرحمة ، إذ لا يعقل أن تحصل من الناس ضريبة عن رأسمال هلك وذهب ! .

وهكذا كان عمر حاكما رءوفا بشعبه ، يحس ما يحسون ، ويألم كما يألمون .

ينبوع عبقرية عمر ؟

كان عمر يستن بسنة رسول الله حين حرم على نفسه الملذات رغم قدرته على الاستمتاع بها ، وحين عاش على مستوى أقل طبقات الشعب رغم مقدرته على اغراق نفسه فى الأطايب ... ذلك أن عمر يذكر من أعماق فؤاده أنه دخل يوما على رسول الله ، حين هجر نساءه فوجده ينام على حصير قد أثر فى جنبه ، ويذكر مواقف أخرى كثيرة كانت من رسول الله ، دليلا على أنه آثر العيش القليل على الترف الكثير . فاتخذ عمر من رسول

الله له إماما ، وسار نهجه ، فكانت أحواله تلك التي مازالت تتغنى بها القرون ، امتدادا طبيعيا للاسلوب النبوى فى الحياة ! .

فالمسألة مسألة عقيدة مستقرة فى قلب الرجل ، تحركه نحو الأسمى دائما ...

كذلك الشعب ، ليس مسلك عمر وحده هو الذى جعله يلتف حول زعامة عمر ...
كلا ، فقد كان شعبا تربى على يدى رسول الله ، وتعلم أن تصرفاته يجب أن تكون فى حدود ما أمر الله .

وهذا هو المنبع الذى استقام منه عمر ، واستقامت منه الجماهير على عهده ...
وهى الزاوية التى يجب أن يركز عليها الباحثون حين يبحثون عن عظمة هؤلاء الناس .

زاوية العقيدة التى كانت تأخذ عليهم أفكارهم ، وتوجههم حسبما شاءت .

الطاعون؟!

مضت المجاعة بآثارها المخيفة ... فأنزل الله بلاء آخر على المسلمين ، يختبرهم به كما اختبرهم بالمجاعة !

فقد فشا الطاعون فى عَمَواس من أرض فلسطين ، ثم انتقلت عدواه إلى الشام ، فجعل يفتك بكل من يصابون به فتكا ذريعا .

لم يكن الواحد منهم يطعن حتى يدركه الموت .

وطال الوباء شهورا ، هلك أثناءها من المسلمين خمسة وعشرون ألفا بالشام وحدها .

وكان منهم أبو عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، ويزيد بن أبى سفيان... وغيرهم كثير.

وانتشر الوباء فى العسكريين كما انتشر فى المدنيين على حد سواء .

أفرارا من قدر الله ياعمر ؟

وكان عمر قد نوى الذهاب إلى الشام ، تفتيشا وتنظيما لشئونه، بعد ماتم فتحه من أقصاه إلى أدناه ،

وسار من المدينة، حتى إذا بلغ سرغ على مقربة من تبوك لقيه أمراء الأجناد ، أبو عبيدة ابن الجراح ، ويزيد بن أبى سفيان ، وشرحبيل بن حَسَنة ، فأخبروه أن الأرض سقيمة ، وقصوا عليه الطاعون وشدة إصابته .

وجمع عمر المهاجرين الأولين يستشيرهم : أيتابع طريقه إلى الشام مع مافيها من وباء أم يعود أدراجه إلى المدينة ؟

واختلف رأيهم ، فمن قائل : خرجت لوجه تريدفيه الله وما عنده ، ولا نرى أن يصدك عنه بلاء عرض لك ،

ومن قائل : إنه لبلاء وفناء ما نرى أن تقدم عليه .

واختلف الأنصار ، كما اختلف المهاجرون .

وعندما كثر الخلاف ، جمع عمر مُهاجِرة الفتح من قريش فاستشارهم ، فلم يختلف عليه اثنان ، بل قالوا جميعا : ارجع بالناس فإنه بلاء وفناء .

وأمر عمر فنادى ابن عباس فى الناس ليعدوا رواحلهم متى أصبحوا .

فلما صلوا الصبح التفت عمر إليهم وقال : « إنى راجع فارجعوا » .

لم يكن أبو عبيدة حاضرا مشاورات عمر ، وما انتهى إليه من رأى فلما عرف ذلك قال له : « أفرارا من قدر الله ياعمر ؟ ! » .

ونظر عمر طويلا إلى أبى عبيدة ثم قال : « لو غيرُكَ يقول هذا يا أبا عبيدة ! نعم ! فرارا من قدر الله إلى قدر الله ! » .

وبينما الناس فى هرج من هذا الشأن ، أقبل عبد الرحمن بن عوف ، فلما أخبروه الخبر قال : عندى من هذا علم ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فرارا منه » .

وفرح عمر بهذا الحديث وقال : الحمد لله ، انصرفوا أيها الناس !

وعاد عمر ومن معه إلى المدينة ... وعاد أمراء الأجناد ومن معهم إلى أعمالهم .

تلك هى الأقصوصة ... فأين الحق من الاتجاهين ؟

الحق مع عمر ، أم مع أبى عبيدة ؟ .

الواقع أن الحق مع عمر ، وآية ذلك أن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى ما ذهب إليه عمر ...

فهو يدعو الناس ألا يقدموا على الوباء ، وألا يخرجوا من بلد وقع فيه ...

وهو التوجيه الذى سبق اتجاه العصر الحديث إلى الحجر الصحى فى حالة الأوبئة ...

وبذلك سبق محمد صلى الله عليه وسلم كل نظام ، وكل علم وصل ، أو يصل إليه إنسان!

هذا أمر مقرر معلوم ... لا نبدىء فيه ولا نعيد ... وإنما نحن بسبيل تلك القضية ... قضية اختلاف أصحاب رسول الله فى أمر الوباء ، فمن قائل بالعود ، ومن قائل بالمضى رغم ما وقع من وباء ! .

ثم عرض عمر الأمر عليهم، واختلافهم فيه، ثم نزولهم فى النهاية على رأى من الآراء، ثم ازدادوا ثقة بذلك الرأى حين علموا فيه حديثاً لرسول الله !

ما هذا ؟... هذا أسلوب الشورى فى الإسلام، إذا عرض للحاكم أمر عرضه على أهل الرأى، حتى يهديه الله فيه إلى أحسن الآراء .

فان وجدوا رأياً لرسول الله فى الأمر، وجب الأخذ به، وإلا اجتهدوا رأيهم .

وهذا نموذج للحرية العقلية عندهم، يتناقشون، ويختلفون، وكلهم يريد الخير العام، والخير للجميع .

حتى إذا أخذ الحاكم برأى، وجب نزول الجميع عليه، المعارضون والمؤيدون .

ثم ماهذا الذى كان من أبى عبيدة .. حين قال لعمر : « افراراً من قدر الله ياعمر؟ »، وهذا الذى كان من عمر حين أجابه : « لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة، نعم فراراً من قدر الله إلى قدر الله » ... ثم أردف عمر : « أرأيت لو أن رجلا هبط وادياً له عُدوتان إحداهما خصبة، والأخرى جدبة، أليس يرعى من رعى الجدبة بقدر الله، ويرعى من رعى الخصبة بقدر الله ؟! » .

ما هذا الذى كان بين العملاقين، الفاروق وأمين الأمة ؟

إنه حوار خالد، يكشف عن عبقرية عمر، وإيمان أبى عبيدة .

أما عمر فيرى أن الإنسان يستعمل عقله فيما يعرض له من أحداث، ويأخذ بما يهديه إليه عقله، وهو فى أخذه ذلك إنما فرَّ من قدر الله إلى قدر الله .

وهى لعمرى عبقرية فذة لك يا عمر ... وأروع تحليل لتلك المشكلة، مشكلة القدر، التى أنفقت البشرية عمرها تتجادل فيها، وستظل تتجادل إلى يوم القيامة ... عبقرية نادرة، وعقلية عجيبة ... أن تقول ... فرارا من قدر الله إلى قدر الله ... إن كل ما يجرى فى الكون قدر الله، فأنا حين آخذ باتجاه وأترك اتجاهاً آخر، إنما أنتقل من قدر إلى قدر !! .

وأما أبو عبيدة فيريدها إيمانا وتسليما ، وإقبالا على الله وتفويضا !

وهكذا نجد الحق دائما مع عمر ، يجريه الله على قلبه ولسانه ..

وهذا الذى يراه الفاروق ، هو ما ينبغى أن تتأقلم الشعوب العربية والإسلامية عليه ، فى هذه المرحلة من حياتها ، مرحلة الانطلاق نحو البناء والتعمير . ينبغى أن تعد لكل شىء عدته ، وأن تدبر أمرها وفق أحسن أنواع التفكير ، وأحكم أساليب السياسة . . . وتعلم بعد ذلك أن ما فعلت هو قدر الله ، وأن الله أمر بالتدبر والتفكر وحسن السياسة .

وهو ما ينبغى أن يكون عليه ساستنا وولاة أمورنا ، من عمق فى التفكير ، وبراعة فى التدبير .

أمات أبو عبيدة ؟!

وعاد عمر إلى المدينة ... وكتب إلى أبى عبيدة : « أما بعد ، فانى قد عرضت لى إليك حاجة ، أريد أن أشافهك فيها ، فعزمت عليك إذا نظرت فى كتابى هذ ألا تضعه من يدك حتى تقبل إلىّ » .

وتلا أبو عبيدة الكتاب ... وأدرك أن عمر يريد أن يستنقذه من الوباء ... وأن يحتفظ به حياً ليخلفه فى إمارة المؤمنين ...

إلا أن أبا عبيدة كان أسمى من ذلك كله ، كان يرى أن القائد ينبغى عليه أن يبقى مع جنوده فى السراء والضراء ، يعانى ما يعانون ويألم كما يألمون ... فقال : يغفر الله لأمير المؤمنين .

ثم كتب إلى عمر : « إنى قد عرفت حاجتك إلى ، وإنى فى جند من المسلمين لا أجد بنفسى رغبة عنهم ، فلست أريد فراقهم حتى يقضى الله فى وفيهم أمره وقضاءه . فحللنى من عزمتك يا أمير المؤمنين ودعنى فى جندى » .

وقرأ عمر هذا الكتاب ... فبكى .. فسأله من حوله : أمات أبو عبيدة ؟!.. فأجاب ودموعه تسيل : « لا ... وكأن قد » .

أرأيت ؟ ... كيف تسمو نفس أبى عبيدة ، فلا يرى أن يترك جنوده فى الطاعون وحول ناره ، ويذهب ليجلس حول أمير المؤمنين بالمدينة .

أين هذا الفعل مما يكون من كثير من قادة العصر الحديث ، حين يجبنون عن المعارك ، ويدفعون إليها الشعوب ، وهم فى قصورهم يلعبون !

لـكن أبا عبيدة ليس كذلك ... إنه يريد أن يموت بالطاعون كما يموتون !

إخلاص ، حب ، واجب ، تضحية ... كذلك كانوا .

ومات الرجل الثانى !

قرأ عمر كتاب أبى عبيدة ... فبـكى ...

وشاور أهل الرأى فى الوسيلة التى ينقذ بها أهل الشام من الطاعون ...

ثم كتب إلى أبى عبيدة : « إنك أنزلت الناس أرضاً عميقة ، فارفعهم إلى أرض مرتفعة نزهة » .

وإن أبا عبيدة ليفـكر فى تنفيذ هذا الأمر ، إذ طُعن فمات !

ولقى أمين الأمة ربه راضياً مرضياً عنه ... مطعوناً ... شهيداً بين جنوده ، وأصحابه ، الذين أحبهم وأحبوه ، وأخلص لهم وأخلصوا له .

مات أبو عبيدة الرجل الذى رشحه أبو بكر ليخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم السقيفة ، حين أشار عليهم أن يختاروا أحدهما : عمر أو أبا عبيدة .

وفقد عمر بموته « الرجل الثانى » الذى كان يطمع أن يخلفه فى إمارة المؤمنين ... وكان يطمع أن يستنقذه من الطاعون ، فبعث يستدعيه على عجل إلى المدينة ... إلا أن قدر الله كان أسبق ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت .

وخلف أبا عبيدة ، معاذ بن جبل ، فطعن ابنه ، ثم طعن هو ، وماتا جميعا .

واستخلف معاذ ، عمرو بن العاص ... فخطب الناس فقال : « إن هذا الوجع إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار ، فتحصنوا منه فى الجبال » .

ثم خرج وخرج الناس فتفرقوا فى المرتفعات ، فادهب ذلك شدة الوباء ، وانتهى بزواله .

وبلغت عمر خطة ابن العاص فى مقاومة الوباء ، فلم يكرهها ، بل رأى فيها تنفيذاً للأمر الذى بعث به إلى أبى عبيدة .

وزال الطاعون بعد أن أفنى من المسلمين بالشام خمسة وعشرين ألفا .

وبعد أن انتقل من الشام إلى العراق ، ففتك فيه بأهل البصرة أشد مما فتك بغيرهم ، وكان أهل البصرة من خيرة جند المسلمين .

فإن زعموا أنها حلال فاقتلهم !

ما سبب هذا الطاعون ؟. هل كان حتما وأمرا مقضيا ، أم كان بسبب معصية كانت من المسلمين ؟ .

قالوا : شرب جماعة من المسلمين من أهل الشام الخمر ، فكتب أبو عبيدة إلى عمر : « إن نفرا من المسلمين أصابوا الشراب ، فسألناهم فتأولوا وقالوا : «خُيرنا فاخترنا ، قال : فهل أنتم منتهون ، ولم يعزم علينا » .

لذلك جمع عمر أصحاب الرأى بالمدينة ، وقص عليهم ما جاء فى كتاب أبى عبيدة . فرأوا أن عبارة القرآن : « فهل أنتم منتهون » تعنى الأمر ، أى فانتهوا ، وأجمعوا على أن يُضرَبَ الذين شربوها ثمانين جلدة وأن يُفسّقوا .

وكتب عمر إلى أبى عبيدة أن ادعهم ، فإن زعموا أنها حلال فاقتلهم ، وإن زعموا أنها حرام فاجلدهم ثمانين .

ودعاهم أبو عبيدة ... وسألهم على رءوس الناس ، فقالوا : إن الخمر حرام ... فجلدهم ثمانين ثمانين ... وقال : ليَحْدُثُنّ فيكم يا أهل الشام حادث ...

فكان الطاعون ...

ويذهب المتقدمون إلى اعتبار المعصية ، أى شرب الخمر ، هى سبب ذلك الطاعون ، على مذهب ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ... وسواء أكان هذا هو الحق ، أو أن الحق هو أن الله أراد الطاعون ولاراد لقضائه .. فان الدلالة التى نأخذها من القضية أن ذلك المجتمع كان فيه صفتان .

الصفة الأولى دوام التطور ... لم يكن هناك حد معلوم لشارب الخمر ، فاستفتوا أنفسهم وأجمعوا على جلده ثمانين ، وأخذوا بذلك ، واستمروا فى حياتهم ... ومضوا ... لم يقولوا لا نجد فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله ، ثم يقفوا متحجرين أمام الأحداث ... كلا .. وإنما فورا يتناقشون ، وفورا ينتهون إلى رأى ، وفورا ينفذون ذلك الرأى ... قوم أحياء يمضون مع الحياة سراعا .

وذلك هو المطلوب الآن منا كأمة تتطلع إلى الحياة الراقية ، وتريد أن تأخذ مكانها الطبيعى بين الأحياء . يطلب منا سرعة التفاعل مع الأحداث ، وسرعة التطور مع مطالب الحياة ... فإن لم نفعل مضت الحياة ، وألقتنا بعيدا غير آسفة علينا .

أولئك السادة الحالمين المتثائبين ... الذين ما زالوا يتناقشون فى أمور أحلال هى أم حرام ، أمور كان ينبغى أن يفصلوا فيها من مئات السنين ... هؤلاء يجب أن يتحركوا ، ويتفاعلوا سريعاً ، وإلا لطوح الناس بالدين كله غير آسفين عليه ...

فما حرص الناس على دين لا يسعفهم بما يحتاجون إليه من شئون الحياة ؟

أما الصفة الثانية التى كان يتميز بها مجتمع عمر ، فهى أنهم كانوا دائما يخشون الله ، ويخافون أن يعاقبهم الله بسبب معاصيهم ... هذا أبو عبيدة ، ينذر أهل الشام حين شرب قوم منهم الخمر متأولين فيقول : « ليحدثن فيكم يا أهل الشام حادث ... » إنه شديد الخوف من الله أن يعاقبهم بظهور من يشرب الخمر فى مجتمعهم علانية وفى وقاحة ، فإذا سئلوا قالوا : خيرنا فاخترنا ؟؟

ومتى كان المجتمع خائفاً من الله ، يخشى عقوبته فى الدنيا ، والآخرة ، فهو مجتمع راشد يهدف نحو الخير ويعمل له دائما .

فأين نحن الآن من تلك الصفة ؟ .. لا شىء ... المجتمع العربى الآن يتلاشى منه الخوف من الله كما يتلاشى النهار من الليل .

فما من معصية كبيرة أو صغيرة ، إلا وترتكب فيه ليلا ونهارا فى وقاحة وبساطة ، كأنما قد أصبحت عرفا مقرراً لا تثريب على فاعليه !!

ومن هنا ... يجب أن يبدأ إصلاح المجتمع ... يجب أن نراجع أنفسنا ، ونراجع نظامنا كله ، فان وجدنا فى مجتمعنا معصية وجب علينا القضاء عليها فوراً ، قبل أن يقضى انتشارها بيننا علينا جميعاً ... وما أكثر ما فى مجتمعنا من المعاصى .

لقد توقع أبو عبيدة أن يحدث حدث فى أهل الشام لما شرب بضعة نفر الخمر مرة واحدة .. فكيف بنا نحن ! وفينا آلاف يشربون الخمور ، وما هو أدهى من الخمور وأمر ، مراراً وتكراراً ... كيف بنا ، وماذا يحدث فينا من أحداث بعد ذلك ؟ .

قتلى الطاعون أكثر من قتلى الحروب !

الشىء الذى يستوقف النظر أن الطاعون زال عن الشام بعد أن أفنى من المسلمين بالشام خمسة وعشرين ألفا ... وبعد أن فتك بأهل البصرة أشد مما فتك بغيرهم ... ولا يعلم إلا الله كم عدد من فتك بهم من أهل العراق .

كان الحارث بن هشام قد خرج من المدينة إلى الشام فى سبعين من أهل بيته فماتوا جميعاً لم يبق منهم إلا أربعة ! .

وقيل إن أربعين من ولد خالد بن الوليد ماتوا فى هذا الطاعون .

فما معنى هذا ؟ ... معناه أن المقادير تسخر من المخلوق المسمى بالانسان .. الانسان يتحاشى الموت بكل ما يستطيع ، ويحرص على حياته بشتى الطرق ، فيأتى القدر بذلك الطاعون ، ويقضى على آلاف منه فى بساطة ! !

تبيانا للانسان أنه ميت لا محالة ، هالك رغم أنفه ، مهما حاول الفرار ... « قل إن الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم .. »

وقد تعجب حين تعلم أن قتلى المسلمين فى معارك الشام كلها لا يبلغون عدد قتلى الطاعون الذى حدث لذلك الشام ... فما معنى ذلك ؟ .. معناه أن الحرص على الموت يهب الحياة ، وليس الحرص على الحياة هو الذى يضمن تلك الحياة .

لقد مات المسلمون ألوفا مؤلفة بالطاعون ، فماذا عليهم لو ماتوا ألوفا مؤلفة فى سبيل الله ؟ ... فان أبوا ، فسوف يموتون رغم أنوفهم ، ولكن وهم أذلاء لا وزن لهم فى الحياة !

عمر يفتش على الدولة ؟

قرر أمير المؤمنين أن يذهب بنفسه إلى الشام ، ليرتب أموره بعد أن زال عنه الطاعون ، وهلك من جنده العدد الكثير .

وفصل عمر من المدينة ، فى جماعة من الصحابة ، وعين عليًا نائبا له عليها .

واتخذ طريقه إلى أيلة (العقبة) فلما بلغها دفع إلى أسقفها قميصا له قد انجاب مؤخره عن مقدمه من طول السير ، وقال له : اغسل هذا وارقعه ! .

وغسل الأسقف القميص ورقعه ، وخاط قميصا آخر مثله ، وعاد بالقميصين إلى عمر وقال له : أما هذا فقميصك قد غسلته ورقعته ، وأما هذا فكسوة لك منى .

فماذا فعل عمر ؟ ... لبس عمر قميصه ، ورد الآخر ، وقال : هذا أنشفهما للعرق !؟

وأبى عمر إلا أن يلبس قميصه المرقع ، ويدخل به إلى الامبراطورية التى دانت لسلطانه . لو قيل : ماهى العظمة ؟ . قلنا . هى هذا الذى فعلت ياعمر ! .

وسار عمر من أيلة ، فنزل الجابية فجعلها مقره . وذكر له عماله بالشام وفلسطين ما كان من أمر المسلمين ومانزل بهم .

فزار بلاد سورية جميعها ، وتفقد شئون المسلمين فى شتى أرجائها ، وبذل لهم ، ورتب منازلهم بدمشق وحمص وسائر المدن التى بلغ فيها الفتك أشده .

ثم إنه نظم ثغور الشام ، ومسالحه ، وأعاد توزيع القوات فى كوَره ، وسمى الرجال الذين عينهم عليها .

فلما فرغ من ذلك قسم المواريث فورث بعض الورثة من بعض ، وأخرجها إلى الأحياء من ورثة كل منهم .

وبذلك استقر كل أمر فى نصابه ، وعاد كل شىء إلى نظامه ، واطمأن الناس بعد طول الفزع .

رجل أقوى من رجل ؟

وكان عمر حين جاءه النبأ بموت أبى عبيدة ويزيد بن أبى سفيان قد ولى مكانهما

شُرَحبيل بن حسنة ومعاوية بن أبي سفيان . فلما كان بالجابية عزل شرحبيل عن عمله ، وسأله شرحبيل : أَعزْلة عن سخطة ؟

فقال : لا ! إنك لكما أحب ، وأريد رجلا أقوى من رجل .

قال شرحبيل : فاعذرنى فى الناس ، لا تدركنى هُجْنة .

فقام عمر فقال : « أيها الناس ! إنى والله ماعزلت شرحبيل عن سخطة ، ولكنى أردت رجلا أقوى من رجل » .

وبذلك أصبح معاوية بن أبى سفيان أميرا على الشام كله ! .

ومن هنا نعلم أن اختيار الرجال من أهم الصفات التى يجب أن تتوفر فى رئيس الدولة ، فلربما أسند الأمور إلى من ليسوا أهلا لها فكان ذلك سببا فى مفاسد كبيرة .

الاشتراكية والديموقراطية يلتقيان !

وانتهت جولة عمر التفتيشية بالشام ، وعاد إلى الجابية متوجها إلى المدينة .

وخطب الناس ، فقال : « ألا إنى قد وليت عليكم ، وقضيت الذى علىَّ فى الذى ولانى الله من أمركم ، إن شاء الله . قسطنا بينكم فَيْأَكم ، ومنازلكم ، ومغازيكم ...

« وأبلغنا مالديكم ، فجنّدنا لكم الجنود ، وهيّأنا لكم الفروج ، وبوّأنا كم ، ووسّعنا عليكم مابلغ فيؤكم ، وماقاتلتم عليه من شأنكم ، وسمينا لكم أطماعكم ، وأمرنا لكم بأعطياتكم وأرزاقكم . فمن علم علْم شىء ينبغى العمل به فبلّغنا ، نعملْ به إن شاء الله . »

هذا شىء من خطاب عمر حين أزمع العودة إلى المدينة ... تجد فيه الاشتراكية والديموقراطية تندمجان وتتداخلان وتصبحان نظاما واحدا اسمه الاسلام ! .

بيان للشعب ... عمر يبن للجميع أنه عدل بينهم ، ولم يترك شيئا إلا وزعه عليهم بالعدل ... ثم فى نهاية البيان يقول « فمن علم علم شىء ينبغى العمل به فبلغنا نعمل به إن شاء الله » ... وهذه الفقرة المتواضعة الجميلة الرقيقة ، هى أجمل مافى الخطاب الخطير .

إن عمر يطلب من كل فرد فى الشعب إذا علم أن هناك شيئا ينبغى أن تعمل به الدولة

أن يسارع إلى تبليغه ، ويعد كل فرد فى الشعب أن يعمل به ، ثم لاينسى فى زحمة الأحداث أن الأمور بيد الله فيقول « إن شاء الله » !!.

أرأيت ؟ ... اشتراكية ، عدالة ، رفع مستوى المعيشة ، تسلح ، نظام ، ديموقراطية، تواضع لله ، تفويض إلى الله ... كل ذلك يتجاور ويتداخل ويندمج فى بعضه البعض ... وهذا هو عمر ، أو هذا هو الاسلام !

الجميع يبكون ؟!

لقد كانوا قوما أحياء ... تتدافع العواطف من قلوبهم ، وتتلاحق كأنما ينبع من أفئدتهم نهر الحياة ! .

حضرت الصلاة ، وكان عمر قد أزمع الرحيل بعدها ، فقال له الناس : لوأمرت بلالا فأذن ؟! . وكان بلال قد انقطع عن الأذان منذ قبض رسول الله .

وأذّن بلال ... وارتفع صوته الندى ، تماما كما كان يؤذن أيام رسول الله ...

فلم يبق من الناس واحد إلا بكى ... وبكى من لم يدرك النبى لبكائهم ...

وكان عمر أشدهم بكاء !! ...

ثم ودع عمر أهل الشام ، وعاد إلى المدينة ، وقد استقر عزمه على أن يزور العراق ...

أرأيت كيف كان القوم ؟ ... كانوا احساسا واحدا ، وشعورا واحدا ، على قلب رجل واحد . طلبوا أن يسمعوا أذان بلال ، ليذكروا به أيام رسول الله ...

فما سمعوه حتى بكوا جميعا ... من شهد رسول الله ومن لم يشهده ...

ذكروا رجلا بعثه الله فيهم ، ليرحمهم به ، ويرحم الناس جميعا .

ذكروا محمدا ... وذكروا وعده إياهم أن يورثهم الله الأرض يتبوءون فيها حيث يشاءون . وهاهم أولاء يعيشون فى ذلك الوعد ، وينعمون بذلك الهدى ...

فلماذا لايبكون ؟ ... وأى شىء يفتح مغاليق القلوب أكثر من تلك الذكريات ؟

انفجرت قلوبهم حين أحسوا نعمة الله عليهم وفضله ، فبكوا وبكوا ، وكان فضل الله عليهم عظيما . وأى فضل بعد أن سادوا الدنيا ، وأى رحمة بعد أن صاروا أئمة للعالمين ؟

معركة نهاوند

كسرى يحلم باسترداد امبراطوريته ؟

طمع المسمى كسرى فى استرداد ماضاع من ملكه ، فجعل يثير الفرس ، ويحرك حميتهم وكتب إليهم : « أن قد رضيتم ياأهل فارس أن قد غلبتكم العرب على السواد والأهواز ، ثم لم يرضوا بذلك حتى توردوكم فى بلادكم وعقر داركم فتحركوا أهل فارس تنتصروا » .

وتكاتب أهل فارس ، وأهل الأهواز ، وتعاقدوا ، وتعاهدوا وتواثقوا على النصرة !.

وأبلغ ذلك إلى عمر ، فأمر لفوره أن تتحرك قوتان كبيرتان من القاعدتين الحربيتين ، البصرة والكوفة ...

وتحركت القوتان ... وكانت معركة عظيمة ، استولى على أثرها المسلمون على تستر عاصمة خوزستان وأكثر بلادها منعة .

واستسلم الهرمزان قائد الفرس فى تلك المعركة ...

قال له المسلمون : ماذا تريد ؟ .

فأجابهم : أن أضع يدى فى أيديكم على حكم عمر ، يصنع بى ما شاء .

وأجابه القوم إلى ماطلب ، فرمى بقوسه ، وأمكنهم من نفسه ، فشدوه وثاقا ، وساروا به إلى أبى موسى الأشعرى .

وحمل الهرمزان مع أنس بن مالك والأحنف بن قيس إلى عمر بالمدينة !.

وتدفقت الأموال إلى أيدى المسلمين ، بعد أن استولوا على تستر ... فتسلم المسلمون المدينة ... واستولوا على مافيها من الأموال ، فاستأثروا لأنفسهم بأربعة أخماسه ، وجعلوا الخمس لأمير المؤمنين ... وقد بلغ نفل الفارس يومئذ ثلاثة آلاف ، ونفل الراجل ألف درهم !

قائد فارسى يصف جنود المسلمين !

كان رسياه الأسوارى قد خرج من أصبهان بأمر يزدجرد لقتال المسلمين ، فلما رآهم غلبوا على تستر بعد أن احتلوا بلادهم الأهواز ، دعا الرؤساء الذين كانوا خرجوا معه

وذكر لهم فعال المسلمين وأنهم « لايلقون جندا إلا فلوه ، ولاينزلون حصناً إلا فتحوه ، فانظروا لأنفسكم » .

وبعث رسياه إلى أبى موسى الأشعرى يقول « إنا قد رغبنا فى دينكم فنسلم على أن نقاتل معكم العجم ، ولانقاتل معكم العرب ، وإن قاتلنا أحد من العرب منعتمونا منه ، وننزل حيث شئنا ، ونكون فيمن شئنا منكم ، وتلحقونا بأشراف العطاء ، ويعقد لنا الأمير الذى هو فوقك بذلك » .

وأجابهم أبوموسى : بل لنا مالكم وعلينا ماعليكم . فلم يرضوا ...

وكتب أبوموسى إلى عمر بما حدث ، فأجابه : « أعطهم ماسألوك » ... فأسلموا !

وتسلم المسلمون مدينة « سوس » من القائد الفارسى ، وكتب أبو موسى إلى عمر يذكر له أن بالسوس قبر النبى « دانيال » وأن جسده مكشوف يستسقى به الناس ، فأمره عمر أن يكفنه ، وأن يدفنه .

ولايزال قبر دانيال حتى اليوم بهذه المدينة موضع الاحترام .

أين عمر ؟ !

ووصل الأحنف بن قيس ، وأنس بن مالك ، يسيران من تستر فى رجالها ، يحملون خمس الفىء ... والهرمزان معه ، إلى أمير المؤمنين .

فلما اقتربوا من المدينة ألبسوا الهرمزان لباسه من الديباج الموشى بالذهب ، ووضعوا على رأسه تاجه المرصع بالدر والجوهر ، وأمسك بيده صولجانا من الذهب الخالص المكلل بالياقوت واللآلىء ... ليرى عمر ، وأهل المدينة ، صورة من صور زينة أمراء الفرس .

وبلغو المدينة ، وقصدوا دار عمر ، فعلموا أنه ذهب إلى المسجد يلقى وفداً من أهل الكوفة .

فانطلقوا يطلبونه هناك فلم يروه .

وبصر بهم غلمان من أبناء المدينة عرفوا مايريدون ، فذكروا لهم أن أمير المؤمنين نائم في ميمنة المسجد ، متوسد بُرْنُسَه .

وكان عمر قد جلس لوفد أهل الكوفة في برنس له ، فلما خرجوا عنه نزع برنسه ثم توسده ، فنام ! .

وعاد الموكب ، تتبعه الغلمان والنظارة ، حتى دخلوا المسجد ... فرأوا عمر وليس في المسجد نائم ولا يقظان غيره ! .

فجلسوا سكوتا مخافة ازعاجه ! .

وسأل الهرمزان بعض من حوله ممن يعرفون لغته : فأين عمر ؟ .

قالوا ، وأشاروا إلى النائم : هو ذا .

فوجم الأمير الفارسي .. ثم سأل : وأين حرسه ، وأين حجابه ؟ .

قالوا : ليس له حارس ، ولا حاجب ، ولا كاتب ، ولا إيوان ! .

وأيقظ الهمس عمر ، فاستوى جالسا ، فرأى الأمير على مقربة منه ، عليه حُلته ، وفي يده صولجانه يشعُّ منهما لألاء الجوهر ، فقال الهرمزان ؟ ..

قال القوم : نعم .

فتأمله وتأمل ماعليه وقال : « أعوذ بالله من النار وأستعين الله ! الحمد لله الذى أذلَّ للاسلام هذا وأشياعه ! يامعشر المسلمين تمسَّكوا بهذا الدين واهتدوا بهدى نبيكم ، ولاتبطرنكم الدنيا فإنها غرَّارة » .

قال الوفد الذين جاءوا من تُستَر : « هذا ملك الأهواز فكلّمه » .

وأجاب عمر : « لا ! حتى لايبقى عليه من حليته شيء » .

ونزع القوم كل ماعلى الهرمزان الاما يستره ، وألبسوه ثوبا صفيقا .

فلما رآه عمر على هذه الحال قال له : «هيه ياهرمزان ! كيف رأيت وبال الغدر ، وعاقبة أمر الله ؟! »

وأجاب الهرمزان : « ياعمر ! كنا وإياكم فى الجاهلية ، وقد خلى الله بيننا وبينكم فغلبناكم ، إذ لم يكن معنا ولا معكم ... فلما كان معكم غلبتمونا » .

قال عمر : « إنما غلبتمونا بالجاهلية باجتماعكم وتفرّقنا . والآن فما عذرك وما حجتك فى انتقاضك مرة بعد مرة » .

ورأى الهرمزان الغضب يتقد فى عين عمر ... فقال : « أخاف أن تقتلنى قبل أن أخبرك ! » .

قال عمر : « لا تخف » .

واستسقى الهرمزان ماء ، فأتى به فى قدح غليظ ، فقال : « لو متّ عطشا لم أستطع أن أشرب فى مثل هذا ! » .

فأتى به فى إناء يرضاه ... فلما أخذه جعلت يده ترتجف ، وقال : « إنى أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء ! »

قال عمر : « لا بأس عليك حتى تشربه » .

فأكفأ الهرمزان الإناء ، وأراق ما فيه من ماء ، فقال عمر : « أعيدوا عليه ، ولا تجمعوا عليه القتل والعطش » .

قال الهرمزان : « لا حاجة لى فى الماء ، إنما أردت أن أستأمن به » ! .

ثم جرى بين الرجلين حوار مخيف ...

عمر : إنى قاتلك ! .

الهرمزان : قد آمنتنى ! .

عمر : كذبت ! .

أنس بن مالك : صدق ياأمير المؤمنين ، قد آمنته !

عمر : ويحك ياأنس ! أنا أؤمّن قاتل مجزأة والبراء ! والله لتأتينى بمخرج أو لأعاقبنك !

أنس : قلت له : لا بأس حتى تخبرنى ، وقلت له : لا بأس حتى تشربه .

وأقر الأحنف بن قيس ومن حوله كلام أنس ، وذكروا جميعا أن أمير المؤمنين أمّن الهرمزان ! .

فنظر إليه عمر مغضبا وقال : « خدعتنى ! والله لا أنخدع إلا لمسلم » .

وأسلم الهرمزان ... وفرض له عمر ألفين ، وأنزله المدينة !

أى شعاع ينتشر من تلك الأقصوصة إلى الآفاق؟..هذا رجل من رجالات الامبرطورية الفارسية المعدودين ، يأتى أسيرا ذليلا إلى المدينة ... ينتظر أن يجد بها شيئا يقارب ما كان عليه الفرس من أبهة وصولجان ، فلم يجد شيئا .. وجد أمير المؤمنين نائما فى بساطة على أرض المسجد ... فما أن رآه عمر حتى اشمأز من مرآه ...واستعاذ بالله من زينته...لماذا؟. لأن عمر لا يلقى بالا إلى زينة الدنيا، وإنما اقتحمه ببصيرته ، فرأى فيه رجلا خبيثا خادعا من أهل النار ... ثم تذكر كيف مكن الله من رقاب هؤلاء الجبابرة ، لأولئك العرب الحفاة العراة ، لا لشىء إلا لإيمانهم بالله ،فعظمت نعمة الله فى عينيه ، فأوصى أصحابه أن يستمسكوا بهذا الدين الذى هو السر من عظمتهم وانتصارهم .

وهكذا تتمدد منها اشعاعات شامخات بأنفها إلى السماء...فلعلنا نفيد منها فى أحاسيسنا مع رجالات الدول الأجنبية ، فننظر إليهم نظرة عمر إلى الهرمزان ، نظرة الرجل المؤمن إلى الرجل الخبيث ... فلا نغتر لهم بقول ، ولا نؤخذ منهم بمنظر ، ولا نقيم لهم فى أنفسنا وزنا.

لو أنا فعلنا ... لهابنا رجال العالم وخيل إليهم أننا قوة لا تقهر ... تماما كما رعب الهرمزان من عمر ، فانحلت مفاصله ، وتهدج صوته ، وارتعشت أطرافه .

إن الإيمان قوة هائلة إذا تمركزت فى قلب إنسان،جعلته فى نظر الغير كأنه أسطورة لا تقاوم !

هل هناك ظلم ؟

لم يجد عمر فى كلام الهرمزان جوابا على نقضه عهد المسلمين مرة بعد مرة .

عند ذلك وجه عمر القول إلى الوفد الذين جاءوا من فارس فسألهم : لعل المسلمين يُفضون إلى أهل الذمة بأذى فلهذا ينتقضون بكم ؟ .

قال الوفد : ما نعلم إلا وفاء وحسن ملكة .

قال عمر : فما بالهم ينتقضون ؟

وتتابع رجال الوفد يحاول كل منهم أن يجد لهذا الانتقاض علة مع وفاء المسلمين لهم ، فلم يجد عمر فى كلام أحد منهم شيئا يشفيه ، ويكشف له أسباب انتقاض أهل الذمة .

عند ذلك قال الأحنف بن قيس : « ياأمير المؤمنين أخبرك.إنك نهيتنا عن الانسياح فى البلاد ، وأمرتنا بالاقتصار على ما فى أيدينا . وإن ملك فارس حىّ بين أظهرهم ، وإنهم لا يزالون يساجلوننا مادام ملكهم فيهم . فلم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه . وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئا بعد شىء إلا بانبعاثهم وغدرهم . وملكهم هو الذى يحرضهم ويبعثهم . ولم يزل هذا دأبهم حتى تأذن لنا بالانسياح فنسيح فى بلادهم ، ونزيل ملكهم، ونخرجه من مملكته وعز أمته . هنالك ينقطع رجاء أهل فارس ويسكن جأشهم» .

وفكر عمر طويلا فى حديث الأحنف . ثم قال له : « صدقتنى والله وشرحت لى الأمر عن حقه » .

وعرف الهرمزان حديث الأحنف فأقره .

فازداد عمر ثقة به واطمئنانا له .

وأقام الهرمزان بالمدينة،وحسن إسلامه ، وصارلا يفارق عمر، ولا يضن عليه بالمشورة!

فماذا نستنبط من القصة ؟ .٠. نستنبط منها أن عمر أراد أن يعرف هل هناك ظلم يقع من ولاته على أهل الذمة يدفعهم إلى نقض عهودهم التى أبرموها مع المسلمين ؟ .

لماذا نقض الهرمزان عهده مرات ؟ ... هل رأى المسلمين قوما يظلمون ويستبدون فثار على حكمهم ؟ ...

إن حاسة العدل تحرك عمر للتحقيق فى الأمر ، وإنها لسياسة عليا تبحث بحثا دقيقا .

حتى كفاه الأحنف مئونة البحث ، وبين له أنه طالما أن يزدجرد ملك الفرس قائما بينهم يفر من اقليم إلى اقليم ، فإن الفرس سوف لا يسكنون عن ثأرهم ...وأنه ينبغى لعمر أن يأذن للجيوش الإسلامية أن تنطلق فيما تبقى من أنحاء فارس، لتقطع دابر المقاومة منها إلى الأبد

كما نأخذ منها أن الإسلام دين الجميع ، وأنه يسع جميع الناس متى دخلوا فيه ... هذا هو الهرمزان أحد قادة الفرس ، وأشدهم عداء للاسلام ، يدخل إلى هذا الدين فيصبح أحد قادة المسلمين ، وعضوا فى مجلس شورى عمر ، لا يقطع رأيا دونه ! .

نهاوند ؟

حين عرف أمراء الفرس فى شتى بلادهم ، ما أصاب الهرمزان وجنوده ، أيقنوا أن مصيرهم إلى مثل ما حدث للهرمزان لا محالة ، إن لم يتحدوا صفا واحداً لدفع الغزاة عن بلادهم .

وكتبوا إلى يزدجرد كسرى الفرس ، أن يكون على رأس حركتهم ، حتى يجتمع الفرس جميعا عليه ، ويخرجوا إلى عدوهم ليدفعوه من فارس إلى الأبد .

وظن يزدجرد أنها فرصة ، فبعث يشجع أبناء وطنه أن يخوضوا معركة فاصلة مع العرب ، يستردوا بها ما ضاع من أمجادهم وبلادهم .

فبعث كل أمير من جنده إلى نهاوند ، حتى بلغ عددهم مائة وخمسين ألفاً اجتمعوا بإمرة الفيرزان .

فلما اجتمعوا عنده وجلس إليه أمراء هذا الجند المقبل من شتى الأرجاء قال لهم : « إن محمداً الذى جاء العرب بهذا الدين لم يتعرض لبلادنا . وقام أبو بكر من بعده فلم يتعرض لنا فى دار ملكنا ، ولم يمر بنا إلا فيما يلى بلاد العرب من السواد .

«وهذا عمر بن الخطاب لما طال ملكه انتهك حرمتنا وأخذ بلادنا ، ولم يكفه ذلك حتى أغزانا فى عُقر دارنا ، فأخذ بيت المملكة ، وانتقصكم السواد والأهواز ، وهو آتيكم إن لم تأتوه ، وليس بمنته حتى تخرجوا مَن فى بلادكم من جنده ، وتقلعوا هذين المصرين ، البصرة والكوفة ، ثم تشغلوه فى بلاده وقراره » .

وأذاع الأمراء حديث الفيرزان فى جنودهم فاشتعلوا حماساً ، وانتظروا ساعة الفصل بينهم وبين العرب .

إن الفيرزان يريد أن يخوض معركة حاسمة مع العرب ، يسترد بها ما ضاع من الإمبراطورية ، ثم ينقل المعركة إلى جزيرة العرب نفسها ليشغل العرب ببلادهم ! .

وبلغت الأنباء إلى عمر ، فأيقن أن الأحنف قد صدقه الرأى ، وقرر أن يوجه إلى الفرس الضربة القاضية !

وجاءت الأنباء أن قوات فارس التى اجتمعت بامرة الفيرزان قد سارت إلى همذان ، وهى الآن تتابع سيرها تقصد حُلوان ، وها هى ذى فى طريقها إلى الكوفة نفسها ! .

مؤتمر شعبى ؟

ونادى منادى عمر فى الناس : الصلاة جامعة .

فلما تجمعوا بالمسجد ، صعد المنبر ، وذكر للناس ما أنهاه إليه عماله عن تهيؤ الفرس واجتماعهم ، وكثرة عددهم ، ثم قال : « إن هذا اليوم له ما بعده . ألا وإنى قد هممت بأمر ، فاسمعوا وأجيبوا وأوجزوا ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم .

«أفمن الرأى أن أسير فيمن قبلى ، ومن قدرت عليه ، حتى أنزل منزلا وسطا بين هذين المصرين ، فأستنفرهم ثم أكون لهم ردءاً حتى يفتح عليهم ويقضى ما أحب ؟ »

وتكلم القوم ... فأشار بعضهم بأن يسير أمير المؤمنين بالجيوش إلى العراق ، وأن يدعو جنده بالشام وباليمن ، ليواجه الفرس ويغزو بلادهم !

وأشار آخرون أن يقيم بالمدينة ، وأن يبعث كل من قدر عليه لغزو الفرس .

عبقرية علىّ !

وكان فريق أكثر من هؤلاء ومن أولئك حذرا ، وكان فيهم على بن أبى طالب ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! إنك إن أشخصت أهل الشام من شامهم سارت الروم إلى ذراريهم ، وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة إلى ذراريهم ، وإنك إن أشخصت من هذه الأرض انتقضت عليك الأرض من أطرافها وأقطارها ، حتى يكون ما تدع وراءك أهم إليك مما بين يديك من العورات والعيالات .

« وإنما مكانك من العرب مكان النظام من الخرز ، يجمعه ويُمسكه ، فإن انحل تفرّق مافيه وذهب ، ثم لم يجتمع بحذافيره أبدا .

« وإن الأعاجم إن ينظروا إليك غدا قالوا هذا أمير العرب وأصل العرب ، فكان ذلك أشد لطلبهم فتألبوا عليك .

« أما ماذكرت من عدد القوم ، فإنّا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ، ولكنا كنا نقاتل بالنصر .

« فأقم مكانك ، واكتب إلى أهل الكوفة ، فهم أعلام العرب ورؤساؤهم ، فليذهب منهم الثلثان ، وليُقم الثلث ، واكتُب إلى أهل البصرة يمدونهم » .

ذلك رأي علي وإنه للرأي والعبقرية في آن ... ولقد اقتنع به عمر ، وسر به سرورا بالغا . فأعلن في الناس أنه مقيم بالمدينة ، ومرسل الجيوش تلو الجيوش امدادا لقتال الفرس.

وهكذا نرى نموذجا من أساوب الشورى في الاسلام ... هاهي الدولة كلها مقبلة على حرب شاملة ، وهاهو عمر يدعو الأمة كلها ، ألم يقل لهم الصلاة جامعة ؟.. لكل مسلم أن يحضر إلى الصلاة ، ويدلي برأيه ...

وعرض عمر القضية، واطلع الشعب على كل شيء ، وعلى حقيقة الموقف .. وطلب إليهم رأيهم في الخطة التي اعتزم تنفيذها .

وأشار كل برأيه ، في حرية تامة ، واخلاص تام ، حتى كان رأي عليّ ، وكان أن اقتنع به رئيس الدولة وأعلن أنه سينفذه .

وانفض الجميع بعد أن أشار كل منهم بما يرى ، ثم نزلوا جميعا على رأي أمير المؤمنين، سواء منهم من عارضه ومن أيده من قبل ! .

وهذا أسلوب من أساليب الشورى في الاسلام ، يمكن أن نتعلم منه كثيرا ، عندما نريد أن نضع نظاما سياسيا لبلد من بلادنا الاسلامية أو العربية .

إنه أسلوب جماهيري، أسلوب المؤتمرات العامة الشعبية، لاطلاع الجماهير على ماتعتزمه الدولة من عظائم الأمور .

ثم انظر إلى تعبير علىّ حين يقول : « فإنا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ولكنا كنا نقاتل بالنصر » ؟! .

روعة من على ، ثم روعة من عمر ، أن جلس يستمع إلى على فى سماحة ورضى !.

كأن عليا يريد أن يقول لعمر : لايهولنك عددهم ، فانهم لن يثبتوا للقلوب المؤمنة ، التى تقاتل والله معها ! .

ثم انظر إلى أمير المؤمنين يرجع عن خطته التى أعلنها إلى الناس ، ويعلن فى بساطة ودبلوماسية ، أنه مقيم بالمدينة ومرسل الجيوش ؟! .

لم يتكبر ، ولم يتجبر ، ولم يقل : لقد قررنا ولن نرجع عن قراراتنا .. وإنما أخذ برأى جديد ، وطرح خطته كلها كأن لم تكن !.

رجل الموقف ؟

ثم قال عمر : « أشيروا علىّ برجل أوَلِّه أمر هذه الحرب وليكن عراقيا » .

قالوا : «أنت أفضل رأيا،وأحسن مقدرة ، وأبصر بجندك ، وقد وفدعليك أهل العراق وجنده فرأيتهم وخبرتهم .

قال : « أما والله لأوَلّيَنَّ أمرهم رجلا يكون أول الأسنَّة إذا لقيها غداً النُّعمان بن مُقَرِّن ! » .

قالوا : هو لها !

وكان النعمان لها حقا ... رُوى أنه كان عاملا على كَسْكَرَ ، فكتب إلى عمر يشكو إليه أن سعد بن أبى وقاص استعمله على جباية الخراج وهو يحب الجهاد !

فكتب عمر إلى سعد : « إن النعمان كتب إلىّ يذكر أنك استعملته على جباية الخراج ، وأنه كره ذلك ورغب فى الجهاد ، فابعث به إلى أهم وجوهك » .

وهكذا اختار عمر قائد المعركة ، ولكن بعد أن استشار الشعب فى اختياره ، فوكله فى الاختيار .

وكان عمر ملهما في اختيار تلك الشخصية ، التي سوف نرى منها سموا عجيبا في القيادة ، ألم يرفض أن يكون مأمورا للضرائب ، وألح على عمر أن يدفعه إلى ميادين القتال ؟ نفس حية ... تريد أن تسلك طريق الحياة الكريمة ، وتأبى القعود عن القتال ! .

الظلم يؤدى إلى الكفر ؟

وكتب عمر إلى قائد المعركة الجديد : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، إلى النعمان بن مقرّن . سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو .

« أما بعد ... فانه قد بلغنى أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند .

« فاذا أتاك كتابى هذا فسرْ بأمر الله ، وبعون الله ، وبنصر الله ، بمن معك من المسلمين .

« ولا توطئهم وعراً فتؤذيهم ، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم ، ولا تدخلهم فى غيضة ، فان رجلا من المسلمين أحب إلىّ من مائة ألف دينار .

« فسر فى وجهك هذا حتى تأتى « ماه » ... فانى قد كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافوك بها ، فاذا اجتمع إليك جنودك فسر إلى الفيرزان ، ومن جمع معه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم . والسلام عليك » .

إن هذا الكتاب وحده خطة حربية كاملة ، فيه تفصيل التحرك ، وفيه تربية نفسية ، وفيه توحيد ، وفيه أدب الخطاب ، وفيه توجيه القيادة إلى ما ينبغى عليها نحو جنودها ... وفيه ما فيه ... لكن الذى نومىء إليه هنا من بين تلك اللآلىء هو قوله « ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم » ... لما فيها من إدراك عميق لأسباب فساد النفوس ونفورها من الله ...

إن عمر يقرر أن منع الحق عن صاحب الحق يدفعه إلى الكفر ، فهل هذا صحيح ؟

نعم ... فان أول ما يقوم بنفس المظلوم ، العاجز عن أخذ حقه فى الحياة ، هو أن يثور على الله نفسه ، لماذا مكن الظالم منه ولم يأخذ على يديه ... هو أن يكفر بالله ، وبرسالات الله ، تلك التى لم تستطع أن تمنع الظلم الواقع عليه !

لقد قامت الشيوعية فى روسيا ، ثورة على ظلم القياصرة للجماهير ، وثورة على ظلم الكنيسة ورجال الدين ، حين ساندوا أولئك القياصرة ، وسوغوا لهم استذلال الشعوب ، وسلب حقوق الجماهير .

فكان أول مافعلته الشيوعية ، أن طوحت بالأديان بعيدا ، بل طوحت بفكرة وجود إله من أساسها ... وما زالت الشيوعية تكره الأديان ، وتكره رجال الدين ، وتكره الله نفسه ، وتصر على عدم وجوده ... لماذا ؟

لأن الجماهير مُنعت حقها فى أيام القياصرة فكفرت بالله وبكل شىء ، وتكونت تلك العقدة فى نفسية مؤسسى الشيوعية ، وتمركزت فى رؤوسهم .

تماما كما قال عمر : ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم !!!

ولوأن الدين الذى كان فى روسيا قبل الثورة الشيوعية كان دينا صحيحا ، لتغير الحال ، ولما كفرت الشيوعية بالله وبالأديان ... ولكنه كان خداعا وتزييفا لما أنزله الله من السماء ، فثار عليه الشيوعيون ، وكرهوه إلى الأبد .

لقد رأت الجماهير قياصرة يتألهون فى الأرض ، وشعبا يركع ذليلا جائعا لأولئك الآلهة ... فتخلخل هناك إيمانها بوجود إله لهذا الكون ، وظنوا أن لو كان هناك إله لمنع ذلك الظلم عن الناس !! .

إيه ياعمر ... كم عندك من فلسفات ! .

ومن هنا يجب أن تعلم الشعوب العربية والاسلامية كلها ، أن وصول الجماهير إلى حقوقها فى الحياة هو أول الطريق لوصولها إلى الله . وأن اعطاء الجماهير الكادحة المظلومة حقها الطبيعى فى الحياة هو الخطوة اللازمة كى يمكن أن تعرف الله إلى هؤلاء .

وأنه لاينتظر من مظلوم أوجائع أن يعرف الله ... وإنما ينتظر منه ذلك عندما يأخذ حقه ، ويشبع بطنه لأن للبطون نداء قويا يطغى على العقول والقلوب .

ثم ماذا أيضا فى خطاب عمر إلى قائده ؟ ... إن عمر يرتفع بالنفس البشرية أن يعدلها شىء فى الأرض « إن رجلا من المسلمين أحب إلىّ من مائة ألف دينار » ... وهذا تعظيم للقيم الانسانية ، واكبار لحق الحياة .

عمر يأمر بزحف !

وكتب عمر إلى عبد الله بن عتبان والى الكوفة أن استنفر من أهل الكوفة مع النعمان كذا وكذا ، فإنى قد كتبت اليه بالتوجه من الأهواز إلى ماه ، فليوافوه بها ، وليسر بهم إلى نهاوند ، وقد أمرت عليهم حذيفة بن اليمان حتى ينتهى بهم إلى النعمان وقد كتبت إلى النعمان : إن حدث بك حدث فعلى الناس حذيفة بن اليمان ، وإن حدث بحذيفة حدث فعلى الناس نعيم بن مقرّن .

ودفع عمر هذا الكتاب إلى السائب بن الأقرع ليسير به إلى الكوفة ، وجعل السائب أمينا على الفىء وقال له « إن فتح الله عليكم فاقسم ماأفاء الله عليهم بينهم ، ولا تخدعنى ، ولاترفع إلىّ باطلا ، وإن نكب القوم فلا ترينى ولا أرينّك » !.

أرأيت ؟ ... تكتيك كامل متدافع ... وتنفيذ سريع ... وإحكام فى التنفيذ ! .

ليس هذا وحده ... وإنما كتب فى اليوم نفسه إلى أبى موسى الأشعرى أن سر بأهل البصرة إلى ماه ، والأمير النعمان بن مقرن ! .

وكتب إلى أمراء الجند الذين كانوا بين فارس والأهواز أن اشغلوا فارس عن إخوانكم ، وحوطوا بذلك أمتكم وأرضكم ، وأقيموا على حدود مابين فارس والأهواز حتى يأتيكم أمرى .

وبذلك قطع عن أهل نهاوند إمداد فارس ، فلا يزيدوا الفيروزان قوة على قوته ! .

٣٠٠٠٠ يقاتلون ١٥٠٠٠٠ !

وانطلق النعمان بجيوشه على تعبئة حتى نزل قريبا من حصون أعدائه .

وهناك كبر المسلمون ثلاث تكبيرات ، زلزلت الأعاجم ، وملأتهم رعبا !

عرف الفيرزان أنهم جاءوا اليه ثلاثين ألفا ... بينما هو فى خمسين ومائة ألف ! .

إلا أنه خافهم على قلتهم ، فبعث إلى معسكر المسلمين أن أرسلو إلينا رجلا نكلمه .

وسار اليه المغيرة بن شُعْبة ، فادخل على الفيرزان ، فإذا هو جالس فوق سرير من ذهب ، وعلى رأسه التاج ، ومن حوله حراسه كأنهم الشياطين .

وتحاور الرجلان ... حتى قال الفيرزان : « مامنعنى أن آمر هؤلاء الأساورة حولى أن ينتظموكم بالنُشّاب إلا تنجُّساً لجيفكم ، فإن تذهبوا نُخَلِّ عنكم ، وإن تأبوا نُرِكم مصارعكم » .

قال المغيرة : « والله مازلنا مذ جاءنا رسول الله نتعرف من ربنا الفتح والنصر حتى أتيناكم . وإنا والله لا نرجع إلى ذلك الشقاء أبداً حتى نغلبكم على ما بأيديكم أو نقتلَ بأرضكم » .

وفشلت السفارة ... فأمر النعمان بالقتال وبدء حصار المدينة .

وطال الحصار ... واعتصم الفرس بالمدينة ذات الحصون والأبراج ...

فما السبيل إلى استدراجهم إلى معركة مكشوفة ؟

مؤتمر عسكرى !

اجتمع أهل الرأى فذهبوا إلى النعمان ، فأفضَوْا إليه بمخاوفهم ... فقال لهم : على رسْلكم لاتبرحوا ... وبعث إلى أهل الرأى والنجدات فى الحروب ، فلما توافوا إليه قال لهم : قد ترون المشركين واعتصامهم بالحصون ،وأنهم لايخرجون إلا إذا شاءوا . وقدترون الذى فيه المسلمون من التضايق من هذا الموقف ، فما الرأى الذى نستخرجهم به إلى المنابذة وترك التطويل ؟ .

وتكلم القوم . فأشار بعضهم بتضييق الحصار ، فالتحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم .

وقال عمر وبن معدى كرب : ناهدهم وكاثرهم ولا تخفهم .

فرد الحاضرون جميعا رأيه وقالوا : إنما تناطح بنا الجدران ، والجدران أعوان لهم علينا .

وتكلم طليحة بن خويلد فقال : « ... وأما أنا فأرى أن تبعث خيلا مُؤدية (عليها أداتها من السلاح) فيحدقوا بهم ، ثم يرموهم لينشبوا القتال ويحمشوهم (يغضبوهم) . فإذا استحمشوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرّزوا (رجعوا) إلينا استطرادا (متظاهرين بالهزيمة) فإنا لم نستطرد لهم فى طول ما قاتلناهم . وإنا إذا فعلنا ذلك ورأوا ذلك منا طمعوا فى هزيمتنا ولم يشكوا فيها ، فخرجوا فجادّونا وجاددناهم ، حتى يقضى الله فيهم وفينا ما أحب » .

يالها من خطة بارعة ... إن طليحة يريد أن يستدرجهم خارج حصونهم ، ثم يكر عليهم ، ويلتقى بهم ... فلننظر هل تنجح الخدعة ؟ .

ها هى المعركة؟

أخذ الجميع بذلك الرأى ... فأمر النعمان القعقاع بن عمرو أن يذهب صبح الغد فيهاجم المدينة بالقوة التى فى إمرته . فإذا برز الفرس له أظهر الفرار بين أيديهم .

وتقدم القعقاع فى الجند فرمى المدينة بالنَّبل ، وأظهر العزم على اقتحام الأسوار ، وأبدى من ضروب البأس ما جعل الفرس يخرجون إليه فى حذر يصدون هجومه .

وقتل المسلمون كل من خرج إليهم ، فأثاروا حماسة عدوهم .

فخرجوا إليهم فرأوهم قلة يمكن التغلب عليها ، فاجتازوا الأسوار والحسك إليهم يقاتلونهم .

وثبت لهم القعقاع زمنا حتى لا تنكشف حيلته ، ثم ولى بجنوده مدبرا أمامهم ، فلما رأوا فراره خرجوا فى أثره يريدون القضاء عليه .

وكان النعمان قد أمر جنوده بالتقهقر إلى ماوراءمرمى النبل من حصون المدينةوأسوارها

فتراجعت القوات فى بُكرة الصبح إلى حيث استطاع أكثرها الاختفاء عن أعين العدو بمرتفع توارت وراءه .

وتابع القعقاع فراره ، وتابع الفرس مطاردته ، ملتزمين أول الأمر من الحذر ماجعلهم ينقلون أمامهم حسك الحديد يحتمون به من كرة العدو إذا حاول الرجعة لمهاجمتهم !

وكان القعقاع قد أيقن ابتعاد جند المسلمين فى تراجعهم فأمعن فى الفرار !

وأمعن الفرس فى تعقبه وقد ثبت عندهم أن هزيمة المسلمين تمت ، فلا حاجة للحذر منهم !

وتركوا حسك الحديد وراءهم .. وأسرعوا يطلبون هؤلاء الفارين ليستأصلوا شأفتهم ! واندفع الجيش كله والفيرزان على رأسه ، ليطهروا أرض فارس من أولئك العرب !. فخلت نهاوند من حماتها ، ولم يبق بها إلا حراس أبوابها .

وركب النعمان وجعل يمر على الرايات، راية راية، يشجعهم ويحرضهم ويحركهم بأحسن مافيهم ، وأن عدوهم إنما يخاطر بأرضه ، فى حين يخاطرون هم بدين الله ودينهم ، فلا يكن الفرس على دنياهم أحمى من المسلمين على دينهم .

وقال لهم النعمان: «فكل رجل منكم مسلّط على ما يليه ، فإذا قضيت أمرى فستعدوا ، فإنى مكبر ثلاثا ، فإذا كبرت الأولى فليتهيأ من لم يكن تهيأ ، وإذا كبرت الثانية فليشد عليه سلاحه ، وليتأهب للنهوض ، وإذا كبرت الثالثة فإنى حامل إن شاء الله فاحملوا معى . اللهم أعزّ دينك وانصر عبادك ، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك »

وكبر النعمان ثلاثا .. ثم اندفع واللواء فى يده ، فانقض على الفرس انقضاض العقاب



على فُريستها ،وجعل يطيح بالرءوس،ويجدّل الفرسان .فإذا هم صرعى من حوله يتخبطون في دمائهم .

والتقى الفريقان متصالحين بالسيوف ، فلم يكن يسمع إلا وقع الحديد على الحديد ! .

واستحرت الحرب وانهمرت الدماء ، فكان الناس والدواب تزلق عليها لكثرة ما تلطخ به أديم الأرض منها .

القائد يستشهد !

وبينما يشق النعمان طريقه في قلب العدو ، زلق جواده في الدماء فصرعه ...

واستجاب الله لدعائه ، فأصابه سهم في خاصرته ، واستشهد النعمان في سبيل الله ...

ورآه أخوه نُعيم هوى ، فسجاه بثوبه ، وأخذ اللواء من يده ، ودفعه إلى حذيفة بن اليمان فأقامه حذيفة مكان أخيه ، وأمره بإخفاء ما حدث حتى لا يتزعزع الناس ... وسار باللواء إلى حيث كان النعمان فأقامه .

وأقبل الليل ، والمسلمون يدفعون عدوهم أمامهم ... وقد أصاب الفرس الاعياء ، فانكشفوا وتراجعوا منهزمين ، فإذا حسك الحديد وراءهم يقف تراجعهم، فيمعن المسلمون فيهم قتلا ، فيتردى ألوفهم كأنهم الخراف المذبوحة ! .

وأراد الناجون اتقاء الحسك فانحرفوا ، فإذا من خلفهم خندق عميق أعماهم الخوف عنه وستره الظلام عنهم ، فهووا فيه بخيولهم ، فهلك منهم فيه خلق كثير قدره المؤرخون بثمانين ألفا ، غير الذين قتلوا في المعركة وكانوا ثلاثين ألفا .

تلك هي المعركة الخالدة ، معركة نهاوند ، حيث التقى ثلاثون ألفا من المسلمين بمائة وخمسين ألفا من الفرس ... وكانت النتيجة كما هي دائما وأبدا ... نصر ساحق للمسلمين ، وهزيمة ماحقة لأعدائهم .

ولقد سردناها مفصلة ، أمام أعين جيلنا الصاعد ، ليرى فيها مثالا عظيما لتاريخه المجيد،



وكيف كان المسلمون يقاتلون ، وكيف كان قادتهم يحرصون على الشهادة حرصنا الآن على الحياة .

لقد استحق هؤلاء الناس الخلود فى الدارين بما قدموا لله ، وبما أخلصوا جهادهم فى سبيله .

وإن المرء ليقع فى حيرة حين يرغب فى الكلام عن أعاجيب المعركة ... أيتكلم عن عبقرية عمر فى الاعداد لها وتوجيهها ، أم عن عبقرية النعمان فى خوضها والاندفاع فيها ، أم عن عبقرية الثلاثين ألف حين زاحفوا خمسة أضعافهم فاستخرجوهم من حصونهم ثم أبادوهم !

لاتستطيع أمة من الأمم ، أن تقدم للعالم مثالا فى الشجاعة والاخلاص مثل مثالنا هذا ... لأن الأرض لم تشهد يوما مثل محمد ، ولم تشهد يوما مثل أصحاب محمد ! .

وعلى مثل هذه الأمثلة الخالدة ، يجب أن نركز عقول أبنائنا وبناتنا فى مدارسنا وجامعاتنا ، وفى جدنا ولهونا .

إن معركة نهاوند شيء عظيم جدا ، ولكننا فى غفلة ، بما أسدل الاستعمار على عيوننا من حجب .

إن حقيقة الشعب العربى ، وحقيقة روحه نراها فى معركة نهاوند ... ولكن الاستعمار طمس عنا تلك العظمة ، حتى لاتتفتح عليها عيوننا ، وتتعلق بها قلوبنا ، فيتعذر عليه أن يعيش فى أرضنا إذا عرفنا حقيقة روحنا ، واستيقظنا على ندائها .

إن لله جنودا من عسل ؟!

وكان الفيرزان فيمن فر يطلب النجاة بنفسه ، فاندفع وحيدا شريدا يركض جواده نحو همذان ، يرجوا الاحتماء بها .

ورآه نُعَيْم بن مقرّن فدفع القعقاع بن عمرو فى أثره ، فأدركه القعقاع حين انتهى إلى

ثنية همذان ، إذ كانت دواب من الحمير والبغال تحمل العسل ، سائرة في الثنية بين الجبال ، فسدت على القائد الهارب طريقه .

فترجل يريد النجاة في الجبل ، فاتبعه القعقاع وأدركه وقتله .

وعرف المسلمون يومئذ ماحدث فقالوا : « إن لله جنوداً من عسل » ... فصارت مثلا .

أموال تتدفق !

ودخل حذيفة نهاوند بعد المعركة بجيشه ، واستولى على مافيها من الغنائم ... ودفعها إلى السائب الذى عينه عمر على الفىء .

وقد بلغت الأنفال يومئذ مبلغا فاق كل ماتوقعه المسلمون ، حتى بلغ نفل الفارس ستة آلاف ، ونفل الراجل ألفين ! .

وكان كسرى قد استودع صاحب المعبد الذى به بيت النار جواهر أعدها للزمان ، فجاء صاحب بيت النار مستأمنا لنفسه ولمن شاء على أن يدل حذيفة على تلك الكنوز .

فلما أمنه حذيفة ، أخرج له سَفَطين مملوءين جوهرا ثمينا لايقوّم .

ورآهما المسلمون ، فرأوا أن يجعلوهما لعمر خاصة .

وحمل السائب بن الأقرع السفطين ، وخمس الفىء ، وسار إلى المدينة .

فما فعل النّعمان ؟

لم يكن عمر أثناء تلك المعركة يذوق النوم إلا قليلا ، ثم يقضى الليل كله يستنصر الله لجنده .

فلما كانت تلك الليلة التى قدر للقائهم ، جعل يخرج ويلتمس الخبر ، وقد ألقى فى روعه أن الله نصر جنده ! .

وكان حذيفة قد بعث طريف بن سهم ليسرع بالخبر إلى المدينة ، فلما بلغها وسأله عمر ذكر له ماأنعم الله به على المسلمين من نصر وفتح .

ثم خرج عمر فى جماعة من أصحابه وكله الشوق أن يقف على تفاصيل المعركة ، فأمعنوا فى الطريق الذى يؤدى إلى فارس ... فبصروا عن بعد براكب توسّم عثمان بن عفان أنه السائب بن الأقرع .

فلما دنا منهم وسلم عليهم قال له عمر : ماوراءك ؟ .

قال : البشرى والفتح .

وسأل عمر : فما فعل النعمان ؟

قال : زلت فرسه فى دماء القوم فصرع فاستشهد .

قال عمر : إنا لله وإنا إليه راجعون .

ثم بكى حتى نشج ، وكأنما أصيب فى أعز عزيز لديه !

فلما سكنت عنه ثورة حزنه سأل السائب عمن قُتل من المسلمين ، فذكر له أعيان الناس وأشرافهم .

ثم قال : وآخرون من أفناء الناس لايعرفهم أمير المؤمنين .

قال عمر : وماضرّهم ألا يعرفهم عمر ! لكن الله يعرفهم ، وقد أكرمهم بالشهادة ! ومايصنعون بمعرفة عمر ؟! .

وبكى عمر ، وهو يردد ذلك ... بكى تأثرا لفعال أولئك الشهداء الذين لقوا ربهم ، لايعرفهم عمر ، وإنما يعرفهم الله وحده ، الذى خرجوا فى سبيله ، وابتغاء مرضاته .

نعم ... مايصنعون بمعرفة عمر ... إنهم يريدون الله ، ولا يريدون عمر !.

عظماء حتى فى مماتهم !!..

ماذا ولماذا ؟

وانطلق القوم والسائب معهم ، حتى إذادخلوا المدينة أدخلوا خمس الفيء إلى المسجد ، وأمر عمر نفرا من أصحابه بالمبيت فيه ليقسمه بين المسلمين متى أصبح .

وقام عمر فدخل منزله ، فاتبعه السائب فأخبره خبر السفطين ومافيهما من جواهر لاتقوّم ، وذكر له أن أهل المعركة جعلوها لأمير المؤمنين خاصة .

فقال له عمر : يابن مُلَيْكة ! والله مادروا هذا ولا أنت معهم . فالنّجاء النجاء . عَوْدك على بدئك ، حتى تأتى حُذيفة فيقسمهما على من أفاءهما الله عليهم ! .

فانطلق السائب راجعا حتى انتهى إلى حُذَيفة فباعهما ، فأصاب أربعة آلاف ألف ، قسمها بين من أفاءها الله عليهم ، فنال كل فارس منها أربعة آلاف درهم ، غير ستة الآلاف التى أصابها من قبل .

فماذا فى تلك الأقصوصة ، ولماذا رد عمر المال الذى أهدته الأمة إليه عن رضى وتقدير؟ .

إن عمر لايرى لأربعة ملايين دينار تهدى إليه من شعبه تقديرا لتفانيه فى خدمته ، شيئا يستحق الالتفات ، فيرفض الهدية فى غضب شديد ، ويأمر بسرعة ردها إلى حيث تقسم فى المحاربين ! .

المال لا وزن له عند عمر ... ولو بلغ اربعة ملايين من الدنانير ... ولو بلغ ملء الأرض ذهبا !

لماذا ؟ ... لأن عمر يرجوماعند الله ، ويعلم ماذا أعد الله لعباده المخلصين ، ومن عرف هذا أبى أن يستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير .

أين هذا الذى كان من عمر مما يفعله أولئك الصعاليك الذين يبيعون دينهم وأوطانهم وشعوبهم من أجل منافعهم الشخصية ، أومطامعهم الدنيئة ؟ .

ثم انظر إلى التفاعل الكريم بين الشعب وحاكمه؟ الشعب يقرر أن يتنازل عن الملايين الأربعة لعمر وعمر يقرر أن يردها إلى الشعب فورا وبلاابطاء ! .

شفافيه عجيبة ، وعواطف كريمة ، من الطرفين !.

الاستسلام بالجملة !

ورأى أمراء فارس ما كان بنهاوند ... فجاءوا سراعا يطلبون الصلح ، وأقروا بالخراج والجزية ، وسألوا الأمان على أنفسهم وأموالهم وأولادهم ، فصولحوا على ما طلبوا .

وصالح حذيفة بن اليمان بلدة ماه ، وأعطى أهلها عهدا «بالأمان على أنفسهم وأموالهم وأراضيهم ، لا يُغَيرون عن ملة ، ولا يحال بينهم وبين شرائعهم ، ولهم المنعة ماأدّوا الجزية فى كل سنة إلى من وَلِيَهم من المسلمين ، وعلى كل حالم فى ماله ونفسه على قدر طاقته ... »

ماذا نأخذ من نصوص تلك المعاهدة ؟ ... نأخذمنها أن المسلمين الفاتحين ، لم يقهروا الفرس على الاسلام ، وإنما ضمنوا لهم حرية الأديان ، وتركوهم يعبدون النار لا يحال بينهم وبين شرائعهم ... ولوشاءوا لاضطروهم إلى مايشاءون ، ولكن الاسلام يقرر حرية الأديان وحرية العقائد .

فتح الفتوح

وهكذا كانت نهاوند من فتح فارس ، ما كانت القادسية من فتح العراق العربى ، لم يقم للفرس بعدها قائمة ، لذلك سماها أهل الكوفة فتح الفتوح .

ورأى عمر ماأصاب الفرس بهزيمة نهاوند ، من انحلال واضطراب ، فأسرع يجهز على ماتبقى من بلادهم ، ودفع قواته فى سائر ولاياتهم حتى لا يبقى فيها لمقاومة أثر .

لذلك عقد بنفسه ألوية ، عهد إلى أصحابها بالانسياح فى أرض فارس جميعا .

فجعل لواء خراسان إلى الأحنف بن قيس .

ولواء أردشير وسابور إلى مُجاشع بن مسعود السُّلَمى .

ولواء إصْطخر إلى عثمان بن أبى العاص الثقفى .

ولواء دَرَابجِرْد إلى سارية بن زُنيم الكناني .

ولواء كَرْمان إلى سهيل بن عديّ .

ولواء سِجِسْتان إلى عاصم بن عمرو .

ولواء مُكْران إلى الحكم بن عمرو التغلبي .

وأمرهم أن يكونوا على أهبة المسير إلى هذه الأمصار والولايات .

واندفعت جيوش عمر تتم الاستيلاء على بقايا الامبراطورية الفارسية !

تصفية الإمبراطورية الفارسية !

كانت فارس يومئذ ولايات استقر فى كل ولاية منها أمير من أمرائها المحاربين ، فنصب نفسه ملكا عليها ، واستقل بإدارة شئونها ، ثم اجتمعت هذه الولايات فى اتحاد قام كسرى على رأسه ، وتولى توجيه شؤونه العامة ، واتخذ « الملك الأعظم » لقباله . وقاتل الفرس الدول المجاورة لهم فى الشرق والغرب فانفسح سلطانهم . وتدفقت إليها الأموال من مختلف الأرجاء فى البلاد المفتوحة تدفقا نزع بأهلها إلى الترف ، فأخذوا من أسبابه بأعظم حظ وأوفى نصيب .

وكان يزدجر مقيما بالرى حين دخل العرب نهاوند وهمذان ، فلما رآهم اقتربوا من مقره خف، إلى اصبهان يحرض أهلها على المقاومة ! .

وبلغ ذلك عمر فأمر بالسير إلى أصبهان ، وكان يأمل أن يتولى يزدجرد الدفاع عنها فيقع أسيرا ، فتتحطم بأسره مقاومة الفرس كلها .

وشاور عمر الهُرمزان فقال له : ماترى ؟ أبدأ بفارس أم بأذربيجان أم بأصبهان ؟ .

وأجابه الهرمزان : إن فارس وأذربيجان الجناحان ، وأصبهان الرأس ، فإن قطعت أحد الجناحين قام الجناح الآخر ، فإن قطعت الرأس وقع الجناحان ، فابدأ بالرأس .

وأخذ عمر بهذا الرأى ، فأمر بالسير لفتح أصبهان .

واستولى المسلمون على أصبهان ، ودخل أهل أصبهان فى الذمة ! .

سقوط مدينة النار !

واجتمع أهل الشمال للدفاع عن الرى ، فقد كانت العاصمة الكبيرة لتلك الأرجاء ، والحصن الحصين تلوذ به وتلجأ إليه .

وكان بها من المعابد القائمة حول بيوت النار ، ما جعل نفوس كثيرين تهوى إلى زيارتها فى المواسم الدينية ، وترى فى الاعتداء عليها اعتداء على قدس يجب الدفاع عنه .

ثم إنها كانت ، بموقعها من الأقاليم المحيطة بها ، ملتقى تجارة واسعة تجلب إليها من الشرق ومن الغرب ، وتجعل أهلها فى رخاء ورفاهية .

وتناوش الفريقان ... فلما كان الفجر برزت خيول المسلمين بالمدينة ، وعلت أصوات الفرسان بالتكبير ، فأيقن الفرس حين سمعوه أنهم أخذوا على غرّة من ورائهم فانهزموا !!

فأتبعهم المسلمون يُمعنون فيهم قتلا !.

أرأيت ؟... هذا نصر الله ... هؤلاء جنود الله ، يمضون فى الامبراطورية شرقا وغربا ، كما يمضى السكين فى قالب الزبد ! .

٣٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار أخرى تتدفق !!

واستفاء المسلمون من الرى نحوا من فىء المدائن ... نحوا من ٣,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار ... وكتب القائد إلى عمر بالفتح ، وبعث اليه بأخماس الفىء !.

ماهذا ؟... وأين النار التى تعبدون يا أهل فارس ؟ لماذا لم تدفع عنكم بلهبها المقدس هؤلاء العرب ؟.

وسكتت النار ، ولم تجب !!.

ولو أن الفرس كانوا يعقلون ماعبدوها .. ولكنهم قوم مغفلون !.

ومالنا نعيب الفرس فى عبادة النار ، وهناك أمم بأكملها حتى يومنا هذا ... فى عصر الفضاء ... مازالت تعبد ما هو أحط من النار ؟ .

ماذا يعبد الشيوعيون ؟... لايعبدون شيئا .. اتخذوا إلههم هواهم !!.

ماذا تعبد أمم بأكملها فى شرق آسيا ؟ يعبدون أصناما ، وأوهاما ؟.

ماذا يعبد الملايين من أبناء افريقيا الذين لم تصلهم رسالة الله ، رسالة الاسلام ؟... لا شىء !..

وإلى متى سيظل هذا المخلوق المسمى بالإنسان ضائعا ، لايعرف ربه الذى خلقه ، ولا يعرف إليه الطريق الصحيح بلا التواء ؟.

حتى يستيقظ المسلمون ، ويعلموا أن عليهم أداء رسالة حملهم إياها رب العالمين ... عليهم تبليغها إلى كل إنسان على ظهر هذه الأرض ؟.

وكيف السبيل إلى ذلك ، والمسلمون كما ترى ضائعين ، حالمين ، لايشعرون أيان يبعثون ؟

السبيل إلى ذلك أن يعود المسلمون كما كان يفعل أسلافهم هؤلاء الذين نقرأ سيرتهم فى هذه الصفحات الآن ... رجالا لايخشون فى الله لومة لائم ... يبلغون رسالات الله ... يقاتلون فى سبيل الله ، تنفيذا لتوجيه رسولهم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ...

ثم ماذا ؟... ثم أقام المسلمون رجلا من الفرس مرزبانا على الرى ، بعد أن هدموا قلاعها ، وخربوا حصونها ، وأمروا ببناء مدينة جديدة بجوار مدينتهم العتيقة .

الجميع يطلبون الصلح !

كان نصر المسلمين بالرى حاسما ، لذلك أسرعت المدن والأقاليم القريبة منها تطلب الصلح وتؤدى الجزية .

ولم يبق بين المسلمين وشواطىء بحر قزوين من أرض فارس غير جرجان وطبرستان وأذربيجان .

وكاتب قائد المسلمين ملك جرجان يدعوه إلى الصلح أو يسير اليه بجنوده ...

فماذا كان من الملك الفارسى ؟... بادر فصالحه عن دهستان وجرجان على الجزية يؤديها أهلها ، ولهم الذمة والمنعة والأمان ، على أنفسهم ، وأموالهم ، ومللهم ، وشرائعهم.

وأدمج فى هذا الصلح نص لم يؤلف من قبل : « ومن استعنا به منكم فله جزاؤه على معونته ، عوضا عن جزائه » .

وهذا النص غاية فى الصراحة على أن الجزية إنما كانت تفرض مقابل منع المسلمين من تغلبوا عليهم ، فإذا دفع هؤلاء عن أنفسهم ، أو أعانوا المسلمين كان لهم جزاؤهم .

أى أن هذا النص صريح فى أن أهل الذمة إذا قاتلوا عدوهم وأعانوا المسلمين على قتاله سقطت عنهم الجزية .

وهو نص هام ينبغى الالتفات إليه ، وإدامة النظر فيه .

وآثر كذلك ملك طبرستان الصلح وراسل قائد المسلمين فى ذلك ... فتوادعا وتصالحا على طبرستان وجبل جيلان ، بأن يدفع أهلها جزية كل عام ، وهم من بعد ذلك آمنون لا يغار عليهم ، ولا يتطرق أحد إلى أرضهم إلا بإذنهم .

أرأيت ؟ ... نفس الاسلوب ... الجزية ولهم الحرية التامة بعد ذلك فى كل شىء ... فى أموالهم ، عقائدهم ، فى أنفسهم ، فى أراضيهم...

وما هذه الجزية إلا ضريبة دفاع بلغة العصر الحديث، تدفع ليكون منها نفقات التسلح والجيوش الاسلامية التى تقوم بالدفاع عن الأراضى الشاسعة ، واقرار الأمن فيها .

وها هى أذربيجان هى الأخرى ، ذات الجبال العالية التى تبلغ قممها أربعة آلاف من الأمتار أحيانا تستسلم هى الأخرى ...

وصالح القائد العربى عليها ، وأعطى أميرها كتابا بالأمان لأهلها ، وجبلها وحواشيها وشفارها وأهل مللها ، على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم ، على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم !.

وكلمة أذربيجان بالفارسية معناها أرض النار أو معابد النار ، وإنما أطلق على هذا الاقليم هذا الاسم لكثرة معابد النار التى كانت قائمة به ذلك الحين .

وسقطت معابد النار مرة أخرى ، بأيدى الذين يعبدون الله ، ولا يشركون به شيئا!.

عمر يقرر مبدأ خطيرا ؟

وتابع المسلمون سيرهم فى شمال فارس ...

وكان على بحر قزوين إلى جانب أذربيجان فرضة يقال لها باب الأبواب ، وكانت محصنة ، قد وضعت على أفواهها سلاسل ، فلا مخرج لسفينة منها ولا مدخل لسفينة إليها إلا بإذن .

وكان أمير الباب يدعى شَهْرَبراز .. فلما عرف مقدم المسلمين كتب إلى أميرهم

عبد الرحمن بن ربيعة واستأمنه ... ثم قابله وقال له : « إنى بإزاء عدو كلب ، وأمم مختلفة . ولست أنا من القبج ولا من الأرض فى شىء . وإنكم قد غلبتم على بلادى وأمتى ، فأنا منكم ويدى مع أيديكم ، وجزيتى إليكم ، والنصر لكم ، والقيام بما تحبون ، فلا تذلونا بالجزية ، فتوهنونا بعدوكم » .

أرأيت ؟ ... إن الرجل يطلب أن يعفى من الجزية ، لأنه سوف يحارب أعداء البلاد مع المسلمين ؟ !

وبعث به عبد الرحمن إلى سُراقة بن عمرو ، وكان الأمير على الجيش ... فأعاد عليه شهربراز حديثه الذى حدث به عبد الرحمن .

فماذا كان جواب القائد المسلم ؟ ... قبل منه ، فأعفى من يقوم مع المسلمين فى حرب العدو من الجزية ، أما من أقام ولم ينهض فعليه الجزية .

مبدأ خطير جدا ... وتطور هام فى فلسفة الجزية ...

وصار ذلك سنة فيمن يحارب العدو من المشركين ! .

وقد كتب به سراقة إلى عمر بن الخطاب ، فأجازه وحسنه .

ما هذا ؟ ... إن عمر يتطور مرة أخرى ... لقد فرضت هذه الجزية ، لتكون من حصيلتها الأموال اللازمة لاعداد الجيوش المدافعة عن تلك الأقطار الواسعة ... وها هى الفتوحات تترامى وتتلاحق ، مما يجعل أهل الدعوة من العرب ، لقلة عددهم ، قد يعجزون عن الدفاع عن تلك البلاد المترامية ، فلماذا لا ينهض أبناء كل بلد للدفاع عنه ، وهم أولى بذلك من غيرهم ...

إلا أن هؤلاء وقد غلبوا على أمرهم ، ليس من السهل أن يتحولوا جميعا إلى أصدقاء للفاتحين فى مثل هذه السرعة ... فلنترك لهم الحرية إذا ، من شاء قاتل دفاعا عن بلده وسقطت عنه الجزية ... ومن شاء دفع الجزية ولم يقاتل .

أرأيت ؟ ... حرية تامة عامة ... فى العقائد ، فى الأموال ، فى الأنفس ، فى البلاد ، فى الحرب فى السلام ...

لقد كان هؤلاء الناس رحمة للعالمين ... جاءوا إلى امبراطورية فارس ... ففتحوها من أطرافها ... ثم تركوها بأيدى ابنائها لقاء دريهمات يدفعوها نظير الدفاع عنهم ! .

وهكذا تحطمت مقاومة الشمال الفارسى كله ... وجاء ملوكه ومرازبته يسارعون يطلبون الصلح ... فتقبل طائفة منهم الجزية ، وتفضل طائفة أن يقف القادرون من أبنائها محاربين فى صف المسلمين ، لتُعفى من ذلّ هذه الجزية .

الإيمان قوة لا تقهر !

وفى هذه الأثناء مات سُراقة أمير الجيش ، واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة .

وخرج عبدالرحمن يريد غزو الترك ! .

فقال له شهربراز : إنا لنرضى منهم أن يدعونا من دون الباب .

وأجابه عبدالرحمن : لكنا لا نرضى منهم بذلك ، حتى نأتيهم فى ديارهم . وتالله إن معنا لأقواما لو يأذن لنا أميرنا فى الإمعان لبلغت بهم الروم ! .

عجبا ! ... إن عبد الرحمن ، أمير الجيش ، يريد أن يواصل الزحف ، ليفتح بلاد الترك كما فتح بلاد فارس ...

إن نفسه تواقة مشتاقة إلى الفتح ، إلى مواصلة الزحف ، إلى البحث عن الشهادة ...

إنه لايريد أن يقف ... إنه يقسم لوأذن لهأمير المؤمنين بالزحف ، لزحف برجاله حتى يبلغ عاصمة الرومان ، القسطنطينية ، فيفضها عليهم ، ويفتح وهو فى طريقه إليها ، كل ما يمر عليه من البلدان !! .

ثقة بالنفس ، أتتهم من ثقتهم بالله ! ...

وسأله شهربراز الأمير الفارسى ، عن هؤلاء الأقوام من هم ؟ .

فأجابه : أقوام صحبوا رسول الله ، ودخلوا فى هذا الأمر بنيّة ... كانوا أصحاب حياء وتكرّم فى الجاهلية ، فازداد حياؤهم وتكرّمهم ، فلا يزال هذا الأمر لهم دائما ، ولايزال النصر معهم ، حتى يغيّرهم من يغلبهم ، وحتى يُلفَتوا عن حالهم !

وهذا هو سر العظمة من هؤلاء القوم ، يكشف عنه رجل منهم فى حديثه إلى ذلك الأمير الفارسى ...

لايزال النصر معهم ، حتى يغيرهم من يغلبهم ؟!

نعم ... وهذا ماحدث ، فقد كنا منتصرين دائما ... تتهدم الممالك أمام جيوشنا ... حتى ركن المسلمون إلى الترف والدنيا ... فغلبوا هنالك ، وغيرهم عن حالهم من غلبهم ...

غيرهم الذين جاءوا وملكوا بلادهم عليهم ... غيرهم الاستعمار ، وحول حالتهم إلى أسوأ حال .

ألقى الاستعمار فى نفوسنا حب الخنوع ، وحب القعود ، وكره القتال والجهاد ...

وتحولنا إلى أخلاق العبيد المستضعفين ، بعد أن كنا على أخلاق السادة الآمرين .

وكان مانرى من سوء أحوالنا !.

أفيلسوف هذا الرجل ؟... بل أكبر من فيلسوف ، إنه تربى فى جامعة رسول الله !.

الانسياح فى فارس كلها ؟

لم يكد نُعَيْم بن مقرّن يفتتح الرى حتى أذن عمر للأمراء الذين عقد لهم الألوية أن ينساحوا فى أرض الفرس كلها .

فاندفعت القوات المعسكرة بأصبهان إلى خراسان .

وتدفقت قوات من البصرة ، ومن البحرين إلى فارس وكرمان .

وسارت الأمداد من بلاد العرب تعزز الجيوش المنتشرة فى مختلف الأرجاء من أرض كسرى .

وكذلك أصبحت بلاد كسرى من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب مسرحا لحرب عوان ، وكانت جيوش المسلمين فى كل غزواتها قلة أبدا ، ثم كانت مع ذلك منتصرة فيها جميعا .

وكان الملك الشريد الطريد كسرى يزدجرد يتتبع أنباء هذا القتال حيثما كان ، فلا يرى لنفسه ملجأ يأوى اليه ليستقر فيه ، بل يضطر إلى الاعتصام بمدينة بعد مدينة .

وسقطت إصْطَخْر ، العاصمة الدينية للفرس ، وفتحت أبوابها ، ودخلها المسلمون ، وقبلت الجزية والذمة ، ونزلوا جميعا على حكم الغزاة ...

وتحطم مابقى من قوة معنوية فى نفوس الفرس، حتى لقد انتقل عثمان بن أبى العاص من البحرين لنجدة أخيه ، فكان يسير من هذا الإقليم الفسيح حيث شاء فلا يلقى مقاومة تذكر ! .

ياسارية ... الجبلَ الجبلَ؟

وقصد سارية بن زنيم إلى مدينة فَسَا ، ودرابجرد ، فلما انتهى إلى عسكر الفرس بهما نزل عليهم وحاصرهم وأطال حصارهم .

فاستمدوا فاجتمع اليهم أكراد فارس ، وأتاهم الفرس من كل جانب ، فلما صاروا فى قوة لاقبل للمسلمين بها ، عزموا مهاجمتهم فى غدهم .

ورأى عمر بن الخطاب تلك الليلة فيما يرى النائم، انبلاج الصبح وابتداء المعركة وموقف الفريقين وعددهم . وأن المسلمين بصحراء إن أقاموا فيها أحيط بهم ، وإن لجئوا منها إلى جبل هناك جعلوه خلفهم لم يُؤْتَوا إلا من وجه واحد ، فكان ذلك أكفل لنصرهم .

فلما أصبح وكان فى الساعة التى رأى فيها مارأى ، أمر مناديه فنادى : الصلاة جامعة. ثم قام فى الناس فقال : أيها الناس ! إنى رأيت هذين الجمعين . وأخبرهم بما رأى . ثم صاح وهو يخطب : ياسارية بن زَنَيم ! الجبلَ ، الجَبلَ ! .

ثم أقبل على الناس وقال : إن لله جنودا ، ولعل بعضها أن يبلغهم ! .

فى تلك الساعة أجمع سارية ومن معه على الاستناد إلى الجبل ، ففعلوا وقاتلوا الفرس من وجه واحد ، فظفروا بهم ، وقتلوا منهم ، واستولوا فى المغانم على سَفَط فيه جواهر استوهبه سارية من الجند وبعث به وبالفتح إلى عمر ! .

وجاء رسول سارية المدينة ، وذكر له نبأ السفط وأن سارية استوهبه من المسلمين وجعله لأمير المؤمنين ، فتجهم عمر وصاح به : لاولا كرامة ، حتى تقْدَم على ذلك الجند فتقسمه بينهم ، وفتح الباب يطرد الرجل من بيته ! .

ويروى أن أهل المدينة سألوا رسول سارية إذ كان بين أظهرهم : هل سمعوا بفارس شيئا يوم الوقعة ؟.

فقال : نعم ! سمعنا : «ياسارية الجبلَ الجبلَ » ، وقد كدنا نهلك ، فلجأنا إليه ففتح الله علينا !

مهزلة يزدجرد !

وسقط اقليم خراسان كله ... وسار الأحنف ـ قائد جيوش المسلمين فيها ـ على رأس الجيش يريد مَرْوَ الشاهجان حيث التجأ يزدجرد ، وكانت مرو عاصمة خراسان ومدينتها الكبرى .

فماذا فعل كسرى ؟ ... لم يلبث حين سمع بمسيرة الأحنف إلى مرو أن خرج إلى مَرْو الروذ ، وهى مدينة قريبة منها ، لكن الأحنف لم يمهله حتى يتحصن بها ، وإنما تابع زحفه ، وأزعج كسرى مرة أخرى ، فخرج المذكور من مرو الروذ إلى بَلخ .

وزحف المسلمون إلى بلخ ، وسقطت هى الأخرى ، ففر المذكور منها هى الأخرى .

ولم يبق ليزدجرد فى أرض مملكته موضع يقرفيه أويفر اليه ، فقد سقطت آخر بقاع الامبراطورية العتيدة فى أيدى الفاتحين ... لذلك فر هذه المرة مجتازا النهر الذى يفصل بين فارس وأرض التتار .

فنزل بسمرقند على خاقان الترك ، لاجئا اليه ! .

وهكذا تحول المذكور ، الذى كان يجلس على اكبر عرش فى العالم وقتئذ إلى لاجىء سياسى ! .

ما استيقظ الحق إلا ولى الباطل أمامه فرارا .

إياكم أن تعبُروا !

وكان المذكور قد كتب إلى خاقان الترك ، وإلى امبراطور الصين ، منذ كان بمرو ، يستمدهما ويستعديهما على المسلمين .. فلما طارده المسلمون ، فلجأ إلى خاقان الترك ،دفعت النخوة هذا الأخير لنجدته .

واتخذ خاقان الترك من لجوء كسرى اليه حجة يحرك بها نخوة قومه .

وحشد خاقان جنده وسار بهم وبيزدجرد يلقى المسلمين بخراسان .

وكان الأحنف قد كتب إلى عمر فى هذه الأثناء بفتح خراسان وبلخ .

فلما قرأ عمر كتابه فرح وصاح : « هو الأحنف ، وهو سيد أهل الشرق ! » .

ولكنه كتب إلى الأحنف : « أما بعد ، فلا تجوزنّ النهر واقتصر على مادونه . وقد عرفتم بأى شىء دخلتم على خراسان ، فداوموا على الذى دخلتم به يَدُمْ لكم النصر . وإياكم أن تعبروا فتنفضوا » .

وتلك عبقرية الحذر من عمر ... فقد سار خاقان الترك فى جنده ويزدجرد إلى جانبه فعبروا النهر إلى بلخ .

ورأى الأحنف دقة الموقف لكثرة عدوه ، كما رأى أنه إن تم له النصر فردهم إلى بلخ وإلى ماوراء النهر لم يكن له أن يعبره ، فذلك رأى أمير المؤمنين .

لهذا رأى أن ينسحب بجنوده إلى موضع يجرى نهر مرو الروذ أمامه ، ويقوم جبل من خلفه ، حتى يكون النهر خندقا بينه وبين عدوه ، ويكون الجبل حصنا يكفل له ألا يُؤتى من خلفه .

فلما أصبح جمع الناس وقال لهم : «إنكم قليل ، وإن عدوكم كثير فلايهولنكم ، فكم ، من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين .. ارتحلوا من مكانكم هذا فاسندوا إلى هذا الجبل فاجعلوه فى ظهوركم ، واجعلوا النهر بينكم وبين عدوكم ، وقاتلوهم من وجه واحد » .

وانسحب الجند إلى هذا المكان ، وأقبل الترك فوقفوا قبالتهم .

لم يكتف الأحنف بما صنع من ذلك ، بل حرص على أن يعرف الترك . وخاقانهم أمر عمر ألا يجتاز المسلمين النهر إلى بلادهم .

فبعث رجال مخابراته أذاعوا هذا النبأ فيهم .

واطمأن خاقان إلى صحة الخبر ، حين رأى المسلمين لا يحاولون اجتياز النهر إليهم ولا يدعونهم إلى قتال ، فقال لرجاله : قد طال مقامنا ، ومالنا فى قتال هؤلاء القوم من خير ، فانصرفوا بنا ! .

وارتد بالجيش .. وقال المسلمون للأحنف : ما ترى فى اتباعهم ؟ فأجابهم : أقيموا بمكانكم ودعوهم .

وترك خاقان أرض فارس إلى عاصمة ملكه .

دائما يهربون الأموال !

أين كان يزدجرد خلال تلك المعارك ؟ . كان المذكور مشغولا بأمواله وخزائنه !

كان قد خرج فى قوة فارسية إلى مرو الشاهجان ، فاستخرج خزائنه من موضعها ، وعهد إلى أمنائه فى السهر عليها ! .

فلما انسحب خاقان من مرو ، وبلغت يزدجرد الأخبار عن عزم حليفه على الانسحاب من فارس كلها إلى بلاده .. أراد أن يحمل الخزائن وأن يلحق بحليفه !

تأمل ! .. الامبراطور مشغول بأمواله .. لا ببلاده ، ولا بشعبه ... كلا ، وإنما بأمواله ، كيف يفر بها ؟! .

وكانت هذه الخزانة عظيمة ، تحوى جواهر كسرى ، وكل ما جمعه من خزائن فارس فى أثناء فراره .

وعرف أهل فارس عزم يزدجرد على حملها والفرار بها ، فسألوه : أى شىء تريد أن تصنع ؟ .

وأجابهم : أريد اللحاق بخاقان فأكون معه أو بالصين ! .

فقالوا له : مهلا ! إن هذا رأى سوء ، فإنك إنما تأتى قوما فى مملكتهم وتدع أرضك وقومك . ولكن ارجع بنا إلى هؤلاء القوم فنصالحهم ، فإنهم يلون بلادنا . وإن عدواً يلينا فى بلادنا أحب الينا مملكة من عدو يلينا فى بلاده .

هذا منطق معقول ... فهل اقتنع به المذكور ... كلا ، إن أهم شىء عنده هو المال والكنوز ، كيف يفر بها ، أما الشعب، أما مصالح البلاد فسحقا لهذا كله !

ودائما وأبدا هذا هو منطق أعداء الشعب ...

الشعب يثور ويسترد أمواله ؟

وأبى كسرى عليهم أن يأخذوا الخزائن ، وأبوا عليه أن يفر بها إلى خارج البلاد .

قالوا : فدع خزائننا نردها إلى بلادنا ومن يليها ، ولا تخرجها من بلادنا إلى غيرها .

فخالفهم كسرى ، وأصر على رأيه ...

وكانت ثورة ... وخرجوا إليه ، وثاروا به ، وقاتلوه وحاشيته ، واستولوا على خزائنه.

فماذا فعل السيد الإمبراطور ؟ ... فر فيمن معه ... وتابع فراره حتى بلغ عاصمة الترك بسمرقند !.

تلك هى حقيقة الامبراطور الذى كان يتربع على عرش الأكاسرة ... رجل فارغ كالطبل الأجوف ، مظهر لا جوهر ، لا تفكير له إلا فى أمواله ، كيف يفر بها ، وإلا فى نفسه كيف ينجو بها من القتل .

أين مثل هذا التافه من ذلك العملاق الرهيب الذى يحكم المسلمين آنذاك ... عمر بن الخطاب ؟

كان كسرى يفر بأموال الشعب بينما عمر يحرم على نفسه أموال المسلمين، وكان كسرى ينأى بنفسه أن يقتل دفاعا عن وطنه ، بينما عمر حريصا أن يستشهد فى سبيل الله ... لقد كان يزدجرد تمثيلا صحيحا لأهل بلاده ، وكان عمر تمثيلا صحيحا للمسلمين ! .

عمر يعلن هلاك كسرى ! .

وأقبل أهل فارس على الأحنف فصالحوه وعاهدوه ... ودفعوا إليه خزائن كسرى وأمواله ، ورجعوا إلى بلادهم فاطمأنوا بها .

وسار الأحنف إلى مقر قيادته ... وكان ما استفاء المسلمون فى هذه المواقع عظيما، حتى بلغ نفل المحارب مثله يوم القادسية ! .

وتدفقت الأموال مرة أخرى إلى المسلمين ! .

وكتب الأحنف إلى عمر بالفتح ، وبعث إليه بالأخماس .

فأمر عمر بالكتاب فقرىء .. ثم خطب الناس ، فكان مما قاله : « ألا إن الله قد أهلك ملك المجوسية ، وفرق شملهم ، فليسوا يملكون من بلادهم شبرا يضر بمسلم .

«ألا وإن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر كيف تعملون . والله بالغ أمره ، ومنجزٌ وعده ، ومتبعٌ آخر ذلك أوله ، فقوموا فى أمره على رجل يوف لكم بعهده ، ويؤتكم وعده ، ولا تبدلوا ولا تغيروا فيستبدل الله بكم غيركم ، فإنى لا أخاف على هذه الأمة أن تؤتى إلا من قبلكم . »

ماهذا ؟ .. هذا عمر يضع دستورا للأمة ، ويتنبأ ويتوقع ... فماذا توقع ؟ .. توقع أن تؤتى الأمة من قبل أئمتها ... وقد كان ... وكانت الفتنة والاختلاف ، لا من الشعب ، وإنما من القادة دائما ... اختلفوا ، فتفرقت الأمة .

وهذا الذى توقعه عمر ، هو سر بلائنا فى أيامنا هذه ... فبلاء الشعوب الإسلامية فى

قادتها يختلفون وراء أهوائهم ، أما الشعوب الإسلامية كلها ، فعلى قلب رجل واحد ، على إحساس واحد ، ولكن المرض هناك ، فى أصحاب الشهوات من أهل القيادات ! .

الشعب يفتك بكسرى ؟ .

فر المذكور إلى أرض الترك ... إلا أنه كان يحلم أن يعود يوما ما إلى ملك آبائه وأجداده ، فكان يراسل أهل خراسان لعلها تثور بالمسلمين ، فتكون فرصة يعود فيها إلى ملكه ...

وثارت خراسان فى زمن عثمان بن عفان ، وخيل إلى يزدجرد أن الفرصة قد أتت ، فسار من بلاد الترك حتى نزل واجتمع بمن كان يكاتبهم .

لكن المسلمين مالبثوا أن قضوا على الثورة،وأخذوا بيدهم زمام الأمر فى الأرض..

عند ذلك رأى أصحاب يزدجرد أنه لاطاقة لهم بما يريد ، فاختلفوا معه ،وانفضوا من حوله فعاد يحاول الفرار إلى حيث أتى .

لكن الفرار لم يكن هذه المرة يسيرا ، فقد تخلت عنه الأرض كلها .

وقد بث المسلمون عيونهم من الفرس ليحيطوا به ويقتادوه ، إليهم أسيرا .

وعرف الامبراطور الطريد مادبر له ، فأوى إلى طاحونة على شاطىء النهر ، وهناك قتل شر قتلة .

قيل إن أهل خراسان أحاطوا به فى ملجئه ، ثم دخلوا عليه ، فقتلوه ، وألقوا بجثته فى النهر ! .

وكانت هذه هى نهاية الامبراطور... لقد صفى الشعب حسابه معه ... وتولى بنفسه الانتقام من الرجل الذى ضيعه ! .

كيف حكم الإسلام فارس ؟

تلك الامبراطورية الواسعة الشاسعة ... التى انهارت ... وسقطت بأكملها فى أيدى المسلمين ... واستسلم امراؤها أميرا بعد أمير ... كيف حكمها الإسلام ؟

لقد رأى الفرس هذا الحكم أكثر انصافا وعدلا، وأقل ارهاقا لهم من حكم الأكاسرة
فقد تركهم العرب ولم يزعجوهم عن دينهم ، ولم يتدخلوا فى شئونهم .
ثم جعلوا لأمراء الولايات من الاستقلال أكثر مما كان لهم فى عهد يزدجرد وأسلافه .
كما تركوا المناصب العامة للفرس لم يحاولوا استغلالها لأنفسهم ...
واكتفوا بالجزية يقتضونها وفاقا للمعاهدات المعقودة بينهم وبين مختلف الولايات .
إلا أن عمر العبقرى الملهم لم يطمئن إلى ذلك كله ، فأقام المسالح فى شتى أرجائها ،
واحتاط بذلك لكل انتقاض يمكن أن تقوم به طائفة من أبنائها .
ورأى العقلاء من أبناء فارس سمو الإسلام ...
ثم رأوا أنهم يصيروا بمجرد إسلامهم أندادا للحاكمين يساوونهم ويصاهرونهم ، لهم
ما لهم وعليهم ما عليهم ...
فدخل الفرس فى الإسلام أفواجا ... وانتهت دولة الأكاسرة إلى الأبد !.

فتح مصر؟!

تحدى ؟!

لم تكن الجبهة الأخرى ، راكدة لا حراك بها تنتظر حتى تنتهى معركة فارس ... كلا ، فعمر هو عمر ، والمسلمون هم المسلمون ... على استعداد دائما أن يتحدوا العالم كله فى وقت واحد ! .

بينما كانت جيوش المسلمين تنساح فى بلاد الفرس لتجهز على امبراطورية النار ، كان عمرو بن العاص يتقدم بجنوده فى بلادنا العزيزة ، مصر الحبيبة .... يفتح مدنها ، ويجلى الرومان عنها ، ويسقط دولتهم فيها .

وذلك أقصى درجات التحدى للعالم كله آنذاك ! .

هناك تدمير لامبراطورية الشرق ، وهنا تدمير لامبراطورية الغرب ... فى وقت واحد !.

وهناك انتصارات متتابعة ... وهنا انتصارات متلاحقة ...

ويدير هذا كله ذلك الرجل البسيط الرابض كالأسد بالمدينة ، المسمى عمر !! .

متى بدأت الفكرة ؟

ولقد بدأ عمرو سيره إلى مصر فى شهر ذى الحجة للسنة الثامنة عشرة من الهجرة .

وتخطى إلى أرضها فى مستهل السنة التاسعة عشرة .

ثم سار فى قتال أهلها ، وقتال الرومان بها حذرا أول الأمر .

فلما جاءته الأمداد من أمير المؤمنين طوعت له سرعة السير ، وكانت له الغلبة والنصر ! .

وأنا أحب من كل فرد فى الجمهورية العربية المتحدة أن يحفظ تلك التواريخ لأنها أخطر شىء فى حياته كلها .

فلولاها ماذقنا الإسلام ،ولولاها ماعرفنا الله ، ولولاها لكناضائعين حتى يومنا هذا، لاندرى أين الحق فى هذه الحياة ؟ .

وكانت مسيرة عمرو إلى مصر بإذن من عمر بن الخطاب . لكن عمر لم يأذن بهذا السير إلا بعد تردد طويل .

فالمتواتر أن ابن العاص خاطب الخليفة فى غزو مصر حين فتحت بيت المقدس أبوابها ، وبعد أن صالح أمير المؤمنين أهلها فى السنة السادسة عشرة من الهجرة .

ولعل عمراً قد ذكر فى حديثه يومئذ أن قائد الروم « الأطربون » انسحب بقوات الروم من فلسطين إلى وادى النيل فمن الخير تعقبه وهو منهزم قبل أن تتاح له فرصة التحصن فى بلاد وافرة الخصب عظيمة الثروة .

ولزم ابن العاص الصمت فى أثناء المجاعة التى انتشرت فى شبه الجزيرة ، فلم يخاطب عمر فى غزو مصر .

ولما عادت شبه الجزيرة إلى مألوف حياتها ، وبرأ الشام من الوباء ، وجاء أمير المؤمنين إليها ليصلح شئونها ، وينظم جنودها ، لقيه عمرو بالجابية ، وسار معه فى أرجاء البلاد ، وعاد يحدثه فى فتح مصر ، ويدلى اليه بحجج جديدة ظن أنها تزيل تردده .

هذا الأطربون بمصر قد جمع اليه الجند وأعد للقتال العُدة ، فإذا لم يجد من يهاجمه خرج فى قواته إلى فلسطين يقاتل المسلمين .

أليس الخير أن يبغته المسلمون فى مأمنه ؟ .

وفكر عمر فيما يردده عمرو عن سخط المصريين على سلطان الرومان وأساليب حكمهم ، فلم يرفض طلب عمرو ، ولكنه استمهله حتى يكتب اليه بعد عودته إلى المدينة .

وأقام ابن العاص ينتظر هذا الكتاب ويدبر فى أثناء انتظاره خطة الزحف إلى مصر!

كيف كانت مصر ؟

كان خصب مصر (١) ، ووفرة إنتاجها مضرب المثل فى العالم كله .

وكان الفائض عن حاجات أهلها من القمح والشعير والحبوب يغذى الامبراطورية الرومانية .

---

(١) انظر « الفاروق عمر ١ ، ٢ » للدكتور محمد حسين هيكل .

ثم إنها كان بها غير الغلال أرزاق لا تحصى .

وكانت ثروتها من الأحجار والمعادن فوق الحصر .

وكانت أعظم مركز فى العالم اجتمع فيه العلم والفن والصناعة والزراعة والتجارة !

وكانت عاصمتها الاسكندرية ... اجتمع فيها البهاء والجمال... فكان سكانها يزيدون على المليون ، وكانوا يمثلون الأجناس والعقائد المختلفة المعروفة لذلك العهد ، فلم يكن المصريون الخُلّص منهم يزيدون على نصفهم ، وكان النصف الآخر من الروم واليونان والفينيقيين والعرب وغيرهم ! .

ومن هؤلاء من كانوا يدينون باليهودية ، ومنهم من كانوا يدينون بالمسيحية ، وكلهم يعيشون فى جو المدينة الساحر ، مطمئنين إلى رخائها وعظمتها .

كانت منارتها الكبرى ، منارة فاروس ، إحدى عجائب الدنيا السبع ! .

وكان بها من المعابد الضخمة ، وساحات الفن الفسيحة ، والقصور الفخمة ،والمسارح، والحمامات العامة ، شيئا كثيرا جدا .

وكان ذلك كله يثير دهشة السائح القادم إليها من أعظم المدن رقيا وحضارة .

وكانت أكبر أسواق العالم ، وأكثر موانئه ازدحاما بالحركة .

وكانت ميناؤها أكبر موانى العالم ، وصناعة السفن بها أكبر صناعاتها .

كانت ميناؤها تتسع لاثنى عشر ألف سفينة من مختلف الأحجام ، وكان بناء السفن فيها متصلا لا ينقطع فى يوم من أيام العام .

وكان يبنى بها من السفن الحربية نوعان : أحدهما ضخم تحمل السفينة منه ألف رجل، والآخر خفيف تحمل السفينة منه مائة رجل .

أما السفن التجارية التى كانت تصنع بالاسكندرية فكان بعضها يبلغ من الضخامة أن يحمل أربعة آلاف إردب من القمح ، وكان الكثير منها يسير بالتجارة فى البحر الأحمر .

مركز الإشعاع ؟

دائما وأبدا هذا البلد ... بلدنا الحبيب الكريم ... دائما وأبدا هو مركز الإشعاع فى كل زمان ...

لم يكن النشاط التجارى والصناعى كل ما امتازت به الاسكندرية على غيرها من مدن العالم ، فقد كانت منذ أنشأها الإسكندر الأكبر واستقر بها البطالسة إلى أن فتحها العرب ، مركز النشاط العقلى والعلمى فى العالم كله .

صحيح أن هذا النشاط كان يخبو أحيانا ، ويضطرب أحيانا أخرى ، وأن بعض المدن كانت تشارك فيه الاسكندرية أحيانا ، وبخاصة أيام حكم الرومان مصر .

لكن العاصمة المصرية ظلت دائما مرجع هذا النشاط ، وظل أبناؤها من العلماء والشعراء والكتاب وأرباب الفن يوجهون الحياة العقلية فى العالم عشرة قرون كاملة .

وإليهم يرجع الفضل فى نشر الثقافة الإغريقية التى سبقت انشاء مدينتهم ، وفى إقامة مذاهب جديدة يمت بعضها بأوثق الصلة إلى مذاهب الإغريق ، ويخالف بعضها هذه المذاهب ، ويستقل بعضها بنفسه كل الاستقلال .

ولم يكن ذلك عجبا ، وقد كانت الاسكندرية ملجأ العلماء ورجال الفن والأدب من كل أمة وملة ، وكان بها من المكتبات العامة ومن مناهل العلم ومدارسه مالم يكن لغيرها .

وقد سمت مدرسة الطب فى الاسكندرية إلى مكانة لم تسمُ إليها مدرسة أخرى فى العالم كله .

فكان الأطباء الذين يتخرجون فيها مشهودا لهم ، وكانوا موضع الاكبار حيثما نزلوا من بقاع الأرض .

كذلك ازدهرت فيها دراسات الفقه والإلهيات ازدهارا بدا واضحا فى المذاهب الفلسفية التى اختصت بها مدرسة الإسكندرية ، والتى حاولت التوفيق بين المسيحية فى أساسها الروحى ومذاهب الأغريق الفلسفية المستندة إلى منطق العقل وحده .

وكان الفلك والرياضة وتقويم البلدان والهندسة من فروع العلوم التي تدرس في معاهدها .

لاعجب وذلك شأن العلوم والآداب أن تزدهر الفنون وأن يزداد أهلها براعة وأن تظهر آثارها في نشاط أهل الإسكندرية وفي حياة مدينتهم .

وقد اشتهرت مصر منذ عهود الفراعنة الأولين ببراعة بنيها في هندسة العمارة ، فكان طبيعيا أن تجمع عمارة هذا العهد المسيحي بين جلال المعابد القديمة وزخرف العمارة الأغريقية. وأن تجمل مباني الاسكندرية بالرمر المصري البديع ونقوش الفسيفساء ذات الألوان ، والفسيفساء الزجاجية .

والحق أن تنظيم الاسكندرية وعمارتها كانا من الروعة بما يقف النظر ويبهر الفؤاد . فقد خططت على صورة رقعة الشطرنج : ثمانية طرق تجري بين الغرب والشرق ، تقاطعها ثمانية أخرى تجري من الشمال إلى الجنوب ، والطريقان المتوسطان منها فسيحان تقوم على جانبيهما أفخم مباني المدينة .

وكانت أسوار المدينة وحصونها وقصورها وكنائسها مشيدة من مرمر ناصع البياض يعشى النظر دونه ، فكان ظاهر أكثرها يغطى نهارا بنسيج أخضر من صناعة مصر . هذه صورة عن عاصمة مصر لذلك العهد ، وهي تشهد بترف أهلها وسمو مكانتهم في الحضارة .

ثم هي بعد هذا وذاك خير دليل يرفع في وجود الدول الاستعمارية التي كانت تركز في عقول المصريين أنهم بلد زراعي لايصلح لشيء غير الزراعة ! .

فكيف أيها المستعمرون صلحت مصر في عهد الرومان أن تكون أعظم بلد صناعي زراعي تجاري ثقافي في العالم ، ولاتصلح الآن أن تمثل الدور نفسه ؟ -

لقد كانوا مجرمين أفاقين ، نسجوا هذه الأسطورة ليتمكنوا من ورائها من استنزاف بلادنا العظيمة .

والآن وقد قامت فى البلاد إرادة الشعب ، وانبعثت بلادنا الحبيبة تبنى نفسها ، وتسترد مكانها الحقيقى تحت الشمس ...

الآن تعود مصر إلى سالف تاريخها العظيم ، مركزا للاشعاع ، مركزا للتوجيه ، مركزا لاستعادة مجد العرب ، مجد الإسلام ، مركزا للصناعة ، مركزا للقوة الدولية . . إن شاء الله...

اضطهاد وتعذيب ؟!

وكان الاضطهاد الدينى منتشرا فى مصر وفى عاصمتها حين كان ابن العاص يحاول إقناع أمير المؤمنين بفتحها .

ذلك أن هرقل لم يلبث ، حين انتصر على الفرس وأعلى الصليب فى بيت المقدس ، وحين رأى العالم المسيحى كله ينظر اليه لينقذ المسيحية مما ألم بها ، أن فكر فى توحيد المذاهب المسيحية وصوغها مذهبا واحدا .

وقد تحدث فى هذا الأمر إلى بطارقة الشام وبزنطية ، ممن يمثلون شتى المذاهب المسيحية ، ثم دعاهم إلى مجمع « خلقدونية » فأقروا مذهبا مسيحيا موحدا .

عند ذلك جعل بطركة الدين فى الاسكندرية لقيرس أسقف فاسيس فى بلاد القوقاز وطلب اليه أن يحمل أهل مصر على اعتناق المذهب الرسمى « الموحد » .

وكان بنيامين كبير أساقفة القبط بمصر إذ ذاك ، وكان حبيبا إلى الناس ، عزيزا عليهم ، وكان رجلا ذكيا محبا للخير والفضل ، شديد التعصب للمذهب المسيحى الذى يؤمن المصريون به ، مذهب اليعاقبة الذى يقول : « إن الطبيعة الإلهية والبشرية امتزجتا فى المسيح فصارتا فيه طبيعة واحدة ، فكان عند التجسد ذا طبيعتين ، أما بعده فصار ذا طبيعة واحدة » . وهذا المذهب يخالف مذهب الملكانية الذى يقول : « إن الابن مولود من الأب قبل الدهور غير مخلوق ، وهو جوهره ونوره . والابن اتحد بالانسان المأخوذ من مريم ، فصارا واحدا وهو المسيح » !

فلما قدم قيرس الاسكندرية فى خريف سنة ٦٣١ م ، ليحمل أهل مصر على اعتناق المذهب الرسمى ، فر بنيامين من الإسكندرية ، وسار متخذا من الأديار المنتشرة بالصحراء ملجأه حتى بلغ قوص ، وهناك أقام بدَيْر صغير قريب منها ، قائم فى الصحراء تحميه الجبال فلا يسهل الوصول إليه ! .

وازداد الناس نفورا من المذهب الجديد حين جاء صُفْرنيوس من بيت المقدس إلى مصر ، وقام على رأس الملكانيين فيها .

لجأ قيرس إلى البطش والتعذيب ، ولج فى « الاضطهاد الأعظم » عشر سنوات حُسوما .

وكان التعذيب وحشيا لم يعرف عصر من العصور مثله !

عُذِّب أخو الأسقف الأكبر بنيامين بأن أوقدت له المشاعل وسلِّطت على جسمه ، فأخذ يحترق حتى سال دهنه من جانبيه وإلى الأرض ، فلما لم يتزعزع إيمانه خلعت أسنانه ووُضع فى كيس مملوء بالرمل وحملَ إلى الشاطىء ! .

ثم عرضت عليه الحياة إذا آمن بالمذهب الجديد فأبى ! .

وتكرر العرض وتكرر الإباء مرات ثلاث ، ألقى العابد بعدها فى البحر فمات غرقا ! .

ماذا حدث للأب صمويل ؟!

وتلقى الأب صمويل فى ديره بالصحراء كتابا يحمله إليه أمير فرقة عدتها مائة جندى يدعوه إلى المذهب الجديد ، فمزق صمويل الكتاب وقال : « ليس لنا من رئيس إلا بنيامين ، ولعنة الله على ذلك الكتاب الكفَّار الذى جاء من الامبراطور الرومانى ، ولعنة الله على مجمع خلقيدونية وكل من آمن بما أقرَّه » ! .

وضُرب صمويل حتى ظُنَّ أنه مات ، لكنه عاد إلى نفسه وإلى محاربة قيرس .

وأمر قيرس فجيء به مكتوف اليدين من خلاف وفي عنقه طوق من الحديد .
فسار مستبشرا وهو يقول : « سأمنح إن شاء الله اليوم الشهادة بأن يسفك دمي في سبيل المسيح » ، ثم جعل يسب قيرَس لا يخشى شيئا .

ودخل على قيرس فأمر جنده أن يضربوه حتى سال دمه ، ثم قال له : « صمويل أيها الزاهد الشقي . من ذا أقامك رئيسا للدير ، وأمرك أن تعلم الرهبان أن يسبوني ومذهبي ؟ » .

وأجابه العابد : « إن البر في طاعة الله وطاعة وليه البطريق بنيامين ، لا في طاعتك والدخول في مذهبك الشيطاني ، يا سلالة الطاغوت ! ويا أيها المسيخ الدجال ! » .

وأمر قيرس جنده بضرب صمويل على فمه وقال له : « لقد غرك يا صمويل أن رهبانك يجلّونك ويُعلون من شأن زهدك ، ولهذا تجرأت وقويت نفسك . ولكني سأشعرك أن سبابك للعظماء إذ سوّلت لك نفسك ألا تؤدي ما ينبغي عليك أن تؤديه لعظيم رجال الدين ، وكبير جباة المال في أرض مصر » .

وأجاب العابد : « لقد كان إبليس من قبل كبيرا على الملائكة ، ولكن كبره وكفره فسق به عن أمر ربه . وهكذا أنت أيها الخادع الخلقيدوني ، فإن مذهبك مذموم ، وإنك أشد لعنة من الشيطان وجنوده » .

وضاق قيرس بكلام العابد ذرعاً فأومأ إلى الجند أن يقتلوه ، واستنقذه حاكم الفيوم من يديه ، فأمر به أن ينفى من الأرض ! .

وهكذا .. كان الذين يرفضون الدخول في المذهب الجديد يُجلدون ويُعذبون ويلقون إلى السجون ويلاقون الموت ! .

فازداد الناس كرهاً لهرقل ولقيرس ولحكم الرومان ! .

ولم يكتف صاحب السلطان من قبل قيصر بأن يأخذ منهم غلاتهم ومصنوعاتهم ليرسلها إلى بزنطية مقابل الضرائب المفروضة عليهم ، بل اعتبرت الأرض ملكا للدولة تفرض على أصحابها جزية ، وإن شئت فقل تكليفا يدفعونها أجراً للأرض التي يزرعونها !

وكانت مصر فى أزمة طاحنة ، تدهورت أسعار الحاصلات تدهوراً شديداً ، واقتصر أمرها على أن تؤخذ جزية لقيصر !

لذا كره الناس حكم الرومان ، وودوا لو استطاعت مصر أن تتخلص منه وأن تستقل بنفسها ! .

سياسة الرومان سياسة الإنجليز !

ماذا يفعل المصريون أمام تلك الكوارث التى تعيش فيها مصر ؟ .

الرومان المستعمرون يأخذون خيرات البلاد لأنفسهم ، ويتركون المصريين فى ضيق !

وها هم أولاء يريدون أن يفرضوا على المصريين مذهباً مسيحيا جديدا بالقوة ...

فكيف السبيل إلى الخلاص ؟ .

هل يمكن أن يقوم الشعب بثورة تخلصه من ذلك كله ؟ .

ما هذا القيرس الذى يقتل من شاء ، ويضرب من شاء ، وينفى من شاء ، ويرهب المصريين حيثما شاء ، وكيفما شاء ؟!

وتلفت المصريون إلى الخلاص ، وفكروا فى الكيفية ...

ولكن الرومان كانوا قد حرموا على مصر صناعة الأسلحة واستعمالها ؟ .

أرأيت ؟ ... نفس الأسلوب الذى حكم به الإنجليز مصر ، أيام احتلالهم لها ! .

وكلنا نذكر كيف كان الإنجليز يحرمون على المصريين صناعة الأسلحة واستعمالها ، وكلنا يذكر كيف كانت هذه البلاد تشقى وتتعب للحصول على بعض البنادق الصغيرة من بريطانيا فلا تظفر منها إلا بالوعود !

حتى انبعث الشعب ، ودق بيديه القويتين عنق الإنجليز ، وأخرجهم مدحورين من البلاد ... فصنع الشعب المصرى ما استطاع من الأسلحة التى حرمه الإنجليز من صنعها !

التاريخ يعيد نفسه ! نفس سياسة الرومان نحو المصريين ، هى نفس سياسة الإنجليز نحوهم ! ! .

ما دلالة هذا ؟ من دلالاته أن هذه البلاد ، مصر الحبيبة ، بلاد عظيمة الخيرات ، يطمح إليها العالم كله ، وتسيل لعاب المستعمرين ... فينبغى على شعبها أن يكون يقظا دائما ، لا يغفل عن سلاحه لحظة واحدة ، لأن الذئاب بالمرصاد ! .

عثمان يعارض !

عاد عمر من رحلته بالشام بعد أن استمع إلى حجج عمرو بن العاص فى فتح مصر ، فلما نزل المدينة ، جمع أهل الرأى فيها ، وذكر لهم حجج عمرو ، وشاورهم فى الأمر ، فانقسموا فى رأيهم .

ولما كان عمر يرى الفتح ، فقد كتب إلى عمرو يأمره بالشخوص إلى مصر .

وبعث بالكتاب مع شريك بن عبدة وفيه يقول : « اندُب الناس إلى السير معك إلى مصر ، فمن خف معك فسر به » .

وكان عمرو محاصراً قَيْسارية حين جاءه كتاب أمير المؤمنين ، فاستخلف معاوية بن أبى سفيان على حصارها .

وتحرك فى قوة صغيرة ... أربعة آلاف . . ثم إنه رد شريك رسول أمير المؤمنين يطلب الأمداد حتى لا تضعف مسالح الشام .

وسار متمهلا بساحل البحر ، جاعلا وجهته العريش .

وإنه لفى مسيرته إذ جاء النبأ بأن الذين يرون فى فتح مصر خطراً على الدولة الناشئة ، وفى مقدمتهم عثمان بن عفان ، قد ازداد نشاطهم بالمدينة .

وقال عثمان لعمر : « يا أمير المؤمنين . إن عَمراً لمُجَرَّأ وفيه إقدام وحب للامارة ، فأخشى أن يخرج من غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدرى تكون أم لا ؟ ! »

لذلك كتب عمر إلى عمرو يقول : « إن أدركك كتابى قبل أن تدخل مصر فارجع إلى موضعك ، وإن كنت قد دخلت فامض لوجهك واعلم أنى ممدك » .

أدرك الرسول عمراً وهو برفح ، فلم يذكر له شيئاً عن المدد الذى كان ينتظره ، بل حاول أن يدفع إليه كتاب الخليفة ...

وقدر عمرو أن الكتاب ينطوى على أمر بالعدول عنه ، فأخذ يستدرج الرسول وهو يسايره وجعل يسأله عن المدينة وأنبائها .

وظل كذلك حتى نزلوا قرية بين رفح والعريش ... وسأل عمرو عن هذه القرية من أى أرض هى ؟ فقيل إنها من أرض مصر ، فنزلها ونزل الرسول معه ودفع إليه الكتاب .

فلما قرأه ابن العاص قال لمن حوله : « إن أمير المؤمنين عهد إلىّ وأمرنى إن لحقنى كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع ، ولم يلحقنى كتابه حتى دخلنا أرض مصر ، فسيروا على بركة الله وعونه » .

وواصل عمرو سيره فى أربعة الآلاف الذين معه إلى العريش ، فألفوها خلاء ليس بها للروم قوة ، فتخطاها منحدرا إلى الجنوب ولم يلق عمرو من يقف سيره حتى بلغ مدينة الفرما ، وهناك لقيه الروم فى قوة حاولت صده عن الغزو .

والطريق من العريش إلى الفرما طويل يبلغ نحو سبعين ميلا ، وهو يجرى خلال الصحراء تتخلله عيون وقرى تهون على السائر شقته .

لذلك كان الطريق المعبد بين فلسطين ومصر من أقدم الحقب ، حتى لقد شهد « مقدم إبراهيم ويعقوب ويوسف وقمبيز والاسكندر وكليوبترا وأسرة المسيح » إلى هذه البلاد .

سقوط الفرما !

وتحصن الروم بالمدينة لمواجهة العرب ، مؤمنين بقدرتهم على الذود عنها ، ورد العدو على أعقابه دونها .

إلا أن عمرو وأصحابه ، حاصروا الفرما شهرا ثم اقتحموها واتخذوها معقلا بعد أن هزموا الروم فيها شر هزيمة ! .

معركة بلبيس ؟

انضم إلى عمرو بعد فتح الفرما جند من البدو المقيمين على تخوم الصحراء المصرية ، فعوضوا المسلمين عن فقدوا فى أول حصار ضربوه بمصر

ثم إن عمرا سار منحدرا إلى الجنوب ملازما هذه التخوم ، فتخطى مدينة مجدل القديمة إلى موضع القنطرة اليوم .

ومن هناك اتجه غربا إلى القصاصين ...

وتابع مسيرته جنوبا بغرب حتى بلغ بلبيس .

وفى هذا الطريق الطويل الذى قطعه فرسان المسلمين فى أرض مصر لم يكن عمرو يدافع إلا بالأمر الخفيف ! .

يروى المؤرخون أن راعيا من البدو الموالين للمسلمين دنا من منازل قرية فى طريق عمرو ، فسمع نفرا من القبط يقول أحدهم : ألا تعجبون من هؤلاء القوم يقدمون على جموع الروم وهم فى قلة من الناس !

ويجيب آخر : إن هؤلاء القوم لا يتوجهون إلى أحد إلا ظهروا عليه !

وهذا الحوار من بعض المصريين يبين إلى أى مدى بلغت سمعة الجيوش الإسلامية فى العالم يومئذ .

بلغ المسلمون بلبيس وصاروا على ثلاثة وثلاثين ميلا من مدينة مصر وحصونها، وبعث المقوقس حاكم مصر إلى عمرو ، أول منازل ببلبيس ، من يفاوضه ليرجع عن مصر .

إن مثلى لايخدع !

وتحدث عمرو إلى الأساقفة المفاوضين عن بعث الله رسوله بالحق ، وأنه صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه بالإعذار إلى الناس « فنحن ندعوكم إلى الإسلام ، فمن أجابنا إليه فمثلنا ، ومن لم يجبنا عرضنا عليه الجزية وبذلنا له المنعة ، وقد أعلمنا أنا مفتتحوكم ، وأوصانا بكم حفظا لرحمنا فيكم ، وأن لكم إن أجبتمونا بذلك ذمة إلى ذمة » .

وأدرك الأساقفة إلى أن عمرا يشير بصلة الرحم إلى هاجر أم إسماعيل ، فقالوا : قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء ! .

ثم قالوا : آمنّا حتى نرجع إليك .

فقال عمرو : إن مثلى لا يُخدَع ، ولكنى أؤجلكم ثلاثة أيام ، لتنظروا وتناظروا قومكم ، وإلا ناجزتكم .

فاستزادوه ... فزادهم يوما ، ثم يوما خامسا .

ورجع وفد المفاوضات إلى المقوقس ، فحدثوه بحديث عمرو ...

فأبى قائد جند الرومان ، الأطربون ، إلا مقاتلة المسلمين .

وقال الأساقفة المفاوضون للناس ، وقد رأوا مخاوفهم : « أما نحن فسنجهد أن ندفع عنكم ولا نرجع إليهم ، وقد بقيت أربعة أيام فلا تصابون فيها بشىء إلا رجونا أن يكون له أمان » .

سار الأطربون عقب هذا الحديث فى اثنى عشر ألفا كاملى العُدة ، حتى يأخذ المسلمين ببلبيس على غرة .

ولقد فاجأهم ، وبيتهم بياتا شديدا .

لكن عمرا كان الحذر كل الحذر ، وكان كل جيشه فرسانا فى عُدة القتال .

وحميت المعركة بين الفريقين... فقتل فيها من العرب عدد ليس بالقليل ، وخسر الروم ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير ...

ثم ماذا ؟ ... ثم انهزم الأطربون ، وتمزق جيشه ... وقتل فى المعركة !

وهكذا هزم عمرو بأربعة آلاف من الذين كانوا من العرب ومن بدو مصر ، جيشا عدته اثناعشر ألفا ! .

ومكث عمرو نحوا من شهر ببلبيس بعد انتصاره الساحق ... ثم تقدم من بلبيس متاخما الصحراء حتى نزل قريبا من قرية « أم دنين » على النيل ... وكانت أم دنين تقع فى موضع حى الأزبكية الآن .

معركة حياة أو موت ؟

أدرك الرومان أن المعركة بالنسبة لهم أصبحت معركة حياة أوموت .. فإما انتصروا على العرب فى مصر وإما تلاشت امبراطوريتهم إلى الأبد .

وجاء الرومان إلى حصن بابليون بأكبر قواتهم ، وأمدوا حصن أم دنين بقوات مسلحة قوية .

وكان حصن بابليون حصنا رومانيا منيعا يقع موقع مصر القديمة الآن ، وكان متين البنيان ، قوى الأسوار ... ومازالت منه أطلال لاتزال تشهدها أعيننا حتى الآن .

وأدرك عمرو بن العاص دقة الموقف وخطورته .

وتجلت عبقرية عمرو مرة أخرى ، فبعث رسولا إلى المدينة بكتاب يطلب فيه المدد ... بينما أذاع فى الجند أن المدد موشك أن يجىء !! .

ثم إنه تقدم إلى أم دنين فحاصرها ، ووقف قبالتها يمنع عنها العتاد والتموين .

ومضت أسابيع لم يتغير الموقف فيها .

وإن الفريقين لكذلك إذ جاءتهم الأنباء بمقدم أول مدد لهم .

وأقبل المدد ، ورآه حماة حصن أم دنين من جنود هرقل . فرعبوا ، وقل خروجهم للقاء المسلمين !.

فلما رأى عمرو ذلك منهم ، وكان قدعرف مداخل الحصن ومخارجه ، تخير وقتا أمر فيه أصحابه أن يشدّوا كلهم على الحصن شدّة رجل واحد ليأخذوه عنوة ! .

وسار هو فى طليعتهم إلى بابه ، ففتحه الله عليهم فاستولوا عليه بعد قتال عظيم ، وبعد أن أسروا من بقى فيه حيا ! .

قالوا : رأى عمرو جماعة يترددون فى القتال فصاح بهم يحثهم عليه ويدفعهم اليه ، فقال له أحدهم : إنا لم نخلق من حديد !.

فانتهره عمرو بقوله : اسكتْ ! إنما أنت كلب !.

وأجابه الرجل : فأنت أمير الكلاب ! .

فأعرض عمرو عنه ونادى بأصحاب رسول الله وقال لهم : تقدموا فبكم ينصر الله .

فاندفعوا فى الوطيس وتبعهم الناس ، ففتح الله على المسلمين .

وتم الاستيلاء على أم دنين ... وعبر عمرو مع جنده النيل فى السفن التى كانت بمرساها، وسار على رأسهم يتخطون الصحراء مجتازين أهرام الجيزة ! .

ماذا يريد الداهية ؟

وحار الرومان فى خطة عمرو ... ماذا يريد بمسيره إلى صحراء الهرم ؟ .

هل يريد الاسكندرية ؟ ... هل يستطيع ذلك ووراءه حصن بابليون زاخرا بالرجال والأسلحة ؟ . حقا إنه لثعلب الصحراء !!

إنه فكر أن يسير إلى الفيوم يُشيع الفزع فى نفوس أهلها ، ويقيم الدليل للمصريين على أن دولة الرومان قد انتهت .

والطريق إلى الفيوم يقطعه الفارس فى ساعات معدودات ، فاذا استطاع عمرو إشاعة الفزع فى هذا الاقليم بلغ مقصده ، وكسب من الوقت مايكفى أمير المؤمنين لإرسال مدد جديد يستطيع به عمرو أن ينفذ خطته الكبرى .

إبادة ورعب !

وانطلق ثعلب الصحراء العربى إلى الفيوم ... وسعدت صحراء الفيوم بوقع حوافر الخيول العربية ، تحمل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معهم ...

ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما ! ...

لكن عمرا لم يلبث حين بلغ تخوم الفيوم أن علم أن الروم أعدوا للدفاع عن الإقليم ، ووضعوا الجنود على مداخله .

فلزم الصحراء ، وجعل يغير بكتائب قليلة على البلاد القريبة منه ، يسوق الحيوانات طعاما لجيشه .

وجاءه البدو المقيمون بهذه المنطقة بأنباء عرف منها أن كتيبة من الروم بإمرة رجل اسمه حنا تسير مختفية فى النخيل والآجام قبالته متنطسة أخباره ، فإذا حاول اقتحام البلاد الآهلة دعت الجيش المرابط فى ثغور الفيوم لمواجهته .

فماذا فعل عمرو عندما علم بتلك الأخبار ؟ .

واصل عمرو السير ، حتى بَعُد حنا وكتيبته عن الجيش ...

ثم ارتد اليه ... وحاصره ومن معه ... وقتلهم عن آخرهم !!

وحقق الثعلب العربى مراده بتلك الفعلة ، فرعب أهل الإقليم جميعا .

واكتفى عمرو بمافعل ... وانسحب عائدا إلى أم دنين سريعا ! .

مداورة ومناورة !

اشتهر القائد الهتلرى « رومل » بلقب « ثعلب الصحراء » أيام الحرب العالمية الثانية ، لمهارته فى قيادة المعارك ضد جيوش الحلفاء ، وانزاله أكبر الهزائم بقواتهم فى الصحراء الممتدة من شاطىء الأطلنطى إلى الاسكندرية .

وأنا أقدم إلى العالم الآن عمرو بن العاص ، ثعلب الصحراء العربى ، وسوف يرون أن عبقرية عمرو فاقت عبقرية رومل أضعافا مضاعفة ...

وأن عمراجاء بعجائب فى مناوراته ومداوراته لقوات الرومان فاقت مناورات رومل لقوات الحلفاء .

لقد دهم رومل بقواته المصفحة القليلة قوات الحلفاء الكبيرة ، فأنزل بها شر الهزائم ومازال يطاردها وهى تفر أمامه منهزمة مذعورة .. حتى وصل إلى العلمين ، وأصبح معلوما أنه سوف يدخل الاسكندرية ظافرا منتصرا ، وأحرقت القيادة البريطانية أوراقها واستعدت للرحيل ! .

حتى كانت معركة العلمين ، حيث احتشدت له قوات الحلفاء ، واستغلت بعده عن خطوط تموينه ، وخاضت معه معركة فاصلة ، واندحر على أثرها اندحارا أبديا .

وانتهت عبقرية الثعلب الألمانى إلى لاشىء ... فلاهو دخل الأسكندرية ، ولاهو حتى احتفظ بخطوطه الأصلية .

هذا عن روميل ... أما عمرو بن العاص فإنه جاء إلى مصر من بعيد جدا ... من قيسارية فى شمال سوريا ... فى أربعة آلاف ... واقتحم بتلك القوة القليلة حدود مصر ، واستولى على العريش ، ثم الفرما ، ثم بلبيس ثم أم دنين ، ثم ذهب إلى الفيوم ، فأشاع فيها الرعب ، ثم هاهو يعود سريعا منها إلى أم دنين ! .

كل هذا وللرومان فى مصر أكثر من مائة ألف مقاتل من خيرة الجنود ، فى أحسن الحصون وهو لا يملك سوى ما تبقى من الآلاف الأربعة ! .

كل هذا وهو غريب عن البلاد ، والرومان بين أهليهم !

فلم يظفر الرومان به فى معركة واحدة ، وسوف نرى فيما بعد أنه استولى على بابليون ، ثم استولى على الاسكندرية عاصمة البلاد ، ثم واصل زحفه من الاسكندرية إلى برقة وطرابلس حتى كاد يبلغ الاطلنطى لولا أن منعه أمير المؤمنين من ذلك ... ثم عاد من شمال افريقيا منتصرا إلى الاسكندرية ، نفس الطريق الذى سار فيه روميل ، ولكن شتان بين نهاية ونهاية ... فأى الثعلبين أمهر ، وأيهما أعلى وأقدر ؟ .

ليس من شك أنه عمرو بن العاص ، فقد انتهت حملته إلى فتح مصر كلها ، ثم اسلامها كلها ، ثم استقرار الاسلام بها إلى يوم القيامة .

أما رومل ، فانتهى إلى لاشىء ... فلا هو انتصر ، ولاهو حمل إلى الناس دعوة تنفعهم ، أودينا يرشدهم .

وهذا هو الفارق بين أصحاب رسول الله ، وبين هؤلاء الناس ، الذين يظهرون كالفقاقيع ، تنتشر فوق الماء ثم تتلاشى مع الهواء .

أما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ...

لقد مكثت حملة عمرو فى الأرض ، أرض مصر ، إلى يومنا هذا ، لأنها جاءت تحمل دعوة الاسلام ، تحمل ماينفع الناس .

وهذا ما ينبغى أن نركزه فى عقولنا ... ينبغى أن نفهم أن قائدا عربياً واحداً مثل عمرو بن العاص، يساوى فى دهائه ومكره ومهارته الحربية والسياسية عدداً من الذين كفروا أمثال روميل وأشباهه .

وإنما هناك حجاب بيننا وبين عباقرتنا ، عباقرة العرب والإسلام ! .

مثال من مناوراته !

لماذا انسحب عمرو سريعاً من مداوراته فى الفيوم ؟ .

أعن جبن أو خوف كان ذلك الانسحاب ؟ كلا ... إن رسولا من المسلمين جاءه فذكر له أن أمير المؤمنين بعث إليه بمدد جديد . وأن هذا المدد سار من الفرما إلى بلبيس فى الطريق الذى سار فيه عمرو ، وأنه يوشك أن يصل إلى حصون الروم .

فرجع عمرو للقاء المدد خشية أن يقطعه الروم عنه ، وأن يردوه عن عبور النيل إليه .

وأبدى عمرو فى ذلك مهارة فائقة ، فقد كانت جيوش الروم مشرفة على النيل من حصن بابليون ، وكانت تستطيع أن تخرج من الحصن وأن تعبر النيل ، وأن تحول بين قائد المسلمين والمدد المقبل إليه .

واستطاع عمرو أن يعبر إلى الشاطىء الشرقى وجيشه معه ، وأن يتصل بالمدد الذى نزل هليوبوليس « عين شمس » على مقربة من الحصن الرومانى .

كيف أتم القائد البارع هذه المعجزة من معجزات الحرب ؟ .

ولماذا لم يمنعه الرومان من العودة ، وإنها لفرصة لهم ، يالها من فرصة ؟ ! .

وكيف يخرجون من بابليون يمنعونه ، وقد رأوا مصارعهم فى بلبيس وأم دنين والفيوم ؟ .

كيف وقد رأوا قوماً يحبون الموت كما يحبون هم الحياة ؟ .

لقد حققت خطة عمرو أهدافها حين أشاع الرعب فى إقليم الفيوم ، فتحدثت مصر كلها أن هؤلاء قوم لا يُغلبون !

مرحباً . . يا أصحاب رسول الله !

وأمد عُمر عَمراً بأربعة آلاف على كل ألف منهم رجل وكتب إليه : «إنى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف منهم رجل مقام ألف : الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وعبادة بن الصامت ، وخارجة بن حذافة . واعلم أن معك اثنى عشر ألفا ، ولا تغلب اثنا عشر ألفا من قلة » .

ودعا عمر لقائد المدد ، الزبير بن العوام ، وودعه ، فسار الزبير على رأس الجيش حتى دخل مصر ، وجعل وجهته عين شمس .

وتخطى عمرو بن العاص النيل وسار إلى عين شمس ، واتصل بالزبير وبالمدد العظيم الذى جاء معه ، واغتبط بقدمهم أيما اغتباط .

ومن ذا الذى لا يغتبط بقدم أصحاب رسول الله ورؤيام ؟ .

كيف لا ، وعلى رأسهم الزبير ، حوارى رسول الله ، الشديد المراس ، القوى الشكيمة ؟ .

وشرفت أرض مصر بقدمهم ... واختار عمرو بن العاص أطلال عين شمس ، فعسكر بها ، وعسكر معه المدد الذى جاء مع الزبير .

معركة عين شمس ؟

والآن نقص على الناس أسلوباً آخر من أساليب البراعة ، ونموذجا من نماذج المهارة العسكرية الفائقة ، لينظروا أى الرجلين كان أعظم عسكرية وأشد دهاء .. عمرو أم روميل ؟

أيقن عمرو أن ساعة الفصل بينه وبين الرومان قد اقتربت .

فجمع أصحابه من أولى الرأى فى الحرب وتداول معهم فى خطة القتال . فكان كل أمله أن يستخرج الرومان من حصن بابليون ليقاتلهم فى الفضاء .

وسرعان ما جاءته عيونه بأن الله محقق عما قليل رجاءه ، فقد تداول تيودور أمير جند الروم مع أصحابه ، فرأوا أن مقامهم بالحصن يظهرهم أمام المصريين مظهر الجبن

والضعف ، ويغرى الناس بالانضمام إلى المسلمين ومعاونتهم . وقد كانت أعدادهم تفوق أعداد المسلمين ، وكانوا خيراً منهم عُدة . لذلك عزموا الخروج إلى العرب لمناجزتهم ، وقرروا السير إلى عين شمس لإجلائهم عنها .

وعرف عمرو خطتهم ، فدبر للقائهم والقضاء عليهم .

فماذا فعل الثعلب العربى ؟

أخرج خمسمائة رجل ساروا تحت الليل من وراء الجبل حتى دخلوا مغار بنى وائل عند قلعة الجبل ..

وأخرج خمسمائة آخرين جعل عليهم خارجة بن حُذافة ، فساروا قبيل الصبح إلى أم دنين (حى الأزبكية الحالى) ...

وزوّد هؤلاء وهؤلاء بأوامره ...

فلما تنفس الصبح سار هو من عين شمس ، على رأس قواته كلها ، حتى بلغ موضع العباسية الآن ... وهناك انتظر جموع الروم القادمة من حصن بابليون ..

وخرج الروم من حصنهم فى الصباح الباكر ، وتقدموا إلى ناحية عين شمس ، وتعاهدوا أن يقضوا على الغزاة القضاء التام !

والتقى الفريقان كل يريد أن يقضى على عدوه ... وعلا غبار المعركة ...

وإنهم لكذلك إذ انحدرت الكتيبة المختبئة فى مغار بنى وائل تهوى من الجبل فتعصف بمؤخرة الروم عصفا !

وفوجىء الروم بمكيدة الثعلب العربى ، فتولاهم الفزع لما أصابهم ، فاضطربت صفوفهم ، وتقهقروا متياسرين نحو أم دنين ...

عند ذلك خرج الكمين الآخر إليهم يقوده حذافة بن خارجة ، فأمعن فيهم قتلا ! !

ورعب الرومان ، وتصوروا أن ثلاثة جيوش من العرب تقاتلهم من ثلاث نواح مختلفة ، وأنهم لا أمل لهم فى المقاومة ، فانحل نظامهم ، ولاذ أكثرهم بالهرب يطلبون النجاة من سيوف العرب !!

تلك هى عبقرية عمرو ، وهذا هو دهاؤه ، فأين مهارة روميل من مهارته ؟

وساق الفزع طائفة إلى النهر فنزلت السفن تلتمس النجاة فى حمى الماء حتى تبلغ الحصن على ظهره .

وكان عدد الذين هلكوا فى الموقعة وفى الطلب أجل من أن يحصى .

ورأى العرب ما أصاب عدوهم من الفزع ، فمالوا إلى حصن أم دنين فاستولوا عليه كرة أخرى .

وانتهت معركة عين شمس إلى نصر حاسم ، كما هى العادة دائما فى كل معركة كان يخوضها المسلمون مع أعدائهم !.

ادخلوا مصر ؟

أما الذين هربوا إلى حصن بابليون لائذين به فلم يلبثوا حين سمعوا بهلاك من هلك من جيش الروم أن فروا من ملجئهم وركبوا السفن ، وساروا فى فرع رشيد حتى بلغوا حصن نقيوس إلى الشمال من منوف ! .

ولئن بقيت مع ذلك بالحصن قوة كبيرة وكل إليها الدفاع عنه .

فهل وقف عمرو عند هذا الحد ؟ . . . كلا وإنما سار إلى مدينة مصر فاستولى عليها بغير قتال .

ثم نقل معسكره من عين شمس فأنزله فى شمال الحصن وشرقه بين البساتين والكنائس فى المكان الذى أقام فيه الفسطاط من بعد .

وعلم بأن حامية الروم بالفيوم فرت إلى « نقيوس » حين علمت بنصر المسلمين فجهز على الفور كتيبة سارت فى طريق الصحراء ، فاستولت على إقليم الفيوم كله ! .

ولم يكتف بهذا ، بل أرسل قوة أخرى إلى جنوب الدلتا ، فاستولت فى إقليم المنوفية على أتريب ومنوف . .

وأمر عمرو أن يؤتى بالحكام من الروم مجموعة أيديهم فى الأصفاد وأرجلهم فى القيود ،

ورأى المصريون ذلك المنظر ، فخشعت نفوسهم ، وازدادوا رعبا .

واستولى الرعب على كثير منهم ، ففروا إلى الاسكندرية جماعات كثيرة ، يرجون أن يجدوا فى حصونها وأسوارها ملجأ ، ويطمعون أن يمدها قيصر من البحر بقوات تمكنها من دفع الغزاة القاهرين ! .

حصار بابليون

كثر اللاجئون من الرومان إلى حصن بابليون ، وعزموا على الدفاع عنه ،والقتال دونه.

وعزم عمرو محاصرة الحصن ...

وكان ذلك الحصن حين الفتح العربى قلعة رومانية من أمنع القلاع وأقواها . كانت أسواره ترتفع نحو ستين قدما ، وكان سمك هذه الأسوار ثمانية عشر قدما، وكانت صروحه تزيد على الأسوار ارتفاعا ، وكان فى كل صرح سُلم صاعد إلى أعلى البناء يشرف الناظر منه على جبل المقطم من الشرق ، وعلى الجيزة والأهرام فصحراء ليبيا من الغرب . وكان النيل يبلغ باب الحصن الأكبر ، فكانت السفن الرومانية ترسو عنده إلى جانب درج يهبط منه إليها . وكان هذا الباب الأكبر مصنوعا من الحديد ومُصفحا به ، فكان اقتحامه مستحيلا لمتانته ولحماية السفن له .

هذا إلى أن جزير الروضة القائمة وسط النهر كانت بها حصون قوية تزيد حصن بابليون منعة وقوة .. وكان فى داخل الحصن آبار يستسقى منها حماته ، كما كانت المزارع والحدائق الممتدة من حوله تمده بالتموين الوفير .

وكان يحيط بالحصن خندق عليه قنطرة متحركة لا يستطاع فتحها أو تحريكها إلا من داخله .

وكانُ الروم بالحصن يرمون العرب بالمجانيق ، فيجيبهم العرب بالحجارة والسهام .

ودام الحصار على ذلك شهرا والعرب لا ينفد لهم صبر ! .

وبدأ الفيضان ينزل ... وكان المقوقس بالحصن منذ ابتدأ الحصار ، وكان على إمرة

جنود الحصن قائد يسميه العرب « الأعيرج »... ورأى المقوقس وأصحابه أن المدد لن يأتى ليرفع عنهم الحصار قبل أشهر ، وأن العرب سيضيقون عليهم الخناق فى هذه الأثناء ... فتشاوروا بينهم فى الأمر ، ودبروا أمرا ...

مفاوضات سرية .. بالروضة !

تسلل المقوقس وجماعة من أصحابه من الحصن تحت جنح الليل ، وركبوا السفن إلى جزيرة الروضة ، فلما بلغها أرسل إلى عمرو بن العاص برسالة مع أسقف بابليون وجماعة معه يقول فيها « إنكم قد ولجتم فى بلادنا ، وألححتم فى قتالنا ، وطال مقامكم فى أرضنا ، وانما أنتم عُصبة يسيرة ، وقد أظلتكم الروم ، وجهزّوا إليكم ، ومعهم من العُدّة والسلاح، وقد أحاط بكم هذا النيل ، وإنما أنتم أسارى فى أيدينا ، فابعثوا إلينا رجالا منكم نسمع من كلامهم ، فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب، وينقطع عنا وعنكم القتال ، قبل أن تغشاكم جموع الروم ، فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ..

« ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفا لطلبكم ورجائكم ، فابعثوا الينا رجالا من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شىء » .

لقد أراد المقوقس أن يخدع عَمرا ، فذهب يخوفه بجموع الروم ، وأنه خير له أن يتفق معه قبل أن تبغته تلك الجموع فتقضى عليه قضاء مبرما ! .

ونسى المقوقس أنه أمام عمرو ، وأنه أمام رجل يقود قوما يحبون الموت كما يحب هو الحياة !.

والآن ماحدث لوفد المفاوضات ؟ .

وأبطأ رسل المقوقس عنه يومين كاملين :.. وفى اليوم الثالث عادوا إليه يحمل رئيسهم رسالة عمرو إلى المقوقس يقول فيها : « إنه ليس بينى وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال : إمّا دخلتم فى الأسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا . وإما أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون . وإما جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين » .

هذا هو رد عمرو ... لقد لخص رسالة جيشه فى كلمات ... إما الاسلام، وإما الجزية، وإما القتال !.

وهذا هو الحق المسلح، أوهذا هو الاسلام . دعوة إلى الله تسندها القوة، لا لإلجاء الناس إلى الفكرة، ولكن ليعلم الناس أن الأمر جد لاهزل، وأن الدعاة على استعداد لخوض المعارك حتى آخر رجل منهم فى سبيل اعلاء ذلك الحق .

لو استقبلوا الجبال لأزالوها !

وسأل المقوقس رسله : كيف رأوهم ؟ فأجابه رئيسهم : « رأينا قوما الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة . ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولانهمة . وإنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كأنه واحد منهم ؛ ما يُعرف رفيعهم من وضيعهم؛ ولا السيد من العبد . وإذا حضرت الصلاة لم يتخلّف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويخشعون فى صلاتهم » .

وفكر المقوقس طويلا فيما سمع من أوصاف الجيش المسلم، ثم قال لأصحابه : « والذى يُحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها، وما يقدر على قتال هؤلاء أحد ! ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل، لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض وقووا على الخروج من موضعهم » .

ازداد المقوقس رعبا حين سمع من أوصاف الجيش المسلم ... ورد رسله إلى المسلمين يقول لهم : « ابعثوا إلينا رسلا منكم نعاملهم، ونتداعى نحن وهم إلى ماعساه يكون فيه صلاح لناولكم » .

إن المقوقس يلجأ إلى الحيلة، والمراوغة، لعله يظفر من عمرو بشروط مقبولة ... ولكن هيهات .

وكم أحب أن نتعلم تلك الكلمات التى وصف بها المصرى القبطى أفراد الجيش الاسلامى، لندرك لماذا كان هؤلاء ينتصرون، ولماذا كانوا يغلبون أضعاف عددهم، ولماذا كان اسمهم يدوى فى جنبات الدنيا دويا هائلا ؟ .

نحّوا عنى هذا الأسود !

ورفض عمرو ماطلبه المقوقس ... فبعث عشرة نفر ، أحدهم عُبادة بن الصامت ، وكان أسود اللون ، ضخما طويلا . وأمره أن يكلم القوم ، وألا يجيبهم إلى شيء دعوه اليه إلا إحدى هذه الخصال الثلاث .

ودخل العشرة على المقوقس ، وأراد عُبادة مخاطبته ، فلمارآه قال : « نحّوا عنى هذا الأسود ، وقدِّموا غيره يكلمنى » .

لكنهم جميعا أجابوا بأنهم يرجعون إلى قول عبادة ورأيه .

رضى الله عنكم وأرضاكم ياأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ...

لقد اشمأز هذا المسمى بالمقوقس حين وقعت عينه على رجل أسود يرأس وفدكم ، ويكلمه باسمكم ، فصاح مغاضبا « نحوا عنى هذا الأسود ، وقدموا غيره يكلمنى »!

ولكنكم أصررتم على زعامة الاسود، وأبيتم إلاأن يكون هو أميركم ، وهو المتحدث الرسمى باسمكم ! .

إن المسمى بالمقوقس هذا ، يتكلم بالمنطق الذى تعارف عليه أهل زمانه ، وأهل كل زمان ... ولكنكم أنتم الذين رباكم رسول الله فأحسن تربيتكم ، لكم منطق آخر نزل من السماء « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ... فلافرق عندكم بين أسود وأبيض، وعبد وسيد ، وأصفر وأحمر ... الكل سواء ، إخوة فى الله ، يسعى بذمتهم أدناهم .

لقد ارتفعت الانسانية بفعلتكم تلك ارتفاعا كبيرا ... بقدر مانزلت بقول المقوقس نزولا عظيما .

أين الأمريكان ليسمعوا ويشهدوا ... ويقارنوا بين هذا الفعل وبين ما يحدث كل يوم فى الولايات المتحدة من تفرقة عنصرية ؟ .

خسئت يامقوقس ... خسئت أيها المظلم المجهول ... إنك لم تستطع أن تفهم أصحاب رسول الله ، وظننت الأمر أمر ألوان وأوضاع ، وغاب عنك أن هؤلاء دعاة الدين الجديد ، دين الأخوة والرحمة والمساواة .

وتقدم عبادة بن الصامت ، وذكر ماأمر الله ورسوله المسلمين به من الزهد فى الدنيا ، والرغبة فى الآخرة ، والجهاد فى الله ، وحب الاستشهاد فى سبيله .

وأعجب المقوقس بكلامه ، وأبدى اعجابه لأصحابه ، ثم قال لعبادة : « لقد توجَّه إلينا لقتالكم من جمع الروم مالايحصى عدده ، قومٌ معروفون بالنجدة والشدة ، ممن لايبالى أحدهم من لقى ولا من قاتل .

« إنا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم لضعفكم وقلتكم .

« وقد أقمتم بين أظهرنا شهرا ، وأنتم فى ضيق وشدة من معاشكم وحالكم . ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة مابأيديكم ، وتطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ، ولأميركم مائة دينار ، ولخليفتكم ألف دينار ، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم ، قبل أن يغشاكم مالاقوة لكم به » .

وتقدم عبادة بن الصامت ، وأجاب المقوقس مزدريا جمع الروم وعددهم ، ذاكراً قوله تعالى (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) ، وأن كل رجل من المسلمين يدعو ربه صباح مساء أن يرزقه الشهادة وأنهم إلى ذلك فى أوسع السعة من معاشهم وحالهم .

ثم قال له : «فانظر الذى تريدفبيِّنه لنا ، فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك، أو نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث ، فاختر أيتها شئت ، ولا تطمع نفسك فى الباطل . بذلك أمرنى الأمير ، وبها أمره أمير المؤمنين ، وهو عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل إلينا » .

ثم ذكر له أنهم إن أسلموا انصرف العرب عنهم ، وإن أبوا الإسلام وأدّوا الجزية أدخلهم المسلمون فى حمايتهم ودافعوا عنهم ، وإن أبوا الإسلام والجزية جميعا فليس إلا الحرب تفصل بين الفريقين ! .

أى ناس كان هؤلاء القوم ؟ ... إنهم يتكلمون بلغة القاهر الذى لا يغلب ، إنهم أصحاب رسول الله !

فشل المفاوضات !

حاول المدعو بالمقوقس أن يصرف عُبادة إلى اتجاه غير هذه الخصال الثلاث ، والتفت إلى من معه يستطلع رأيهم ، فأبوا إجابة المسلمين إلى شيء مما طلبوا .

ولم لا ؟ .. إن من ورائهم جيوش الرومان لا أول لها ولا آخر .،. وسوف تلقى على هؤلاء المهازيل درسا لا ينسى ! .

وانصرف عبادة وأصحابه لم يغيروا مما قالوه حرفا .

إلا أن المقوقس عاد ينصح أصحابه بمصالحة المسلمين .

سألوه : أى خصلة نجيبهم إليها ؟! .

قال : «إذا أخبركم . أما دخولكم فى غير دينكم فلا آمركم به . وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم لن تقووا عليهم ، ولن تصبروا صبرهم ، ولا بد من الثالثة » .

قالوا : فنكون لهم عبيدا أبدا ؟ !

قال : « نعم ! تكونون عبيدا مُسلطين فى بلادكم ، آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم ، خير لكم من أن تموتوا عن آخركم ، أو تكونوا عبيدا تباعوا وتمزقوا فى البلاد مستعبدين أبدا أنتم وأهلكم وذراريكم » .

قالوا : الموت أهون من هذا ! .

وعادوا إلى الحصن ، وقطعوا الجسر من الجزيرة ، وعادت الحرب بينهم وبين المسلمين .

مشروع معاهدة للصلح !

وعاد المقوقس يلح على عمرو فى الصلح ...

وتصالح عمرو والمقوقس على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط دينارين دينارين ، على كل نفس شريفهم ووضيعهم ممن بلغ منهم الحلم ، ليس على الشيخ الفانى ، ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ، ولا على النساء شىء .

وأن لهم أرضهم وأموالهم وكنائسهم وصُلُبهم وبرهم وبحرهم ، وألا يغزوا ، ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة .

عقد هذا الصلح وعُلّق نفاذه على رضا الإمبراطور به ... وأخذ المقوقس على نفسه أن يبعث به إلى هرقل .

وركب المقوقس النهر إلى الإسكندرية ومنها بعث بتفصيل ما حدث إلى القسطنطينية مصحوبا بمذكرة ضافية طلب فى ختامها إلى هرقل إقرار الصلح .

الإمبراطور ينكل بالمقوقس !

استدعى الإمبراطور إليه المقوقس ، وناقشه فى أمر هذا الصلح ، فقال له المقوقس : « لو رأيت هؤلاء العرب وبلاءهم فى القتال ، لعرفت أنهم قوم لا يغلبون . فليس لنا من سبيل خير من الصلح مع عمرو قبل أن يفتح حصن بابليون عنوة ، وتصبح البلاد غنيمة لهم » .

وثار هرقل ، وعجب كيف يغلب ثمانية آلاف من العرب جيشه بمصر الذى يبلغ أكثر من مائة ألف من الجند ؟ !

واتهم المقوقس بأنه خان الدولة ، وتخلى للعرب عن مصر ، وحكم عليه بأنه مجرم ، ووصفه بالجبن والكفر ، وأسلمه إلى حاكم المدينة فشهره ، وأوقع به المهانة ، ثم نفاه من البلاد .

ورفض الامبراطور إقرار الصلح مع عمرو ... وعرف المسلمون بمصر هذا الرفض ، فى الأيام الأخيرة من ديسمبر سنة ٦٤٠ ميلادية ، فانتهت الهدنة وعاد القتال بين الفريقين .

الإمبراطور يصاب بانهيار عصبى !

إلا أن الإمبراطور تحطمت أعصابه تحطما شديدا بعد حديثه مع المقوقس ...

لقد فعل به الأفاعيل ، إلا أنه كان بينه وبين نفسه يوقن أن مصر سوف تنتزع منه كما انتزعت من قبل بلاد الشام كلها ، وأن الإسكندرية سوف تسقط كما سقطت دمشق وبيت المقدس .

ونظر هرقل فرأى إمبراطوريته التى انتصرت على يديه نصرا عظيما على غريمتها

الإمبراطورية الفارسية ، ولقنتها درساً لا تنساه ، ها هى تتساقط أمام أولئك الحفاة العراة من العرب !

وانهارت أعصاب الإمبراطور ... وكانت نكبة مصر من الأسباب التى عجلت منيته فقد حُم بعد لقاء المقوقس ، وأعجزه الاضطراب عن التفكير فى إمداد حصن بابليون ، أو تنظيم الدفاع عنه ...

ومات هرقل فى النصف الأول من فبراير سنة ٦٤١ ميلادية ، فاضطرب الروم لموته أى اضطراب ...

إلا أن متانة الحصن ، مكنت لحماته أن يثبتوا للغزاة إلى آخر شهر مارس والأيام الأولى من شهر ابريل .

إنى أهب نفسى لله ؟!

ضاق العرب ذرعا بالشهور السبعة التى انقضت منذ حاصروا الحصن ، ففكروا فى ضرورة اقتحام الحصن مهما كان الثمن .

وكان الزبير بن العوام أشدهم حماسة ، وأكثرهم على الموت فى سبيل الله اقبالا ، فقام فى الناس فقال : « إنى أهب نفسى لله ، وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين » .

ثم أقبل بعد أيام فى الليل مع كتيبة آزرته ، فطمّوا الخندق المحيط بالحصن فى موضع اختاروه ، ووضعوا سُلّما على السور علاه الزبير بعد أن أمر أصحابه إذا سمعوا تكبيره أن يرقوا إليه ، وأن يجيبوه جميعا .

واستوى الزبير بأعلى الحصن ، وانطلق يكبر وسيفه يلمع فى يده ...

فتبعه أصحابه ، وصعدوا السلم ، وساروا إلى جانبه ، وكبروا معه .

وأجاب المسلمون من خارج الحصن تكبيرهم .

فأيقن الروم أن العرب قد اقتحموا الحصن فهربوا .!!

وعمد الزبير إلى باب الحصن ففتحه ، ودخل المسلمون ، واستولوا على ما فيه .

خرج جند الروم من الحصن ، يعلوهم عار الهزيمة ، وقد دفعهم الغيظ أن يسحبوا القبط الذين سجنوهم داخل الحصن أثناء الحصار ، وقطعوا أيديهم ، ونكلوا بهم تنكيلا أثار الأسقف المصرى حنا النقيوسى مؤرخ ذلك العهد فقال فيهم «أعداء المسيح الذين دنسوا الدين برجس بدعهم ، وفتنوا الناس عن إيمانهم فتنة شديدة ، لم يأت بمثلها عبدة الأوثان ولا الهمج ، وعصوا المسيح وأذلوا أتباعه ، فلم يكن فى الناس من أتى بمثل سيئاتهم ، ولو كانوا من عبدة الأوثان » !

دهاء عمرو !

أمر عمرو بعد ما استتب له الأمر ، فأقيم جسر من السفن بين الحصن وجزيرة الروضة ، وبين الجزيرة والجيزة ، فوصل بذلك بين شاطئى النهر ، وتيسر له الاشراف على ما يجرى فيه من السفن والبضائع .

ثم إنه نشر جنوده فيما استولى عليه من الأقاليم ...

فرأى رجال الشرطة من القبط ينظرون إليهم باحتقار ويقولون : ما أرث العرب ، وأهون عليهم أنفسهم ! . ما رأينا مثلنا دان لهم ! .

وخشى عمرو أن يدفع الاستخفاف بمنظر جنوده المصريين إلى الثورة عليهم ، فوضع خطة بارعة للقضاء على تلك الهواجس .

أمر بجمال فذبحت وطبخت بالماء والملح ، ودعا القبط فأجلسهم إلى جانب جنده من العرب ، فجعل العرب يحتسون المرق وينهشون اللحم على نحو زاد زراية القبط عليهم ، وزادهم طمعا فيهم ! .

فلما كان الغد أمر بطعام من ألوان مصر فصنع ، وأمر جنده أن يجيئوا فى ثياب أهل مصر وأحذيتهم ، ودعا القبط كما دعاهم أمس ، فأكل العرب أكل أهل مصر ونحوا نحوهم ، فتفرق القبط بعد الطعام وقد رابهم ما رأوا !! .

ثم أمر عمرو جنوده بكرة الغداة ، فتسلحوا للعرض ، فعرضهم على أعين القبط .

ثم قال لهؤلاء : إنى قد علمت أنكم قد رأيتم فى أنفسكم ، أنكم فى شىء حين رأيتم اقتصاد العرب ، وهوّن تزجيتهم ، فخشيت أن تهلكوا ، فاردت أن أريكم حالهم وكيف كانت فى أرضهم ، ثم حالهم فى أرضكم ، ثم حالهم فى الحرب .

فتفرق القبط وهم يقولون : لقدرمتكم العرب برجلهم ...

وقالوا : إن العرب قوم لا يُغلبون ، وقد وطئونا تحت أقدامهم .

وبلغ عمر ماصنع عمرو ، فقال لجلسائه :إن عمرا يقاتل بالقول، وغيرُه يقاتل بالسيف... والله إن حربه للينة مالها سطوة ولا ثورة كثورات الحروب من غيره .

ماهذا الذى فعله داهية العرب ؟ . إنها عبقرية السياسة ، ودهاء القائد العربى !

دائما وأبدا أهل مصر قوم يحبون الزينة ،ويحبون حسن المظهر ،تجد هذا فى ملابسهم، نساء ورجالا ، وفى أعيادهم وطقوسهم ... يسرفون فى المظاهر ، ويسعفهم بذلك ما هم فيه من نعيم مقيم .

فرأوا جنود العرب بسطاء المظهر والملبس ، فنظروا إليهم نظرة الاستهزاء ، وعجبوا من أنفسهم كيف يمكنون هؤلاء من حكمهم ،وهم أعظم منهم مظهرا وأكبر إخراجا .

فانفتق عقل عمرو عن تلك الأعوبة السياسية ، فأراهم من العرب أحوالا ثلاثة ... مرة وهم على طبيعتهم العربية البدوية ... ومرة وهم فى ملابس المصريين من زينة ... ومرة وهم فى عرض عسكرى كأنهم الأسود الكاسرة ...

وأراهم أنهم قادرون أن يكونوا حيث يشاءون من المظهر أو القوة ... وإنما فقط هم يتواضعون لله ... فرعب القبط ، وعلموا أنهم أمام قوة لا قبل لهم بها ! .

إلى الاسكندرية ؟!

سار عمرو بجيشه من حصن بابليون فى شهر مايو من نفس السنة ... وآثر السير على الضفة اليسرى للنيل حيث مديرية البحيرة اليوم .

وقداستطاع أثناء مقامه ببابليون أن يستعين بالقبط الذين دخلوا فى سلطانه على اصلاح الطرق وإقامة الجسور ، فكان ذلك مما أعانه على سرعة السير إلى الاسكندرية .

واستصحب عمرو فى سيره جماعة من رؤساء القبط ، اختارهم ، وأحسن معاملتهم ليكونوا أداة اتصال بينه وبين من يلقاهم من أهل البلاد .

ولم تخل رحلة القائد العربى إلى الاسكندرية من بعض المناوشات ... فقد خرج إليه المدافعين عن حصن « نقيوس » بالقرب من منوف ، يريدون لقاءه ، فدمرهم تدميرا ، وجعلهم أحاديث ! .

وكانت المناوشة الثانية ... أن بعث شريك بن سُمَىّ على كتيبة لتعقب الروم الذين فروا من نقيوس يريدون الاسكندرية .

ولحق شريك الروم الفارين ، إلا أنه كان قلة بالنسبة للروم ، فأحاط بهم الروم .

إلا أن المسلم لاينهزم أبدا ... وجد شريك مرتفعا من الأرض قريبا منه فأوى إليه ومن معه وحاربهم منه ! .

وأمر مالك بن ناعمة الصَّدَفِىّ .. فشق ناعمة بفرسه الروم واقتحم صفوفهم ، وطار سريعا إلى عمر بنقيوس ، ولم يستطع أحد له ادراكا !.

وأمد عمرو شريكا بمجرد مابلغه حرج موقفه ..

فماذا فعل الروم ؟ ... فروا قبل أن يلقوا المدد العربى ! .

ومن يومها وهذا المرتفع يسمى إلى يومنا هذا « كوم شريك » ! .

وكانت المناوشة الثالثة ... أن عمرا سار فى قوته الكاملة فى اتجاه دمنهور ، حين علم أن الروم استعدو للقائه عند سُلْطَيْس على ستة أميال إلى الجنوب من دمنهور .

ودار بين الفريقين قتال شديد ... انتهى بهزيمة الروم .

وفر الروم إلى الاسكندرية ، وانضموا إلى القوات الضخمة التى تنتظر المعركة الفاصلة بقيادة تيودور القائد الأكبر .

معركة كِرْيَوْن

رأى تيودور أن خير وسيلة لصد الغزاة ، هو الحيلولة بينهم وبين بلوغ أسوار الاسكندرية ...

فخرج بنفسه إلى كريون فى جند عظيم ... وكانت حصون كريون آخر سلسلة الحصون قبل الاسكندرية ، وكانت ترعة الثعبان أمامها تحمى المدافعين عنها ، والطريق بينها وبين الاسكندرية كان معبدا ، تسير الامدادات فوقه إلى ساحة المعركة .

سار عمرو بن العاص فى جيشه ... والتقى والروم فى كريون ... وادرك الفريقان أن المعركة لها ما بعدها ، فاشتد بينهما القتال بضعة عشر يوما ، ترجح فيه كفة المسلمين تارة ، وترجح كفة الروم تارات ... حتى لقد صلى عمرو يوما صلاة الخوف ركعة وسجدتين مع كل طائفة من جنده ! .

وازدادت حماسة المسلمين ، وهبت عليهم رياح الجنة ، فاستماتوا فى القتال .. وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يقاتل فى أحد أيام المعركة ، فأصابته جراحات بالغة ... إلا أنه اندفع رغم جراحاته يقاتل غير عابىء بجراحه ، وعرف أبوه ماأصابه ، فبعث رسولا يسأل عن حاله ، فتمثل عبدالله بقول الشاعر :

أقولُ لها إذا جَشأتْ وجاشتْ
مكانَك تُحمدِى أو تستَريحى

ورجع الرسول إلى عمرو بجواب عبدالله ، فرضى عنه وقال : هو ابنى حقا ! .

ثم فتح الله للمسلمين ، وقتل منهم المسلمون مقتلة عظيمة ، واتبعوهم حتى بلغوا الاسكندرية .

وانهزم الروم فى تلك المعركة الحاسمة ، وفر من بقى منهم إلى الاسكندرية يحتمى بحصونها !

أجمل مدن العالم ؟!

سار عمرو على رأس الجيش المنتصر حتى بلغ الاسكندرية دون أن يلقى مقاومة ما !

وأصبح الجيش العربى لأول مرة أمام المدينة الساحرة الباهرة العجيبة .

ولقد كانت الاسكندرية أجمل مدن الدنيا يومئذ ... تحيط بها سلسلة من الحصون

المنيعة .. ترتفع قبابها ومسلاتها فى الفضاء ... كانت كنيسة سان مارك «القديس مرقص» تشمخ بين المسلات كأنها درة فى العمارة .. وفى جانب آخر من المدينة معبد السرابيوم الساحر ، وعمود « دقلديانوس » الفارع يشرف على القلعة التى تحرس المعبد وماحوله .. وهناك منارة فاروس ترتفع فى السماء تعلن أنها من عجائب الدنيا السبع .

إن المسلمين أمام مدينة قد فاقت المدائن والقدس ودمشق وكل مافتحوه من قبل ...

وتحمس الجند ، فأمرهم عمرو باقتحام أسوار المدينة وأبراجها ...

واندفعوا ينفذون الأمر مهللين مكبرين ... وإذا بالحجارة العظيمة تتساقط عليهم مقذوفة من المجانيق المنصوبة فوق أسوار المدينة ! .

وعاود عمرو حذره ... فأمر رجاله بالارتداد إلى ماوراء مرمى المجانيق .

حصار الاسكندرية

وقف القائد العربى بجنوده بعيدا عن مرمى المجانيق ، وقرر أن يحاصر المدينة ، حتى يضطر العدو إلى الخروج للقائه ... إلا أنه بعد قليل من حصار المدينة أراد أن يذهب السأم عن جنوده ، فبعث كتائب تجوس خلال البلاد تطارد الروم فيها ، ثم أبقى معظم الجند على حصار الاسكندرية .

وطال الحصار ... فزادت مخاوف الروم بالاسكندرية ، خاصة بعد علمهم بانتشار العرب فى الصعيد وفى مصر السفلى وفى الوجه البحرى ، واستيلائهم على مافيها من حاميات الروم وسقوط البلاد بأيديهم ... وماذا تساوى الاسكندرية بعدسقوط وادى النيل بأيدى العرب ؟

عُمر يأمر بالاقتحام !

طال حصار الاسكندرية أربعة عشر شهرا... وأمير المؤمنين ينتظر أنباءالاسكندرية دون جدوى ...

فاشتد غضبه لبطء الفتح وقال لأصحابه : « ماأبطئوا بفتحها إلا لما أحدثوا » ! .

ثم كتب إلى عمرو بن العاص : « أما بعد ، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر . إنكم تقاتلونهم منذ سنتين . وما ذلك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحبّ عدوكم . وإن الله تبارك وتعالى لاينصر قوما إلا بصدق نياتهم .

« وقد كنت وجّهت إليك أربعة نفر ، وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف ، إلا أن يكونوا غيّرهم ماغيّر غيرهم : فإذا أتاك كتابي هذا فاخطب الناس ، وحُضّهم على قتال عدوهم ، ورغبهم فى الصبر والنية ، وقدّم أولئك الأربعة فى صدور الناس ، ومُر الناسَ جميعا أن يكون لهم صدمةٌ كصدمة رجل واحد .

« وليكن ذلك عند الزوال ، يوم الجمعة ، فإنها ساعة تَنَزُّل الرحمة ، ووقت الإجابة ، وليَعِج الناس إلى الله ، ويسألونه النصر على عدوهم » .

أرأيت ؟.. إن عمر يقرر أن سبب بطء الفتح هو الميل إلى الدنيا !

ثم يضع بنفسه خطة الاقتحام ويختار قواد الجيش بنفسه ، ويحدد ساعة الصفر ، ساعة الهجوم ! .

تالله إنها لخطة كاملة ... تصلح دائما أن تقرر على الضباط والجنود من أبنائنا ليدرسوها ويتفكروا فيها ويضعوا خططهم على أساس منها .

إنها تكتيك ، وتربية ، وسياسة ، وقيادة ، وربانية ، وضمان للنصر فى النهاية ! .

اقتحموا !

قرأ عمرو كتاب أمير المؤمنين ... وأخذ يفكر فى خطة يفتح بها الإسكندرية .

ولكن كيف السبيل إلى ذلك ، الإسكندرية يتحصن بها خمسون ألفا من الرومان ، فى حصون هى غاية المناعة ؟ .

جمع عمرو الناس وقرأ عليهم الكتاب ، ثم دعا أولئك النفر الذين ذُكروا فيه فقدمهم .

وأمر الناس أن يتطهروا ، ويصلوا ركعتين ، ثم يرغبوا إلى الله عز وجل ويسألوه النصر على عدوهم . ففعلوا ...

واستشار عمرو مَسلمة بن مُخَلَّد فى خطة الفتح ، فأشار عليه أن يعقد لعبادة بن الصامت ليباشر القتال .

ودعا عمرو عبادة بن الصامت ، وتناول منه سِنان رمحه ، وعقد له ، وولاه قتال الروم .

وخرج عبادة بن الصامت ، على رأس الجيش ، واقتحموا الإسكندرية اقتحام رجل واحد ، كما أمرهم أمير المؤمنين ... وكانت معركة هائلة ، فاقت معارك القادسية ، والمدائن ، ونهاوند ... ففتح الله عليه ليومه ... وهرب الروم فى البر والبحر !.

ودخل المسلمون الإسكندرية قهراً ، فى مستهل السنة العشرين من الهجرة ، فاقتحموا أسوارها ، وفتحوا أبوابها ، ففر الروم منهم إلى البر والبحر ، وأذعن لهم سكان العاصمة وأسلموهم مقاليدها . .

ودخل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ظافرين ... ورأوا الإسكندرية لأول مرة ...

ماذا رأوا ؟ ... رأوا المدينة فى أبهى صورها ... الحضارة كلها آنذاك كانت فى الإسكندرية !

ولكى ندرك جميعاً ما كانت عليه الإسكندرية وقت دخول العرب إليها ، وما تركته فى نفوسهم من آثار عميقة ، علينا أن نقرأ عبارة عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين فى هذا الفتح إذ يقول : « أما بعد ، فإنى فتحت مدينة لا أصف ما فيها ، غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف بنية ، بأربعة آلاف حمام ، وأربعين ألف يهودى عليهم الجزية ، وأربعمائة ملهى الملوك » .

بل لقد بعث عمرو رسولا إلى عمر ينبئه بالفتح ، فسأله الرسول : « ألا تكتب معى كتابا ؟ » فكان جواب عمرو : « وما أصنع بالكتاب ؟ ألست رجلا عربيا تبلغ الرسالة وما رأيت وما حضرت ؟ ؟ »

لقد آثر عمرو أن يترك لرسوله شرح الإسكندرية لعمر ... لأنه لم يجد كلاما يستطيع تصويرها !

قال المؤرخون : « لما فتحت الاسكندرية وُجد بها اثنا عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر » .

وقالوا : « إن أهل الاسكندرية جميعا كانوا يلبسون الثياب السود والحمر ، لأن أرضها وبناءها من المرمر الأبيض ، وكان تألق الرخام سببا فى اتخاذ الرهبان السواد فى لباسهم ، وكان من المؤلم أن يسير الانسان فى المدينة بالليل ، فإن ضوء القمر إذا وقع فيها على الرخام الأبيض جعلها تضىء حتى كان الحائك يستطيع أن يضع الخيط فى الإبرة بغير أن يستضىء بمصباح » !!.

الجميع يستظلون بالاسلام !

ماذا وجد العرب فى الاسكندرية ؟ .. وجدوا أجناسا مختلفة تسكنها، أديانا ومذاهب متباينة تتجاور فيها ...

هذه اللغات واللهجات العدة التى يتكلمها أهلها ... لم تمنعهم من الاندماج والطمأنينة فى ظل عيش مترف ، ونعيم مقيم .

قالوا : « فلم تكد المدينة تستعيد طمأنينتها بعد انتهاء حصارها ، حتى عادت سيرتها الأولى ، تستمتع بصنوف اللهو ، وتستمرىء المتاع بشتى ألوانه ...

فهذه مجالس العلم تُعقَد يتحدث حضورها فى الفلسفة والرياضة والطب والفن وغير ذلك .

وهذه دور اللهو فيها الراقصات البارعات ، والمغنيات المشجيات ، وفيها من التمثيل الموسيقى وألوان الفن الجميل كله .

وهذه دور الصناعة تعج عجيجا شديدا ، فهى تنتج من كل شيء .

وهذه متاجر المدينة فى أحيائها ، يتعامل الناس فيها مغتبطين .

وهؤلاء أغنياء الاسكندرية فى ثيابهم الجميلة ، يذهبون إلى دور اللهو وإلى المتاجر وإلى دور العلم وإلى مسارح التمثيل .

حياة حافلة شاملة ، ومدينة زاخرة وافرة ، وأمم متباينة ، وألوان مختلفة ، وعقائد مختلفة ، وأجناس مختلفة ، ومستويات مختلفة ... ولكن كل هذا حكمه الاسلام ، واستظل بحكم الاسلام ، وعاش سعيدا تحت حكم الاسلام ! .

وفى هذا أبلغ رد على أولئك الجهال الذين يزعمون أن الإسلام لا يصلح نظاما عاما لكل الناس .

ولقد كانت الإسكندرية وقتئذ أكبر عاصمة عالمية ، فيها جميع اللغات ، وجميع الحضارات وجميع الأجناس ، وجميع الأديان وجميع الاتجاهات ... ومع هذا كله حكمها الإسلام ، ونظمها ، وكفل لأهلها أسعد حياة .

رجل لا ينام !

سار البشير إلى أمير المؤمنين ... فبلغ المدينة فى الظهيرة ، فأناخ راحلته بباب المسجد ، ودخله وجلس قريبا من بابه .

وخرجت جارية من دار عمر بن الخطاب ، فرأته شاحبا عليه ثياب السفر ، وعرفت منه أنه رسول عمرو بن العاص ، فدخلت مسرعة إلى الدار ، ثم رجعت إليه مسرعة وقالت : قم فأجب أمير المؤمنين يدعوك .

ودخل الرجل الدار يتبعها ، وأجاب عمر حين سأله : ماعندك ؟

فقال : خير يا أمير المؤمنين ، فتح الله الإسكندرية .

فخرج عمر فورا إلى المسجد ، ومعه البشير ، وأمر المؤذن أن يؤذن فى الناس أن الصلاة جامعة .

فلما اجتمع الناس قال عمر للرجل: قم فأخبر أصحابك .

فلما أخبرهم ، قام عمر فصلى شكرا لله ، ثم دخل منزله ،واستقبل القبلة، ودعا بدعوات ثم أمر الجارية فجاءت الرسول الذى حمل النبأ بفتح الإسكندرية بطعام خبز وزيت .

وأكل الرجل على حياء ! . ثم أتته بطبق من تمر ، فأكل على حياء كذلك !.

فلما فرغ من طعامه سأله عمر : ماذا قلت يامعاوية حين أتيت المسجد ؟ .

وأجاب معاوية : قلت إن أمير المؤمنين قائل .

فأردف عمر : بئسما ظننت ! لئن نمت النهار لأضيعن الرعية ، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسى، فكيف بالنوم مع هذين يامعاوية ؟ ! .

هذا هو عمر ... رجل لا ينام .... فمن ذا يستطيع أسلوب عمر فى الحياة ؟.

كيف حكم الاسلام مصر؟

الدعوة أولا

سقطت مصر كلها بأيدى الفاتحين المسلمين ... وبينما هم يتمون الاستيلاء على البلاد التى لم تستسلم بعد ... تسلم عمرو وهو عند بلهيت كتابا من الخليفة يطلب إليه أن يخير الأسرى، فمن دخل الإسلام كان للمسلمين أخا.

وسمع الأسرى بذلك، فأسلم كثيرون، فجعل المسلمون يكبّرون لإسلام كل واحد منهم.

تلك أقصوصة لها دلالتها ... تدعونا أن نقف أمامها طويلا ... فيتبين لنا فى غير خفاء أن عمر كان يهدف إلى نشر الاسلام أولا وقبل كل شىء بمصر، كما كان ذلك هدفه من فتوحاته كلها.

وها هو يأمر عمرا أن يخير الأسرى، وها هو فريق كبير منهم يختار الإسلام، ويدخل فيه !.

الانطلاق إلى برقة

وأصبح الأمر فى مصر خالصا للمسلمين من شواطىء بحر الروم إلى بلاد النوبة ...

فهل هدأ عمرو واستراح إلى ذلك ؟.. كلا فهو المؤمن المنطلق فى سبيل الله ...

لذلك خرج فى قواته، فسار من الاسكندرية إلى برقة ...

ولم يكن الطريق بينهما صحراويا كما هو اليوم. بل كان يجرى فى أرض خصبة، يحيط به من الجانبين زروع وفاكهة وكروم وعمران متصل.

وسار فرسان المسلمين فى نزهة ممتعة حتى انتهوا إلى برقة ... فسلمت صلحا ... ورضيت أداء جزية ثلاثة عشر ألف دينار كل عام !.

.. ثم إلى طرابلس !

ثم واصل عمرو سيره إلى طرابلس، وكانت ميناء حصينا به قوة من الروم تحميه ... وعرف العرب أثناء حصارها، أن المدينة غير محصنة من جانب البحر، فانسلّ

جماعة منهم من تلك الناحية ، وصاحوا مكبرين ، فلم يسع الروم إلا الفرارُ إلى السفن تاركين المدينة يفتح الحراس أبوابها ، فيدخلها عمرو على رأس جيشه ! .

إلى الأطلنطى ؟!

هل وقف عمرو عند هذا الحد ؟... كلا إنه سير كتائب أذاعت الرعب فى قلوب أهل الإقليم ، فاستسلم السكان جميعا .

وكتب عمرو إلى أمير المؤمنين يستأذنه فى السير إلى تونس وماوراءها من شمال افريقية حتى المحيط الأطلنطى ... فلم يأذن له ..

فعاد إلى برقة حيث أقبلت إليه أكبر قبائل البربر فدانت له بالطاعة .

فلما تأكد للقائد العربى أن لم يعد للروم سلطان بشمال افريقيا ، عاد إلى الاسكندرية بالأسرى والغنائم !.

وهنا نقف مرة أخرى ، نقارن بين القائد العربى عمرو بن العاص ، وبين القائد المتلرى روميل ...

فنجد أن قائدنا العربى أتم فتح مصر كلها ، وتغلب على أكثر من مائة ألف من الرومان بثمانية آلاف من المسلمين ، ثم واصل سيره من الاسكندرية إلى برقة ثم إلى طرابلس ، وكان يريد أن يواصل سيره إلى المحيط الأطلنطى ...

أرأيت ؟... نفس الخط الذى سار فيه روميل ، حيث سار من طرابلس إلى برقة إلى العلمين بالقرب من الاسكندرية ، حيث انهزم هزيمته التى ذهبت به إلى الأبد .

ولكن شتان بين سير وسير ... هذا عمرو يسير منتصرا دائما ، قد قضى قضاء تاما على أعدائه . وذاك روميل يسير إلى حتفه ، حيث انتهى إلى الأبد .

لقد سار الرجلان فى طريق واحد ، هو الطريق من الاسكندرية إلى طرابلس ، وقطعا نفس المسافة ... ولكن أحدهم انتصر ، ومازال نصره حتى يومنا هذا قائما والآخر انهزم إلى الأبد ، ومازالت هزيمته إلى يومنا هذا قائمة .

نعم ... فإن ما فيه الجمهورية العربية المتحدة ، وما فيه المملكة الليبية المتحدة من إسلام حتى الآن . كان أثرا من آثار نصر عمرو ... كما أن ما فيه الألمان من هزيمة كان أثرا من آثار هزيمة روميل .

وهذا هو الفارق بين فتح الاسلام وفتح الطغيان .

محاولة فتح النوبة

وأراد عمرو أن يؤمن حدود مصر من الجنوب كما أمن حدودها من الغرب ، فبعث عُقبة بن نافع الفِهْرِىّ إلى النوبة .

فلقيه أهلها وقاتلوا المسلمين قتالا شديدا ، ارتد عقبة على أثره ولم يعقد صلحا ولا هدنة .

وظلت كتائب عمرو بعد ارتداد عقبة تناوشهم على الحدود .

على أن أهل النوبة لم يفكروا فى اجتياز حدود مصر لمقاتلة قوات المسلمين ، واكتفوا أن ردوا عدوهم عن ديارهم .

لذلك لم يخش عمرو جانبهم ، وأقام مطمئنا إلى سلامة مصر من ناحية الجنوب .

هل فتحت مصر صلحا أم عنوة ؟

إنما كان القتال بين العرب والروم فى أرض مصر .

وقد انتصر العرب على الروم . وأجلوهم عن مصر وأزالوا دولتهم فيها .

وهم لذلك قد فتحوا مصر عنوة فى وجه الروم الذين قاتلوهم وانهزموا أمامهم .

ولم يفتحوها عنوة فى وجه المصريين الذين لم يقاتلوهم .

أما بالنسبة للمصريين ، فإن الروم قد حرموا عليهم الجيش والتسلح وصناعة الأسلحة ، وبهذا وقفوا أثناء المعركة موقف المتفرج ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ... فكان فتح مصر صلحا بالنسبة للمصريين .

ماذا فى المعاهدة ؟

أقر عمرو الصلح بينه وبين المصريين .. ورضى المصريون ذلك الصلح ودخلوا فيه .. فماذا كان فى هذا الصلح ؟ .

أورد الطبرى نص هذا العهد :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان ، على أنفسهم ، وملتهم ، وأموالهم ، وكنائسهم ، وصُلبهم ، وبَرهم ، وبحرهم ، لا يُدخل عليهم شيء من ذلك ، ولا يُنتقص ، ولا تساكنهم النوبة .

« وعلى أهل مصر أن يُعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح ، وانتهيت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف .

« وعليهم ما جنى لصُوتُهم (لصوصهم) . فإن أبى أحدمنهم أن يُجيب رُفع عنهم من الجزاء بقدرهم ، وذمتنا ممن أبى بريئة .

« وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رُفع عنهم بقدر ذلك .

« ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوبة فله مثلُ مالهم ، وعليهم مثل ماعليهم .

« ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا .

« عليهم ماعليهم أثلاثا ، فى كل ثلث جباية ثلثِ ماعليهم .

«على مافى هذا الكتاب عهد الله وذمته ، وذمة رسوله ، وذمة الخليفة أمير المؤمنين ، وذممُ المؤمنين .

« وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأسا ، وكذا فرسا ، على ألا يُغزوا ، ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة » ...

وقبل أهل مصر هذا التصريح الذى أعلنه عمرو ، ودخلوا فيه ...

كم كانت الجزية ؟

لم يرد فى عهد عمرو تفصيل الجزية ، ولا طريقة توزيعها بين سكان مصر .

وقد اتفق المؤرخون على أن الجزية قُدرت بدينارين على كل حالم من الرجال دون سواهم ، فلا جزية على الأطفال والنساء والرقيق والشيوخ الفانين والعجزة غير القادرين والصبيان .

وواضح أن هذه الجزية كانت على الرءوس ، وأنها كانت غير خراج الأرض يلزم به الرجل على قدر المساحة التى يزرعها .

ثم كتب عمر إلى عمرو أن يفرق بين أهل مصر فى مقدار الجزية على قدر يسارهم ، فيجعلها أربعة دنانير على الموسر ، ودينارين على أوساط الناس ، وديناراً على من دونهم .

وهذا التطور من عمر اتبع من بعد . يقول أبو يوسف فى كتاب الخراج : « الجزية واجبة على جميع أهل الذمة ... وإنما تجب على الرجال منهم دون النساء والصبيان . على الموسر ثمانية وأربعون درهما ، وعلى الوسط أربعة وعشرون ، وعلى المحتاج الحرّاث العامل بيده اثنا عشر درهما ، يؤخذ ذلك منهم فى كل سنة » .

ماذا ولماذا ؟ ... ماذا دفع المسلمين إلى فرض الجزية على من صولح من أهل الذمة ، ولماذا هذه الجزية ؟ .

ينبغى هنا أن نتأمل الأمر مليا ، فإن فيه شبهة قد تجوز على كثيرين ...

إن هذه الجزية معناها بلغة عصرنا الحاضر ، ضريبة دفاع ...

وإذا كانت أرقى دول العالم مدنية فى عصر الفضاء والصواريخ ، تفرض على أبنائها ضرائب متعددة ، لتستطيع تسليح جيوشها بأحدث الأسلحة ، ولتتمكن من مواجهة نفقات التسلح ... فإن الدولة الاسلامية ليست بدعا من الدول حين تفرض على أبنائها تلك الضريبة لتتمكن من اعداد جيوشها لمواجهة أعدائها .

وهذا هو المقصود من الجزية التى فرضها الاسلام على أهل الذمة .. ذلك أنهم ينعمون بنعمة الدفاع عن أراضيهم ، ويقوم جنود المسلمين بالدفاع عن تلك الأراضى ، ويبذلون فى ذلك ما يبذلون من دمائهم وأموالهم ... فلا أقل من أن يشارك الذميون فى نفقات الدفاع .

ولذلك نرى عمر فى فتوحات فارس ، يسقط الجزية عن الفارسيين الذين قبلوا أن يقاتلوا مع المسلمين أعداء البلاد ... فحيثما انتفى سبب الجزية انتفى دفعها .

ونرى كذلك الاسلام يسقط الجزية عن الذمى إذا أسلم ... لأنه فى هذه الحال سيقوم بواجب الدفاع بدمه عن البلاد .

ونرى الأسلام يسقطها أصلا عن الذين لا يصلحون لقتال ، النساء والشيوخ والصبيان ..

ونراه يسقطها عن الذين لا يستطيعون أداءها ... كالرقيق والعاطلين ...

فليس الأمر أمر إعنات ، وانما هو مصلحة الدولة العليا ..

ثم نرى عمر يجعل تلك الجزية فئات ثلاث أربعة دنانير للقادر ، وديناربن لمتوسط الحال ... ودينار للجماهير ....

أرأيت ؟ ... دينار للرجل العادى ... إن جمهور المصريين فقراء ... الملايين الكادحة هم غالبية الشعب ... يدفع كل رجل قادر على الكسب والقتال منهم دينارا واحدا !. أى مايوازى خمسين قرشا تقريبا بعملتنا اليوم ..

أى أن ضريبة الدفاع المفروضة على الأسرة المصرية هى خمسون قرشا ... إذا علم أن الأسرة الصغيرة لا تشتمل فى الغالب على أكثر من رجل واحد تنطبق عليه شروط الجزية.

فإذا قسمنا الخمسين قرشا على شهور السنة ، كانت ضريبة دفاع الأسرة أربعة قروش... أى درهم واحد شهريا .

هل هذا شيء كثير أيها الناس ؟... أربعة قروش شهريا نظير حماية أسرة بأكملها ؟.

هذا عن الجزية التى فرضها الاسلام لمصلحة الدولة العليا ، ولتكون شيئا مفروضا على رعايا الدولة الاسلامية من أهل الذمة ، بديلا عن الزكاة التى يدفعها رعاياها المسلمون . إذ لا يتأتى أن يدفع المسلمون ضريبة الزكاة ، ويقوموا بأداء ضريبة الدم بقتالهم عن الوطن ، بينما الذميين لا يدفعون ضريبة ولا يقاتلون عدوا ؟! .

وإنما تقضى العدالة أن تكون هنا ضريبة وهناك ضريبة تقابلها ، ليتحقق التوازن بين المواطنين .

وما هذا الخراج ؟

وهنا شبهة أخرى تحيك فى الصدور ... هى: ماهذا الخراج الذى فرضه عمرو على أرض مصر كلها ؟ .

الخراج بلغة عصرنا الحديث هو ضريبة الأطيان ... وقد فرض عمرو على الفدان من أرض مصر سبع كيلات قمحا سنويا .

وهو يقل عن ضريبة الأطيان فى مصر الآن !!

ذلك أن ثمن السبع كيلات الآن ثلاثة جنيهات تقريبا ، وهو يقل عن متوسط ضريبة الفدان الجيد فى مصر الآن .

أرأيت ؟ ... هذا هو الخراج ، أى ضريبة الأطيان الزراعية .

ضريبة طبيعية ، فرضها عمرو على كل من يزرع شيئا من الأراضى الزراعية ... مصريا كان أو غير مصرى .

وقدرها تقديرا عادلا ، وترك تقديرها إلى أهل مصر ، فهم أدرى بشئونهم .

حرية العقيدة

كان أول أمر أذاعه عمرو بن العاص فى الناس جميعا من النوبة إلى الاسكندرية ، أن لا إكراه فى الدين ، وأن حرية العقيدة ، أمر مقدّس ، فلن يضار أحد فى حريته ، أوفى ماله ، بسبب دينه أومذهبه .

فمن شاء أن يبقى ملكانيًّا أو مونوفيسيا فله مايشاء . ومن شاء أن ينتقل من دين إلى دين أومن مذهب إلى مذهب فلن يصاب لذلك بسوء .

ومن أسلم فله ماللمسلمين وعليه ماعليهم .

منشور عجيب أذاعه عمرو بن العاص فى أنحاء البلاد !

ونفذت هذه السياسة بدقة وإخلاص .

ذكر ساويرس أن أسقفا ملكانيا بقى على مذهبه حتى مات ، ولم يمسسه أحد بسوء ، وأن بنيامين المونوفيسى كان يستميل الناس إلى مذهبه بالحجة والبرهان ، فلايقف أحد فى سبيله ، ولايعطل أحد نشاطه .

وقد بقيت كنائس الملكانيين ، وكنائس المونوفيسيين قائمة تؤدى فيها الشعائر ،

ولا يجرؤ أحد أن يدنس حرمتها أو يحمل أحدا من أهل هذا المذهب أو ذاك على أمر لا يرضاه ! .

ورأى المصريون حكما جديدا، يحترم الحريات، ويترك الناس أحرارا فى آرائهم، وعقائدهم ومذاهبهم الفكرية ، وقارنوا بين ما جاءهم به حكم الإسلام وما كانوا عليه من اضطهاد وتعذيب دام عشرة أعوام أيام الرومان ، فأيقنوا أن دين الفاتحين هو دين الحرية !!

والمساواة !

وخفف عمرو وطأة الضرائب ، وألغى ما قرره الروم من فروق بين الناس فى أمرها.

كان الروم يحصلون غير جزية الرءوس ضرائب كثيرة من أنواع شتى ، أكثرها غير عادل .

وكانوا قد منحوا امتيازات طبقية لبعض الطوائف ، فأعفوهم من الجزية ، ومن ضرائب معينة ، خصوصا أهل الإسكندرية ...

فألغى عمرو ما كان غير عادل من تلك الضرائب ، وسوى بين الناس فى أدائها .

فتحدث الناس بعدالة الإسلام .

العاصمة الجديدة ؟

كتب عمرو إلى أمير المؤمنين يستأذنه فى المقام بالإسكندرية ، وإقامة حكومته بها ، وسأل عمر الرسول : هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟ .

فأجابه : نعم ياأمير المؤمنين إذا جرى النيل .

لذلك كتب إلى عمرو : « لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف » . واختار عمرو المكان المجاور لحصن بابليون تحقيقا لرغبة عمر ...

فهو مكان يستطيع أمير المؤمنين أن يأتى من المدينة إليه دون أن يحول بينه وبين المسلمين ماء .

فلما عاد من الإسكندرية أمر جنده أن ينزلوا عنده ، وأن يختطوا دورهم حوله .

واختطت المدينة ، وقسمت بين أحياء العرب ، وبناها لهم القبط .

وبنى عمرو مكان فسطاطه (خيمته) وما حوله مسجدا بين حدائق وأعناب .

وظل قائما مع أصحابه حتى حرروا قبلته .

ثم إنه اتخذ فى المسجد منبرا يخطب الناس فوقه ، فلما عرف صنيعه ذاك كتب إليه عمر : « أما بعد ، فإنه قد بلغنى أنك اتخذت منبرا ترقى به على رقاب المسلمين . أما حسبُك أن تقوم قائما والمسلمون تحت عقبيك ! فعزمت عليك إلا ما كسرته ! » .

فكسره عمرو ... وأزاله .

وبنى عمرو داراً لعمر بن الخطاب وكتب إليه : إنا قد اختططنا لك دارا عند المسجد الجامع .

فأجابه عمر : أنّى لرجل من الحجاز أن تكون له دار بمصر !. وأمره أن يجعلها سوقا للمسلمين ، فنفذ عمرو أمره !.

نموذج للمجتمع الإسلامى

كما أنشئت الكوفة ، والبصرة ، مدنا إسلامية ، يطبق فيها النظام الاسلامى الصحيح ، كذلك أنشئت الفسطاط مدينة إسلامية ، بعيدة عن مدينة مصر ، مستقلة عنها فى كل شىء .

ودائما أبدا نلحظ فى تلك المدن التى ينشئها الجيش الاسلامى ، أن المسجد يتوسطها ، وينتشر من حوله بيوت الجنود .

وفى هذا المجتمع الصغير ، تتمركز الفكرة الاسلامية ، بقوتها ومبدئها .

القوة ممثلة فى الجيش كله ، والفكرة ممثلة فى كتاب الله ...

مجتمع كامل يطبق الاسلام على نفسه فى كل شىء ، وعلى استعداد دائما لبذل دمه فى سبيل عقيدته .

ومن هذا المجتمع الصغير ينبثق الاسلام نورا على البلاد التى فتحها ، وتوجيها لأبنائها ، وعدلا فى حكمها .

وهو أروع أسلوب فى الدعوة إلى دين الله ... وعرض الفكرة على الأجانب عنها .

إن أهل مصر كانوا جميعا من المسيحيين تقريبا .. فكيف يعرض عليهم الاسلام؟..
إن ذلك هو الأسلوب ... وسرعان مااقتنع المصريون ، وسرعان ما دخلوا بعد ذلك في دين الله أفواجا .

فليأت البطريرك آمنا !

فلما أيقن رهبان القبط أن عمرا يحترم حرية العقائد ، خرج عدد عظيم من الأديار التي كانوا قد اعتصموا بها من الاضطهاد .وساروا إلى عمرو يعلنون له الطاعة .

وكتب للقبط جميعا أمانا خص فيه بنيامين بقوله : « فليأت البطريق الشيخ آمنا على نفسه وعلى القبط الذين بأرض مصر والذين في سواها لا ينالهم أذى » .

وعلم بنيامين بما أذاعه الفاتح العربي ، فخرج من مخبأه بالصحراء ، ودخلها إلى الاسكندرية ، فدخلها دخول الفاتح ، في مظاهر من ابتهاج القبط ، لايساورها خوف ، ولا يشوب صفوها كدر ! .

ثم دعاه عمرو إليه ، وقابله بالترحيب والتكريم ... وجعل له ولاية الدين على القبط يسوسهم في أموره بما يشاء .

وخرج البطريرك القبطي من حضرة الفاتح الاسلامي ، وعاد إلى الاسكندرية يلهج بحمده والثناء عليه ويقول لأتباعه : « عدت إلى بلدي الاسكندرية فوجدت بها أمنا من الخوف ، واطمئنانا بعد البلاء ، وقد صرف الله عنا اضطهاد الكفرة وبأسهم » .

وكان المصريون يقولون : « ماخرج الروم وانتصر عليهم المسلمون إلا لما ارتكبه هرقل من الكبائر، وما أنزله بالقبط وملتهم على يد قيرس . لقد كان هذا سبب ضياع أمر الروم وفتح المسلمين لبلاد مصر » .

المصريون يتدفقون على الإسلام ؟!

الحرية دائما هي الأرض الطيبة التي تنبت الأفكار الطيبة .

أشاع عمرو جوا من الحرية في ربوع البلاد ، كما أشاع جوا من العدالة والمساواة في

أنحائها ... فأقبل العقلاء من المصريين على النظر فى المذاهب المختلفة ، ثم انتهى إلى قبول الاسلام والدخول فيه ؟.

لماذا ؟... إن أحدا لم يكرههم على الاسلام ، أو يرهبهم ليقبلوا هذا الإسلام ، فلماذا تدفقوا عليه ؟ لأنهم رأوا فيه مايمضى مع الفطرة السليمة الكريمة ...

رأوا فيه شعاع لاإله إلا الله ، التى تهفو لها الأفئدة عن طواعية وحنين ... لأنها فطرة الله التى فطر الناس عليها .

ورأوا فيه قوما عدولا ، يحب أحدهم مايحب لنفسه .

ورأوا فيه دعوة عامة لكل الناس ، لاتفرق بين لون ولون ، ولا بين حر وعبد ، ولا بين شريف ووضيع ، وإنما الكل سواء .

والعقول السليمة إذا هيأت لها جوا من حرية البحث ، تهتدى بفطرتها إلى مافى الاسلام من تعاليم :

يقول بتلر فى هذا الصدد : «ليس من العدل أن يقال إن كل من أسلم من القبط إنما يقصد الدنيا وزينتها . وإذا كان منهم من أسلم طمعا فى أن يتساوى بالمسلمين الفاتحين حتى يكون لهمالهم وينجو من دفع الجزية ، فان هذه المطامع ما كانت لتدفع إلا من كانت عقيدتهم غير راسية . أما الحقيقة المرة فهى أن كثيرين من أهل الرأى والحصافة قد كرهوا المسيحية لما كان من عصيان لصاحبها ، إذ عصت ما أمربه المسيح من حب ورجاء فى الله ، ونسيت ذلك فى ثوراتها وحروبها التى كانت تنشب بين شيعها وأحزابها . ومنذ بدا ذلك لهؤلاء العقلاء لجئوا إلى الإسلام فاعتصموا بأمنه ، واستظلوا بوداعته وطمأنينته وبساطته » .

تلك شهادة رجل أجنبى عن هذ الدين ، فيها أكبر دلائل على أن المصريين أقبلوا على الإسلام عن بحث واقتناع ورغبة . فى جو من الحرية التامة .

السياسة الإسلامية العليا للبلاد

ندخل الآن إلى باب خطير من أبواب هذا الكتاب ، وهو كيف كانت سياسة عمرو العليا فى حكم مصر ؟ .

وإنما تأتى خطورة الباب من أنه التخطيط العام للسياسة الاسلامية فى حكمها للقطر المصرى ...

أما الجيش وقياداته فـكانت حقا خالصا للمسلمين الفاتحين ... وهذا ماتمليه ظروف البلاد آنذاك .

وأما الشرطة بأ كملها فقد تركت للمصريين ، كما كانت أيام الرومان .

وكانت الأوامر إلى الجيش الإسلامى الفاتح ، أن يكون دائما مستعدا للدفاع عن البلاد ضد أى عدوان خارجى ، لذلك حرم على أفراده أول الأمر امتلاك أى شبر من أراضى مصر .

وفرضت للجنود مهايا يقتضونها لنفقتهم ونفقة عيالهم ... وأقاموا على ذلك كل خلافة عمر . على أن هذا المنع لم يدم إلا ريثما اطمأن المسلمون إلى قرارهم فى مصر . عند ذلك أبيح لهم أن يمتلـكوا الأرض ، فإذا ملـكوها دفعوا عنها الخراج كسائر الناس، فلايزاد خراجها ولا ينقص بسبب تغيُّر مالـكها ، وكونه مسلما أو قبطيا .

فـكانت المهايا تصرف إلى الجيش من حصيلة الجزية ، وإن تبقى شىء أرسل إلى المدينة ، العاصمة المركزية للدولة .

هذا عن الجيش والشرطة ، أما المناصب المدنية فترك عمرو أ كثرها لجماعة من الروم كانوا يتولونها من قِبَل دولتهم قبل الفتح ثم آثروا البقاء بمصر بعد الفتح .

ورضى كثير منهم الإسلام ليكون لهم ماللمسلمين وعليهم ماعليهم .

أقر عمرو ميناس على حكم مصر السفلى حيث كان من عهد هرقل .

وأقر غيره من بنى جنسه على حكم بعض الأقاليم .

كما أقر الروم الذين كانوا فيما دون ذلك من المناصب ولم يتركوا مصر .

وشغل القبط المناصب التى خلت لأن أصحابها من الروم تركوا البلاد .

ماهذا ؟ ... هذا هو الإسلام .

لقد جاء عمرو إلى مصر ، فوجدها على أوضاع معينة ، فماذا يفعل ؟

هل يطبق نصوص الاسلام فورا بلا إبطاء مهما كانت الظروف ، كما يذهب إلى ذلك بعض مسلمى اليوم ، أم يسوس البلاد بما تقتضيه ظروفها وأحوالها ؟ .

إن تغيير النظام القائم فى دولة من الدولة يتعذر أن يتحقق طفرة واحدة ، فلابد من الابقاء عليه مؤقتا حتى يتطور على الأيام ليلائم العهد الجديد .

ولم يكن لعمرو أول الفتح أن يسلك غير هذه الخطة ، فهى بعينها الخطة التى سلكها المسلمون فى العراق والشام ، وهى كانت محتومة فى مصر أكثر منها فى تلك البلاد .

أما وقد كان جماعة من الروم عمالا على الأقاليم حين جاء الفتح ، فليبقوا كما كانوا ، ولينظر الفاتح العربى فى هدوء ، فيدخل مايحسن ادخاله على نظام الحكم من تعديل يزيد نصيب أهل البلاد من هذا الحكم ، على شريطة ألا يضطرب النظام فيسىء اضطرابه إلى الحاكمين والمحكومين على سواء .

هل كانت هذه السياسة شيئا استبداديا من تفكير عمرو وحده ؟.

كلا ... فقد كان عمرو يكتب إلى الخليفة بما يتم فى مصر ، ويطلعه على كل خطواته فيها !.

فإذا علم أن عمرو لم يكن يفعل شيئا إلا بعد استشارة أهل الرأى . وأنه كان يكتب بكل شىء إلى عمر ، وأن عمر لا يقر باطلا أبدا ، أدركنا أن تلك السياسة هى سياسة الإسلام ، لأنها ثمرة أفكار قادة الاسلام فى مصر والمدينة آنذاك .

ومن هذا نعلم أن مصر فى الأيام الأولى للفتح كان بها نظامان ... نظام ترك البلاد على ماهى عليه ، ونظام طبق فيه الاسلام بحذافيره .

أما الاسلام فطبق بأكمله على أهل الفسطاط لأنهم جميعا مسلمون .

وأما سائر البلاد من أهل الذمة ، فتركوا ونظامهم الاجتماعى ، وعقائدهم الدينية .

ماذا ندرك من هذا ؟ ... ندرك من ذلك أن تطبيق الاسلام يستلزم وجود المجتمع الاسلامى أولا ، ثم بعد هذا يأتى التشريع نتيجة طبيعية لذلك المجتمع .

وندرك من هذا كذلك أن الاسلام لايقر الطفرة من الجاهلية إلى الاسلام مرة واحدة ، وإنما يدعو إلى التطور التدريجى بالمجتمع .

وهذا ماينبغى أن يوضع فى الاعتبار أمام الأنظار ، عندما يفكر قوم فى تطبيق الاسلام على مجتمع من المجتمعات .

عمر يأمر باستشارة البطريرك ؟

عجيب هذا الاسلام ... إنه يتلقى آراء الناس جميعا ،سواء كانوا له أم عليه، ويهضمها، ويخرجها نظاما طيبا إلى الجميع .

لما عرف عمر مكانة بنيامين من المصريين ، كتب إلى ابن العاص أن يلتمس الرأى عند البطريق القبطى فى خير الوسائل لحكم البلاد وطمأنينة أهلها .

وفرح بنيامين فرحا شديدا ... وأخلص المشورة لعمرو ...

وكانت آراءه أن يحصل الخراج من غَلّة الأرض عند فراغ الناس من زروعهم ، ومن عصر كرومهم .

وأن تحفر خلجان مصر ، وتصلح جسورها ، وتسد ترعها .

وأن يعطى العمال أرزاقهم بغير انقطاع لئلا يرتشوا .

وألا يباح مطل الناس حقوقهم بغيا بغير حق .

وألا يلى أمور الناس عامل ظالم .

أرأيت ؟ ... كلمة الحق دائما واحدة ... إن بنيامين القبطى يشير بالعدل والنظام ... تماما كما يشير الإسلام !

إن البطريرك يرى أن اصلاح نظام الحكم فى مصر يجب أن يعتمد على الأسس الآتية :

تحصيل ضريبة الأطيان الزراعية بعد جنى المحاصيل ... الاهتمام بمشروعات الرى والطرق لزيادة الرقعة المزروعة ... صرف مهايا العمال بانتظام لئلا يرتشوا ... سرعة انهاء أعمال الدولة ، أعمال الجمهور لئلا تتعطل مصالحه ... عزل كل موظف ظالم مهما كانت أوضاعه.

أرأيت ؟ ... إن ماأشار به البطريرك وأقره عمرو ، هو هو نفس ما ننادى به الآن لاصلاح أداة الحكم فى هذه البلاد !!.

إن الشعب المصرى كان يتطلع وقتئذ إلى النهوض ببلاده بعد ان ازاح كابوس الاستعمار الرومانى عنه ، تماما كما انبعث الآن ينهض ببلاده بعد أن ازاح كابوس الاستعمار البريطانى .

وارتاح عمرو إلى ماأشار به البطريرك ، فكتب إلى عماله فى أرجاء البلاد ، وأمرهم أن يتبعوا هذا الرأى لايحيدون عنه .

خليج أمير المؤمنين !

وانطلق الفاتح العربى يشعل الثورة فى انحاء البلاد المصرية ...

والاسلام دائما وأبدا ينادى بمبدئه الخالد « إن أريد إلا الاصلاح » ...

هذا هو عمرو بعد أن أشاع العدل والمساواة فى أنحاء مصر ، ينطلق إلى تنفيذ المشروعات الكبرى . للنهوض باقتصادها .

وبادر عمرو إلى القيام بهذا العمل العظيم ... وأتمه فى وقت قصير لم يبلغ عاما كاملا .

وكان هذا الخليج يجرى مبتدئا من شمال بابليون متجها شمالا بشرق إلى بلبيس ، فاذا جاوزها اتجه شرقا إلى بحيرة التمساح ، ليخرج من جنوب هذه البحيرة فيتابع جريانه خلال البحيرات المرة فيبلغ البحر الأحمر عند السويس .

ولاشك أن فى القيام بهذا العمل العظيم ، وإتمامه فى هذا الزمن الوجيز مما يشهد لعمرو بالمقدرة الادارية الممتازة .

معسكرات العمل !

جند عمرو الألوف من العمال المصريين للقيام بحفر الخليج ... وكانت أوامره صريحة قاطعة ، أن يتم المشروع فى أقرب وقت مستطاع .

وماهى إلاشهور حتى خرج الخليج إلى الوجود عملا رائعا ، يشهد للقيادة العربية بالعبقرية ، ويشهد للانتاج المصرى بالعظمة .

ماذا ندرك من هذا ؟... ندرك أن الجمهورية العربية المتحدة فى نهضتها القائمة فى ربوعها الآن ، يجب أن تعمل ماعمله عمرو حين نهض لاصلاح هذه البلاد .

لقد لجأ فى تنفيذ هذا العمل إلى السُّخرة ، فجند الآلاف لحفر الخليج ، حتى تم تنفيذ المشروع فورا .

فلماذا لانلجأ نحن الآن الى مالجأ إليه عمرو ، فنجند جميع الفلاحين لبناء قراهم من جديد ؟.

لماذا لانأمر أهل كل قرية أن يبنوا قريتهم الجديدة بسواعدهم بلا مقابل ، وماأكثر أوقات الفراغ عندنا ؟ .

يمكن أن نفعل هذا ... ولوفى سنين ... فإذا القرى قد تحولت كلها إلى قرى حديثة ، بأيدى أبنائها ، وبأقل النفقات .

عمرو يشق قناة السويس ؟!

وانطلق العملاق العربى فى ثورته الإصلاحية ... وكان أعجب مافكر فيه عمرو أنه كان يريد حفر خليج بين بحيرة التمساح وبحر الروم ، يصل مياه البحرين ، بحر القلزم (الأحمر) وبحر الروم (الأبيض المتوسط) على نحو ماهو حادث اليوم ! .

واعتزم عمرو القيام بهذا العمل الضخم ،ولولا اعتراض أمير المؤمنين بأنه يسهل الروم اختراق هذه القناة وتسيير سفنهم إلى البحر الأحمر .

ولم يكن للعرب إلى يومئذ أسطول تجارى أوأسطول حربى يقف فى وجه أسطول الروم أوينافسه .

فكان العدول عن حفر قناة تصل مياه البحرين بعض مايقضى به الحذر !.

ماهذا ؟.. إنه العملاق العربى إذا انطلق، إن عمروبن العاص كان يريد ، وعزم فعلا،

على شق قناة السويس ، لولا أن منعه من ذلك أمير المؤمنين لأسباب عسكرية ،هى حماية العالم الاسلامى من أسطول الروم .

ولقد مضت القرون ... حتى كان القرن التاسع عشر ، وشقت هذه القناة بأيدى ابناء مصر ، ومات فيها الآلاف منهم ، ومع هذا تبلغ الوقاحة بالاستعمار أن كان يظن أن تلك القناة حقا خالصا له دون أبناء البلاد ...

حتى كانت الوقفة الرائعة الخالدة للشعب العربى ... فأعلن تأميمها ... واسترد العرب قناتهم الخالدة .

إن انتزاع الشعب لقناته من أيدى الاستعمار كان تنفيذا تاريخيا لآمال عمرو بن العاص ، حين اعتزم شقها يوما من الأيام .

ثم افتتح خليج أمير المؤمنين ، وسارت السفن فيه من الفسطاط إلى البحر الأحمر ... وكان طريقا عالميا للتجارة الدولية ، أعاد إلى مصر أهميتها كطريق عالمى للمواصلات ..

ولو أن أمير المؤمنين وافق عمرا على رأيه ، وتركه يشق قناة السويس ، ويصل بحيرة التمساح ببحر الروم لكان من ذلك طريقا عالميا آخر ولنعم العالم بطريقين عظيمين مائيين ، يصلان البحر الأبيض بالبحر الأحمر ... الأول خليج أمير المؤمنين ، والثانى قناة السويس .

وتلك هى الروح العربية الاسلامية إذا انطلقت ... إنها تنطلق عدلا ومساواة واصلاحا وتعميرا .

عقلية فعالة متطورة

كان حكم عمرو لمصر رحمة للمصريين ، نعموا فيه بعدالة الاسلام ، ورحمة الايمان ، أخذ بنصيحة بنيامين فى أمر ضريبة الخراج وتحصيلها ، وكان يذهب إلى أبعد من ذلك فى تخفيف وطأته ، فقد كان هذا الخراج يزيد وينقص تبعا لحالة الفيضان ومحصول الزراعة ، وكان أعيان كل قرية وبلد يجتمعون كل عام فى لجنة تحدد مقدار ما يحصل منها حسب هذه الأحوال .

فإذا زاد المال الذى يحصل من بلد على الخراج المفروض عليها ، أنفق الزائد فى إصلاح أحوالها .

ولقد جعلت فى كل بلد قطعة أرض خصص ريعها للمنافع العامة كإصلاح الكنائس والحمامات والطرق وما إليها .

وكان ما يحصل من ضريبة الخراج أقل بكثير مما كان الروم يحصلونه من الضرائب الكثيرة الفادحة التى فرضوها على المصريين فيما سوى العاصمة من أرجاء البلاد .

كما أسقط عمرو الامتيازات التى كان يتمتع بها أهل الإسكندرية،وسوى بينهم وبين سائر سكان البلاد .

ومن هنا نعلم أن عقلية عمرو عقلية متطورة فعالة ، تتبلور مع الأحداث ولا تقف جامدة أمام حوادث الحياة .

وهكذا كان هؤلاء الناس دائما ، لم يكونوا كأكثر مسلمى اليوم ، غافلين عن دنياهم ، جاهلين بها ، وإنما كانوا حركة دائبة ، وتوثبا دائما نحو الأرقى فالأرقى .

وتدفقت تبعا لسياسة عمرو العملية فى مصر الأموال على الخزانة العامة، حتى بلغ ما يجبى من ضريبة الجزية وحدها ستة عشر مليونا من الدنانير سنويا ، فضلا عما كان يجبى من ضريبة الخراج !

وبقى نظام الادارة فى دواوين الدولة جاريا مجراه من قبل ..

وطابت الحياة لعمرو بن العاص فى مصر ...

وطابت الحياة للمصريين جميعا ... ونعم الجميع بنعمة الحكم الصالح فى ظلال الاسلام.

مصر شجرة خضراء .

وبعث عمرو يصف مصر إلى أمير المؤمنين فقال :

«إعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر ، يكنفها جبل أغبر ، ورملٌ أعفر .

«يخط وسطها نيل مبارك الغَدَوات ، ميمون الرَّوحات ، يجرى فيه الزيادة والنقصان ، كجرى الشمس والقمر . له أوان يدرّ حلابه ، ويكثر فيه ذبابه ، تمده عيون الأرض وينابيعها . حتى إذا ما اصْلخمّ عجاجه ، وتعظمت أمواجه ، فاض على جانبيه ، فلم يمكن التخلص من بعضها إلى بعض إلا فى صغار المراكب وخفاف القوارب ، وزوارق كأنهن فى المخايل ، ورق الأصائل .

«فإذا ما تكامل فى زيادته ، نكص على عقبيه كأول ما بدأ فى جريته ، وطما فى درته .

«فعند ذلك يخرج أهل ملة محقورة ، وذمة مخفورة ، يحرثون بطون الأرض ، ويبذرون بها الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب .

« لغيرهم ما سعوا من كدهم ، فناله منهم بغير جِدّهم .

«فإذا أحدق الزرع وأشرق ، سقاه الندى ، وغذّاه من تحته الثرى .

«فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ، إذا هى عنبرة سوداء ، فاذا هى زُمُرّدة خضراء ، فاذا هى ديباجة رقشاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء ، الذى يصلح هذه البلاد ويُنَمّيها ، ويقر قاطنيها فيها ، ألا يقبل قول خسيسها فى رئيسها ، وألا يُستأدى خراج ثمرة إلا فى أوانها .

« وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها .

«فاذا تقرر الحال مع العمال فى هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال ، والله تعالى يوفق فى المبدأ والمآل » .

يقول المؤرخون : فلما ورد الكتاب على عمر بن الخطاب وقرأه قال : « لله درك يابن العاص ! لقد وصفت لى خبراً كأننى أشاهده » .

الإصلاح أولا

كان عمرو ينفق من خراج مصر ومن الجزية ما يحتاج إلى انفاقه فى حفر ترعها ، وإقامة جسورها ، وبناء قناطرها ، وقطع جزائرها ... ثم يبعث ما يبقى بعد ذلك إلى أمير المؤمنين .

وقد احتاج تعمير البلاد أول الأمر نفقات باهظة ... كما أعفى عمرو القرى التى أصابها الخراب من دفع الضريبتين .

وكان أمير المؤمنين فى حاجة إلى المال لتنفيذ سياسته فى شبه الجزيرة ، فألح على عمرو ليبعث اليه الخراج كاملا .

إلا أن عمرا أصر على سياسته ، حتى ضاق عمر بذلك ... وكتب إلى عمرو كتابا يقول فيه : « ... لقد أكثرت فى مكاتبتك فى الذى على أرضك من الخراج ، وظننت أنه سيأتينا على غير نزر ، ورجوت أن تفيق فترفع إلىّ ذلك ، فإذا أنت تأتينى بمعاريض تبعث بهالاتوافق الذى فى نفسى .

« ولست قابلا منك دون الذى كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك .

« ولست أدرى مع ذلك ماالذى نفرك من كتابى وقبضك ؟! .

« فلئن كنت مُجزئا كافيا صحيحا إن البراءة لنافعة . وإن كنت مضيِّعا نطِفا إن الأمر لعلى غير ما تحدِّث به نفسك .

« وقد تركت أن ابتغى ذلك منك فى العام الماضى رجاء أن تفيق فترفع إلى ذلك .

« وقدعلمت أنه لم يمنعك من ذلك إلاعُمالك عمال السوء ، وما تُتوالس عليه وتُلفَّف .

« اتخذوك كهفا ، وعندى بإذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك عنه .

« فلاتجزع أباعبد الله أن يؤخذ منك الحق وتُعطاه . فإن النَّهر يُخرج الدّرّ . والحق أبلج ، ودعنى وما عنه تلجلج ، فإنه قدبرح الخفاء . والسلام » .

إلا أن عمرا دفع عن نفسه فى لغة شديدة فبعث إلى أمير المؤمنين كتابا يقول فيه : «... أكثرت فى كتابك وأنّبت وعرّضت وثربت . وعلمت أن ذلك عن شىء تخفيه على غير خبير ، فجئت لعمرى بالُمفظعات الُمقذعات ... وقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومَن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لأماناتنا ، حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا ، نرى غير ذلك قبيحا ، والعمل به شيناً ، فيعرف ذلك لنا ويصدّق فيه قيلنا .

« معاذ الله من تلك الطعم ، ومن شر الشِّيم ، والاجتراء على كل مأثم .

« فاقبض عملك فإن الله قد نزهني عن تلك الطعم الدنية، والرغبة فيها بعد كتابك الذي لم تستبق فيه عِرْضا، ولم تُكرم فيه أخا.

« والله يابن الخطاب لأنا حين يراد ذلك مني أشد لنفسي غضبا، ولها إنزاها وإكراما. وماعملت من عمل أرى عليّ فيه مُتَعَلَّقا ولكني حفظت ما لم تحفظ.

« ولو كنتُ من يهود يثرب مازدت. يغفر الله لك ولنا !.

« وسكتُّ عن أشياء كنت بها عالما، وكان اللسان بها مني ذلولا، ولكن الله عظمَّ من حقك مالا يُجْهل. والسلام ».

عُمر يتهم عَمرا!

ورأى أمير المؤمنين أن يأخذ ابن العاص بالشدة فكتب اليه : « ... فقد عجبت من كثرة كتبي إليك في ابطائك بالخراج، وكتابك إلى بِنُيَّات الطرق.

« وقد علمت أني لست أرضى منك إلا بالحق البين. ولم أُقدمك إلى مصر أجعلها طُعْمة لك ولا لقومكَ، ولكني وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك.

« فإذا أتاك كتابي هذا فاحمل الخراج فإنما هو فيء المسلمين. وعندي من قد تعلم قوم محصورون والسلام ».

فأجابهَ عمرو : « فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين يستبطئني في الخراج، وزعم أني أحيد عن الحق، وأنكب عن الطريق.

« وإني والله ماأرغب عن صالح ماتعلم.

« ولكن أهل الأرض استنظروني إلى أن تدرك غَلتهم، فنظرت فكان الرفق بهم خيرا من أن يُخْرَقَ بهم، فيصيروا إلى بيع مالاغنى لهم عنه والسلام ».

أرأيت ؟.. إن عَمرا يصر على ألا يرهق الفلاحين بتحصيل الخراج قبل جني المحاصيل، ولا يريد أن يشتد عليهم في ذلك حتى يضطروا إلى بيع مايحتاجون اليه من ماشية وخلافها مما لاغنى عنه !.

إن عمرا كان ينظر بعين الواقع الذى يعيش فيه ، وعين الرحمة التى غرسها الاسلام فى قلبه ! .

مصادرة أموال عمرو !

وكتب أمير المؤمنين إلى عمرو يقول : « إنه قدفشت لك فاشية ، من متاع ورقيق وآنية وحيوان ، لم يكن حين وُلّيت مصر » .

وأجابه عمرو : « إن أرضنا أرض مُزْدَرَع ومَتجر ، فنحنُ نصيب فضلا عما نحتاج إليه لنفقتنا » .

وعلى الفور قرر عمر أن يفاجىء عمراً بالتفتيش عليه ، والتحقيق معه ، ثم مصادرة نصف أمواله ! .

فأرسل أمير المؤمنين إليه : « إنى قد خبرت من عمال السَّوْء ما كفى .

« وكتابك إلىَّ كتاب مَنْ قد أقلقه الأخذ بالحق .

« وقد سُؤْت بك ظنّاً .

« ووجهت إليك محمدبن مَسْلَمَة ليقاسمك مالك ، فأَطْلعْه طِلعَه ، وأَخْرِجْ إليه ما يُطالبك ، وأعْفِه من الغِلظة عليك ، فإنه بَرِحَ الخفاء » .

وفاجأ ابن مسلمة عمرا بمصر ... ودفع إليه كتاب أمير المؤمنين ...

وفتش على عمرو ، وعلى أعماله ، وعلى أمواله . ثم قاسمه ماله ، أى صادر نصف أمواله .

فقال له عمرو : « إن زماناً عامَلنا فيه ابنُ حَنْتَمةَ هذه المعاملة لزمانُ سوْء ! لقد كان العاص يلبس الخز بكِفَاف الديباج » .

وأجابه المفتش الادارى العام ، محمدبن مَسلمة : « مه ! ولولازمان ابن حنتمة هذا الذى تكرهه ، ألفيت مُعتقِلا عنزاً بفناء بيتك يسرّك غزرُها ويسوءك بَكَؤها » ؟ ! .

قال عمرو : « أنشدك الله ألا تخبر عمر بقولى ، فإن المجالس بالأمانة » .

وأجابه بن مسلمة : « لاأذكر شيئا مماجرى بيننا وعمر حىّ » .

فانظر إلى أى مدى بلغت شدة أمير المؤمنين مع ولاته ؟ .

لقد فاجأه بالتفتيش عليه ، ثم صادر نصف أمواله .

ومع هذا كله كان عمرو شديد الخوف أن يعزله عن مصر ، ويبدو هذا جليا حين رجا ابن مسلمة ألا يذكر شيئا من حديثه لعمر ! .

إن عمرا الذى دوخ الرومان بمصر ، يذوب خوفا أن تبلغ كلماته عمر بن الخطاب ! .

اغتيال عمر!!

اللهم ارزقنى الشهادة !

وكان عمر يحج كل عام ، ويدعو وُلاته وعُماله فيوافونه أيام الحج بمكة كى يحاسبهم على أعمالهم ، ويشاركهم فى تدبير شؤون ولايتهم .

فلما كانت السنة الثالثة والعشرين للهجرة ، حج عمر،وحج معه أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما قضى مناسكه ، وأفاض من منى ، أناخ بالأبطح ، فكوم كومة من بطحاء،ألقى عليها طرف ثوبه ، ثم استلقى عليها .. ورفع يديه إلى السماء ، ثم قال : اللهم كبرت سنى،وضعفت قوتى ، وانتشرت رعيتى ، فاقبضنى إليك غير مضيع ولا مفرط .

« اللهم ارزقنى الشهادة فى سبيلك ، واجعل موتى فى بلد رسولك » .

(وفى رواية عن حفصة) فقلت أنى يكون هذا ؟ قال : يأتينى به الله إذا شاء .

إن عمر فى شوق إلى لقاء الله ..وهذا الحنين الذى يتموج من قلبه،ويصعد إلى السماء، إنما هو أنين مشتاق .

إن نفسا كنفس عمر دائما تهفو إلى ذلك اللقاء ..

إنها تريد أن تنسلخ من هذه الحياة الدنيا .. لتستريح من عنائها ، وتلقى جزاء أعمالها

إن لعمر مع ربه أحاسيس خاصة ، لا يعلمها إلا الله وإلا هو ...

إنه يريد أن يستشهد ... إنه يعرف عظمة مقام الشهادة ! .

رؤيا ؟

لم يلبث حين عاد عمر إلى المدينة ، بعد رجوعه من الحج ، أن خطب الناس يوم الجمعة ، فذكر النبى صلى الله عليه وسلم ، وذكر أبا بكر ، ثم قال : إنى رأيت رؤيا لا أراها إلا لحضور أجلى : رأيت كأن ديكا نقرنى نقرتين .

«وإن قوما يأمروننى أن استخلف ، وإن الله لم يكن ليضيع دينه ولاخلافته،ولا الذى بعث به نبيه .

« فإن عجل بى أمر ، فالخلافة شورى بين هؤلاء الستة الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، وإنى قد علمت أن أقواما سيطعنون فى هذا الأمر بعدى ، أنا ضربتهم بيدى هذه على الإسلام ، فإن فعلوا ذلك فأولئك هم أعداء الله الضلال .

« ثم إنى لم أدع شيئا هو أهم إلى من الكلالة . وما راجعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شىء ماراجعته فى الكلالة ، وما أغلظ لى فى شىء منذ صاحبته ما أغلظ فى الكلالة، حتى طعن بأصبعه فى بطنى وقال : ياعمر ! تكفيك الآية التى فى آخر النساء .

« وإنى إن أعش أقض فيها بقضية يقضى بها من يقرأ القرآن ومن لا يقرؤه .

ثم قال : « اللهم إنى أشهدك على أمراء الأمصار ، فإنى إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم، ويعدلوا عليهم،ويقسموا فيئهم بينهم ويرفعوا إلى ماأشكل من أمرهم».

وهكذا ... حتى فى الموت كان عمر محدثا ملهما ... يشعر بدنو أجله ، ويرى الرؤيا التى تشير إلى ذلك ، ويفسرها هو لنفسه وللناس !

حتى آخر لحظة !

عن عمرو بن ميمون قال : رأيت عمر بن الخطاب قبل أن يصاب بثلاثة أيام أو أربع بالمدينة ، وقف على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف ، وكان قد استعمل حذيفة على ماسقت دجلة ، واستعمل عثمان على ماسقى الفرات ، قال : كيف فعلتما ؟ أخاف أن تكونا قد حملتما الأرض مالا تطيق ؟!

قالا : حملناها أمراً هى له مطيقة ، ما فيها كثير فضل .

قال : انظرا أن تكونا حملتما الأرض مالا تطيق ؟!

قالا : لا

فقال عمر : لئن سلمنى الله لأدعن أرامل أهل العراق ، لا يحتجن إلى رجل بعدى أبداً .

قال : فما أتت عليه إلا رابعة حتى أصيب !.

هذه الحادثة كانت من عمر قبل مصرعه بثلاثة أيام ... إنه يحقق ويدقق مع عامليه أن

يكونا فرضا على أرض العراق من ضريبة الخراج مافوق طاقتها ... وانهما يؤكدان له أن الأرض تتحمل مافرضاه عليها ويبقى بعد ذلك فضل منها أعفى من الضريبة .

ثم يؤكد عمر ائن عاش ليجعلن أرامل العراق لايحتجن إلى رجل بعده أبدا ! ... إنه سوف يقوم بحاجياتهن فلا يحتجن لرجل يعولهن بعده أبدا ! .

هذا هو عمر ... رجل مسئول حتى آخر لحظة من حياته ... مشغول بالشعب ، ومشا كل الشعب ! .

تهديد ؟

كان عمر لايأذن لسبي قد احتلم أن يدخل المدينة ... حتى كتب اليه المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة يستأذنه فى غلام صانع يدعى أبا لؤلؤة واسمه فيروز ، يحسن أعمالا كثيرة فيها منافع للناس : فهو حداد ونقاش ونجار .

فأذن له عمر .... فأرسل به المغيرة ، وكان يستغله كل يوم أربعة دراهم ، وضرب عليه مائة درهم فى كل شهر ، لأنه كان يصنع الأرحاء (جمع رحى وهى الطاحون) .

فجاء الغلام إلى عمر يشتكي اليه ويقول : ياأمير المؤمنين ، إن المغيرة قد أثقل على غلتي ، فكلمه لى ليخفف عنى .

فقال له عمر : ما تحسن من الأعمال ؟، فذكرها له ، فقال له عمر : فما خراجك بكثير ، فاتق الله وأحسن إلى مولاك .

وكان فى نية عمر أن يقابل المغيرة فيكلمه يخفف عنه .

فانصرف العبد مُغضَبا وقال : وسع الناس كلهم عَدله غيرى ! .

وكان خبيثاً إذانظر إلى السبي الصغار ، يأتى فيمسح رؤوسهم ويبكى ، ويقول : أكل عمر كبدى ! .

فأضمر قتل عمر ، فاصطنع خنجرا له رأسان وسمه .

ثم أتى به الهرمزان فقال : كيف ترى هذا ؟

قال : أرى أنك لاتضرب بهذا أحدا إلا قتلته .

وجعل أبو لؤلؤة يتحين الفرص ، فمرّ يوما بعمر ، فقال له عمر : ألم أحدّث أنك تقول : لوأشاء لصنعت رحى تطحن بالريح ؟ .

فالتفت العبد ساخطاً عابساً إلى عمر (ومع عمر جماعة) فقال : لأصنعن لك رحى يتحدث بها الناس .

فلماولى ، قال عمر للذين معه : أوعدنى (هددنى) العبد آنفا .

وروى الطبرى وابن الأثير وغيرهما أن عمر خرج يوماً بعد عوده من حجه يطوف بالسوق ، فلقيه أبو لؤلؤة فقال له : يا أمير المؤمنين ، أعْدنى على المغيرة بن شعبة ، فإن علىّ خراجا كثيرا .

قال عمر : وكم خراجك ؟

قال : درهمان فى كل يوم .

قال عمر : وما صناعتك ؟

قال : نجار ، نقاش ، حداد .

قال عمر : فما أرى خراجك بكثير على ماتصنع من الأعمال ، قد بلغنى أنك تقول : لو أردت أن أعمل رحى (طاحون) تطحن بالريح فعلت ؟! .

قال : نعم .

قال عمر : فاعمل لى رحى .

قال : لئن سلمتُ لأعملن لك رحى يتحدث بها مَنْ بالمشرق والمغرب ! .

ثم انصرف عنه ... فقال عمر : لقد توعدنى العبد آنفا ! .

كيف وقع الحادث ؟

خرج عمر من منزله بالمدينة ، قبل مطلع الشمس ، من يوم الأربعاء ، لأربع بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة ، يؤم الناس لصلاة الفجر .

وكان يوكل رجالا فى المسجد بالصفوف يسوونها قبيل كل صلاة ، فإذا استوت جاء هو فنظر إلى الصف الأول فإذا رأى فيه متقدِّما أو متأخرا علاه بالدِّرّه ، حتى إذا انتظم الجمع فى أماكنهم كبر للصلاة .

دخل عمر فى تلك الساعة من ذلك اليوم ولما يكد يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر .

فما هو إلا أن كبر حتى ظهر رجل فجأة قبالته ، فطعنه بخنْجره ست طعنات ، إحداها تحت سُرته .

وأحس عمر حرَّ السلاح ، فالتفت إلى المصلين باسطا يديه يقول : « أدركوا الكلب فقد قتلنى ! »

وكان الكلب أبالؤلؤة النصرانى فيروز — غلام المغيرة — ، وكان فارسيا أسر فى نهاوند ، ثم وفد فى ملك المغيرة بن شعبة .

وقد جاء إلى المسجد متعمدا قتل عمر فى هذه الساعة المبكرة من الغَلَس يخبىء تحت ردائه خنجرا قبضَتُه فى وسطه ، وله نصْلان حادَّان ! .

واختبأ فى أحد أركان المسجد ، حتى إذا بدأت الصلاة ارتكب جريمته ! .

ثم اندفع يريد الفرار نجاةً بنفسه . وماج الناس مضطربين لما سمعوا ، وأقبل كثيرون على الكلب يريدون القبض عليه والتنكيل به .

ولم يَدعْهم فيروز يأخذون بتلابيبه ، بل جعل يطعنهم يمنة ويسرة حتى طعن اثنى عشرَ ، مات منهم ستة ! .

فلما رأى ذلك عبدالرحمن بن عوف طرح عليه رداءه وطرحه أرضا .

وأيقن فيروز أنه مقتول لامحالة مكانه ، فانتحر بالخنجر الذى ضرب به أمير المؤمنين...

كانت الطعنة التى أصابت عمر تحت سُرته ، قدقطعت الصِّفاق والأمعاء ، وكانت لذلك قاتلة .

قيل إن عمر لم يستطع الوقوف من حرها ، بل سقط طريحا .

وماج الناس بعضهم فى بعض لمصاب عمر ، ومصاب الذين طُعنوا من حوله ، واشتد اضطرابهم حين رأوا عمر محمولا إلى داره فى جوار المسجد .

وظلوا فى مرجهم واضطرابهم حتى قال قائل : الصلاة عبادَ الله ! قد طلعت الشمس !.

فدفعوا عبدالرحمن بن عوف فصلى بأقصر سورتين فى القرآن : العصر والكوثر .

من قتلنى ؟

فرغ الناس من الصلاة ، وتفرقوا فى جوانب المسجد ، وفى بُطَيْحائه ، ولاحديث لهم إلا هذا الحادث المروِّع الذى وقع بأعينهم .

وانتشر الخبر فى المدينة انتشار البرق ، فأسرع الناس رجالا ونساء وصبيانا يريدون أن يقفوا على حقيقة الأمر .

ونقل المصابون الآخرون إلى منازلهم ، ومنهم من أسلم الروح أو كاد ، ومنهم من يتنزّى ألما من جراحه .

ودخل كبار أهل الرأى على عمر مستفسرين .

قال عبد الله بن عباس : لم أزل عند عمر ، ولم يزل فى غشية واحدة حتى أسفر . فقيل: إنكم لن تفزعوه بشىء مثل الصلاة إن كانت به حياة .

فقالوا : الصلاة يا أمير المؤمنين الصلاة ! .

فانتبه وقال : الصلاة ؟! والله إذن ولاحق [1] ... ونظر فى وجوهنا ثم قال : أصلى الناس ؟

قلت : نعم .

قال : لا إسلام لمن ترك الصلاة .

---

(١) أى الصلاة مقضية إذن ولاحق مقضى غيرها ، كأنه أراد أن فى عنقه حقوقا جمة مفترضا عليه الخروج عن عهدتها ، وهو غير مقتدر عليها ، فهب أنه قضى حق الصلاة فمابال الحقوق الأخر ؟

ثم دعا بوضوء فتوضأ ، ثم صلى ، وإن جرحه ليثعَب دماً ! .

ثم قال : ياابن عباس ، اخرج فسل من قتلنى .

فخرجت من باب الدار ، فإذا الناس مجتمعون ، جاهلون بأمر عمر ، فقلت : من طعن أمير المؤمنين ؟

قالوا : طعنه عدو الله أبو لؤلؤة ، غلام المغيرة بن شعبة ، ثم طعن معه رهطا ، ثم قتل نفسه .

فرجعت ... فإذا عمر يمدنى النظر ، يستأنى خبر ما بعثنى إليه ، فقلت : غلام المغيرة ابن شعبة .

قال : الحمدلله الذى لم يجعل قاتلى يحاجنى عندالله بسجدة سجدها له قط ، ما كانت العرب لتقتلنى .

ثم قال : قد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة ؟! وكان العباس أكثرهم رقيقا ؟ !.

قلت : إن شئت فعلنا (أى قتلنا) .

قال : بعد ما تكلموا بلسانكم ، وصلّوا قبلتكم ، وحجوا حجكم ؟ .

الشعب يبكى عمر ؟

احتمل عمر ، ومدد على فراشه ، ودخل الناس عليه فقال : ياابن عباس ! اخرج فنادِ فى الناس : أعن ملأ منكم ومشورة كان هذا الذى أصابنى ؟ .

فقالوا : معاذ الله ، والله ماعلمناه ، ولا اطلعناه .

وقال البدريون المهاجرون والأنصار حين سألهم : لاوالله ، ولوددنا أن الله زاد فى عمره من أعمارنا .

قال ابن عمر : ولما طعن أبى خشى أن يكون له ذنب إلى الناس لا يعلمه ، فدعا عبد الله ابن عباس ، وكان يحبه ، فقال : أحب أن تعلم لى أمر الناس .

فخرج إليه ثم رجع فقال : يا أمير المؤمنين ، ما أتيت على ملأ من المسلمين إلا يبكون ، فكأنما فقدوا اليوم أبناءهم !

لقد أراد عمر أن يعرف حقيقة الحادث ، هل كانت المؤامرة من العرب ، هل كانت الجريمة على علم من بعضهم ؟. ثم ماهو شعور الشعب نحوه ، إنه يحب أن يعلم أمر الناس ...

فتأمل كيف كان عمر ... إنه مطعون ، ويوشك أن يموت ... فيترك ما به ، لينظر هل يحبه الشعب ، هل لأحد من الرعية عنده مظلمة أوشكوى ؟!

وعاد إليه ابن عباس ... وأعلن إليه البشرى التى أسعدته : ما أتيت على ملأ من المسلمين إلا يبكون ، فكأنما فقدوا اليوم أبناءهم ! .

حب شديد ، والتفاف حول رئيس الدولة . وما لهم لايحبون عمر وهو يحبهم جميعا أكثر من نفسه ، ويؤثرهم جميعا على نفسه ؟!.

واطمأن عمر ... وعلم أن الشعب كله يحبه ، وأن كل فرد فيه يبكيه ، كأنما فقد اليوم أبناءه !.

وإنها لأعظم بشرى تزف إلى زعيم من شعبه فى مثل تلك اللحظات الفاصلة بين الموت والحياة ! .

قرار الأطباء !

لما احتمل عمر ... انطلق الناس معه إلى البيت ، وكأنهم لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ ، فقائل يقول : لا بأس ، وقائل يقول : أخاف عليه .

قال ابن عمر : فسمعت عمر يقول : أرسلوا إلى طبيب ينظر إلى جرحى هذا . فأرسلوا إلى طبيب من العرب ، فسقى عمر نبيذاً (منقوع التمر) فشبه النبيذ بالدم حين خرج من الطعنة [1] .

فدعوت طبيبا من الأنصار ، من بنى معاوية فسقاه لبناً ، فخرج اللبن من الطعنة بصديد أبيض .

---

(١) الطعنة التى تحت السرة .

فقال له الطبيب : ياأمير المؤمنين اعهد (١) .

قال عمر : صدقني أخو بني معاوية ، ولوقلت غير ذلك كذبتك ،

لقد كان قرار الأطباء أن عمر سوف يموت ، فها هو شراب النبيذ يخرج من فتحة الطعنة التي تحت السرة بلون الدم ، ثم ها هو اللبن يخرج بصديد أبيض ، أي أن أحشاءه تقذف مايلقى إليها ولا تمسكه .

لاتبكوا علينا ؟

فبكى القوم حين سمعوا ماقال الطبيب ، فقال عمر : لاتبكوا علينا ، من كان باكيا فليخرج، ألم تسمعوا ، ماقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ‹يعذَّبُ الميت ببكاء أهله عليه ؟!.

ومرة أخرى ينتفض عمر من أجل الحق ... حتى وهو في ساعاته الأخيرة ، ينتفض ويصدر أمره إلى من حوله : من كان باكيا فليخرج ! .

شدة في دين الله ، رغم مابه من جراح وآلام تذوب لها الجبال ! .

أبشر بالجنة ياأمير المؤمنين !

فيم كان يفكر عمر وهو على هذه الحال ، يوشك أن يغادر الدنيا إلى ربه ؟ .

لقد أكد له الطبيب أنه ميت ، وها هو الشعب يبكي من حوله ...

هل كان يفكر في أمر الرعية التي سيتركها ، أم في الآخرة التي هو قادم عليها ؟ .

ليس من شك أن هناك شيئا واحدا لم يكن عمر يفكر فيه ولايهتم بما وقع به .. هذا الشيء هو شخص عمر نفسه ... لقد قتل وكان أمر الله قدرا مقدورا ! .

قالوا : « لما طعن عمر جعل يألم ، فقال له ابن عباس ، وكأنه يُجزّعه (يزيل جزعه) : ياأمير المؤمنين ولئن كان ذاك ، لقد صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحسنت صحبته ، ثم فارقته وهو عنك راض ، ثم صحبت أبابكر فأحسنت صحبته ،ثم فارقته وهو عنك راض ، ثم صحبت صَحَبَتهم فأحسنت صحبتهم ، ولئن فارقتهم لتفارقنهم وهم عنك راضون . ،

(١) يريد أنه ميت لا محالة ، فعليه أن يوصي بماشاء .

قال عمر : أما ماذكرت من صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضاه عنى فانما ذاك منّ من الله تعالى به علىّ ، وأما ماذكرت من صحبة أبى بكر ورضاه فإنما ذلك منّ من الله جل ذكره به علىّ ، وأما ماترى من جزعى فهو من أجلك وأجل أصحابك ، والله لو أن لى طِلاع الأرض (ملأها) ذهبا ، لافتديت به من عذاب الله عز وجل قبل أن أراه » .

ياعجبالك ياابن الخطاب ! ... تريد أن تفتدى بملء الأرض ذهبا من عذاب الله قبل أن تراه ؟ .

فماذا يفعل غيرك إذا ، وأين يذهبون بوجوههم عن الله ؟ .

أرأيت ؟ ... تماما كما قلت لك آنفا إنه يجزع من أجل ابن عباس ومن أجل أصحابه ، من أجل الشعب ، وإنه يفكر فى آخرته وموقفه من الله ! .

أمّا ما به من جراح ، أما شخصه فهذا شىء لا يفكر فيه !! .

وروى أنه قال له : أبشر يا أمير المؤمنين ، اسلمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كفر الناس ، وقاتلت معه حين خذله الناس ، ولم يختلف فى خلافتك رجلان ، وقتلت شهيدا .

فقال عمر : أعد .

فأعاد ... فقال عمر : المغرور من غررتموه ، لو أن لى ماعلى ظهرها من بيضاء وصفراء لافتديت به من هول المطلع .

وروى أنه قال له : أبشر بالجنة يا أمير المؤمنين ، صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطلت صحبته ، ثم وَلِيت فَقَوِيت ، وأديت الأمانة .

فقال عمر : تبشرون إياى بالجنة ؟! فوالله الذى لا إله إلا هو ، لو أن لى مابين السماء والأرض ، لافتديت به مما هو أمامى قبل أن أعلم الخبر . وأما ما ذكرت من أمر المسلمين ، فوالله لوددت أنى نجوت منها كفافا ، لا علىّ ولالى . وأما ما ذكرت من صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فذاك .

ما أخاف إلا إمارتكم هذه؟

لما سقى عمر اللبن ، وخرج من جرحه ، قالوا : لا بأس عليك يا أمير المؤمنين .

قال : إن يكن القتل ثابتا فقد قتلت .

فجعل الناس يثنون عليه يقولون : جزاك الله خيرا يا أمير المؤمنين ، كنت وكنت ، ثم ينصرفون ويجيء آخرون فيثنون عليه .

فقال : أما والله على ما تقولون ، وددت أني خرجت منها كفافا،لا عليّ ولا لي. وأن صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمت لي .

وروى أنه قال : أبالإمارة تزكونني ؟ لقد صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عني راض ، وصحبت أبا بكر فسمعت وأطعت ، وتوفى أبو بكر وأنا سامع ومطيع ، وما أصبحت أخاف على نفسي إلا إمارتكم هذه .

انظروا ... إن عمر يخاف أن يحاسبه الله على حكمه للدولة الإسلامية التي ترامت من بحر قزوين شرقا إلى برقة وطرابلس غربا .

لقد انتشرت رعيته ، وهو لا يدري ما الله فاعل به ، ولا ما هو سائله !

عمر ...أعدل أهل الأرض ... يظن هذه الظنون...فكيف بنا نحن... كيف بالسادة رؤساء الدول ؟

عن ابن عباس قال : لما طعن رضى الله عنه،دخلت عليه ، فقلت : أبشر يا أمير المؤمنين قد مصر الله بك الأمصار ، ودفع بك النفاق .

قال : أفي الإمارة تثني علي يابن عباس ؟ !

قلت : وفي غيرها .

قال : والذي نفسي بيده لوددت أني خرجت منها كما دخلت فيها لا أجر ولا وزرا .

واعمراه !

قال ابن عباس : كنت مع عليّ ، فسمعنا الصيحة على عمر ، فقام وقمت معه ، حتى دخلنا عليه البيت الذي هو فيه فقال : ما هو هذا الصوت ؟

فقالت له امرأة : سقاه الطبيب نبيذا فخرج مشكلا (مختلطا غير صريح) وسقاه لبنا فخرج ، فقال : لا أرى أن تمسى ، فما كنت فاعلا فافعل .

فقالت أم كلثوم : واعمراه ! وكان معها نسوة فبكين معها ، وارتج البيت بكاء .

فقال عمر : والله لو أن لى ما على الأرض من شيء لافتديت به من هول المطلع .

قلت والله إنى لأرجو أن لا تراها إلا مقدار ما قال الله : (وَإِنْ منكم إلا واردها) إن كنت - ما علمنا - لأمير المؤمنين ، وأمين المؤمنين ، وسيد المؤمنين ، تقضى بكتاب الله ، وتقسم بالسوية .

فأعجبه قولى ، فاستوى جالسا ، فقال : أتشهد لى بهذا يا ابن عباس ؟

فكففت ، فضرب على كتفى فقال : اشهد لى بهذا يابن عباس ؟ .

قلت : نعم ، أنا أشهد .

وروى أنه قال له : لقد كان إسلامك عزا ، وإمارتك فتحا ، ولقد ملأت الأرض عدلا فقال : أتشهد لى بذلك يا ابن عباس ؟ .

فكأنه كره ذلك ، فقال لى على بن أبى طالب : قل نعم وأنا معك .

يموت مديناً وكنوز الأرض فى يده !

لا تريد عظمة ذلك الرجل أن تتناهى عند حد أبدا .

ها هى قصة كانت منه وهو يحتضر ، تسجل له خلودا فى الأرض ، وعلوا عظيما عند الله ...

قال لابنه : يا عبد الله بن عمر ! انظر ما علىّ من الدين ؟ .

فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألف درهم .

قال عمر : إن وفى به مال آل عمر فأدِّه من أموالهم ، وإلا فأسأل فيه بنى عدىّ ، فإن لم تف أموالهم فاسأل فيه قريشا ، ولا تعدُهم إلى غيرهم .

قال عبدالرحمن بن عوف : ألا تستقرضها من بيت المال حتى تؤديها ؟

فقال عمر : معاذ الله أن تقول أنت وأصحابك بعدى ، أما نحن فقد تركنا نصيبنا لعمر ، فتعزُّونى بذلك ، فتتبعنى تبعته ، وأقع فى أمر لا ينجينى إلا المخرج منه .

ثم قال لعبد الله بن عمر : اضمنها ... فضمنها .

فلم يدفن عمر حتى أشهد بها ابن عمر على نفسه أهل الشورى ، وعِدَّة من الأنصار .

وما مضت جمعة حتى حمل المال إلى عثمان ، وأحضر الشهود على البراءة بدفعه ! !

هل سمعت الدنيا ؟ ... عمر .. الذى فتح الإمبراطوريتين ، وجاءته كنوزها قناطير مقنطرة من الذهب والفضة ، يموت مدينا ! .

وليس هذا وحده هو وجه العجب ، وإنما الأعجب أنه يرفض أن يقترض من خزانة الدولة المبلغ اللازم لسداد ديونه !!

وأعجب من ذلك وأعجب أنه يأمر ابنه ، أمام الجميع أن يسدد ذلك الدين من مال أسرة عمر !!

ثم ترتفع عظمته وتعلو حين تسدد أسرته ديونه بعد أسبوع من إصابته فى خلافة عثمان !! .

لو شاء عمر لأخذ من الأموال ما شاء ، ولما كان لأحد أن يقول فى ذلك شيئا ، فهو أمير المؤمنين ، وحاكم المشرقين ومن حقه على الدولة أن تقوم بنفقات أسرته .

ولكنه تعفف ... فمات مدينا بستة وثمانين ألف درهم ... أى بما يوازى ثلاثة آلاف وأربعماية وأربعين جنيها ، باعتبار الدرهم أربعة قروش .

مبلغ تافه بالنسبة للخزانة العامة ، ولكن عمر يرفض أن تتحمل الدولة منه شيئا .!

فليعتبر الملوك والرؤساء ، وليراجعوا أنفسهم فيما أخذوا من خزائن دولهم من أموال .

لست اليوم للمؤمنين أميرا ؟

وقال لابنه عبد الله : انطلق إلى عائشة أم المؤمنين ، فقل : يقرأ عليك عمر السلام ، ولا تقل ، أمير المؤمنين ، فإنى لست اليوم للمؤمنين أميرا ، وقل : يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه ..

فمضى ، فسلم ، واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكى ، فسلم عليها وقال : يقرأ عليك عمر السلام ، ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه .

قالت : كنت أريده لنفسى ولأوثرنه به اليوم على نفسى .

فلما أقبل قيل : هذا عبد الله بن عمر قد جاء . قال : ارفعونى . فأسنده رجل إليه ، فقال : ما لديك ؟ قال : الذى تحب يا أمير المؤمنين ، أذنت . قال : الحمد لله ، ما كان شىء أهم إلىّ من ذلك المضجع ، يا عبد الله بن عمر ، انظر ، فإذا أنا قبضت فاحملونى على سريرى ، ثم قف بى على الباب ، فقل ، يستأذن عمر بن الخطاب ، فان أذنت لى فأدخلنى ، وإن ردّتنى فردنى إلى مقابر المسلمين ، فإنى أخشى أن يكون إذنها لى لمكان السلطان .

فلما حمل فكأن المسلمين لم تصبهم مصيبة إلا يومئذ ، فأذنت له فدفن حيث أكرمه الله مع النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضوان الله عليهما .

مبدأ خالد ؟

عن ابن عمر قال : دخلت على حفصة ونوساتها (ضفائرها) تنطف (تقطر ماء) فقالت : علمت أن أباك غير مستخلف ؟ . قلت : ما كان ليفعل . قالت : إنه فاعل .

فحلفت أن أكلمه فى ذلك ، فغدوت عليه ، ولم أكلمه ، فكنت كأنما أحمل بيمينى جبلا حتى رجعت فدخلت عليه فسألنى عن حال الناس وأنا أخبره ، ثم قلت له : إنى سمعت الناس يقولون مقالة ، فآليت أن أقولها لك ، زعموا أنك غير مستخلف ؟! أرأيت لو أنك بعثت إلى قيم أرضك ألم تكن تحب أن تستخلف مكانه حتى يرجع إلى الأرض ؟

قال : بلى .

قلت : أرأيت لو بعثت إلى راعى غنمك ، ألم تكن تحب أن تستخلف رجلا حتى يرجع ؟ . فماذا تقول لله عز وجل إذا لقيته ولم تستخلف على عباده ؟ .

فأصابه كآبة ، ثم نكّس رأسه طويلا ، ثم رفع رأسه وقال : ان الله تعالى حافظ الدين ، وأى ذلك أفعل فقد سنّ لى ، إن لم أستخلف فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستخلف ، وإن استخلفت فقد استخلف أبو بكر .

فعلمت أنه لايعدل أحدا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه غير مستخلف ،

هذا هو المبدأ الخالد الذى شرعه عمر وهو بين الحياة والموت ... إن لم استخلف فإن رسول الله لم يستخلف ، وإن استخلفت فقد استخلف أبو بكر ...

عبقرية عجيبة ... والهام سديد رشيد ... أى الاتجاهين كان ففيه سنة مأثورة هذا فعله رسول الله ، وذاك فعله خليفة رسول الله !! .

إنه فقه عمر العجيب الذى فاق كل فقه وكل تفكير .

كيف كان هذا الرجل يفكر ؟ ... لايعلم ذلك إلا الله ! .

دستور .. رئاسة الدولة ؟

روى عن عمر أنه قال : إن رجالا يقولون إن بيعة أبى بكر كانت فلتةً ، وقى الله شرها ، وإن بيعة عمر كانت عن غير مشورة ، والأمر بعدى شورى ، فإذا اجتمع رأى أربعة فليتبع الاثنان الأربعة، وإذا اجتمع رأى ثلاثة وثلاثة فاتبعوا رأى عبدالرحمن فاسمعوا وأطيعوا ، وإن صفق عبد الرحمن بإحدى يديه على الأخرى فاتبعوه .

وقال أبورافع : كنت عندعمر بن الخطاب بعدأن طُعن ، وكان مستندا إلى ابن عباس وعنده ابن عمر ، وسعيد بن زيد فقال : اعلموا أنى لم أقل فى الكلالة شيئا ، ولم أستخلف بعدى أحدا ، وإنه من أدرك وفاتى من سبى العرب فهو حر من مال الله .

قال سعيد بن زيد : إنك لوأشرت برجل من المسلمين ائتمنك الناس ؟ .

فقال عمر : قد رأيت من أصحابى حرصا سيئا ، وإنى جاعل هذ الأمر إلى هؤلاء النفر الستة الذين مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض .

ثم قال : لوأدركنى أحد رجلين ، لجعلت هذا الأمر إليه لوثقت به : سالم مولى أبى حذيفة ، وأبو عبيدة بن الجراح .

فإن سألنى ربى عن أبى عبيدة قلت : سمعت نبيّك يقول إنه أمين هذه الأمة ، وإن سألنى عن سالم قلت : سمعت نبيك يقول إن سالما شديد الحب لله .

فقال رجل . (هو المغيرة بن شعبة) أدُلك عليه ؟ عبد الله بن عمر .

قال عمر : قاتلك الله! والله ما أردت الله بهذا ، لاأرب لنا فى أموركم ، وما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتى ؟! إن كان خيرا فقد أصبنا منه ، وإن كان شرا فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ، ويسأل عن أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أما لقد جهدت نفسى ، وحرمت أهلى ، وإن نجوت كفافا لاوزر ولا أجر إنى لسعيد .

وهنا نقف طويلا ، ونفكر كثيرا ، فى المبادىء الخالدة التى قررها فقيه الاسلام الاعظم ، عمر بن الخطاب ، وهو على فراش الموت .

« ولم استخلف بعدى أحدا » ... اعلموا أيها الناس جميعا أن عمر بن الخطاب لم يحدد أحدا بالذات للخلافة ، ولم يفرض شخصا بالذات على الناس ... فاختاروا كيف شئتم ، الرجل الذى يتولى أموركم .

مبدأ خطير يقرره عمر ، ويعلنه على الحاضرين ... ليست رياسة الدولة حكرا لأحد دون الآخر ، إنها حق الجميع .

« وإنه من أدرك وفاتى من سبى العرب فهو حر من مال الله » ... وأنت تذكر أن عمر قد استفتح عهده أول خلافته ، فأمر الناس أن يردوا سبايا أهل الردة إلى عشائرهم ، وقال لهم : « إنى كرهت أن يصير السبى سُنة فى العرب » وقد كان لهذا الأمر أثر أعظم الأثر فى امتداد الفتح . وأهل الردة جميعا كانوا فى شبه الجزيرة وكان من بطون العرب وقبائلها من نزح إلى الشام وإلى العراق ، ومن وقع أسيرا فى يد المسلمين أثناء الغزوات المتلاحقة التى تمت فيها . فلما رأى عمر أنه يموت أراد أن يزيد وحدة العرب قوة ، ويزيد العرب بأنفسهم اعتزازا . لذلك قال وهو على فراشه « من أدرك وفاتى من سبى العرب فهو حرٌ من مال الله » . ولعله خشى ألا يُطبق خليفته هذا الرأى الذى اجتهده يوم استخلف ، فلم يرد أن يترك الدنيا قبل أن يتم ما بدأه ، وقبل أن يذر العرب جميعا أحرارا .

وهذا مبدأ آخر خطير يضعه عمر ، ويؤكده وهو يموت بقوله « فهو حر » إنه يقرر مبدأ الحرية لجميع العرب ، لايجوز أن يسترق عربى عربيا ، إنما الجميع أحرار ! .

لقد اكتمل لنا الآن مبدآن ... رئاسة الدولة حق الجميع .. والحرية للجميع ... فماذا بعد هذا ؟ .

« رأيت من أصحابى حرصا شديداً » ... عمر يقر أنه يلمس بحكم خبرته الطويلة فى الحكم ، أن هناك من أصحابه من يحرص على رئاسة الدولة ، فهو لذلك لايميل إلى ترشيح أحد دون الآخر ، كيلا يختلفوا وينشقوا .

وهذا المبدأ الثالث تكملة للمبدأ الأول ،مبدأ رئاسة الدولة حق الجميع ، إن عمر رفض أن يعهد بالخلافة لأحد بالذات ، لأن كثيرين يحرصون عليها .

فإذا علم أن كثيرا من الناس فى كل زمان يحرصون على رئاسة الدولة ، وجب دائما أن يترك اختيار رئيس الدولة للشعب .

« وإنى جاعل هذا الأمر إلى هؤلاء النفر الستة » ... وهذا هو المبدأ الرابع .. لم يكن عمر يستطيع أن يدع الأمر مرسلا ، يضطرب بين عامة الناس وخاصتهم ، بعد أن رأى ماحدث بالسقيفة إثر وفاة الرسول ، والحال اليوم أكثر مما كانت لذلك العهد دقة فقد اشترك العرب جميعاً فى محاربة الفرس والروم ، وأصبح لكل قبيلة بذلك أن تزعم لنفسها من حق الاشتراك فى اختيار الخليفة ما للمهاجرين والأنصار . هذا إن لم تذهب بعض القبائل إلى ادعاء الحق فى ترشيح زعيمها لمقام الخلافة .

فكر عمر فى هذا كله ، صحيح أن رئاسة الدولة من حق الجميع ، ولكن ليس كل أحد يصلح لذلك المنصب الجليل ، فلم لا يحتكم إلى اختيار رسول الله ؟ .

وقد كان قال « إنى جاعل هذا الأمر إلى هؤلاء النفر الستة الذين مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض » ... مبدأ خطير آخر ... إن رئيس الدولة السابق بما له من خبرة ومران فى شئون الحكم ، له أن يرشح لمنصب الرئاسة ، وقد رشح عمر ستة ، اختارهم بمقياس لا يخطىء ، هو رضى رسول الله عنهم ، ومن رضى عنه رسول الله ، وبشره بالجنة ، فمعنى هذا أنه سيعدل إذا حكم . وبذلك وقى عمر الأمة شرور الاختلاف .

ثم ماذا ؟ ... ثم يأتينا المبدأ الذى هو أخطر مما سبق كله ! . « لو أدركنى أحد رجلين ، فجعلت هذا الأمر إليه لوثقت به : سالم مولى أبى حذيفة ، وأبو عبيدة بن الجراح » ...

ما وجه الخطورة من هذا المبدأ ؟ ... وجه الخطورة أن عمر يتمنى لو أدركه رجل من هذين الرجلين ، فيجعل رئاسة الدولة له ، ويوليه على الدولة الإسلامية ، أكبر دولة فى العالم يومئذ .

فمن هو سالم هذا ؟ .. هو مولى أبى حذيفة ... عبد أبى حذيفة ، رقيق مملوك !!

وهنا وجه الخطورة من قرار عمر ، خطورة تنتفض لها الأجيال كلها إجلالا وإكبارا لفقه عمر ، وعظمة عمر ، وفلسفة عمر التى طوعت له أن يتمنى لو أن سالما الرقيق المملوك حاضرا ، إذاً لعينه رئيساً للدولة ، أكبر دولة فى العالم يومئذ !

إن عمر بذلك قد حطم أوهام الأنساب والألوان والطبقات ، وطوح بها بعيدا بعيدا.. والتجأ إلى قول الله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ... وأخذ منه ذلك التفكير العجيب ... أن يولى سالما العبد المملوك رئيسا لأعظم دولة فى الأرض !!.

وهذا هو فقه عمر ، الذى هو فقه الإسلام الحقيقى ...

من أين اشتق عمر ذلك المبدأ الخطير !. ها هو يجيب بنفسه « وإن سألنى عن سالم قلت : سمعت نبيك يقول إن سالما شديد الحب لله » .

أرأيت ؟ ... عمر يدلى بحجته أمام الحاضرين ... إن سألنى ربى عن سالم ... لماذا اخترت يا عمر سالما وجعلته أميراً للمؤمنين ورئيساً لأكبر دولة فى العالمين ؟ ... قلت لربى : سمعت نبيك يقول : إن سالما شديد الحب لله ! .

عمر يدلى بحجته أمام الله ! ... اخترت عبدا وجعلته رئيسا للدولة ، لأنه شديد الحب لك يا رب .. وما فعلته عن أمرى ، لقد سمعت رسولك يقول ذلك ، وقوله الصدق !

أرأيت من أين يتسلسل فقه عمر الرقراق ؟ .

من هناك ... من الحقائق العليا ، التى قررها الله ، وقررها رسول الله ...

نفس المقياس القرآنى ... هو المقياس العمرى ... قال القرآن « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وقال عمر « إن سالماً شديد الحب لله » .

واهاً لعمر ! ... إنه قمة القمة ... هيهات الوصول إليها !

وإنه لأخطر مبدأ ، أن رئاسة الدولة حق لأى إنسان ، ولو كان عبدا مملوكا ، بشرط أن يكون تقيا ، حفيظا لحدود الله .

وهنا يتلألأ عمر عاليا ، محلقا فوق كل نظام عرفته البشرية ، أو ستعرف ..

ليت الأمريكان أدعياء الحرية والحضارة ، يقرأون هذا عن عمر ، ليدركوا أن الفارق بعيد بين رجل قرر أن مملوكا يحب الله أولى برئاسة الدولة من قرشى لا يحب الله .. ليتهم يعلمون ، إذا لعرفوا الفارق بين ضلالهم وبين الإسلام ، حين يتنازعون ويتقاتلون من أجل الألوان البشرية ! .

أما الرجل الثانى الذى تمنى عمر لو كان حياً لاستخلفه ، فهو أبو عبيدة ، أمين الأمة وقد مر فى الكتاب أن عمر حاول أن يستنقذه من الطاعون ليدخره لذلك الموقف ، فأبى أبو عبيدة ، ومات فى الطاعون بالشام .

وهنا ندرك أمرا عظيما ... أن عمر قرر لو أدركه أحدهما لأمره ، وكانت حجته فى سالم أنه شديد الحب لله ، وفى أبى عبيدة أنه أمين الأمة رغم أن هذا كان عبداً مملوكا ، وأن ذاك حر قرشى ...

فلا وزن عند عمر فى الاختيار إلا أن يكون المختار قريبا من الله .

ومن هنا نتعلم أن الإسلام يمنح حق رئاسة الدولة لأى إنسان ، إذا كان حافظاً لحدود الله .

وهذا ما تقرره طبيعة الحياة البشرية ، وتستلزمه سنة التطور . . فلو أن الناس حجروا رحمة الله ، وجعلوا رئاسة الدول حكرا لسلالة دون الأخرى ، أو لطبقة دون طبقة ، لابتلى الناس بمن يفرض عليهم ويحكمهم وهو لا يصلح لتلك المهمة الخطيرة .

وقد رأينا خلال صفحات التاريخ من بعد ، كيف كان الخلفاء أضحوكة وألعوبة فى أيدى رجال البلاط ، ومع هذا استبقوهم على الخلافة لأنهم ينتسبون إلى بيت معين كما كانوا يزعمون !.

وهذا ليس من طبيعة الفطرة ، ولا من طبيعة الاسلام ، دين الفطرة .

إنما طبيعة الاسلام أن يحكم الناس من يختاره أولئك الناس ، ومن هو أصلح لحكمهم ومن هو أقرب إلى ربهم ، ولا يهم بعد ذلك أن يكون من الدم الأزرق أو من الدم الأحمر .

وهب أن من كان من سلالة الملوك ولدا تافها ، لا يعقل شيئا ، أو سفيها لا يزن أمرا أفيفرض على الشعوب أن يؤمروا عليهم ذلك السفيه ؟ !

ثم ماذا بعد هذا ؟.. ثم يقول عمر « وما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتى ».. مبدأ آخر خطير .. عمر يرفض أن يعين ابنه عبدالله بن عمر أميرا للمؤمنين ، ولو كان رجلا مكان عمر لعينه ولا يبالى .

ولكن عمر يريد دائما الحق ... وهو يعلم أن الحق ألا تكون رئاسة الدولة شيئا يورثه الآباء للأبناء ، ولذلك رفضها لابنه رغم أن ابنه هذا كان صالحا ، ليس دون المرشحين كفاءة ولاهدى !.

فهل وقفت عظمة عمر عند ذلك الحد ؟... كلا ، فإليك ما هو أعظم !.

من الأمير .. فى فترة الانتقال ؟

وجعلها شورى فى ستة : عثمان ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص .

وجعل عبدالله بن عمر معهم ، مشيرا وليس منهم ، وأجلهم ثلاثا ، وأمر صهيبا أن يصلى بالناس !.

أعظم بفعلك ياعمر ! ... تعين صهيبا ، العبد المملوك ، ليصلى بالناس ثلاثة أيام ، وهى فترة الانتقال التى حددتها لاختيار الخليفة من بين الستة ؟.

معنى هذا أن صهيبا كان وصيا على العرش أثناء فترة الانتقال ، وصى على عرش أكبر امبراطورية فى العالم ، ويصلى بالشعب ، والصلاة من أظهر مظاهر الولاية العامة .

وفى هذه اللفتة من عمر تكريم للضعفاء ، وتكريم للجماهير الكادحة ، وهم دائما الأغلبية الساحقة من الشعوب .

عمر ... يتنبأ بالفتنة الكبرى ؟

ودعا عمر هؤلاء النفر الذين جعل الخلافة شورى بينهم فقال : « إنى قد نظرت لكم فى أمر الناس فلم أجد عند الناس شقاقا إلا أن يكون فيكم ، فإن كان شقاق فهو فيكم .

ثم قال : إن قومكم إنما يؤمرون أحدكم أيها الثلاثة (لعبد الرحمن وعثمان وعلى) فاتق الله ياعلى ، إن وليت شيئا من أمور المسلمين فلا تحملنّ بنى هاشم على رقاب المسلمين .

ثم نظر إلى عثمان وقال: اتق الله ، إن وليت شيئا من أمور المسلمين فلا تحملن بنى أمية على رقاب المسلمين .

وإن كنت على شىء من أمر الناس ياعبد الرحمن فلا تحمل ذوى قرابتك على رقاب الناس .

ثم قال : قوموا فتشاوروا فأمِّروا أحدكم .

وقاموا يتشاورون ... قال عبدالله بن عمر : فدعانى عثمان مرة أو مرتين ليُدخلنى فى الأمر ، ولم يُسمِّنى عمر ، ولا والله ماأحب أنى كنت فيه ، علماً أنه سيكون فى أمرهم ماقال أبى (يعنى من الشقاق) والله قلما رأيته يحرِّك شفتيه بشىء قط إلا كان حقا .

فلما أكثر علىّ عثمان قلت له : ألاتعقلون ؟! أتؤمِّرون وأمير المؤمنين حى ؟

فوالله لكأنما نبهت عمر من مرقد .

فقال عمر : أمهلوا فإن حدث بى حدث فليصلّ لكم صهيب ، مولى بنى جدعان ، ثلاث ليال ، ثم أجمعوا أمركم . فمن تأمر منكم على غير مشورة من المسلمين فاضربوا عنقه.

وذكر عمر سعدا ، فقال : إن وليتم سعدا فسبيل ذاك ، وإلا فليستشره الوالى فإنى لم أعزله عن سخطة (ويروى) فإنى لم أعزله عن عجز ولا خيانة .

الحرس الحديدى ؟

وأرسل عمر إلى أبى طلحة الأنصارى ـ وكان من الشجعان المعدودين ـ قبل أن يموت بساعة فقال : كن فى خمسين من قومك من الأنصار ، مع هؤلاء النفر أصحاب الشورى فإنهم فيما أحسب سيجتمعون فى بيت أحدهم ، فقم على الباب بأصحابك ، فلا تترك أحدا يدخل عليهم ، ولا تتركهم يمضى اليوم الثالث حتى يؤمّروا أحدهم .

وقم على رؤوسهم ، فان اجتمع خمسة ورضوا رجلا وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف.

وإن اتفق أربعة فرضوا رجلا منهم وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما .

فإن رضى ثلاثة رجلا منهم ، وثلاثة رجلا ، فحكموا عبدالله بن عمر ، فأى الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم .

فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبدالرحمن بن عوف ، واقتلوا الباقين ان رغبوا عما اجتمع عليه الناس .

ولا يحضر اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم . اللهم أنت خليفتى فيهم .

وهكذا عمر دائما ... شدة فى دين الله ، واخلاص لرعيته حتى ساعة الموت !.

وكان هذا العلاج خير مايواجه به ذلك الموقف الدقيق .

وقد نجح هذا العلاج ، وحسم الداء ، قبل أن يموت عمر .

اللهم هل بلغت ؟

لم يكف عمر أن يجعل الشورى فى الستة الذين توفى رسول الله وهو عنهم راض ، بل حرص على أن يعهد للخليفة من بعده ما يراه أقوم سياسة تطمئن بها أمور الدولة ، ويزداد بها عز الإسلام .

وكان مما قاله فى ذلك : «أوصى الخليفة من بعدى بتقوى الله ، وبالمهاجرين الأولين ، أن يحفظ لهم حقهم وأن يعرف لهم حرمتهم . وأوصيه بأهل الأمصار خيراً فإنهم رده الاسلام وغيظ العدو ، وجباة المال ، ألا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاً منهم . وأوصيه

بالأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ، وأوصيه بالأعراب خيرا فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام ، وأن يؤخذ من حواشى أموالهم فيُرَد على فقرائهم . وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله أن يوفِىَ لهم بعهدهم ، وألا يكلّفوا إلا طاقتهم ، وأن يقاتل مَنْ وراءهم » ...

ثم قال : « اللهم هل بلّغت ! لقد تركت الخليفة من بعدى على أنقى من الراحة » .

نعم ياعمر قد بلغت ... وماذا بعد هذا ؟... لقد حددت الخلافة فى ستة ، وحددت لهم أسلوب الاختيار ، وها أنت ترسم السياسة العامة للخليفة من بعدك ، وتخطط له الخطوط العريضة التى ينبغى عليه أن يلتزمها !.

فماذا بقى بعد ذلك كله ؟ .

ليتنى لم أخلق !

واقترب الوعد الحق ... وأحس عمر أنه لم يبق له إلا لحظات فى هذه الحياة !.

فجعل يحاسب نفسه عما قدمت يداه ، فهو عما قليل على موقف هو أعسر المواقف وأشدها ، ذلك موقفه بين يدى ربه يسأله عما قدم وأخّر .

واشتد خوف عمر ، وكان يزداد خوفا من الله كلما أقبل على الآخرة ...

قال له أحد زائريه : والله إنى لأرجو ألا تمسّ النار جلدك أبدا !

فنظر إليه عمر ، وقد ملأت العبرة عينيه حتى رثى له من كان حوله ... ثم قال له : « إنّ علمك بذلك يافلان لقليل ، لوأن لى مافى الأرض لافتديت به من هول المطّلع ! »

وكان يشتد خوفه كلما زاد ثناء الناس عليه !

روى أنه مديده فأخذ تبنة كانت على الأرض إلى جنب فراشه ، فرفعها أمام عينيه وقال : « ليتنى كنت هذه التبنة ! ليتنى لم أخلق ! ليت أمى لم تلدنى ! ليتنى لم أك شيئا ! ليتنى كنت نسيا منسيًّا » !!

ضع خدى بالأرض !

وأوصى عمر ألا يغسلوه بمسك ، أو يقرِّبوا منه مسكا ، على ما كان يصنع العرب بذوى المكانة منهم ، وقال لابنه : « اقصدوا فى كفنى ، فإنه إن يكن لى عند الله خير أبدلنى خيرا منه ، وإن كنت على غير ذلك سلبنى فأسرع سلبى . واقصدوا فى حفرتى ، ولا تخرجن معى امرأة ، ولا تزكونى بما ليس فى فإن الله هو أعلم بى ، وإذا خرجتم بى فأسرعوا فى المشى ، فإنه إن يكن لى عند الله خير قدمتمونى إلى ما هو خير لى ، وإن كنت على غير ذلك كنتم قد ألقيتم عن رقابكم شراً تحملونه » .

وكان عبد الله بن عمر يسمع هذه الوصية ، وقد جلس إلى فراش أبيه ووضع رأسه على فخذه .

فلما أحس عمر أنه يموت قال لابنه : ضع خدى بالأرض .

فقال له عبد الله : هل فخذى والأرض إلا سواء ؟!

قال عمر : ضع خدى بالأرض لا أم لك !.

فلما وضع ابنه خده بالأرض ، شبك بين رجليه ، وجعل يقول : ويلى وويل أمى إن لم يغفر الله لى !

وظل يكررها حتى فاضت نفسه .

ادخل بسلام

فاضت نفس عمر إلى ربها ... ثم غسله ابنه عبد الله بالماء والسدر ، وكفنه فى ثلاثة أثواب .
ووقف علىّ على عمر بعد أن غُسل ، وكُفِّن ، وحمل على سريره ، فأثنى عليه وقال : « والله ما على الأرض رجل أحَبّ إلى من أن ألقى الله بصحيفته من هذا المسجَّى بالثوب !» .
ولما حان دفن عمر ، حُمل إلى المسجد ، ووضع بين قبر رسول الله ومنبره ليصلى عليه .
فأقبل عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب ، وكل منهما يريد أن يتقدم صاحبه لهذه الصلاة .

فلما رآهما عبد الرحمن بن عوف على هذه الحال قال : إن هذا لهو الحرص على الإمارة لقد علمتما ما هذا إليكما ، ولقد أمر به غيركما . تقدم ياصهيب فصلِّ عليه .

فتقدم صهيب ، فصلى عليه وكبر أربعا .

ثم حمل القوم جثمانه ، فوقفوا به على باب عائشة ...

وقال عبد الله بن عمر : يستأذن عمر بن الخطاب أن يُدفن مع صاحبيه ؟ .

وأجابت عائشة : ادخل بسلام .

ودخل القوم إلى حجرة رسول الله ، فأنزلوا الجثمان إلى مثواه الأخير .

وكان رأس أبي بكر قد جعل عند كتفي النبي ، فوضع رأس عمر عند كتفي أبي بكر .

وتولى عبد الله بن عمر تسوية الجثمان في مكانه .

وكان قد نزل معه أصحاب الشورى الخمسة : عثمان بن عفان ، وعلى بن أبي طالب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، والزبير بن العوام .

أما طلحة بن عبد الله فكان لا يزال غائبا عن المدينة ، فلم يحضر وفاة عمر ، ولم يحضر دفنه .

عن القاسم قال : دخلت على عائشة فقلت : يا أمَّه ، اكشفي لي عن قبر النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ، فكشفت لي عن ثلاثة قبور ، لا مُشرفة ، ولا لاطئة ، مبطوحة ببطحاء العَرْصة الحمراء .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدما ، وأبو بكر عند رأسه ، وعمر عند رجليه ، رأسه عند رجلي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قالوا : طعن عمر يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين ، ودفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة أربع وعشرين .

وكانت مدة خلافته عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام .

ذلك أنه ولي الخلافة ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة .

وكان عمره يوم توفي خمسا وستين سنة وثلاثة أشهر ونصفا .

مات عمر !

لما مات عمر ، وُضعت الموائد فكف الناس عن الطعام ، فقال العباس .

" يا أيها الناس ! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات ،فأكلنا بعده وشربنا،ومات أبو بكر فأكلنا ، فإنه لابد للناس من الأكل والشرب ، فمد يده فأكل فأكلت الناس .

ولما جاء نعيه كان الناس يقولون : كأن القيامة قد قامت .

وهذا يصور لك مدى الحزن والكآبة التي خيمت على الناس لموته

قال عبد الله بن عمر : ما كان شيء أحب إلي أن أعلم من أمر عمر فرأيت في المنام قصرا ، فقلت لمن هذا ؟ .

قالوا : لعمر بن الخطاب ، فخرج من القصر ، كأنه قد اغتسل .

قلت : كيف صنعت ؟

قال : خيراً ، كاد عرشي يهوى ، لولا أني لقيت ربا غفورا . منذ كم فارقتكم ؟.

قلت : منذ اثنتي عشر سنة !

قال : إنما انفلتُّ الآن من الحساب ! .

ثورة الدم ؟

تفرق الناس بعد أن فرغوا من دفن عمر ...وصاروا يتحدثون عن الجريمة ، ويعللون أسبابها .

أمن الحق أن أبا لؤلؤة قتل عمر من أجل كثرة ما عليه من خراج ؟ .

وهل هذا شيئا ذا بال يدفع المجرم إلى قتل أمير المؤمنين ؟ .

لقد كانت الفريضة اليومية التي عليه درهمين ، أي ثمانية قروش ، فهل هذا كثير ؟!

وحتى لو كان كثيرا ، هل مجرد ارتفاع الأجر يعتبر شيئا يدفع إلى الاغتيال ؟ .

وتحدث الناس ... لا بد أن هناك مؤامرة دبرها الأجانب من أبناء الأمم المهزومة بالمدينة .

لقد أذل العرب الفرس واليهود والنصارى ، وشتتوا شملهم ، وغنموا أموالهم ، وخربوا ديارهم ... فلماذا لا يدفع الحقد هؤلاء جميعا أن ينتقموا من العرب ، وأن يختاروا لثأرهم عمر بن الخطاب ، باعتباره أعظم رجل فيهم ، ومظهر سيادتهم ، ومحركهم الأول نحو القضاء على هاتين الإمبراطوريتين ؟

أليس عمر هو فاتح فارس ، وفاتح الشام ، وفاتح العراق ، وفاتح مصر ، ومعز الإسلام ، ومذل هؤلاء جميعا ؟ .

فليكن الانتقام منه هو نفسه ، لعل قتله يشتت شمل هؤلاء المسلمين ، الذين دفعهم إلى فتح العالم ، وقادهم إلى ذلك النصر العظيم .

وحدثتهم أنفسهم بذلك ... وائتمروا فيما بينهم ... وجعلوا يتحينون الفرصة ...

ودائما وأبدا يكون الرجل العظيم ، والحاكم العظيم مثار حقد الحاقدين ، وموضع انتقام المجرمين .

إلا أنهم لا يستطيعون مجابهته علانية بما يضمرون ، فتدفعهم حقارتهم إلى العمل فى الخفاء ... إلى الاغتيال .

ومن هنا نتعلم درسا ثمينا خطيرا ... ونأخذ مما حدث لعمر عبرة تدفعنا أن نقرر أنه لا بد للحاكم أن يتخذ الحرس ، وأن يصون نفسه بكل طريقة مستطاعة ، مسلحة ، أو غير مسلحة ...

ذلك أن الإجرام طبيعة فى النفوس الشريرة ، فمن الحتم على الحاكم أن يصون حياته من تدبير الأشرار .

ولو أن عمر كان يتخذ الحرس ، ما وقعت الجريمة ، ولما ذهب ذلك الرجل العظيم ضحية وغد أثيم لا يساوى شيئا !

وماذا يساوى غلام يصنع الطواحين إلى جانب رجل يصنع المقادير ، ويحول التاريخ كله نحو الحق والخير والسلام ؟ .

إن العالم لن يخسر شيئا إذا فقد آلافا مثل ذلك الكلب الأثيم ، ولكنه يخسر كثيرا جدا إذا فقد عمر بن الخطاب .

فلو أنه اتخذ حرسا ، وجعل من حوله رجالا يقومون بتلك المهمة ما استطاع القاتل أن يفعل فعلته .

ولست أدرى كيف غاب هذا عن عمر ، وهو ما هو من الفطنة ، والحذر ، والفقه ؟ !

ولكنه القدر ... وارادة الله أن يستشهد الرجل .

وذكر الناس قول عمر حين عرف أن الذى طعنه هو أبو لؤلؤة الفارسى ، « قد كنت نهيتكم عن أن تجلبوا علينا من علوجهم أحدا فعصيتمونى ! »

وذكروا أن بالمدينة من هؤلاء عددا ليس بالقليل ...

وأرادت الأقدار أن يقف على السر من سادة العرب من يدل عليه .

رأى عبد الرحمن بن عوف السكين التى قتل بها عمر فقال : رأيت هذه أمس مع الهرمزان وجُفينة ، فقلت : ما تصنعان بهذه السكين ؟ . فقالا : نقطع بها اللحم ، فإنا لا نمس اللحم ! .

وقال عبد الرحمن بن أبى بكر : قد مررت على أبى لؤلؤة قاتل عمر ، ومعه جُفينة والهرمزان وهم نجىّ ، فلما بغتّهم ثاروا ، فسقط من بينهم خنجر له رأسان ونصاب فى وسطه فانظروا ما الخنجر الذى قُتل به عمر ، فوجدوه الخنجر الذى نعت عبد الرحمن بن أبى بكر .

هذان شاهدا عدل ، بل هما من أعدل شهود المسلمين ، يشهدان بأن الهرمزان وجفينة كان معهما السكين الذى قتل به عمر .

ويشهد أحدهما أنه رأى أبا لؤلؤة القاتل يأتمر قبل القتل معهما ، ويقرر أن ذلك كله كان عشية طُعن عمر .

أفيستطيع أحد بعد ذلك أن يشك فى أن أمير المؤمنين ذهب ضحية مؤامرة كان هؤلاء الثلاثة أبطالها ، ولعل غيرهم من أبناء فارس أومن الأمم التى غلبها المسلمون كان معهم فيها ؟.

سمع عبيد الله بن عمر ، قول عبد الرحمن بن عوف وشهادة عبد الرحمن بن أبى بكر ، فأيقن أن كل أجنبى بالمدينة شريك فى المؤامرة ، وأن أيديهم تقطر من دم الجريمة .

وانطلق عبدالله كالوحش الثائر ... فتقلد سيفه ، ثم بدأ بالهرمزان وجفينة فقتلهما .

دعا الهرمزان ، فلما خرج اليه قال له : انطلق معى حتى ننظر إلى فرس لى . وتأخر عنه ، حتى إذا مضى بين يديه علاه بالسيف ، فلما وجد الفارسى حرّه قال : لا إله الا الله!... وخر صريعا .

وروى أن عبيد الله بن عمر قال : « ودعوت جفينة ، وكان نصرانيا من نصارى الحيرة ، وكان ظئرا لسعد بن أبى وقاص أقدمه المدينة للصلح الذى كان بينه وبينه ، وكان يُعَلِم بالمدينة ، فلما علوته بالسيف صَلّب بين عينيه » .

وهاج عبيد الله وماج ، وثارت فى عروقه دماء الانتقام لأبيه ، فانطلق فقتل ابنة لأبى لؤلؤة صغيرة تدّعى الإسلام !

وأراد ألا يترك سبياً بالمدينة إلا قتله ! وسمع الناس فى المدينة بما يصنع فأسرعوا إليه ، واجتمع المهاجرون الأولون عليه فنهوه وتوعدوه ، لكنه كان فى حال من الهياج حتى لقد قال : والله لأقتلنهم وغيرهم ! ، وعرّض ببعض المهاجرين .

وعرض له عمرو بن العاص، وجعل يحدّثه بالشدة تارة وباللين أخرى ، ولم يزل به حتى دفع إليه السيف .

وأقبل سعد بن أبى وقاص ، وقد عرف مقتل جُفَينة ، فأخذ بناصية عبيد الله ، وأخذ عبيدالله بناصيته ، واشتد بينهما الأمر لولا أن حجز بينهما الناس ..

ثم أقبل عثمان بن عفان ، ولما يكن قد بويع ، فأمسك بتلابيب عبيدالله وأمسك عبيدالله بتلابيبه ، وتناصيا ، وأظلمت الأرض من حولهما !.

ثم تدخل الناس فحجزوا بينهما وعثمان يقول : قاتلك الله ! قتلت رجلا يصلى ، وصبية صغيرة ، وآخر من ذمة رسول الله ؟ ! مافى الحق تركك ! .

ولكن عبيد الله لم يكن يرى أمامه غير الدم المراق ... فكان كهيئة السبع الهائج ، يعترض العجم بالسيف حتى حبس يومئذ فى السجن .

قال عبد الله بن عمر : يرحم الله حفصة ، فإنها ممن شجع عبيد الله على قتلهم ! .

وهكذا كان مصرع عمر خسارة كبيرة وفتنة عظيمة ...

أهل الشورى يجتمعون

اجتمع أهل الشورى بعد الفراغ من دفن عمر ... واجتمع معهم عبدالله بن عمر ، يشير عليهم وليس له من الأمر شيء .

وأمروا أباطلحة الأنصارى أن يحجبهم ، ولم يرضوا أن يجلس عمرو بن العاص ، والمغيرة ابن شعبة بالباب ، بل حصبهما سعد بن أبى وقاص وأقامهما وقال لهما : تريدان أن تقولا حضرنا وكنا فى أهل الشورى ؟!.

وبدأ القوم يتشاورون ، فاشتد بينهم الجدل ، وارتفعت منهم الأصوات ارتفاعا دل أباطلحة الأنصارى على شدة اختلافهم ، فدخل عليهم وقال لهم : « أنا كنت لأن تدافعوها أخوف منى لأن تنافسوها . والذى ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التى أمرتم ، ثم أجلس فى بيتى فأنظر ماتصنعون ! » .

وظل هذا الخلاف متصل الحدة يومين كاملين ، تداركه عبد الرحمن بن عوف بعدها باقتراح سكن من حدته ...

قال عبد الرحمن للمجتمعين : أيكم يخرج منها نفسه ، ويتقلدها ، على أن يوليها أفضلكم ؟

فنظر إليه القوم فى دهشة ...

فقال عبد الرحمن : فأنا انخلع منها .

قال عثمان : فأنا أول من رضى .
وقال سعد والزبير : رضينا .
أما على بن أبى طالب فبقى ساكتا .
فسأله عبد الرحمن : ماتقول ياأبا الحسن ؟

وأجابه علىّ : أعطنى موثقا ، لتؤثرن الحق ، ولا تتبع الهوى ، ولاتخصّ ذا رحم ، ولاتألو الأمة نصحا .

قال عبد الرحمن : أعطونى مواثيقكم على أن تكونوا معى على من بَدّلَ وغيَّر ، وأن ترضوا من اخترت لكم ، وعلىَّ ميثاق الله ألا أخصّ ذا رحم لرحمه ، ولا آلو المسلمين نُصحا .

وبذلك حسم عبد الرحمن الخلاف ، بتنازله عن ترشيح نفسه، ثم رأس الجلسة ، وتولى مهمة توجيهها لاختيار أحدهم للمنصب الكبير .

وبدأ يعمل لتضييق دائرة المرشحين ، وإذ كان يعلم أن عليا وعثمان هما المتنافسان اللذان يخشى اختلافهما فقد بدأ يسعى ليحصر الترشيح فيهما .

خلا بعلىّ وقال له : تقول إنك أحق من حضر بهذا الأمر لقرابتك وسابقتك وحسن أثرك ، فى الدين ولم تبعد . ولكن ، أرأيت لو صُرف هذا الأمر عنك فلم تحضره ، من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق به ؟ .
وأجابه علىّ : عثمان .

ثم إنه خلا بعثمان وقال له : تقول شيخ من بنى عبد مناف ، وصهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن عمه ، ولى سابقة وفضل ، فأين يُصْرفُ هذا الأمر عنى ؟ ! ولكن لولم تحضر ، أى هؤلاء الرهط تراه أحق به ؟ .
وأجابه عثمان : علىّ .

مبايعة عثمان ؟

الموقف الآن بلغ غايته .. وانحصرت الخلافة فى أحدهما ... إما علىّ وإما عثمان ، فكيف الاختيار ؟ .

إن عبد الرحمن بن عوف الآن هو رجل الساعة ... هو الذى سيختار أحدهما ، ليصبح بعد لحظة من اختياره أميرا للمؤمنين .

فكر عبدالرحمن فى جلال المهمة التى ألقتها المقادير على كاهله ...

فرأى أن يلجأ إلى الشعب يستشيره فى الأمر ، فهو صاحب السلطة العليا فى اختيار الرجل الذى سيحكم .

فجعل يلقى أصحاب رسول الله ، ومن وافى المدينة بعد الحج ، من أمراء الجنود ، ورءوس الناس يسألهم جميعا ، مثنى وفرادى ، مجتمعين ومتفرقين ، سرا وعلانية ، حتى يجتهد فى أفضل الرجلين فيوليه .

فلمس عبدالرحمن أن الكثرة الواضحة أشد ميلا لعثمان .

هذا هو رأى الشعب ... فهل يعلن إلى الناس رأيه ويحسم الموقف ؟ .

كلا ... فلربما اتهمه انصار علىّ فى اختياره ، إن الأمر يحتاج إلى حكمة وتمهل .

ولكن هاهو الوقت يمضى ... وها نحن فى آخر ليلة من الوقت الذى حدده عمر لاختيار الخليفة .. فلابد من التصرف سريعاً ...

ذهب عبد الرحمن إلى ابن أخته المسور بن مخرمة فايقظه ، وقد مضى أكثر الليل من تلك الليلة الأخيرة ... وطلب اليه أن يدعو له عليا وعثمان .

فلما أقبلا قال لهما : إنى قد سألت الناس فلم أجدهم يعدلون بكما أحدا .

ثم أخذ العهد على كل منهما : لئن ولّاه ليعدلنّ ، ولئن ولّى عليه ليسمعنّ وليطيعنّ .

وخرج بهما إلى المسجد فى الصبح ، بعد أن نودى فى الناس ، إن الصلاة جامعة .

وغص المسجد بالناس ... فصعد عبد الرحمن المنبر ، فدعا دعاء طويلا ثم قال : أيها

الناس ،إن الناس قد أحبّوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا مَنْ أميرُهم .

فقال سعيد بن زيد : إنا نراك لها أهلا .

قال عبد الرحمن : أشيروا علىّ بغير هذا .

وأشار عمّار بن ياسر والمقداد بن عمرو بعلىّ .

وأشار عبد الله بن أبى سرح ، وعبد الله بن أبى ربيعة بعثمان .

وأدى اختلاف الفريقين إلى تشاتم بين عمار وابن أبى سرح .

فصاح سعد بن أبى وقاص : يا عبد الرحمن ! افرغ قبل أن يُفتتن الناس .

قال عبد الرحمن : إنى قد نظرت وشاورت ، فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا .

ثم إنه دعا علياً فأخذ بيده وقال له : هل أنت مبايعى لتَعْمَلَنّ بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده ؟ .

قال علىّ : أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمى وطاقتى .

فأرسل يده ...

ودعا عثمان وأخذ بيده وقال له : هل أنت مبايعى لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده ؟ .

قال عثمان : اللهم نعم .

فرفع عبد الرحمن رأسه إلى سقف المسجد ، ويده فى يد عثمان وقال : اللهم اسمع واشهد . اللهم اسمع واشهد . اللهم اسمع واشهد ! .

ثم قال : اللهم إنى قد خلعت ما فى رقبتى من ذلك ، وجعلته فى رقبة عثمان ! .

وبايعه ... فازدحم من بالمسجد يبايعون عثمان .

وكان على بن أبى طالب أول من بايع ! !

تم

شكر !؟

خبتُ ... وخسرت ...

ثم خبت ... وخسرت ...

إن لم أشكر ... ربى ... تبارك وتعالى ...

على ما آتانى ... وأعطانى ... فى هذا الكتاب ...

اللهم إنى أشكرك ... عدد خلقك ... ورضا نفسك ... وزنة عرشك ... ومداد كلماتك ...

ذلك أن النعمة منه ... وحده ... والفضل فضله ... والعطاء عطاؤه ..

وأشكر ... رسول الله ... صلى الله تعالى عليه وسلم ...

بما أرسل فى الوجود أنواره ... فأرسلت إشعاعاتها ... فأرسلت شعاعاتها ... فكان « عمر » ... شعاعة من تلك الشعاعات ...

وأشكر ... عمر ... أن تلألأ ... فأعطانا الفرصة ... أن نقتبس من نوره ... فكانت « حياة عمر » ...

وأشكر العلماء ... العظماء .. من الأقدمين ... الذين تركوا فينا مراجعهم العُلى ... ننهل منها ... ونبث فى الناس من كنوزها ...

وأشكر العلماء المجاهدين ... من المحدثين ... الذين مهدوا الطريق لمن بعدهم ... فأفادوا من جهادهم المشكور ... وأبحاثهم الجليلة ... التى وضعوها عن « عمر » ...

وأشكر كل من شارك فى مجهود إخراج ذلك الكتاب ...

وأشكر ... كل قارىء قرأ ... فاستنار ... فأنار ... لغيره ...

ذلك أن شكر النعمة ... نعمة معرفة « حياة عمر » إنما يكون بالانتظام على مفاهيم عمر ... الظاهرة ... والباطنة ...

ثم دعوة الناس ... إلى تفهمها ... وإلى العمل بها ...

وأنبه فى هذا المقام إلى أنه وقع خطأ ... سهوا ... لا عمدا ...

صفحة ٢٠   « مَنُ »   وصحتها   « مَنْ »

صفحة ٣٦١   « نَطِفا »   وصحتها   « نطِعاً »

صفحة ٣٦١   « الدَّرَّ »   وصحتها   « الدُّرّ »

لتتم بذلك الأمانة العلمية ...

ربنا ... تقبل منا ... إنك سميع الدعاء !

محمود شلبى

فهرست

ماذا قالوا عنه ؟

ماذا قبل إسلامه؟

صاحب رسول الله...

وزير أبى بكر

أمير المؤمنين

فتح دمشق!

معركة القادسية العظمى؟!

فتح عاصمة كسرى !

سياسة عمر العالمية ؟

سقوط بيت المقدس؟

محاكمة خالد!!

المجاعة ؟!

الطاعون؟!

عمر يفتش على الدولة؟

معركة نهاوند؟

تصفية الإمبراطورية الفارسية !

فتح مصر؟!

كيف حكم الاسلام مصر؟

اغتيال عمر!!



للمؤلف

حياة رسول الله

حياة آدم

حياة ابراهيم

حياة يوسف

قريبا

حياة داود